حوارٌ مع رجلِ الكهف

في

ما المثقف؟

المحاورة الأولى

الإصدار الثاني

تأليف

دافيد رجل الكهف



رقم 01 حي ابن سينا بئر خادم - الجزائر

(213) 0561391469 / (213) 0780002496

info@dromelin.com

للحصول على نسخة من الكتاب من جميع أنحاء العالم
زوروا : **www.dromelin.com**

ردمك : 978-9931-9497-0-1

الإهداء

إلى **داني** الذي من أجله تمت هذه المحاورة، والذي أقلُ ما يمكنني تقديمه له هو هذا الكتاب، متمنياً له الحرية.

إلى كل **الشباب** الناطق بالعربية من أبناء جيل داني، عسى ينير هذا الكتابُ أدمغتهم بما يُمكّنُهم من تحرير أنفسهم وبناءِ مجتمعاتٍ أفضل لأبنائهم وأحفادهم.

إلى **لوسيل** التي لا أعرف كيف كان ليكون بإمكاني تحمّلُ آلامِ هذه الحياة دون صوتها.

رجل الكهف

جدولُ المحتويات

مقدمة الإصدار الثاني

[5-] لم تكن جميع النقود والمراجعات الإيجابية التي حظي بها الإصدار الأول من هذا الكتاب، لا ولا السمعة الحسنة التي اشتهر بها سريعاً، لتغير من قناعتي بأن النص لا يزال قابلاً لأن يصبح أفضل؛ فدماغي لا بد واقعٌ في شِراك التأثيراتِ التي أسهبتُ في شرحها في الباب الثالث. وهذا ما أثبته لنفسي، بكلِّ سرورٍ، أثناء المراجعات اللاحقة التي قمتُ بها للمحاورة في الوقت الذي شعرتُ فيه أن دماغي لم يعد معتاداً على النصِ بشكلٍ كبيرٍ كما كان في السابق. هذه المراجعاتُ تركزت بشكل رئيسي- على التدقيق اللغوي والفلسفي والأدبي، ولم أجد فيها أي ضرورة لتغيير أي فكرة من الأفكار المطروحة في هذا العمل.

[4-] وإذ كنت قد وضعت لنفسي هدفاً واضحاً أوحداً في الإصدار الأول وهو أن يكون النص أكثر تبسيطاً وسلاسةً واختصاراً، وهذا على حساب أي شيءٍ آخر، نظراً لطبيعة الشريحة المستهدفة، فإني وجدت نفسي -وأنا في غمرة الانهماك في إعادة بناء نصٍ بالغ الدقة أثناء المراجعات اللاحقة- أبتعدُ دون أن أشعر عن ذلك الهدف الأساسي. عندها، تنبهتُ إلى المعضلة المعروفة -والتي كان اندفاعي المفرط نحو الدقة قد أنسانيها- ألا وهي أنه يستحيلُ كتابة نصٍ فائق الدقةِ نحوياً وفلسفياً وأدبياً، وأن يكون، في الوقت عينه، سَلِسَ القراءة في نظر القُراءِ المستجدين. لا يوجد كتابٌ على الإطلاق يمكنه أن يجمع بين هذين النقيضين حاصلاً على درجة مئة بالمئة في كليهما؛ فلا مناص من أن يكون الرفعُ من أحدهما يحصلُ بالضرورة على حساب الخفضِ من الآخر في أحيان كثيرة. لذا، فإني قد حاولتُ أن أقوم بموازنةٍ بين هذين الأمرين متوخياً الدقة على حساب السلاسة أحياناً -وهذا ما أجده مفيداً من ناحيةٍ تعليميةٍ للقُراء المستجدين- وفاعلاً العكسَ في أحيان أخرى. أما إلى أي مدى قد وفقتُ في تحقيق موازنةٍ جيدة، فهذا ما أترك الحكم عليه لغيري -بمن فيهم أنا في المستقبل-.

[3-] ينبغي عليَّ الإشارة إلى أني قد تنازلتُ قليلاً عن تلك الدقة الشديدة التي كنتُ قد عمدتُ إليها في إدراج الاقتباسات، والتي أجدها الآن دقة زائدة عن اللزوم في بعض المواضع، حيث إني قد سمحتُ لنفسي بتصويب الأخطاءِ اللغوية فيها وجعلها أكثر اندماجاً مع النص فحسب، إذا كان تصويبي هذا لا يغير شيئاً من معانيها، بينما أحجمتُ -بكل تأكيد- عن القيام بذلك إذا كان التصويبُ من شأنه أن يُحدث تغييراً كبيراً في نصوصها أو أي تغييرٍ طفيفٍ في معانيها.

[2-] إني أعتقدُ أن القارئ المتحمسَ لقراءةِ المحاورةِ لن يجد متعةً في قراءةِ الكثير من الصفحاتِ التمهيدية. وبما أنه، على أي حال، مقبلٌ على العديد من هذه الصفحات، التي لم يكن بالإمكان عدم إدراجها، فإن الذي بإمكاني فعله هنا، للتخفيف عنه، هو الإحجامُ عن مناقشة ما قمت به من تعديلاتٍ في الإصدار الثاني مكتفياً بدعوة القارئ الفضولي، الذي يرغب في معرفة ما قمتُ به، إلى القيام بنفسه بالمقارنة بين هذا الإصدار وسابقه. وإني على ثقةٍ أنه سيجد في مقارنته هذه ما يشبع فضوله مهما كانت درجة هذا الفضول. بل إني لأجرؤ، بكلِّ سهولةٍ، على القولِ بأن هذا القارئ الفضولي سيكسبُ الكثير من قيامه

بهذه المقارنة. وهذا الكسبُ يتناسبُ طرداً مع درجة فضوله من جهة، ومع درجة تركيزه أثناء عمله على اشباعه من الجهة الأخرى. وبالرغم من أن هذه فرصةٌ قد يرغبُ بعض الهواة باقتناصها، إلا أني لا أشجع أحداً على القيام بها.

[1-] إذا كنتُ أعرف أني قد وقعتُ في أخطاء في الإصدار الأول، فإني أتوقع أني قد وقعت في أخطاء أكثر في الإصدار الثاني -والتي من شأنها ألا تجعله مثالياً- وهذا راجعٌ لسببين: أولهما، هو أن السبب عينه الذي جعل من الأخطاء موجودة في الإصدار الأول لايزال فاعلاً -وأنا لازلتُ أشعرُ به وألحظُ تأثيراته بوضوح حتى هذه اللحظة-. وثانيهما، هو أن احتمالية الوقوع في الأخطاء تتناسبُ طرداً مع كمية العمل الذي يقوم به أي كائن حي. ومع أنه قد قيل: "لقد تمت الملاحظة الدقيقة أن ذلك الذي لا يبذل أي جهد لا يخاطر بأي فشل، وأنه في المحاولات العظيمة إنه من الجليل أن تفشل."* وعلى الرغم من أنه قد تمت إعادة صياغة هذه العبارة وتكرارها مراراً من قِبل الكثير من الأعلام، إلا أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الملاحظة غير دقيقة بما يكفي؛ فإن عدم بذل أي جهد هو عملٌ كاملٌ متكاملٌ بحد ذاته؛ ولذا، فإنه كثيراً ما يكون مُسبباً للفشل، أو يكون عملاً خاطئاً تماما.

[0] بناءً على كل ما سبق، فإني اليوم أعي، أكثر من أي وقتٍ مضى-، وأكثر من أي إنسانٍ آخر، مكامنَ النقائصِ والعيوب المحتملة في النص، إلا أنني، في الوقت عينه، أدفعُ به إلى المطبعة وأنا على ثقةٍ، أكثر من أي وقتٍ مضى، بأنه نصٌ يستحق أن يُطبع وأن تتم قراءته بتمعن.

رجل الكهف

22 July 2018 - 08:37 pm
Rimforsa, Sverige

* The New Sporting Magazine, Volume 2. Baldwin and Cradock. London, 1832. p. 402.

توطئةٌ للمحاورة

[1] على الرغم من أن القارئ سيشعر بأن المحاورة تتم في صيف مشمس، وهو على صواب في اعتقاده هذا. وعلى الرغم من أن المحاورة قد تمت كتابتها الفعلية بالكامل في صيفٍ ماطر، إلا أن مسودتها تعود إلى شتاءٍ بارد. شتاء أبرد مما خبره معظمُ سكانِ العالم؛ شتاء القطب الشمالي. حيثُ تمحى الفروق بين الليل والنهار، وتمتنع الشمسُ عن الشروق سامحة للشفق القطبي بتزيين السماء. حيثُ تنحدرُ درجاتُ الحرارة لتوازي أشدَ حرارةٍ يختبرها سكانُ العالم في الصيف، لكن مع إضافةِ إشارةِ سالبٍ لقيمتها.

[2] "هل أنت مزعوجٌ من شيءٍ ما؟" بهذه الكلماتِ أيقظني مضيفي من شرودي الذهني وأنا في جلسةٍ مع نفرٍ ممن يُسَمَّونَ "مثقفين".

"كلا، مُطلقا" هكذا أجبته كاذبا. فهو قد أكرم ضيافتي على خير ما يضيفُ به مضيفٌ ضيفه. ما أزعجني ليس كرم ضيافته، لا ولا أولئك الغرباءُ ذوو الوجوه البشوشةِ والأدمغةِ المفكرة. لكن ما أزعجني هو ذلك الهراءُ الثقافي الذي يتفوهُ به الجميع، الذي إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُ على قصورٍ في النظرِ وضحالةٍ معرفيةٍ مريعةٍ كان من شأنها توليدُ نقاشٍ حادٍ غوغائي لا يختلفُ مُطلقاً عن نقاشاتٍ من يستنونهم هم أنفسهم "العامة" وإن بدا مُختلفاً بنظرةٍ فينومينولوجيةٍ سطحية.

[2.1] "لماذا توقفت عن مشاركتنا النقاش إذن؟ أنت صامتٌ منذ مدة!" سألني مضيفي الجالسُ على يساري.

"إني أستمع" هكذا أجبته كاذباً أيضا. فمع أني موجودٌ هناك بكاملِ جسدي، إلا أن دماغي كان قد فصلني تماماً عن واقعي وقام بقوقعتي داخلهُ في حالةٍ من العصفِ الفكري.

[2.2] "إني أستمع!" في الحقيقة، إني أستمعُ طوالَ حياتي. منذُ تلك اللحظةِ التي قالت لي فيها جدتي: "استمع إليّ يا بُني، إن الله قد أعطى كلاً منا أذنين إثنتين وفماً واحداً كي نستمعَ ضعف ما نتكلم". بدا لي على الفور كلامها مقنعاً جداً، فامتثلتُ له منذُ تلك اللحظة. ولِمَ لا أمتثلُ لما أجده مقنعا؟ لكني، بعد مدةٍ ليست بالطويلة، تنبهتُ إلى أن "الله" قد أعطى كلاً منا عينين نستقبلُ بهما المعلومات أيضاً سواء بالمشاهدةِ أو بالقراءة. لذا، فقد قمتُ بتعديلِ نصيحةِ جدتي، التي كانت قد توفيت في تلك الفترة فلم أتمكن من أخذ رأيها في هذا التعديل، وأصبحتُ أتكلمُ مقدارَ رُبعِ مَجموعِ ما أسمعُ وأرى. باختصار، كنتُ -وما زلتُ- شخصاً قليلَ الكلامِ جداً، شديدَ الملاحظةِ والفضولِ إلى أبعدِ الحدود.

[3] ودّعني مضيفي في محطةِ القطارِ، الذي لم يأتِ لسوءِ الأحوالِ الجوية، وبدأتُ رحلةً نحو القطب الشمالي تستغرقُ ثلاثين ساعةً أو نحوها متجهاً إلى مكان إقامتي في ذلك الوقتِ في قريةٍ حدوديةٍ بين السويد وفنلندا. ثلاثون ساعةً قضيتها وأنا أفكر في أننا نعيشُ في زمنٍ تساوت فيه أفكارُ المثقفين وغير المثقفين -وأعتذرُ لأنطونيو غرامشي على قولي "غير المثقفين" لضرورة الاختصار هنا- وسألتُ نفسي: إلى متى سوف نبقى نعيشُ في هذه الفوضى الثقافية؟ متى سيتعلمُ الناسُ منهجية المعرفة؟ لماذا لم تُعلّم

كل الجداتِ أحفادهن ما علمتني إياه جدتي؟ هل كانت هي على صوابٍ على أي حال؟ متى سيتوقف الناس عن التمسكِ بأفكارهم تمسكهم بممتلكاتهم وأموالهم وأقرانهم؟ تُرى، هل يعرف هؤلاء كيف قد تم بناءُ هذه الأفكار -التي يتشاجرون من أجلها- في أدمغتهم؟

[3.1] إذا كان من يَعتبرون أنفسهم، ومن يَعتبرهم الناس، النخبة المثقفة في المجتمع هم على هذه الشاكلةِ من محدوديةِ وضبابية التفكير، فهذه كارثةٌ حقيقية. إذا كانت النخبةُ المثقفةُ عالقة ببضعةِ مفاهيم عفى عليها الزمن، وبضعةِ كتبٍ صفراء، فما الذي سأرجوه من العامة؟ إذا كان من يَعتبرون أنفسهم النخبة المثقفة لا يستطيعون أن ينظروا لموضوع ما نظرةً شمولية، بل هم قاصرون في نظراتهم على زوايا محددة، عالقون فيها غير راغبين في إبصارِ ما هو خارجها، فمن الطبيعي أن تكون العامةُ أشد قصوراً ومحدوديةً في فِكرها. إذا كان من يُعتبرون مثقفي المجتمع غير قادرين على نقاشِ موضوعٍ واحدٍ بمنهجيةٍ فكريةٍ صحيحةٍ متقصين وراء كلِ علائقه، دون القفزِ بين مواضيعَ غير مترابطة، فمن الطبيعي ألا تستطيعَ الحديثَ مع العامةِ في أي موضوعٍ بطريقةٍ منظمة. هل من وسيلةٍ لعلاجِ هذه الغوغائية؟ هل من طريقةٍ تجعلُ الإنسانَ يقر بمحدودية فكره وبجهله، ومن ثم يبحث في تطويرِ أفكاره؟ متى سنفرق بين كاريزما مقدمِ الفكرة وجودةِ الفكرةِ نفسها؟

[4] وبينما أنا أطرحُ أسئلةً من هذا القبيلِ وأحاولُ الإجابة عليها دون أدنى اكتراثٍ لرحلتي التي أقومُ بها، وكأن دماغي منفصلٌ عن جسدي تماماً يؤدي مهمةً في عالمهِ الخاص، تذكرتُ مثلاً كيف أن مضيفي المذكور نفسه كان قد زارني في منزلي قبلَ سنواتٍ عديدةٍ ووقف مشدوهاً أمامَ مكتبتي، التي أصبحت رماداً في وقتٍ لاحق، وقال لي: "قريباً، أنت ستصبح من النخبةِ المثقفةِ بسبب هذه الكتب". وبما أني أعرفه جيداً فإني قد فهمتُ مقصده: "قريباً، ستنضمُ إلى المجموعةِ التي أنتمي أنا إليها". هذه هي مشكلةُ الكثيرِ من "المثقفين"؛ إنهم يعتقدون أنفسهم بشراً متفوقين، أو أنصاف آلهةٍ أحيانا. أما عن كيفية اكتسابهم لهذه الصفة، فإن هذا ما لا يعلمهُ أحد.

[4.1] على أي حال، بالنسبة لي، لم أعر كلامه ذاك أي أهمية؛ فأنا لا أقرأ وأتعلم وأبحث لأنالَ أي صفة. لم أفكر يوماً في أنني أنتمي للمثقفين أو لغيرهم. أنا كنتُ، وما زلتُ، أكرهُ الانتماء. أنا رجلُ الكهف، أنتمي لكهفي فحسب، والذي كان بوابة لي للشعور اليقيني بالاتحاد الكامل ليس مع الكون الذي نعرفه فقط، بل مع أي أكوان أخرى من الممكن أن تكون موجودة أيضا. دائماً ما شعرتُ أن أي انتماءٍ آخر هو ليس مجرد محو للذات، بل وسخيف. سواء كان هذا الانتماءُ عائلياً أو مناطقياً أو قومياً أو اثنياً أو أيديولوجياً أو سياسياً أو أي نوعٍ من الانتماءاتِ التي يتفاخرُ البشر بها. فإن كان هذا موقفي من الانتماء لجماعاتٍ واضحةِ التحديد، فمن باب أولى أن أنفر من الانتماء للجماعاتِ الغير واضحةِ المعالم. لطالما كرهت المجموعات وقيودها، وإني أفضلُ الموت ألف مرة على أن أكون منتمياً لما من شأنه أن يقيد حريتي دون مبررٍ منطقي. لكني إذ تذكرتُ كلامه ذاك، كنتُ أفكر به رابطاً إياه بما قالته لي إحدى الصديقات قبل بضعة أشهرٍ من ذلك الوقت.

[5] كانت تلك رسامة وناشطة حقوقية استضافتني في منزلها في إسطنبول، وأخذتني في جولاتٍ على المكتباتِ الساحرة هناك، وجعلتني أنتشي بعبقِ رائحةِ الورقِ القديمِ في متاجرِ بيع الكتب المستعملة، كما إننا خضنا نقاشات ثقافية مُلهمة كان من شأنها أن تتوج بمحاولتها إعطائي كتاب إيدوارد سعيد "تمثيلات المثقف" لتقولَ لي: "أنت تسيرُ في الطريقِ الصحيح". لكنني لم أقبل هديتها لأنه كان لدي مُسبقاً أربعُ نسخ مختلفةٍ من هذا الكتاب.

[5.1] وفي خضم تلك الأفكار، بدأتُ أفكر أنه ربما قد حان الوقت جدياً كي أكسر قاعدة جدتي. هذا لأني، على أي حال، كنت فعلاً قد وصلت درجة الغليان والقابلية للانفجار منذ بداية ذلك العام، بيدَ أني كنت غير مستعدٍ للخروج من كهفي لأسبابٍ عديدة. كما إني كنت قد توقفت منذ فترة عن كتابةِ المقالاتِ، بل وحتى الولوج إلى مواقع التواصل الاجتماعي. لكن دافعاً قوياً ممزوجاً بثقلِ المسؤوليةِ الأخلاقيةِ قد بدأ بالظهور في النصف الأول من العام 2015 لتتوالى الأحداث في العام نفسه، كالمثالين المذكورين، إضافة إلى حوادث أخرى، لا مجالَ لذكرها في هذه العُجالة، مؤدية إلى بروز قناةٍ على YouTube تحملُ اسمَ "أحاديث رجل الكهف" في آخره.

[6] وعندما وجدت أن الأفكار الغريبة التي نشرتها قد حظيت على الثناء من قبلِ الجمهور. وحيث إني أستقبلُ بوتيرةٍ شبه ثابتةٍ رسائلَ من أشخاصٍ يقولون لي أني قد غيرتُ حيواتهم نحو الأفضل، كان هذا بمثابة تقييم لنجاح أفكاري في مساعدةِ الناسِ على تحرير أدمغتهم وبناء عقليةٍ مثقفةٍ نقديةٍ حرةٍ وموسوعية، كما ونجاحها في فتح عيونهم ومساعدتهم على "الولادةِ من جديد" كما يُعبرُ البعض منهم. وبالتالي، كان هذا بمثابةِ مراجعةٍ وتقييم لأفكار هذا الكتاب، من قِبَلِ آلاف الأشخاصِ، حتى قبلَ كتابته ونشره.

[7] لا توجدُ طريقةٌ لمعالجةِ مريضٍ ما إلا بإقناعه بداية أنه مريض وأن عليه التزامَ العلاج. وهذه هي الخطوةُ الأصعبُ نفسياً على المريض في رحلة مرضه كلها. سيكرهُ المريضُ هذه اللحظة وقد يكرهُ من أخبره بمرضه. لكن لا مناصَ من أن يتبرع أحدٌ ما لإخباره متحملاً تبعات إقلاق المريض بجسارة. وأعتقدُ أن هذا ما فعلته أنا في هذا الكتاب. لذا، فإنك قد تشعرُ بنوع من عدم الراحة، الاستخفاف، الضعف، السذاجة، الازدراء، ونحوها من المشاعر الغير مواتية. إذا حصلَ هذا، فهو مؤشرٌ على أن الكتابَ يحقق المطلوبَ منه، وهذا شيءٌ إيجابي، بل وضروري. إلا أني لن أتركك مدة طويلة تعاني من هذه المشاعر، حيث إني سأساعدك على التخلص منها في أسرع وقتٍ ممكن بما من شأنه أن ينقلك إلى حالةٍ مختلفةٍ تماماً من الوعي. ومع أني أربأ أن أشبه نفسي بالطبيب، بيدَ أن الأمرَ أشبهُ ما يكون بهذا. سأكون كالطبيب الذي يخبركَ بمرضك، ويشرح لك أسبابه، ويصف لكَ طريقة العلاج التي عليك إتباعها.

[7.1] لذا، فإن خطة البحثِ تبدأ بتوصيفٍ للحالة العامة للثقافاتِ البشرية ولِمَ هي كما هي عليه، ثم تتوجهُ للحديثِ عن طريقةِ عملِ الدماغ البشري وكيفيةِ توليدِ الأفكار وكيف يتمُ التحكمُ في بناء هذه

الأفكارِ لدى الناس، وبعد هذا انتقلتُ إلى توضيح معنى الثقافة وأنواع المعارفِ الإنسانية واضعاً للقارئ منهجيةً لتحصيلِ معارفَ موسوعية بجهدٍ شخصي-، ثم أتيتُ على تعليم القارئ كيفية تحرير دماغه والتفكير بصورةٍ عقلانيةٍ موضوعية. لاحقاً، وضعتُ بعض الجهدِ في محاولةِ الإجابةِ على السؤالِ الكلاسيكي: من هو المثقف؟ مضيفاً نصائحَ عملية تساعدُ الفردَ على أن يصبح مثقفاً حراً وموسوعيا.

[8] وإني، كما عُرف عني، أحاولُ دائماً تبسيطَ الأفكار الأكثر تعقيداً بأسلوب سهلٍ يساعدُ المستقبلَ على الفهم مهما كان مستواه التعليمي والثقافي منخفضا. فهؤلاء هم من أتوجهُ إليهم بأعمالي لأنهم الشريحةُ الأكبرُ في المجتمع والتي تحتاج مساعدةً حقيقية -مع ضرورة وجودِ حدٍ ثقافي وتعليمي أدنى بطبيعة الحال-. والتزاماً مني بهذا الهدف، فإني قد عمدتُ إلى كتابة هذا الكتاب على شكل محاورة وأضفتُ إليها ما أمكنني من مؤثراتٍ تساعدُ القارئ على الاندماج في القراءة والاستمتاع فيها كي لا يجدَ نفسهُ متصدياً لكتابٍ ثقافي جاف.

[9] هل أنا على صوابٍ فيما أقدمُ من أفكار؟ في الواقع، لا أعرف على وجه اليقين. لأني لا أعرف -ولا أعتقدُ أن أحداً ما يعرف- ما هو الصوابُ يقينا. بيدَ أن هذا العمل هو حصيلةُ سنواتٍ من البحث سواء الذي قمت فيه بنفسي أو الذي قام به عددٌ كبيرٌ من الناس الذين أوردت أقوالهم المؤيدة للأفكار التي أطرحها. وبما أن الجمهورَ الذي أستهدفهُ في هذا الكتاب هو جيل الشباب، ذكوراً وإناثاً، فإن اطلاعهم على أفكار أهم العقول التي عاشت يوماً، والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم في الحياة، كما والاستفادة من أحدثِ الاكتشافاتِ العلميةِ ذاتِ الصلة، لا شكَ أنه سيختصرُ عليهم الكثيرَ من التجربة والخطأ؛ سيختصرُ سنوات قد يقومون فيها باتباع منهجياتٍ فكريةٍ أراها خاطئة.

[9.1] وإذ ذاك قد قيل، فإن الأمانة الفكرية تحتمُ عليّ أن أشيرَ للقارئ بأنني أثناء كتابة هذه السطور أنا مقتنعٌ جداً بصحةِ ما فيها بناء على كلِ الأبحاثِ والأدلةِ ذاتِ الصلة. وإني لن أخدع نفسي-، قبل أن أخدع القارئ، بأن أتبنى أفكاراً هزيلة أو مغلوطة أو غير مؤيدة بأدلة. لذا، فإن القارئ سيشعرُ أحياناً أني أتكلم بثقةٍ في مواضع كثيرة من المحاورة، قد يعتبرها البعضُ ثقةً زائدةً عن اللزوم، لكن هذه تكون هي الأفكار التي أنا متأكدٌ منها أكثر من غيرها لتراكم أدلةٍ كافيةٍ عليها وتجاربٍ أدت إلى الخلوص إلى هذه الفكرة أو تلك. لكن، بطبيعة الحال، لا توجدُ فكرةٌ واحدةٌ يقينيةٌ يقيناً لا شكَ بعدهُ فيها. المستقبلُ وحدهُ هو ما سيحكمُ على جودةِ الأفكار الواردةِ في هذه المحاورة. أما الآن، فهي أفضلُ ما يمكنني قوله باختصارٍ في هذا السياق.

[9.2] التبسيطُ والاختصارُ ومتعةُ القراءةِ وشمولُ الأفكارِ وتنوعها كان لها نصيبٌ كبيرٌ من الاهتمام أثناء بناء هذا العمل. وبما أني مقتنعٌ أن الكتابَ الذي يجبُ أن يقرأهُ الإنسانُ ليسَ الكتاب الذي يفكر نيابة عنه، بل الكتاب الذي يجعله يفكر؛ فقد بنيتُ هذا الكتاب ليكون من النوع الثاني. أما إلى أي مدى قد وفقت في كل ما سبق، فإن الحكمَ يعودُ للقارئ وليس لي.

رجل الكهف

تنويهاتٌ قبلَ القراءة

[10] يمكن قراءةُ هذه المحاورة من أجلِ التسلية؛ فهي غنيةٌ بالطرافةِ الظاهريةِ والمبطنة، كما إنها تحتوي العديدَ من القصصِ والأفكارِ المثيرة. لذا، فإن قراءتها قبلَ النومِ ستضمنُ للقارئ أحلاماً غيرَ معتادة. لكني لم أكتب هذه المحاورة لغرضِ التسلية. ولو أني أردتُ لها أن تكون مُسليةً فحسب، لكنتُ نهجتُ فيها نهجاً مختلفاً تماماً، أقلَّ تكلفةً وأكثرَ إمتاعاً.

[11] يمكن قراءةُ هذه المحاورة من أجلِ المعلومات؛ فلا تخلو فيها فقرةٌ من معلوماتٍ معظمها غيرُ مألوف. وتتنوعُ المعلوماتُ فيها من الفلسفةِ إلى الغناء، ومن علمِ الأعصابِ إلى الشعر، ومن الفيزياءِ الكموميةِ إلى الروايات، ومن البيولوجيا إلى أدبِ السجون، ومن المنطقِ إلى السيرِ الذاتية، ومن علم النفسِ إلى الأمثال الشعبية، ومن علم الفضاء إلى الأساطير. بالإضافة إلى أنها مزودةٌ بأكثر من مئةِ مرجعٍ في مختلفِ المجالات، وبعدةِ لغات، وبأنماطٍ متنوعة. لذا، فلا شك أنه يمكن اعتبارها مصدراً للمعلومات. لكني لم أكتب هذه المحاورة لتكون مصدرَ معلوماتٍ للقارئ فحسب. ولو أني أردتُ لها هذا، لنهجتُ نهجاً مختلفاً في تنسيقها وفي طريقة تقديم المعلوماتِ وإتمام شرحها، مما كان ليكون بإمكانه مضاعفةُ حجمِ المحاورةِ على أقلِ تقدير.

[12] يمكن قراءةُ هذه المحاورة من أجلِ الفهم؛ ولقد تم بناؤها بالضبطِ من أجل هذا الغرض. فأنا مقتنعٌ تماماً، كما آملُ أن يقتنعَ معي القارئ من خلالِ صفحاتِ هذا الكتاب، بصحةِ ما قالتهُ آن إيزابيلا تاكيراي في رواية "السيدة دايموند": "... إذا أعطيتَ شخصاً سمكةً، فهو سيجوعُ مجدداً في غضونِ ساعة. إذا علمتهُ كيف يلتقطُ سمكةً، فأنت تصنعُ لهُ نقطةَ تحولٍ جيدة في حياته..." ولذا، فأنا لا أهدفُ إلى إطعامِ القارئ السمك، بل أهدفُ إلى أن أقنعهُ بوجودِ بحرٍ مليءٍ بالسمك، ثم أن أعطيهُ خريطةً للطريقِ المؤدي إليه، وأن أعلمهُ كيف يصطادُ سمكاً بنفسه.

[12.1] أعني بالفهم إدراكَ أمورٍ كان القارئ جاهلاً بها قبلَ بدءِ القراءة، وهذا يعني، بالضرورة، أن على القارئ أن يكون يقظاً أثناء القراءة. فإنه على الرغمِ من السهولةِ الظاهريةِ التي تتسمُ بها المحاورة، إلا أن كل فقرةٍ فيها تتضمنُ ما يجبُ أن يهزَّ القارئ من الداخلِ إذا وعاها كما ينبغي. هذا ولا يوجدُ أي لغوٍ في المحاورةِ كلها؛ فحتى الفقراتُ أو المداخلاتُ التي قد تُعتبرُ لغواً ظاهرياً لهي تحتوي رسائلَ مبطنةً على القارئ النبيه الانتباهُ إليها، مع وجودِ استثناءاتٍ وضعت لضرورة التنسيقِ فقط.

[13] لذا، إن وجدتَ هذا الكتابَ سهلاً ولم يحرك أشياءَ في أعماقك فهذا يعني أحدَ حالاتٍ ثلاث: إما أنك تعامله باستخفاف. وبالتالي، عليكَ إعادةُ النظرِ في طريقةِ تعاملك معه. أو إنكَ غيرُ أهلٍ لتدركَ كلَّ ما فيه. وفي الحالةِ هذه، عليكَ متابعةُ القراءةِ وعدمُ التوقفِ لأن الكتابَ مبنيٌ بطريقةٍ تكامليةٍ بحيثُ إنك ستدركُ الأفكارَ المحوريةَ مع التقدم بالقراءةِ بشكلٍ تلقائي. أما الحالةُ الثالثة، فهي أن القارئ هو مسبقاً بمستوى أعلى من مستوى الكتاب؛ أي، إنه يعرفُ مسبقاً معظمَ ما فيه من أفكار. وهذا

النوعُ من القراء يمكنهُ الاستفادةُ من الأفكارِ التي لا يعرفها، كما ويمكنهُ الاستفادةُ من المراجع كي يزدادَ علماً بالأمورِ التي يجهلها.

[14] بما أن الكتابَ هادفٌ لمساعدةِ القارئ على تحرير دماغه، فهذا يعني أن الكتابَ مزعج. إن الغرضَ الحقيقي لهذا الكتاب هو أن يزعجَ القارئ. لذا، فإني ألفتُ انتباه القارئ إلى هذه الحقيقةِ منذُ الآن: أنت مقبلٌ على قراءة أمورٍ تخالفُ تماماً -على الأغلب- ما اعتدت سماعهُ أو قراءته. فإن لم تكن تملكُ الجرأةَ الكافية لتطلعَ على هذه الأمور، فإني أهيبُ بك أن تعيدَ الكتاب إلى المكتبةِ كي يستفيدَ منهُ غيرك. أما إن كانت لديكَ عزيمةٌ وإرادةٌ لتحريرِ نفسك، فإني أطلبُ منك ألا تحاكم أياً من أفكارِ الكتابِ قبلَ أن تُتم قراءتهُ بالكامل؛ فالكثيرُ من الأفكارِ لن تتضحَ تماماً إلا مع نهايةِ الكتاب. وعليه، فإني أطالبُ القارئ أن يتركَ لي المساحة الكافية لعرضِ حججي ومن ثمَّ مصادري، وبعدها سأتركُ له ما شاء من الوقتِ كي يردّ على أفكاري.

[15] إني أقترحُ ألا يُقرأ كلُّ بابٍ في أكثر من جلسةٍ واحدة. وأن يُقرأ الكتابُ ككل بأقصرِ فترةٍ زمنيةٍ ممكنةٍ كي لا يفقدَ تماسكَ أفكاره. وبعد إتمام قراءته، يمكن إعادةُ قراءته مجدداً للوقوفِ عندَ كلِ فقرةٍ وكلِ معلومةٍ والذهاب إلى المراجع للبحثِ فيها والاستزادةِ منها. أعتقدُ أن هذه هي الطريقةُ المثلى لقراءة هذه المحاورة. لكن لا يجب أن يُفهمَ مما سبق أن على القارئ قراءة المحاورة بسرعة؛ فإنه لا يمكن أن يكون هناك شيءٌ أكثر خطأً من أن تتم قراءة هذه المحاورة بعين على الكتاب والأخرى على الساعة. إن من الأفضل ألا تُقرأ المحاورة مُطلقاً على أن تُقرأ قراءة ماراثونية.

[15.1] كما إن على القارئ ألا يقفز بين الفقراتِ والأبواب، فالمحاورة تكاملية؛ كل فقرةٍ وكل فكرةٍ بُنيت على ما قبلها وتؤسسُ لما بعدها. هذا وإني أعتقدُ أن الكتابَ سيفتح آفاقاً جديدةً للقارئ وسيكافئه بتناسبٍ طردي مع التركيزِ والجهدِ الذي يبذله هو في القراءةِ وتحليلِ الأفكارِ والبحثِ في المراجع.

أتمنى للمقبلين على الحرية قراءةً مُلهمة، ولنا وقفةٌ بعد ختامِ المحاورة.

رجل الكهف

04 August 2017 - 04:30 am
Kungshamn, Sverige

في هذه المحاورة

الباب الأول: برج المعارف الإنسانية

نظرةٌ تاريخيةٌ على تشكل الثقافاتِ المختلفة.
توصيفٌ لحالِ الثقافاتِ العالمية.
طرحُ مفهومِ ثالوثِ القمع.
الفرقُ بين المثقفين وعامةِ الناس.
طرحُ فكرةِ الاختلافاتِ بين المثقفين.

الباب الثاني: في أقسام الدماغ

في مفهوم ثالوث القمع.
في أسباب الاختلافاتِ بين المثقفين.
في الفرقِ بين الإنسانِ الحافظ والمفكرِ غيرِ المطلع.
في أقسامِ الدماغ الرئيسية.
تقديمٌ لآليةِ صنع الأفكارِ في الدماغ.

الباب الثالث: في أهلية الدماغ لإصدار الأحكام

في آليةِ عملِ الدماغ البشري.
في كيفيةِ تطورِ الدماغ البشري.
في أسباب قصورِ الدماغ البشري.
في تأثيراتِ البيئةِ على عملِ الدماغ.
في آليةِ الإدراكِ عند البشر.
في آليةِ توليدِ الأفكارِ وإصدارِ الأحكام.
في الوعي واللاوعي.
في حريةِ الإرادة.
في الانتقاء الطبيعي.

الباب الرابع: في برمجة الأدمغة

في كيف تتمُ برمجةُ الأدمغة.
في إنجابِ الأطفال.
في التربية.

الباب التاسع: في ماهية المثقف

****

مدخلُ المحاورة
لقاء رجلِ الكهف

[16] مضى قرابة أسبوع على بدء الرحلة الاستكشافية التي يقوم بها داني ولوسيل في إحدى الغابات الشاطئية الغير مأهولة. كان أسبوعاً هادئاً مفعماً بالنشاط في الحياة البرية بعيداً عن تلوثِ المدنيّةِ وضوضاء الحداثة. لقد قررا في هذا العام أن تكون إجازتهما مختلفة؛ فقد أرادا الإستمتاع بنقاء الطبيعة وحدهما مسلحين ببعض الكتب في علم الأحياء والحياة البرية، وأدوات للصيد، ولوازم التخييم. كانا يستمتعان بمشاهدة النجوم طوال الليل، ويمضيان النهار بحثاً عن فرائس جديدة تكون طعامهما لذلك اليوم. لا يمكن لشخصٍ أن يموت جوعاً في الغابة؛ فمختلف أنواع النباتاتِ والفطر الصالح للأكل منتشرة في كل مكان. إنها متعة المغامرة التي لازال الإنسان الحديث يحملُ أثرها من أسلافه القدماء.

[17] لقد حظيا اليومَ بتجربةٍ فريدة، وهي فرصة التلصصِ على زوج من الشمبانزي يقضيان وقتاً ممتعاً. فقد كان ذكر حديث البلوغ من الشمبانزي يحاولُ إستمالة أنثى من الواضح أنها أكبر منه سناً. كانت الأنثى مستاءة من تحرشاتِ ذلك المراهق بها، لكنها كانت تحاولُ إظهارَ عدم اكتراثها بطيشه الصبياني. اتخذ داني ولوسيل لنفسيهما مخبئاً وجلسا فيه في صمتٍ مطبق محاولين تطبيق الخطوات اللازمة للإسترخاء التي تعلماها من كتابٍ عن مراقبةِ الحياةِ البرية؛ فأي همسةٍ أو تنفسٍ سريع قد يثيرُ انتباه الحيوانِ موضوع المراقبة. لكنهما في الوقتِ نفسه كانا غير قادرين على التحكم في تدفق الأدرنالين الذي كان يشعر به كلاهما بوضوح؛ لأن مراقبة هكذا حدثٍ بالعين المجردةِ تختلف كل الإختلافِ عن مراقبة زوجٍ من البشر يمارسون الجنس. فالأخيرةُ قد تنطوي على مشاعر اشمئزازٍ أو شهوةٍ جنسية، أما الأولى فهي تحتوي على شعورٍ بالرهبةِ ممزوجةٍ بالخوف. فهما يعرفان أن الشمبانزي حيواناتٌ إجتماعية تعيشُ في مجموعاتٍ ذات تراتبية هرمية. وبالتالي، فإن وجود زوجٍ من الشمبانزي يعني بالضرورة وجود قبيلةٍ من الشمبانزي في مكان قريب. ومن المحتملِ أن طيش هذا المراهق بالتحرش بهذه الأنثى على حين غفلةٍ من قبيلتها لن يجلبَ له الأذى فحسب، إذا ما أصدرت الأنثى نداء استغاثة، بل سيجلبُ الأذى لهما أيضا. لكن نظرة واحدة تبادلاها كانت كفيلة بإيصال تفاهم بينهما على أن الأمر يستحق المجازفة.

[18] أمضيا في مراقبة ذلك العاشق وأنثاه المتمنعة قرابة الستِ ساعات، لم يمل فيها الذكر من ابتكار طرقٍ جديدةٍ لحثِ محبوبته على تلبية رغبته، ولم تمل فيها الأنثى من محاولة إظهار عدم الإكتراثِ جُلَّ الوقت. إلا أنها كانت تُظهرُ شيئاً من الاهتمام كلما تغلغلَ اليأسُ إلى قلب الذكر البائس، فتحفزهُ بوادرُ إهتمامها إلى ابتكار المزيدِ من الطرق للحصولِ على موافقة وصالها؛ إلى أن تملكه اليأس أخيراً وبدأ يقومُ بالإستمناء أمامها معلناً فشلهُ في نيلِ رضاها. عندها، شعرت هي أيضاً أنها قد تمادت في تمنعها، فأعلنت موافقتها على وصاله الذي لم يدم أكثر من دقائق معدودة قفز بعدها كلاهما بنشوة وسرورٍ مغادرين منطقتهما الحمراء.

ما المثقف؟

[19] تنفس داني ولوسيل الصعداء وبدآ يضحكان بحبورٍ شاكرَين حظهما الذي أتاح لهما قضاء يومهما في مشاهدةِ حدثٍ كهذا. "إنها لا تختلف عن إناثِ البشر" قال داني. فأجابت لوسيل: "وهو لا يختلف عن ذكورهم" وضحك كلاهما.

[20] عندها أدركا أنهما قد أمضيا جُلَّ يومهما في التلصصِ على زوج الشمبانزي ذاك، وأن الظلامَ سيحلُ خلالَ وقتٍ قريب وهما لم يتناولا أي طعام أو شرابِ اليوم، لا ولم يختارا مكان تخييمهما لهذه الليلة. أحثا الخطى مسرعين محاولين إيجادَ شيءٍ ما قابلٍ للأكلِ بسرعة كذلك الفطر اللذيذِ الذي حصلا عليه قبل يومين. لكن يبدو أنهما ليسا محظوظين في إيجادِ الفطر اليوم كما كانا محظوظين بفرصةِ مشاهدةِ ذلك العرضِ الجنسي. "لا يمكن أن تكون محظوظاً في كل شيءٍ في اليوم نفسه" قال داني لنفسه بشيءٍ من اليأس.

[20.1] وبينما هما منهمكان في بحثهما إذ تقولُ لوسيل: "داني، لا أدري إن كان الدوارُ هو السبب، لكني أسمعُ موسيقى لبينك فلويد". فضحك داني قائلاً: "لا بد أن دماغك يقومُ بتسليتك في هذه اللحظاتِ حتى لا تشعري بالجوع. أنتِ تعشقين هذه الفرقة، ولا بأس من أن نغني بعضاً من أغانيها الآن".

[21] صمتت لوسيلُ لبرهةٍ وهي تديرُ رأسها ببطء، مغلقة عينيها تطبيقاً لتعليماتِ كتاب مراقبة الحياة البرية، ثم أجابت بحزم: "كلا يا داني، إنها موسيقى حقيقية، وهي صادرةٌ من ذلك الإتجاه" مشيرة إلى جبلٍ قريب منهما. أنصت داني بانتباه، مطبقاً نفس التعليمات، ثم قال: "يا إلهي! فعلاً إن هناك موسيقى آتية من الجبل. من بحق السماءِ غيرنا في هذه الغابة الموحشة؟!". تبادلا نظراتٍ لا تخلو من الريبة والفضول قطعها داني قائلاً: "هل يجبُ علينا الذهابُ إلى هناك واستطلاع الأمر، أم إنك تشعرين بالخوف مما يمكن أن نجده وتفضلين أن نذهبَ في الإتجاه المعاكس؟" فأجابتهُ لوسيلُ على الفور، وكأنها كانت تقومُ بحساب الأمر في ذهنها قبل أن يسألها: "إنهم يستمعون إلى الموسيقى يا داني. من يتذوق موسيقى كهذه لا يمكن أن يكون شريرا". فأجابها داني مازحاً: "أعرف أنك متحيزةٌ لهذا النمطِ من الموسيقى، لكني لم أتوقع أنك ستراهنين بحياتكِ من أجلِ تحيزكِ هذا". فضحكت قائلة: "ستتأكدُ من هذا خلالَ وقتٍ قصير. أشعرُ أن رفقة رائعة بانتظارنا على ذلك الجبل".

[22] بدت الإثارةُ واضحة على وجهيهما وهما يشقان طريقهما تجاه مصدر الصوت، متوقفين كل دقيقةٍ أو إثنتين ليطبقا خطواتِ الانصاتِ التي تعلماها لتحديدِ مصدر الصوت، الذي كلما اقتربا منه أكثر كلما شعرا أكثر بمزيج من الإرتياح لتلك الموسيقى، والإثارة لمعرفة المجهول الذي ينتظرهما.

[23] أصبح الصوت واضحاً جداً وقريبا. إنهما على مقربةٍ من مصدره دون أدنى شك. تبادلا نظرة ريبة عندما شعرا أنهما قادمان الآن على مقابلة أولئك الأشخاص غريبي الأطوار الذين يستمتعون بالموسيقى في مكانٍ شديدِ الإنعزالِ كهذا. بدآ بمحاولة إصدار بعضِ الأصواتِ الملحوظةِ، كي لا يفزعا من لا يتوقعُ قدومهما، وهما يتقدمان ببطء محاولين إخفاء أثرِ الأدرنالين المتدفقِ في جسديهما. وإذ بهما يلحظان رجلاً على بعدِ عشرةِ أمتارٍ منهما.

[24] كان رجلاً ذا شعرٍ ولحيةٍ طويلتين منكباً على تحضير طعامه. فوقفا في مكانهما يتأملانه وهو يقومُ بما يقومُ به، وهو يغني أغنية Echoes التي يترددُ صداها في أرجاءِ الغابة. راقباه نحو نصفِ دقيقة، ثم تبادلا نظرة فهم كلاهما منها ارتياح الآخر لمحادثةِ هذا الرجل؛ فقام كلاهما بإلقاءِ التحيةِ من موقعهما بصوتٍ عالٍ كي يثيرا انتباهه.

[25] جفلَ الرجلُ ووقف محدقاً بهما. سادت لحظاتٌ من النظراتِ المتبادلة بين الثلاثة يسودها صمتٌ مطبقٌ لا يكسره سوى صوت ديفيد غيلمور وريتشارد رايت وهما يغنيان:

Strangers passing in the street
By chance two separate glances meet
And I am you and what I see is me
And do I take you by the hand
And lead you through the land
And help me understand the best I can

[26] كان وقع هذه الكلماتِ على ثلاثتهم صادما. فعلى الرغم من أن ثلاثتهم قد سمعوا هذه الأغنية مئات المرات في السابق، إلا أنهم لم يشعروا قطُ قبلَ هذه اللحظة أنها تمسهم بشكلٍ مباشر، بل وتمسُ عين الموقفِ الذي هم فيه. أحياناً تكون الصدف العمياء أقوى أثراً من أي تخطيطٍ مسبق.

[27] **الرجل الغريب** "بهدوء وهو يوقف الأغنية": تفضلا أيها الغريبان، ماذا تفعلان هنا؟

داني: نحن في رحلة تخييم، وأنت؟

الرجل الغريب: أنا مقيمٌ هنا، ولدي كل ما قد تحتاجانه لو كان ينقصكما شيءٌ في رحلتكما.

يقتربُ الاثنان منه ويقول **داني**: ماذا تقصدُ أنك مقيمٌ هنا؟ أين؟

الرجل الغريب: هنا، في هذا الكهفِ المتواضع.

لوسيل "بذعر": يا إلهي، إنك رجلُ كهفٍ حقيقي! هذا آخرُ ما كنت أتوقع أن أراه في رحلتي هذه!

[28] كان كهفاً لا تنطبق عليه كلمة متواضع؛ فهو مجهزٌ بالكهرباءِ وجميع الأدواتِ المنزلية الأساسية بما فيها من ثلاجةٍ، وغسالة ثياب، ومدفأةٍ، وبضعة حواسيب، ومكتبة. كما إنه يحتوي، كما لاحظا، على مرحاضٍ ومكان للاستحمام أيضا. كان أشبه ما يكون بمنزل صغير قد اقتُلِعَ من إحدى المدن وأُلقي به هنا مع ساكنه غريب الأطوار هذا.

[29] شعر كلٌ من داني ولوسيل بارتياح غريب تجاه هذا الشخص ممزوج بحافزٍ للتعرف عليه. تبادلا النظراتِ التي أكدت لكلاهما أنهما يفكران في الأمر عينه، فبادر داني التعريف بنفسيهما للرجل

الغريب. أخبره أنهما صحفيان يقضيان عطلتيهما في الغابة، ثم قصّ عليه ما شاهداه اليوم وكيف أن الموسيقى التي يسمعها هي ما قادهما إليه. وبما أن الظلام قد بات وشيكاً وهما لم يأكلا أي شيء في هذا اليوم، فبادره بسؤاله لو كان بإمكانهما أن يشاركاه العشاء وأن يقضيا هذه الليلة معه على أن يتابعا رحلتهما في الصباح التالي.

[30] في الواقع، لم يكن أمام الرجل الغريب خيار. فهو، من جهةٍ، لا يترددُ في تقديم المساعدة ما أمكنه ذلك؛ ومن جهةٍ أخرى، راوده شعورٌ بأن هذين الشخصين مثيران للاهتمام. فهما يستمعان إلى موسيقى لم يعد معظمُ أبناءِ جيلهما يستمع إليها، كما إنهما قد اختارا قضاء عطلتهما هنا بدلَ قضائها في أحدِ الأماكن السياحية كما يفعلُ غالبية الناس. قال لنفسه: "لابد أن الحديث معهما ممتعٌ ومفيد. ثم ما الضيرُ في أن يقضيا ليلةً هنا؟ على الأقل، يمكننا الاستماع إلى الموسيقى سوية وتبادل بعض الأفكار". لقد علمته الحياة أن بإمكانه أن يتعلم شيئاً جديداً من أي أحدٍ يقابله. لكن بالمقابل، إنه قد عانى بما فيه الكفايةُ من الناس، وهو موجودٌ هنا لسببٍ واحدٍ فقط؛ وهو الابتعادُ عنهم قدرَ الإمكان. أن يكون وحيداً! فهو يلجأ إلى كهفه هذا، الذي جهزه بمشقةٍ على مر السنواتِ الماضية، كلما شعر أنه بحاجةٍ إلى أن يختلي بنفسه لبعض الوقت، وها هو مضطرٌ الآن لكسر خلوته هذه كي يكون لبقاً مع شخصين غريبين لا يعرف عنهما شيئاً. لكنه طمأن نفسه: "إنهما سيرحلان في الصباح، على أي حال، وكأن شيئاً لم يكن".

[31] **الرجل الغريب**: بكل سرور. ادخلا واستحما وضعا ثيابكما في الغسالة ريثما أنتهي من تحضير الطَّعام.

لوسيل "بابتسامةٍ خجولة": شكراً لك يا سيدي، لكنك لم تخبرنا ما هو اسمك!

[32] **الرجل الغريب** "بوجهه الخالي من التعابير": رجلُ الكهف يا عزيزتي، رجلُ الكهف. لقد قلتِ إني رجلُ كهفٍ حقيقي، ولقد أعجبني الاسم.

لوسيل "ضاحكة": تشرفت بلقائك يا رجلَ الكهف.

ودخل الاثنان، فيما انهمك رجلُ الكهف بتحضير المزيد من الطعام.

****

الباب الأول
برج المعارف الإنسانية

(بعد العشاء، ثلاثتهم جالسون داخل الكهف مجهزين أنفسهم للنوم، الإنارة شبه معدومة)

[33] **لوسيل** "بحماسٍ طفولي": لدي فضولٌ كبيرٌ كي أستمع إليك؛ من الواضح أنك رجلٌ لديه الكثيرُ ليتحدث عنه. هلا أخبرتنا بقصةٍ ما قبل أن ننام؟

رجل الكهف "بوجهه الخالي من التعابير": يؤسفني أن أخيّبَ ظنّك، فليس في جعبتي أيّ من حكاياتِ الجداتِ المناسبة لما قبلَ النوم. لكن بالمقابل، لدي الكثيرُ من القصصِ التي من شأنها أن تقلق راحتك وتُذهبَ النومَ من عينيكِ الناعستين.

[34] **لوسيل** "ضاحكة": إني أقبلُ المجازفة. أسمعني إحداها.

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": في مكانٍ ما كان هناك أناسٌ يعيشون كمجموعةٍ واحدة، متعاونون فيما بينهم، يتقاسمون المهام التي يقومون بها، ويتقاسمون ما يجنون وما يمتلكون. كانت الحياة بسيطة جداً وهادئة. وعلى مر الأجيال، زاد عددهم باطرادٍ ملحوظ حتى شكلوا مجموعة سكانية مترامية الأطراف.

[35] **دالي** "مقاطعاً وهو يخرج جهاز تسجيلٍ صغير من حقيبته": عذراً يا سيدي، هل لي أن أقومَ باستخدام جهاز التسجيلِ هذا؟

رجل الكهف "بانزعاج": لا مانع يا عزيزي، لكن لا تقاطعني ولا تقل لي "سيدي"؛ فليس أحدٌ سيدَ أحد.

دالي "واضعاً جهاز التسجيلِ في وضعية التشغيل": المعذرة.

رجل الكهف: بعد أن زاد عددُ الناسِ وتفرعوا، أصبح يرأس كل مجموعةٍ منهم ثلاثي سنسميه ثالوث القمع.

[36] **لوسيل** "بدهشة": ثالوث القمع! لماذا؟

رجل الكهف "بحزم": ستعرفين لاحقاً إذا سمحتِ لي بإكمال القصة!

لوسيل "بخجل": أعتذر. كلي آذان صاغية.

رجل الكهف: قام كلُّ ثالوثٍ ببناء غرفةٍ كبيرة جداً هي أشبهُ بزنزانةِ سجن هائلةِ المساحة، لا نوافذ لها، ولا يربطها بالعالم الخارجي إلا بابٌ يجلس ثالوث القمع عنده ليحرسه. فأصبح أولئك الناسُ كلهم موزعين داخلَ هذه الغرف ولا يوجد أحدٌ خارجها.

[37] **دالي** "مستغربا": لكن لماذا؟

رجل الكهف: لقد أقنع كلُ ثالوثِ قمع رعيتهُ أن من مصلحتهم العيش داخلَ غرفته لأن الآخرين يريدون بهم سوءاً، وأنها المكانُ الآمنُ الوحيدُ لهم. ليس هذا فحسب، بل أقنعهم أنهم محظوظون لتواجدهم فيها لأنها أفضلُ وأجملُ غرفةٍ في العالم.

[38] **لوسيل** "باستغراب": وهل صدقهم الناس بهذه السهولة؟

رجل الكهف: نعم بكلِ أسف، لقد صدق الناسُ لسذاجتهم تلك الحيلة. فاستقروا في تلك الغرف شاكرين ثواليث القمع على حرصهم عليهم. واعتادوا بسرعةٍ الحياة فيها ممضين أعمارهم يقومون فقط بالأعمال الروتينية اليومية، بينما يجلس كل ثالوثِ قمع دون عملٍ حقيقي إلا حراسة باب الغرفة خاصته وتقديم التعليماتِ والمشوراتِ والنصائح لساكنيها. وسرعان ما أصبح ثواليث القمع كل شيءٍ بالنسبة للناس المساكين؛ فهم مصادرُ أخلاقهم وعاداتهم وقناعاتهم، وهم المجيبون على تساؤلاتهم، وهم المنظمون لحيواتهم، يلجؤون إليهم في كلِ صغيرة وكبيرة في أمورهم الخاصة والعامة. لقد عملَ ثواليث القمع، ببطءٍ وخبثٍ، على جعل الناس مسحوبي القدرة على القيام بأي محاكماتٍ عقلية سليمة أو اتخاذ أي قرارٍ مهما كان بسيطاً دون اللجوء إليهم.

داني "بحزن": يا لهم من مساكين!

[39] **رجل الكهف:** وبالطبع، اختلفت طرق التنظيم في الغرف المختلفة واختلفت التشريعات فيها. لذا، فمع مرور الزمن، أصبحت كل غرفةٍ تشكلُ عالماً خاصاً بها. ولو رأيت شخصين من غرفتين مختلفتين لراودك الشك في أنهما من كوكب واحد؛ لا يجمعهما إلا ثلاثة أمور هي: شكلهما البشري، ورضوخهما لسلطةٍ ثالوثية، وأنهما لا يفكران مجرد تفكير بالخروج من غرفتيهما. "إن الخروج هو مهلكةٌ مؤكدة" هذا ما بات مقتنعاً به الجميع. أصبح الناس يولدون ويعيشون ويموتون على مر الأجيالِ داخلَ هذه الغرفِ دون معرفة ما يوجد خارجها أو حتى مجرد التفكير به.

لوسيل "بذعر": هذا أمرٌ مريع!

[40] **رجل الكهف:** لكن، وعلى الرغم من أن ثواليث القمع قد أفهموا الناس أنه في حال خروجهم فإنهم سيموتون، أو سيفقدون عقولهم، أو ستحل عليهم اللعنات، فإن بعض الناس، مدفوعين بروح المغامرة تارة أو بروح التحدي تارة أخرى، كانوا يستطيعون من حينٍ لآخر مغافلة ثواليث القمع والخروج إلى العالم الخارجي. والذين كانوا فور عودتهم يتم عقابهم بالقتل، أو بالنفي، أو بتسليط أراذلِ الناس عليهم، أو بأية عقوبة يراها ثواليث القمع مناسبة. لكن بالتأكيد لم يكونوا ليتركوا دون عقاب على تحديهم السلطات والخروج إلى العالم الخارجي. لقد طور كل ثالوثِ قمع أيديولوجيته الخاصة بما فيها طرق عقابه الخاصة.

لوسيل "بألم": اللعنة على ثواليث القمع!

[41] **رجل الكهف:** شاءت الصدف أن يلتقي بعض الخارجين من الغرف ببعضهم البعض في ذلك العالم

الخارجي الخالي، وكانت صدمتهم عنيفة جداً عندما كانوا يتبادلون الأفكار. فعلى الرغم من أن كل غرفة أصبحت تمتلك لغة خاصة، بسبب الانعزالِ الشديدِ على مر الأجيال، إلا أنهم كانوا يستطيعونَ تبادل الأفكار الذي كان من شأنه أن يجعلهم يكتشفوا أن ثالوث القمع -الذي لم يكن معروفاً عندهم بطبيعة الحال بهذا الاسم، بل يتخذ أسماءً جميلة لها وقعها الرنان الرصين- في كل غرفةٍ يكررُ نفس العبارات الفارغة بقوله إن الآخرين يريدون بهم شراً، وإنه موجودٌ فقط من أجل مصلحتهم و لحمايتهم، وإن غرفتهم هي أجملُ وأفضلُ غرفةٍ في العالم، وإن النظام الذي يفرضه في غرفتهم هو النظامُ الوحيدُ السليم، إلى آخر هذا الهراء المُستهلَك. وعندما قام هؤلاء الغرباء بتبادل بعض التفاصيل وجدوا اختلافات صارخة في المبادئ والحلول التي يقدمها كل ثالوثٍ لدرجة التعارض التام في بعضها. فعلى سبيل المثال، ما قد يعتبرُ سببَ بلاءٍ في هذه الغرفة هو نفسهُ يعتبرُ سببَ الرخاءِ في الغرفة الأخرى. هذا وعلى الرغم من وجود قواسمَ مشتركة كثيرة، خاصة فيما يخص جانبَ الأخلاق، فإن اكتشاف التعارضاتِ الرهيبة والاختلافاتِ الجوهرية بين حيواتِ سكان الغرف المختلفة ومبادئهم كانت صاعقة لهؤلاء الخارجين، الذين لم يطل بهم النقاش حتى وصلوا إلى نتيجةٍ واحدةٍ بالإجماع؛ وهي أن ثواليث القمع هذه تكذبُ علينا وتقمعنا تحقيقاً لمصالحها الذاتية فقط لا غير. وسرعان ما قرر كلٌّ منهم العودة إلى غرفته واخبار الآخرين بحقيقة الأمر.

دالي "بحماس": جميلٌ جداً. فليذهب ثواليث القمع إلى الجحيم.

[42] **رجل الكهف:** رويدك يا عزيزي، ليت الأمر كان بهذه البساطة. ففور عودة هؤلاء الخارجين إلى غرفهم كانوا يتعرضون إلى العقوبات، لكنهم كانوا يستطيعون إيصالَ أصواتهم، على أي حال، مما ساهم في إثارة بعض الشكوكِ في أذهان الناس وحفز المزيدَ من الناسِ على المغامرة بالخروج. ولو أن أعدادهم لم تزل مجولة بالنسبةِ لعددِ السكانِ الكلي، إلا أنها كانت بازديادٍ مضطرد. ترافق هذا مع ازدياد سخرية ثواليث القمع من كلام العائدين ونعتهم بالجنون، أو المس الشيطاني، أو العمالة للغرف الأخرى التي تريدُ بالرعايا شرا. كما ازدادت صرامة العقوبات ومحاولة نشر موالين لهم بين الناس يتقصون الأخبارَ من جهةٍ وينشرون الاشاعات من جهةٍ أخرى.

[43] **لوسيل "بحماس":** وماذا فعلَ الشجعانُ الذين يخرجون؟

رجل الكهف: قرر الخارجون أن يوصلوا شبكة اتصال بين الغرف المختلفة، دعينا نتخيل أنها هواتف، حيث يتمكن بواسطتها سكان الغرف المختلفة من الحديثِ بحريةٍ بين بعضهم البعض. لقد كان حلاً لا مناصَ منه لأن الناس كانت تصدق فعلاً أن كلام هؤلاء الخارجين هو ضربٌ من الجنون أو العمالة. وفعلاً، بدأ الناس بالتواصل فيما بينهم من داخل الغرف المختلفة، وتمكنوا من تجاوز عقبة اللغات المختلفة، مما أدى إلى حدوث اضطرابات حقيقية داخلَ هذه الغرف. فكلُ إنسانٍ وَجَدَ أن كُلاً من الآخرين يملك منظومة حياتية مختلفة، وكلٌ منهم يعتقدُ اعتقاداً لا ريب فيه أنها المنظومة الوحيدة السليمة لإدارة الحياة، وكلٌ منهم يعتقدُ جازماً أن حياته هي الأفضل، وأن غرفته هي أفضلُ الغرف،

وأن الآخرين الذين يعيشون في الغرف الأخرى حيواتهم بائسةٌ لا تطاق مليئةٌ بالمشاكل. لقد بدأت الشكوك تتسربُ إلى قلوب نسبةٍ كبيرةٍ من السكان في كل غرفة بأن ما تعلموه منذ نعومة أظفارهم لا يقاربُ الحقيقة مطلقاً، وأن من علمهم هذه الأمور لابد وأنه يريدُ بهم شرا. لكن كيف يكون هذا وثالوث القمع هو مصدرُ كل شيءٍ بالنسبة لهم؟ هو الملهمُ والحامي والسندُ والقائدُ الذي يفني حياته لحمايتهم؛ لا يمكن أن يكون الثالوث كاذبا! هكذا بدأ الناس بالتفكير؛ هذه المفارقة الغريبة التي لا حل لها عندهم، بين تصديق ما اعتادوا تصديقه هم وأسلافهم، وبين تصديق ما يتداولونه حديثاً بينهم من مقاربات واضحة مع ما باتوا يعرفونه عن الغرف الأخرى والتي توحي بعكس ما كانوا يعرفون.

[44] **دالي:** وماذا فعل ثواليث القمع لحل هذه الإشكالية؟ هل قطعوا شبكة الاتصال؟

رجل الكهف: كلا، فقطعها سيؤكد شكوك الناس أكثر وسيحثهم على الخروج للتأكد بأنفسهم. اتفق ثواليث القمع فيما بينهم على حلٍ خبيثٍ لا يمكن، لشدة خبثه، أن يُدرك من قبل الرعايا البسطاء. قام كل ثالوثٍ بفتح نافذةٍ في أحد جدران غرفته فقط ولم ينبس ببنت شفة. فبدأ الناس يتهافتون على مشاهدة ما هو خارج الغرفة للمرة الأولى وهم يتابعون اتصالاتهم مع الغرف الأخرى بحرية. لكن الكارثة الحقيقية كانت أن ما يشاهدونه في الخارج مختلفٌ من غرفةٍ لأخرى؛ ففي غرفةٍ يشاهدون بحراً، بينما في الأخرى يشاهدون جبلاً، وفي ثالثةٍ يشاهدون غابة، وفي رابعةٍ يشاهدون صحراء، وهلم جرا. وهنا، بدأ كل ثالوثٍ يقول لرعيته، بضحكةٍ صفراء واضحة، عبارات مثل: "هل رأيتم بأم أعينكم كيف أن الآخرين يكذبون عليكم لأنهم يريدون بكم شرا؟ أنتم ترون بحراً في الخارج وهم يقول إن في الخارج جبلاً أو غابة أو صحراء، لكنكم تشاهدون البحر بأعينكم! لقد قلنا لكم ولأسلافكم من قبلكم إن الآخرين يريدون بكم شراً، ونحن هنا لحمايتكم فقط، ووضعنا لكم النظام الأمثل، وجعلنا غرفتكم أجمل الغرف. لكن أولئك الخارجين قاموا بتقليبكم علينا، وها نحن قد أثبتنا لكم صدقنا وحسن نيتنا وكذب أولئك الصعاليك الذين يريدون بكم شرا". لقد نجحوا في تقليب الناس على الخارجين لدرجة أن والدة أحدهم ووالده كانوا ليعاقبوه أو يقاطعوه على عمالته للآخرين. ليس هذا فحسب، بل نجحوا، ولأول مرة في تاريخهم، في بث عداءٍ حقيقي وكراهيةٍ لا حدود لها بين سكان الغرف المختلفة، الذين لم يتقابلوا يوماً، بل تواصلوا فقط فيما بينهم، وكان كلٌّ منهم يرى من نافذته ما لا يراه الآخرون من نوافذهم.

لوسيل "بألم": يا لمكرهم. فعلاً إنها حيلةٌ خبيثة!

[45] **رجل الكهف:** بل إنهم قد قاموا بما هو أمكر منها. حيث إنهم بدأوا باستئجار بعض الخارجين وإرسال بعض اتباعهم المأجورين كي يقولوا كلاماً يخالف ما يقوله الخارجون الآخرون؛ مما أدى إلى تفاقم الانقسامات بين الرعايا وتفاقم عدم يقينهم من معرفة من هو على صواب.

دالي "مقاطعا": إنهم يفعلون المستحيل كي يُبقوا الرعايا مصدقين لهم.

[46] **رجل الكهف:** في تلك الأثناء، شرع الخارجون في بناء برج. الأشخاص من نفس الغرفة كانوا مسؤولين عن بناء الجدار الأقرب إلى غرفتهم. كان برجاً ذا مساحةٍ قاعديةٍ هائلة، فكان لكل جدار

درجه الخاص الذي يتم بناءه بالتزامن مع بناء الجدار. كانت فكرة الجيل المؤسس لهذا البرج هي إيجادُ منصةٍ عاليةٍ تطلُّ على جميع الاتجاهات، حيث يتمكن الواقف على سطحها من رؤية الجبل والبحر والغابة والصحراء. وبهذا، يتمكنون من إثبات أن ثواليث القمع قد لعبوا على الرعايا في فتح النوافذ في اتجاهاتٍ مختلفة.

دالي "بحماس": فكرةٌ رائعة.

[47] **رجل الكهف:** لكن ما حصلَ هو أن ثواليث القمع لم تترك الخارجين يقومون بعملهم دون إزعاج. فكانوا دائماً ما يبثون أتباعهم بينهم ليثنوهم عن العمل تارة، وليثيروا الضغينة بينهم تارة أخرى. مما نتج عنه أن الناس الذين تابعوا بناء البرج بعد الجيل المؤسس الأول قد تاهوا عن هدف بناء البرج. فأصبح جُلُّ ما يعرفه الخارجون من الأجيال اللاحقة هو أن عليهم متابعة العمل على رفع الحائطِ الخاص بهم فحسب. بعضهم كان يعود، كحال أسلافه، متحدياً القوانين والعقوبات ومتابعاً إخبار أحبابه وأقاربه وأصدقائه عما يحصل في الخارج، وبعضهم كان يقرر أن يمضي بقية حياته في بناء الجدار دون عودة، وبعضهم كان يتكاسل ويقرر أن يبقى على مستوى معين من الارتفاع ويمضي بقية حياته هناك دون عودةٍ إلى الغرفة ودون متابعةٍ للصعود.

لوسيل "بأسى": هذا محزن.

[48] **رجل الكهف:** كلا، ليس هذا هو المحزن. بل المحزن حقاً هو أن بنّائي الجدران المختلفة من الأجيال اللاحقة بدأوا يختلفون فيما بينهم إذا ما التقوا مصادفة تحت البرج. فهذا يقول أنا لا أشاهدُ إلا بحراً من أعلى نقطةٍ وصلت إليها، والأخر يقول إنه يشاهدُ جبلا. هذا يقول إنه يرى الشمسَ تشرق من مستوى سطح الأرض وتغربُ عندما تصلُ درجة الزاويةِ القائمة، بينما الآخرُ يقولُ إنها تشرق بزاويةٍ قائمةٍ وتغربُ على مستوى سطح الأرض. وآخر يقولُ إنه لا يشاهدُ الشمسَ مطلقا. لا يوجد شيءٌ اسمه شمس؛ إنها خرافة. هناك فقط ضوءٌ، دون مصدرٍ محددٍ، يضيء السماء كل يوم ثم يغيبُ معلناً قدوم الليل. وما تحجيمُ هذا النور بكرة ملتهبة، يسمونها الشمس، إلا استهزاءٌ واضحٌ بعقله! اختلافاتٌ من هذا النوع شقت صف الخارجين من الغرف المختلفةِ كما عززت الكراهية بين رعايا الغرف المختلفة. كلٌ منهم يرى الآخر كاذباً رؤيا العين. لقد تعززت مصداقية كل ثالوثٍ بل وزادت سطوته لتشرخ صفوف الخارجين. لقد نجح تحالف ثواليثِ القمع في مواجهة تحالفِ الخارجين الأوائل.

[49] **دالي:** ثم ماذا حصل؟ لا تقل لي إنها النهاية. دعهم يتبادلون زيارة بعضهم على الجدران الأخرى ليتأكدوا. فهم هناك في الخارج. لا وجود لثواليثِ قمعٍ في الخارج!

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": نعم هذا صحيح، لا وجودَ لثواليثِ القمع خارج الغرف لكن أتباعهم المأجورين موجودون هناك. وبسبب هذه الكراهية التي قاموا بزرعها بين بنائي جدران البرج المختلفين، فقد أقيمت حراسةٌ من كل غرفةٍ أسفلَ جدارها الخاص حيث لا يمكن لمن لا ينتسبُ لهذه الغرفة أن يصعد على هذا الجدار ليشاهد منه شيئا. ليس هذا فحسب، بل امتثل الخارجون

لتلك الاشاعاتِ التي تعززُ المخاوف في أن يتم الغدرُ بهم لو صعدوا على جدران الآخرين ولو لمجرد زيارة ودية.

[50] **لوسيل:** إذاً، الآن لدينا عدة جدرانٍ لكلٍّ منها درجةُ الخاص. وكل الخارجين من غرفةٍ ما يحق لهم الصعود على جدارهم الخاص والذي يستطيعون النظر منه إلى وجهةٍ محددةٍ فقط. ومن يعودُ إلى الغرفة من الخارجين، فإما يتم عقابه أو يتم شراءه من قبلِ ثالوثِ القمع في غرفته. وقاربت علاقة الناس من الغرف المختلفة على الانقطاع من جديد، مع وجودِ عدم ثقةٍ كبيرة بين الجميع وكراهيةٍ مبطنةٍ وظاهريةٍ حتى ولو التقوا في الخارج تحت البرج. هذا وإن بعض الناس قد قرروا البقاء على البرج وعدم المجازفة في العودة؛ وبالتالي، فقد قرروا النفي إرادياً كي يتجنبوا العقوبات أو أن يتم شراؤهم، لكنهم ببقائهم على البرج كانوا غير قادرين على رؤية أي شيءٍ إلا ما يُطلُّ عليه جدارهم فحسب.

رجل الكهف: نعم، إنه توصيفٌ جيدٌ للوضع.

[51] **لوسيل:** وهل بقي الوضع كما هو حتى الأن؟

رجل الكهف: كلا. ففي وقتٍ ما، فكّر المغامرون الذين تحملوا مشقة الصعودِ إلى أعلى جدران البرج بأنه لابد من وجود سببٍ لهذا التعارض الظاهري بين ما يراه كلٌّ منهم من مكانه، أو أنه يجبُ أن نتأكد بطريقة ما أن هناك من يكذب. وكان الحلُ الوحيدُ هو تبادلُ المواقع، لكن هذا مستحيلٌ نظراً للرقابة على الأدراج المختلفة. فقرر هؤلاء بناء سطح يربطُ الجدران ببعضها؛ وهكذا، يمكن لجميع من على الجدران المختلفة الالتقاء على السطح ومشاهدةُ الوضع من هناك بصورةٍ أكثر شمولية أو حتى زيارة النقاطِ العليا من جدران الآخرين. لم يكن هناك من حلٍ سوى هذه المجازفة. فبدأوا ببناء السقف؛ ثم عندما التقوا عليه كان المشهدُ يفوق جميع خيالاتهم. كان بإمكانهم النظرُ إلى جميع الاتجاهاتِ بمجرد المشي على السطح. واكتشفوا أن تلك الاختلافاتِ في الرسائل المتبادلة بينهم، بين ما يراه كل منهم من موقعه على جداره، لم تكن إلا قصوراً من وجهة نظره في رؤية الصورة الأُكثر شمولية. لقد كان بإمكانهم أن يروا جميع الغرف، والبحر، والجبل، والغابة، والصحراء، والشمس تشرق وتغرب مارة بكبد السماء، الوقت الذي كان يودعها فيه أحدهم ويستقبلها فيه الآخر، وشاهدها لأول مرة من لم يصدق بوجودها مسبقا. لقد أعاد بناؤو السقف سيرة أسلافهم الخارجين الأوائل. وقرروا، كما قرر أسلافهم، أن لابد من إيصال خبر هذا الاكتشاف الذي يحل جميع خلافاتهم إلى الرعايا داخلَ الغرف. كان كلٌّ منهم يتحرّق شوقاً ليحدث أحباءه عن حل اللغز.

لوسيل "مقاطعة بحماس": هذا رائع!

[52] **رجل الكهف:** ولكن هيهات، فإن الأوان قد فات. فعندما اتصل كلٌّ منهم بغرفته قابله الناس بالسخرية والاستهزاء "لابد أنك مجنونٌ وممسوس. لقد مللنا هذه الأمور. إن بقاءك في الخارج وصعودك البرج وبناء هذا السطح الذي تتكلم عنه قد أصابت عقلك بلوثةٍ لا يمكن شفاؤها. إننا نشفق عليك، لقد تكبدت كل هذا العناء لتقول لنا هذا الهراء. دعنا بسلام، فنحن نعرف أعداءنا

الحقيقيين؛ فلازلنا لم نتأثر بلعنة الخروج مثلك". هذه كانت أبسطُ الإجابات التي سمعها الجالسون على سطح البرج. والتي، كما جرت العادة، تراوحت بين اتهامات بالجنون أو العمالة إلى سبابٍ وشتائم ووعيدٍ بأشدِ العقاب لو فكروا بالعودة أو معاودة الاتصال لبث سمومهم داخل الغرف.

دالي "بألم": أشفق عليهم؛ هم أفنوا حيواتهم لمعرفة الحقيقة ليُقابلوا بهذه الإساءات.

[53] **رجل الكهف**: لم يتغير هذا الحال منذ جيل الخارجين الأوائل. لكن مشكلة سكان السطح أكبر من مشكلة الخارجين الأوائل؛ فمعارضة الخارجين الأوائل كانت محصورة بثواليث القمع فقط، في المرحلة الأولى، لكن سكان السطح لم يلقوا معارضة من ثواليث القمع ومن الرعايا في الداخل فحسب، بل أيضاً من الموجودين على الجدران المختلفة للبرج في ارتفاعاتٍ مختلفةٍ والذين تكاسلوا عن متابعة الصعود. لقد وجدوا أنفسهم نوعاً ما حبيسي سطحهم الجديد. مع متعتهم التي لا توصف بتمكنهم، ولأول مرة في التاريخ، من النظر من ذلك الارتفاع الشاهق، ومشاهدة ما لم يشاهده أحدٌ قبلهم، إلا أن الألم الناتج عن ردة فعل أحبائهم لهم كان يفوق أي ألم قد اختبره إنسان قبلهم. ولقد أدى هذا الألم بالكثيرين منهم إلى الجلوس على السطح في كدر ومحاولة التمتع بما يشاهدوه كي ينسوا عناء الصعودِ وألم العزلة التي فُرضت عليهم كمكافئةٍ على جهدهم ذلك. بينما قرر قِلةٌ منهم أن يتابعوا بناء البرج؛ فقد وجدوا أن هذا من شأنه أن يخفف عنهم كدرهم. فتمضية بقية حياتك في مكانك في حزنٍ شديدٍ ليسَ من الحكمةِ في شيء، هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى، كان لديهم فضولٌ لمعرفة ما يمكن أن يشاهدوه من ارتفاع أعلى. "فإذا لم يكن هناك من طريقٍ للعودة إلى الأسفل، فلم لا نذهبُ إلى الأعلى؟" هكذا فكر هؤلاءِ القِلة. لكنهم قرروا الاستفادة من ذلك السطح الذي بنوه، وتجنباً لتكرار ما حصلَ في السابق مع رافعي جدران البرج المختلفة، فقد قرروا هذه المرة أن يتابعوا رفع البرج لكن على شكلِ درج حلزوني يرتفعُ من منتصف سطح البرج.

دالي "متحمسا": ناهيك عن أن رفعَ الدرج الحلزوني أسرعُ بما لا يقاسُ من رفع جدرانٍ مختلفةٍ لكلٍ منها درجه الخاص.

[54] **رجل الكهف**: كلامك صحيح. وبالفعل، بدأ هؤلاء القلة برفع هذا الدرج الحلزوني درجةً درجة. وكلما ارتفعوا أكثر، كلما سلبَ ألبابهم سحرُ ما أمكنهم مشاهدته. لقد تمكنوا بسرعةٍ قياسيةٍ من بلوغ ارتفاع شاهقٍ في هذا الدرج الحلزوني الذي مكّنهم من المشاهدةِ بشكلٍ كروي. فكان بإمكانهم مشاهدةُ جميع الغرف، كما وجدران البرج المختلفة بساكنيها المتقاعسين عن متابعة الصعود، المتناحرين فيما بينهم على صحة ما يشاهده كل منهم. لقد كان بإمكانهم مشاهدةُ ثواليث القمع من الغرف المختلفة وهم يعقدون اجتماعات فيما بينهم، بينما يقولُ كلٌ منهم لرعاياهُ إن الآخرين أشرار. إنهم يضحكون سوية ثم يعودون إلى غرفهم ليقولوا كلاماً مشيناً بحق بعضهم البعض. لم يعودوا يشاهدون البحر والجبل والغابة والصحراء فحسب، كحال سكان سطح البرج، بل بات بإمكانهم رؤية ما وراء كل ذلك. ولطبيعةِ الدرج الحلزوني، كان بإمكانهم مشاهدة كل ما سبق مكتفين بإمالة رؤوسهم في الاتجاهاتِ المختلفةِ

دون أن يتحركوا مُطلقا. لقد بدأ عناء بناء البرج وصعوده يعطي ثمارهُ بالنسبة إليهم.

[55] **لوسيل:** وهل أعادوا محاولات الاتصال بالرعايا في الداخل؟

رجل الكهف: لقد اختلفوا في هذا الأمر. فبعضهم قد تملكهم الغضبُ الشديدُ مما شاهدوا بأم أعينهم من حقائق قد تم تغييبها عن الرعايا، وكيف أن الثواليث يتفقون فيما بينهم لبثِ الكراهية بين سكان الغرف المختلفة، فعادوا إلى غرفهم متجاسرين لإخبار أحبابهم، وهناك تمت معاقبتهم بأشدِ العقوباتِ من قبل ثواليث القمع. لقد كانت عقوبات ثواليث القمع تتناسبُ طرداً مع مستوى صعود الخارج على البرج؛ وبالتالي، مع مدى الرؤية التي استطاع بلوغها وشموليتها. ومنهم من تملكه اليأس فمكث في مكانه مستمتعاً بقية حياته. ومنهم من استمر في متابعة الصعود حتى وفاته. والبعض الآخر قد اتخذوا حلاً وسطاً؛ فكانوا يتصلون بالرعايا ويتكلمون معهم، لكن لم يتم تصديق أي منهم مطلقاً، بل كانوا يُنعتون بالجنون المطلق حتى من قبلِ أعز أحبابهم.

[56] **لوسيل** "بلهفة": وماذا بعد؟

رجل الكهف: هذه هي النهاية يا عزيزتي، هذا هو ما استقر عليه الوضع إلى اليوم. فحتى الساعة، لا يزال الغالبية الساحقة من البشر يعيشون كرعايا مغيّبين داخلَ غرفهم يتحكم بهم ثواليث القمع، الذين جنّدوا، من ضِمن من جنّدوهم، بعضَ الناس ممن يخرجون خارج الغرف ليعودوا ويقولوا للرعايا كلاماً يتوافق مع أهواءِ ثالوثِ القمع الخاص بتلك الغرفة. والمزعج في الأمر، أن معظمَ هؤلاء لم يصعدوا درجة واحدة من درجاتِ البرج، لكنهم بالنسبة للرعايا أشخاصٌ قادمون من الخارج. وبسبب دعم وترويج ثواليث القمع لهم يتم اعتبارهم من قِبلِ الرعايا على قدم المساواة مع جميع من هم بالخارج، إضافة إلى أنهم مصدرُ ثقةٍ أكبر مقارنة بأولئك الذين لم يعودوا؛ فمباركاتُ ثواليثِ القمع لهم قد جنبتهم المسَّ الشيطاني أو الجنون. لا يُدرك الرعايا حتى الآن أن هناك جدراناً مختلفة للبرج وأن هناك سطحاً وأن هناك درجاً حلزونيا. لا يمكنهم استيعابُ الفكرة أساساً. كيف وهم لم يشاهدوا برجاً ولا درجاً في حيواتهم؟ هذه كلماتٌ لا تحملُ معانٍ بالنسبة إليهم. مفهومُ النظرِ من ارتفاعٍ عالٍ بشكلٍ شمولي لا يمكنهم تصوره، فلا وجودَ له في الغرف. وحتى اليوم، ما برحَ سكانُ جدرانِ البرج المختلفة متناحرين فيما بينهم وغير مصدقين لمن وصل السطح وارتقى على الدرج الحلزوني.

لوسيل "بألم": هذه نهايةٌ حزينة.

[57] **رجل الكهف:** غالباً ما تكون القصصُ الواقعية ذات نهايات حزينة.

داني "بألم": صدقت.

رجل الكهف: أما الآن، فتصبحانِ على خير.

****

الباب الثاني
في أقسام الدماغ

(في صباح اليوم التالي، استيقظ داني ولوسيل ليجدا رجل الكهف يعد القهوة)

[58] **داني:** عمت صباحاً يا رجل الكهف.

رجل الكهف: أتمنى أن تكونا قد نمتما بعمقٍ الليلة الماضية ولم تؤرقكما القصة التي قصصتها عليكما. على أي حال، أعتقدُ أن النومَ في الكهف أكثرُ راحةً منهُ في الخيمة، أليس كذلك؟

لوسيل: في الواقع إنه كذلك. لكننا -كما توقعتَ- لم ننم بسهولة، فقد كنا نتناقش في قصةِ البرج. وأعتقدُ أننا فهمنا معظمَ رموزها، لكن استعصى علينا فهمُ ثالوث القمع؛ لِمَ هو ثالوث!

رجل الكهف "مقدماً القهوة": لقد حذرتكِ من هذا، لكنك لم تأخذي تحذيري على محمل الجد. على أي حال، أخبراني بما توصلتما إليه.

لوسيل "ضاحكة": نعتقد أن الغرف المختلفة هي الثقافاتُ المختلفة، والرعايا هم الناسُ البسطاء الذين يشكلون الغالبية الساحقة من البشر عبر كل العصور.

[59] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": عظيم. ومن هم الخارجون.

لوسيل: دعنا نقل أنهم المثقفون بالمصطلح المعاصر. وفي الواقع، هذه النقطة بالتحديد اختلفنا عليها، داني وأنا، لأن هؤلاء الخارجين كما يبدو لنا أنواع. فمنهم من اشتراه ثالوث قمع، ومنهم من خرج من الغرفة فقط دون صعودِ البرج ثم عاد. ومن صعدَ البرجَ منهم فهم أنواعٌ أيضا؛ فهم على مستوياتٍ مختلفةٍ من الارتفاع وعلى درجاتٍ متفاوتةٍ من البصيرة. فمنهم قاصرُ النظر، ومنهم ذو الهمةِ العالية، ومنهم المتجاسرُ، ومنهم المتخاذلُ، وهلم جرا. لكن موضعَ الخلافِ بيننا هو، لو كان تحليلنا صائباً وهؤلاء هم المثقفون، فهل يمكن أن يكونوا مختلفين بهذا الشكلِ في الواقع، على افتراض أن قصتك الرمزية، كما أشرت قبل خلودك إلى النوم، هي ترميزٌ للواقع؟

[60] **رجل الكهف:** سأجيبُ على تساؤلكِ لاحقاً، لكن أخبريني الآن ما هو البرج؟

لوسيل: يبدو لنا أن البرجَ هو المعرفةُ الإنسانيةُ المتراكمةُ عبرَ التاريخ. وجدرانه هي المدارسُ الفكرية المختلفة التي تم تطويرها، إذا أمكننا استعارة مصطلح "مدارس فكرية" وتطبيقه على كلِ الجهودِ البشرية في محاولاتِ المعرفة على اختلافِ طرائقها حول العالم وعبر التاريخ.

[61] **داني:** لكن ما هو ذلك الدرج الحلزوني في أعلى البرج؟

رجل الكهف: إنه المنهج العلمي يا صاح. ألم ترى كيف تمكّن المنهج العلمي من تغيير معرفتنا عن العالم، بل وتغيير واقعنا، في زمنٍ قياسي بأضعاف ما حصلَ من مجمل التغيير على مدى التاريخ

البشري السابق له كله؟ ألم ترى كيف أنه جعلنا نبصرُ الحقائق التي لم يعرفها السابقون الذين كان كلّ منهم متمسكاً ببعض الأفكار ويدعي أنها حقائق مطلقة؟ ألم ترى أنه قد أنهى الجدلَ التاريخي بين المدارسِ الفكريةِ المختلفة. هذا وأنه ليسَ حكراً على أحد، بل يستطيعُ أي شخصٍ، من أي غرفة، أن يصعد عليه ويتابع بناءه؟

[62] **دالي**: صدقت. لكن لم تخبرنا من هو ثالوث القمع؟

رجل الكهف: إنه السلطاتُ السياسيةُ والدينيةُ والاقتصادية.

[63] **لوسيل** "متعجبة": ماذا! هل تريدُ أن تقولَ إن هذه السلطات الثلاث هي دائماً متفقةٌ مع بعضها على حساب مصالح الشعوب؟

رجل الكهف: نعم هذا صحيح. مع وجودِ استثناءاتٍ طفيفة -كاستبدال الدين بأيديولوجيا معينة مثلاً- قد نبحث فيها إذا تحدثنا عن الموضوع بالتفصيل. لكن بشكلٍ عام، إنهم دائماً وأبداً يشكلون مثلثاً زاويته العليا هي الاقتصاد وزاويتاه القاعديتان هما السياسة والدين. هذا الثلاثي متضافرٌ دائماً وأبداً بشكلٍ لا يمكن فصله. فكما أن للعملة المعدنية وجهان لا يمكن أن يُختزلا، فهذا الثلاثي يشكلُ مثلثاً لو سُحِبت إحدى زواياه لفقد ماهيته كمثلث؛ أي، لما عاد له وجود. هذا وإن العاملَ الاقتصادي كان ولايزال رأسَ هذا المثلث، والذي يرتكز على زاويتين يحملانه نُسميها السياسة والدين. أو لنقل بدقةٍ أكبر، إن الهدفَ الذي يجمع هذا الثلاثي هو الهدف الاقتصادي، ولولاه لما كان هناك من سلطةٍ دينيةٍ ولا سلطةٍ سياسيةٍ في أي مكانٍ وفي أي زمان.

لوسيل "بذهول": لم أفكر بالأمر على هذا النحو مطلقا.

[64] **دالي**: وماذا عن الخارجين؟ هل هم المثقفون كما أشارت لوسيل؟ وإن كانوا كذلك، فلِمَ هم مختلفون هكذا؟

رجل الكهف: على الرغم من عدم وجود تعريفٍ دقيقٍ مُتفقٍ عليه للمثقف، إلا أنه يمكنني أن أوافقكما الرأي وأقولَ إن هؤلاء الخارجين كلهم هم من يعتبرهم الرعايا البسطاء مثقفين. ولكنهم، كما هو واضح، ليسوا صنفاً واحدا؛ فبعضهم عملاء فقط لثالوثِ قمعٍ ما وهم ليسوا بمثقفين، غالبيتهم لم يصعدوا البرج، بل لم يقتربوا منه. هؤلاء هم الذين يُخرجهم الثالوث إلى خارج الغرفة ثم يعيدهم إلى الداخل ليُكسبهم حلّة المثقف ويُسوّقهم بين الرعايا على أنهم مثقفون. تراهم على شاشاتِ التلفاز في كل مكان، يتكلمون بمصطلحاتٍ رصينةٍ عصية الفهم على عامة الناس، يمتلكون كاريزما ودعاية إعلانية تجعلُ الرعايا يصدقون أقوالهم؛ وبالتالي، يشكلون درعاً يمنعُ الناس من تصديق من صعد البرج في الواقع. ولديك من صعد أحد جدران البرج ووصل إلى ارتفاع ما وتوقف؛ هذا الذي قرأ بعضَ الكتب في مجالٍ ما واعتبر نفسه امتلك الحقيقة. ولذا، فإنك ترى أمثال هذا المثقف يتشاجرون فيما بينهم، كلّ منهم يدعي أنه امتلك الحقيقة. كيف لا وهو قد باشر فعلاً صعود البرج! ومعظمُ هؤلاء أيضاً يمكن أن

يصبحوا بسهولةٍ تابعين لواحدٍ على الأقل من أركان ثالوث القمع، أو أن يُجنَّدوا لحسابه، أو أن يكونوا مجرد داعمين له لقصورٍ في نظرهم.

[65] **داني:** ولهذا إذن، إن أولئك الذين تابعوا الصعودَ ووصلوا سطح البرج وتمكنوا من رؤية مختلف الاتجاهاتِ لم يعودوا يتصارعون فيما بينهم ولو كان كلٌّ منهم من غرفةٍ مختلفة؛ أي، من ثقافةٍ مختلفة.

رجل الكهف: بالضبط، فكلما ارتقيت صعوداً على البرج كلما اتضحت لك الصورة الكلية أكثر، ووصولك إلى سطح البرج يجعلك ترى الصورة بشموليةٍ أكبر في جميع الاتجاهات.

[66] **لوسيل:** والشجار بين من وصل سطح البرج وصعد الدرج الحلزوني، وبين من بقي معلقاً على أحد الجدران، هو تلك النقاشات بين من اطلع على العلوم الحديثة، وذلك الذي لا يزالُ عالقاً ببضعة كتب قديمة عفّى عليها الزمان ويرفض الاطلاع على النتاج الإنساني اللاحق؛ أي، على الارتفاعات الأعلى في البرج.

[67] **رجل الكهف:** صحيح، وكم هم كثر في عالمنا اليوم! فتري شخصاً متمسكاً بالمنطق الصوري أو بفلسفة أفلاطون المثالية أو بكتابٍ قديم يقدّسه، ضارباً بكل النتاج الفكري منذ ذلك الزمن إلى اليوم عرض الحائط، وكأن كلّ النتاج الإنساني اللاحق على أفلاطون أو أرسطو أو غيرهما هو بلا قيمة. فنجده قرأ كتابين أو ثلاثة، عمرها بضعة مئاتٍ من السنين أو بضعة آلافٍ منها، ثم جلس في بيته رافعاً أنفه معتبراً نفسه امتلك المعرفة الكاملة. وطبعاً، هو بالمقارنة مع العوام من الناس لاريبَ مثقفٌ نسبياً، فمن قرأ كتاباً هو مثقفٌ أكثر ممن لم يقرأ أي كتاب. لكنه حتماً لا يملكُ أي وزنٍ ثقافي مقارنة بمن تابع صعود البرج ووصل السطح ثم صعد الدرج الحلزوني. فمن تكلف عناء صعودِ البرج لمراحلَ أعلى لا شك أكثر ثقافة ممن لم يفعل.

[68] **داني:** توصيفك دقيق. ويمكنني أن أستحضرَ في ذهني أمثلة لا حصرَ لها لجميع النماذج التي ذكرت والتي لم تذكر. لكنني دائماً ما أسألُ نفسي: كيف يمكن للبشر أن يكونوا بهذا الاختلاف في مداركهم وجميعهم، إذا استثنينا ذوي الأمراضِ الدماغية، لديهم أدمغةٌ يُفترَضُ أنها تعمل بنفس الكفاءة كما تهضم أمعائهم بنفس الكفاءة على وجه التقريب. أو لنقل، إني أتفهم وجودَ اختلافات طفيفة في المحاكماتِ العقلية للبشر ناتجٌ عن اختلافات تركيباتهم الجينية، لكن ليس أن تكون اختلافات صارخة في طرق تفكيرهم. لا نجدُ هذه الاختلافات الصارخة في طرق عمل أيديهم وأرجلهم وأمعائهم كما نجدها في أدمغتهم. هل لديك أي تفسير لهذا؟

[69] **لوسيل:** كلامُ داني صحيح. كيف نجدُ الناسَ مقتنعين تمامَ الاقتناع بأمورٍ متناقضة وكلٌّ منهم يدعي أنه استعملَ عقله ووصلَ إلى تلك القناعات؟ لن نجدهم متفاوتين بهذا القدر إذا ما سُئِلوا عن آرائهم في جمال منظرٍ طبيعي أو في المتعة الجنسية أو في حب الأم لابنها مثلاً، أليست كلها أمور عقلية؟ كيف تتشابه في أمور وتتباين في أخرى؟

ما المثقف؟

[70] **رجل الكهف:** بدايةً، لا يوجدُ شيءٌ اسمه العقل؛ هذا مصطلحٌ ميتافيزيقي. ولو سمعتماني أو سمعتما عالِماً يستخدم هذا المصطلح، فهو استخدامٌ اصطلاحي تبسيطي لحسب نقصد به الأقسام المسؤولة عن التفكير في الدماغ. هذا لأن الدماغ هو المسؤولُ لوحده بأقسامهِ المختلفةِ -مع ملحقاته من التجهيزاتِ الأخرى في الجهاز العصبي- عن القيام بجميع الوظائف التي كان الناسُ يقسّمونها تاريخياً بين أمورٍ عقليةٍ وأمورٍ قلبية. لذا، لجميع مشاعركِ وذكرياتكِ وأفكاركِ وآمالكِ وأحلامكِ وتطلعاتكِ ومخاوفكِ وأحزانكِ وأفراحكِ واحباطاتكِ ونشاطاتكِ وعشقكِ وكرهكِ وجوعكِ وشبعكِ وشهوتكِ الجنسية وجميع ما تختبرينه في حياتكِ هو نتاج عمل دماغكِ لحسب. باختصار، دماغكِ هو أنت. لو بُترت جميع أعضائكِ، تبقين أنت، لا يصبح اسمكِ "لوسيل ناقص كذا من الأعضاء". ولو استُبدِلَ قلبكِ بقلبِ داني لا يصبح اسمك "لوسيل ناقص قلب مضافاً له قلب داني"، بل تبقين أنتِ نفسكِ. لكن لو سُحِبَ منكِ دماغك أو تم استبداله بدِماغ داني فلن تعودي أنتِ نفسك في هذا الجسد، بل سيصبح داني يستخدمُ جسدك. وما الجسد كله إلا عبارة عن أدواتٍ نستخدمها للحفاظِ على الدماغ حياً، كما ولإدخال البيانات له واخراجها منه.

داني "ضاحكا": كلا أرجوك، لا تضع دماغي في جسدها؛ فإني أخشى آلام الطمث.

[71] **لوسيل** "منزعجة": لا تشتت الموضوع يا داني. ما قصدك بإدخال البيانات له واخراجها منه؟

رجل الكهف: حسناً، دعونا نقارب الموضوع مع الحواسيب. في الحواسيب، لدينا وحدات إدخالٍ كلوحات المفاتيح، ووحدات اخراج ككبرات الصوت. وأحياناً يكون لدينا وحدات إدخالٍ وإخراج في نفس الوقت، كالشاشاتِ التي تعمل باللمس. ولدينا في كل حاسوب وحدة معالجةٍ مركزية. كما وذاكرة قصيرة الأمد تسمى ذاكرة الولوج العشوائي، وذاكرة طويلة الأمد هي وحدة التخزين الرئيسية. هذا ولابد من وجود وحدة إمدادٍ بالطاقة كي تعملَ المنظومة بأكملها. هل أنتما على دراية بهذه الأمور؟

داني "بزهو": بكل تأكيد.

[72] **رجل الكهف:** عظيمٌ جداً، وبالمثل عند البشر، كما جميع الحيوانات الأخرى. فيدي مثلاً تعملُ الآن كوحدة إدخالٍ عندما أستشعر بها حرارة كوب القهوة ونعومة ملمسه، وكوحدة إخراج عندما أحركها الآن لألتقط الكوب ثم أرفعه كي أوصله إلى فمي فأرتشف منه. لساني يعملُ الآن كوحدة ادخالٍ ليُعلم دماغي بمذاق القهوة، وكوحدة إخراج بتحركه الآن متفوهاً بالكلام الذي أقوله. جهازي الهضمي يعملُ متكاملاً، بالإضافة لبعض الأعضاء المساندة، لمد جسدي بالطاقة التي يستأثر دماغي لوحده بحصة الأسد منها. أذناي وعيناي يعملان كوحداتِ إدخال بحيث أسمعكما وأراكما. وهكذا بالنسبة لباقي الأعضاء. وما يحصل فعلياً، هو أن دماغي يقوم في كل لحظةٍ بعمليةِ معالجةٍ للبيانات التي تمدني بها وحدات الإدخالِ المختلفة، بناءً على ما يوجد في ذاكرتي قصيرة الأمد التي تحتفظ بنسخ عن كل المدخلات -أو لنقل، إنها تمر من خلالها تماماً كما يحصل في الحاسوب- وعلى ما يوجد في ذاكرتي طويلة الأمد من معلوماتٍ مخزنة؛ وبهذا، يستخلصُ حُكماً ويعطي الأوامرَ لوحداتِ الإخراج لتتحرك

بالطرق التي يراها مناسبة. هذا ويمتلك الدماغ خاصية تسمى نظام الترشيح؛ حيث يقوم بتجاهل معظم المدخلاتِ التي تصله لحظياً ويتعاملُ مع ما يراه مهماً منها فقط. لكن الاستفاضة في هذا الموضوع ستأخذني بعيداً عن الإجابة على سؤالك. على أي حال، أتمنى أن تكون هذه الفكرةُ الاستطرادية قد اتضحت.

دالي "مفكرا": أعتقدُ هذا، دعنا نكمل لنرى.

[73] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": إذاً، كي لا نُعقّد الموضوع، دعنا نرجع إلى الدماغ نفسه بعيداً عن تعقيداتِ علم الأعصاب وتقسيماتِ الدماغ والجهاز العصبي التشريحية. وبهدف التبسيط، اسمح لي بتقسيم الدماغ ميتافيزيقياً، لأغراض هذا البحث، إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أولها قسمُ الغرائز؛ وهو القسمُ المسؤولُ عن إدارة جميع الوظائف الحيوية في الجسم. هذا القسمُ موجودٌ بفعاليته الكاملة عند جميع الحيوانات، حيث إنه ضروري لبقاءِ الكائن الحي وتكاثره. ولو أصابه خللٌ أدى إلى إعاقته عن أداء هذه المهمة، فمصيرُ الكائن الحي هو الهلاكُ المحتومُ أو عدم نجاحه في التكاثر. لذا، فإن الانتقاء الطبيعي قد شرع بالحفاظِ عليه بدءاً من أشكاله البدائية كعناقيد عصبية في اللافقاريات البسيطة وصولاً إلى أشكاله المتطورة عند الرئيسيات. دعني أشبه لك هذا القسم ببرنامج التشغيل الأساسي لحاسوبك، فحاسوبك عبارةٌ عن خردةٍ دون هذا البرنامج. لذا، فعندما تشتري أي حاسوب جديدٍ لا بد وأن يكون عليه نظام تشغيلٍ يتعرف على جميع تجهيزات هذا الحاسوب كي يتيح لك التعامل معه. لكن قسمَ الغرائز هذا عند الكائنات الحية لم تطوره مايكروسوفت ونظيراتها، بل طوره الانتقاءُ الطبيعي. وعليه، فكلُ كائنٍ حي يولدُ ولديه قسمُ الغرائز هذا مكتملٌ -باستثناء ذوي الأمراض أو التشوهات الدماغية ذات الصلة، والذين لولا الطبُ الحديث لقضى على حيواتهم الانتقاء الطبيعي الذي لا يرحم أحدا- وهكذا، فأنت ترى الوليدَ يبكي ويلتقف ثدي أمه ولاحقاً يضحك ويخاف وينام ويستيقظ ويأكل ويشرب، ثم يبلغ جنسياً فينجذب لفرد آخر ويعشق ويمارس الجنس ويحب أطفاله ويرعاهم، إلى آخر ما هنالك من أمورٍ نتشارك بها مع أفراد عائلتنا الحيوانية الكبرى دون الحاجة فعلياً لأن نُعلّمه أياً منها.

[74] **لوسيل** "بحماس": جميلٌ جداً، وماذا عن القسم الثاني؟

رجل الكهف: القسمُ الثاني هو قسمُ الذاكرة. والذي بدوره ينقسمُ إلى قسمين تماماً كما في الحاسوب: ذاكرة قصيرة الأمد أستخدمها الآن لأتذكر مكان كوب القهوة بجانبي، وأتذكر سؤالكِ هذا كي أجيب عليه. وأخرى طويلة الأمد أخزن فيها المعلومات التي سأحتاجها لاحقاً، كأن أخزن صورتيكما وصوتيكما واسميكما وهذه الجلسة اللطيفة، وأخزن فيها الكتب التي أقرأها ومكان كهفي في الغابة؛ وبالتالي، عندما أراكما في المستقبل -إن لم يصب العطبُ ذاكرتي- سأتعرف عليكما ولن أعتبركما غرباء بعد اليوم. وهذه الذاكرة تتفاوت بين الكائنات الحية، فكلما اتجهنا نحو ما يُسمى خطأً "المراتب الأدنى" في المملكة الحيوانية نجدها تقل كثيرا. ألا تلاحظا هذه الذبابة المزعجة؟ إني أحاولُ إبعادها عني منذ أن

ما المثقف؟

جلست هنا لكنها تأبى إلا أن تعود. إنها ليست عنيدة، ولا يوجد عداءٌ شخصي- بيني وبينها، لكنها ببساطةٍ تمتلك ذاكرة محدودة جداً لدرجةٍ أنه في اللحظة التي تلي إبعادي لها تنسى هذا وتحاول أن تعود من جديد وكأن شيئاً لم يحدث. بالنسبة لها، هي فعلاً تراني للمرة الأولى في كل مرة تهاجمني بها، ولا يمكنني لومها على هذا.

دالي "ضاحكا": كنتُ دائماً أقولُ إن الذباب كائناتٌ تقصدُ إزعاج الناس. يبدو أني ظلمتهم!

[75] **لوسيل** "بتركيز": وما هو القسمُ الثالث في تقسيمك الميتافيزيقي للدماغ؟

رجل الكهف: إنه قسمُ المعالجة؛ أو بالمصطلح الحاسوبي "وحدة المعالجة المركزية". هنا، نقوم بجميع المحاكماتِ العقلية التي تتضمنُ التفكيرَ والتحليلَ والتفسيرَ ومحاولة استخلاص النتائج. وكحال قسم الذاكرة، يتناقصُ هذا القسمُ لدرجة الانعدام كلما تدرجنا نحو "الأدنى" في المملكة الحيوانية.

[76] **لوسيل** "مفكرة": هل له أقسامٌ أيضا؟

رجل الكهف: نعم، إنه يحتوي على ثلاثة مهاراتٍ مختلفة: أحدها مسؤولٌ عن المحاكماتِ السريعة، أو ما يُسمى سرعة البديهة. والآخر مسؤولٌ عن التحليل المعمق المركز في موضوع واحد. والثالث مسؤولٌ عن التفكير الموسوعي؛ أي، ربط أمور مختلفة ببعضها وإيجاد علاقات منطقية ودالية بينها للخلوص إلى نتيجةٍ مشتركةٍ من هذه الأمور أو المجالاتِ المختلفة. وليس بالضرورة مطلقاً أن يكون الشخص نفسه بارعاً بهذه المهارات كلها على قدم المساواة، بل يندرُ أن يكون هكذا. فكثيراً ما نجدُ شخصاً ذا سرعة بديهة مثيرة للإعجاب لكنه غير قادر على التفكير بمنهجيةٍ سليمةٍ أو تحليلِ أي أمرٍ تحليلاً عميقاً، والعكسُ صحيح. كما إنكِ قد تجدين شخصاً بارعاً جداً في ربطِ أمورٍ مختلفةٍ ببعضها ربطاً منطقياً واستخلاص نتائج مشتركة من ميادين معرفية مختلفة لكنه لا يستطيع تركيز جهوده هذه بعمق في صميم أمر واحدٍ بعينه. والأغلبُ أن جميع الناس لديهم نِسبٌ متفاوتةٌ من هذه المهارات الثلاث، ليشكلَ مجموع هذه النسب وحدة المعالجة المركزية الكلية لديهم.

[77] **دالي** "مفكرا": لطالما عجبتُ من مقولةٍ لتشارلز داروين يقولُ فيها: "أنا لا أتمتعُ بسرعةٍ كبيرة للتفهم أو للبديهة... وقدرتي على متابعة سياق طويلٍ وتام التجريد من الأفكار محدودةٌ جدا... ولكنني أتفوق على النسق الشائع من الناس في مقدرتي على ملاحظة الأشياء التي تغيبُ بسهولةٍ عن الانتباه، وعلى مراقبة هذه الأشياء بدقة". لم أكن أستطيع تصديقها، لكني أتوقع أني بت أفهمها الآن.

[78] **رجل الكهف**: صحيح، فالأشخاصُ مختلفون في مهاراتهم الذهنية لأسباب بيولوجية وبيئة. فقطعاً لم يكن داروين غبياً كما قد يتضح للوهلة الأولى من هذا الاقتباس، ولا شك في أنه من أذكى الأشخاص الذين مشوا على هذا الكوكب البائس، لكن قدراته الفكرية فائقةٌ جداً في حدودٍ معينة، وقد تكون ضئيلة جداً في حدودٍ أخرى. وهذا ينطبق على نسبةٍ كبيرة من الأعلام الذين خلّدهم التاريخ، تماماً كما ينطبق على العامةِ من الناس، وهو ناتجٌ عن تفاوتٍ في نسب المهارات المختلفة لأقسام المعالجة لديهم.

[79] **دالي:** هل يمكننا بالمثل تفسيرُ وجود أشخاصٍ ذوي ذاكراتٍ قوية لكنهم لا يستطيعون استخلاصَ أفكارٍ أصيلة، وآخرون لديهم أفكارٌ أصيلةٌ لكنهم لا يملكونَ معرفة كبيرة؟

رجل الكهف: صحيح. فقد تجدُ شخصاً عني بتدريب ذاكرته بشكل كبير لكنه أهملَ تماماً قسم المعالجة. فتراه حافظاً لقدر مهولٍ من المعلوماتِ بدقةٍ بالغة، وإذا ما سألته عن شيءٍ ما، فإنه بسرعةٍ يقلّبُ في أرشيف مكتبته الذهنية ويعيد تكرارَ ما قرأ أو سمع عن الموضوع. فيقول لك ورد في الكتاب الفلاني الصفحة الفلانية كذا وكذا، وقال فلانٌ في المكان الفلاني والتاريخ الفلاني كذا وكذا. إنه قادرٌ على استحضار المعلوماتِ المخزنة في ذاكرته بطريقةٍ مثيرة للدهشة، لكنه غير قادر على استخلاص أي أفكار جديدة مما هو مخزن فيها. فهو لم يعنى بتدريب قسم المعالجة كما عني بقسم الذاكرة. فمثله كمثل حاسوبٍ مزودٍ بمعالج قديم من جيل بينتيوم الثاني لشركة إنتل لكنه يمتلك قرصاً صلباً ذا سعةٍ مهولة. إن هذا الحاسبَ بلا ريبٍ ليس حاسوباً سترغبُ في اقتنائه؛ فمع أن ذاكرته قد تحتوي على كل ما تريد، لكنك لن تستطيع العمل عليه بحريه، فمعالجه لا يستطيع مساعدتك في شيء. وفي المقابل، تجدُ شخصاً لديه قسمُ معالجةٍ مثيرٌ للإعجاب، فتراه يفكر في أعمق الأمور أو يستطيع إيجاد روابط منطقية بين أمور متنوعة ببصيرة نفاذة لكنه، وللأسف، لم يعنى بقسم الذاكرة؛ فذاكرته فارغةٌ لا توجدُ فيها معلومات، فتراه يتخبطُ في أفكاره ولا يصلُ إلى أي مكان. كيف لا وهو لا يمتلكُ المعلومات ذات الصلة التي يجبُ على قسم المعالجة العمل على الاستفادة منها للخلوص إلى أفكار مفيدة؟ فمثله كمثل حاسوبٍ مزودٍ بمعالج ثماني النواة ذي سرعةٍ فائقة لكن قرصه الصلب شبهُ فارغ، ما الذي ستستفيده من هكذا حاسوبٍ لا يحتوي على أي معلوماتٍ أو برامج مفيدة؟

[80] **دالي:** عملياً، لن أستفيدَ شيئاً من هذين الحاسوبين سوى التباهي باحتواء الأول على كم هائلٍ من المعلومات والتباهي بسرعة المعالجة التي يستطيع الثاني القيام بها. لكن كلاهما لن يكونا ذوي فائدةٍ عملية تذكر.

[81] **رجل الكهف:** وبالمثل هذان الشخصان. لن يستفيدَ المجتمع منهما شيئاً سوى التباهي بما يحفظه الأول والتباهي بما يستطيع الثاني التفكير فيه. وبالمثل أيضاً، من لديه سرعة بديهة عالية جداً لكنه غير قادر على تبصر أي أمور تحتاج تفكيراً، والآخر البليدُ تماماً لكنه قادرٌ على معالجة أعمق الأمور وأعقدها، وهكذا دواليك. فأنت ترى أصنافاً من الناس مختلفين في مداركهم وقدراتهم الذهنية، بقدر اختلافهم في عنايتهم بما تحتويه ذاكراتهم والأقسام المختلفة من معالجاتهم الدماغية. قم بحساب المزيج الاحتمالي رياضياً وسترى كم صنفاً مختلفاً يمكنك أن تقابل من الناس.

[82] **لوسيل** "بدهشة": كلامك هذا يفسرُ الكثير، لم أنظر له على هذا النحو مطلقاً من قبل. لكن أي منهم هو المفضل برأيك؟ أي منهم هو المثقف الذي يُحدث فرقاً في المجتمعات؟

رجل الكهف: مزيجٌ معتدلٌ من العناية بجميع الأقسام. هذا ويمكنني، نوعاً ما، استثناء سرعةِ البديهةِ على أنها ليست أساسية في بناء عقلية المثقف الموسوعي، فهذه المهارة لها فائدتها القصوى في

المفاوضات التجارية والمناظرات وغيرها من الأمور التي تتطلب معالجة لحظية أو تهدف إلى إفحام الخصوم. لكن الباحث لا يهدف عملياً إلى إفحام أحد، هو يهدف إلى المعرفة واستخلاص نتائج جديدة ذات فائدة للبشرية. لذا، وجب عليه العمل أولاً على جمع كل المعلومات ذاتِ الصلة بموضوع بحثه، ثم العمل على معالجتها معالجةً عميقةً لكلٍّ منها، ثم معالجةً موسوعيةً بربطها ببعضها. هذا وإن توافر دقة ملاحظةٍ ضروريٌّ لاستبصار ما عمي عنه الآخرون. وهنا فقط يمكننا الوصول إلى فكرة أصيلة مفيدة.

[83] **دالي** "مفكرا": هل لك أن توضح أكثر.

رجل الكهف: إن ذلك الذي يرشقنا بأفكاره "الأصيلة" دون أن يكون مطلعاً على المعلوماتِ ذاتِ الصلة، فأفكاره بلا قيمة. ربما كان لهذا النمط من الأفكار قيمةٌ ما في بداية التاريخ البشري، عندما لم يكن هناك من معلوماتٍ مسبقةٍ على أي حال. لكن في المراحل اللاحقة، وجبَ على كلِ "مفكرٍ" أن يطلّع على النتاج البشري السابق له قبلَ أن يقوم باستخراج أفكار جديدة. فالدماغ البشري بقدراته الذاتية سيكون قاصراً في إنتاج الأفكار بناء على التجارب الشخصية، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها كأفكارٍ عامة. ومهما كان الإنسان موضوعياً في بحثه، فإن القدرات الفكرية المتشابهة للبشر، والبيئات المحيطة بهم المتشابهة على كوكب الأرض، ستعيدُ عند الأفراد المختلفين التفكير بنفس الأمور. فإن هم لم يطّلعوا على النتاج الفكري السابق، فجلُّ ما يفعلونه هو إعادة انتاج أفكار ومجادلاتٍ موجودةٍ مسبقاً، وغالباً قد تمت معالجتها ونقدها؛ لذا، فإن جهدهم هذا هو بلا قيمة عملياً. فكم من فكرة قد وصلتَ إليها ذاتياً وكنتَ تطيرُ فوق السحاب فرحاً بما تبصرت، وإذ بك تصادف كتاباً قديماً قد عالجها منذ قرون! وكم من ابتكار، عظيم أو بسيط، قد حصل في مكانين مختلفين من العالم بتطابق شبه تام؟ ناهيك عن التطور العلمي الذي وصلنا إليه اليوم، والذي لم نصل إليه لا عن طريق التفكير الذهني المحض، ولا الجدالاتِ الكلامية، بل عن طريق العمل الدؤوب في المخابر العلمية. وبالتالي، لا يمكن اليوم غض الطرف عن الرجوع إلى النتاج العلمي أثناء تفكيرنا في أي أمر على الإطلاق. ولا نستطيع كذلك أن نغض الطرف عن الجدالات الفلسفية التي قامت بها أهم الأدمغة البشرية عبر التاريخ. وكذا بالنسبة للمنطق وتطوره، وتطوراتِ نظرية المعرفة، والأخلاق. ولا ننسى الاكتشافاتِ الأنثروبولوجية والأركيولوجية والإيكولوجية والجيولوجية والكوزمولوجية والبيولوجية والسيكولوجية والفيزيائية والكيميائية والقائمة تطول لتشمل مختلف مناحي المعارف الإنسانية. من يقرر تجاهل كل هذه المعارف والخبرات المتراكمة والركون إلى دماغه، معتمداً على قدراته الفكرية لاستنباط أفكار "يعتقد أنها" جديدة، فمن العدل أن يُعاملَ بالمثل بأن يقرر المجتمع الإنساني تجاهله.

[84] **دالي** "موافقا": فعلاً، هذا عادلٌ تماماً، فهو قد قرر تجاهل نتاج الفكر الإنساني في البداية.

لوسيل "مفكرة": صحيح، فهناك ما يزيد على سبعة مليارات إنسان يعيشون اليوم. فلو كان على المجتمع البشري أن يتعامل مع جميع الأفكار التي يولّدها أكثر من سبعة مليارات دماغ بشكلٍ مستقلٍ على قدم المساواة، لأوقف نشاطه كله في محاولةٍ لتنظيم هذه الفوضى الفكرية.

في أقسام المصنع

[85] **رجل الكهف:** اسمع مثلاً رأي كارل بوبر في الطريقة الأمثل للمعرفة كما أوضحها في "منطق البحث العلمي": "... تقوم ببساطة على محاولة البحث عن تأملات الآخرين وأقوالهم حول المشكل المطروح: كيف اعترضتهم، وكيف صاغوه، وكيف حاولوا حله. يبدو لي هذا كخطوة أساسية في الطريقة العامة للمناقشة العقلانية. لأننا إذا كنا نجهل تفكير الآخرين، المعاصرين ومن سبقهم؛ فمعنى هذا، توقف المناقشة العقلانية واكتفاء كلٍ منا بالحديث إلى نفسه...". ويقولُ في حق من يفعل هذا: "... يفتخرُ بعض الفلاسفة بمحادثاتهم الذاتية لاعتقادهم، على ما يبدو، بعدم وجود من يستحق التحاور معه. إلا أنه من الممكن كذلك النظر إلى هذا المستوى العالي من التفلسف كأحد أعراض تهافت النقاش العقلاني. ما من شك في أن الإله لا يخاطب إلا ذاته. على الأغلب لعدم وجود من يستحق التحاور معه. إلا أنه على الفيلسوف أن يعلم أن ليس فيه ما يؤلهه أكثر مما في سواه من الناس".

دالي "مذهولاً": هذا نقدٌ لاذع. وإن كان يصدق على كبار الفلاسفة. فمن باب أولى أن ينطبق على من هم دونهم.

[86] **رجل الكهف:** لا شك في هذا. يقول محمد عابد الجابري في كتابه "المثقفون في الحضارة العربية": "المثقف شخص يفكر، بصورة أو بأخرى، مباشرة أو لا مباشرة، انطلاقاً من تفكير مثقف سابق: يستوحيه، يسيرُ على منواله، يكرره، يعارضه، يتجاوزه... إلخ. ليس هناك مثقف يفكر من الصفر. التفكيرُ تفكيرٌ في موضوع، والموضوع إما أفكار وإما معطيات الواقع الطبيعي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي... إلخ. فإذا كان الموضوع هو الأفكار والآراء والنظريات التي قال بها مثقفون في زمنٍ مضى أو في الزمن المعاصر، فإن المثقف الذي يفكر في مثل هذا الموضوع يعملُ هنا داخلَ مرجعيةٍ ثقافية. أما إذا كان الموضوعُ من معطيات الواقع، فإن التفكيرَ فيه يتم بتوسط مفاهيم ونظريات وآليات في التفكير ترتبط، ولابد، بمرجعياتٍ معرفيةٍ معينة".

[87] **دالي:** إذاً، في كلتا الحالتين لابد من وجود مرجعياتٍ ما. لكني لم أفهم قصده ب "... التفكيرُ تفكيرٌ في موضوع..." لا يبدو لي هذا تعريفاً!

رجل الكهف: صدقت، إنه ليس بتعريف سليم. لكنه اتبع الفيلسوف إدموند هوسرل الذي بنى فلسفته على جملة منطلقاتٍ من أشهرها قوله: "الشعورُ هو دوماً شعورٌ بشيء". لذا، يعقبُ الجابري بقوله: "أجل، (التفكيرُ هو دوماً تفكيرٌ في شيء). لكن يجبُ أن نضيف: (في إطار مرجعيةٍ فكريةٍ ما أو استناداً عليها)، إذا كنا نقصدُ التفكيرَ (العالم)؛ تفكيرَ العلماء. وعندما يتعلق الأمر ب (المثقف) الذي مهنته (التفكيرُ في الأفكار) فإن الأفكار التي يفكر فيها أو يوحي منها، معها أو ضدها، هي أفكار مثقفين آخرين، سابقين عليه أو معاصرين له، هم مرجعيتها...". ويضيف فكرةً غايةً في الأهمية وهي: "... وليس المقصودُ بالمرجعية أشخاص المثقفين، بل الإطار أو النسق الخاص الذي تناولوا داخله الفكرة التي ترتبط بهم بوصفهم مرجعيةً لها. ففكرة (كل شعورٍ هو شعورٌ بشيء) التي ترجع إلى هوسرل لا تكتسبُ دلالتها الخاصة من خلال نسبتها إلى هذا الرجل كشخص، بل من خلال موقعها

(وضعها، ودورها) في فلسفته ككل...".

[88] **داني**: هل لك أن تشرح أكثر؟

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": في عالم الفكر، لا وجودَ للأفرادِ كأفراد، بل وجودهم فقط كمنتجين للأفكار. فكما أنه في عالم الصناعة أنت تحاكم وتقيّم المنتجات وليس من شأنك محاكمة الآلات التي تصنعها، فكذلك الأمرُ في عالم الأفكار؛ أنت تقيّمُ وتتعاملُ مع الأفكار بمعزلٍ عن الشخصنة. فإن قال لك طبيبٌ مدخّن أن التدخين مضرٌ بالصحة، فإن فكرته هذه صحيحةٌ طبياً ولو لم يطبقها على نفسه. ليس من شأنك إن كان يطبقها هو أم لا. ولو قال لك إمبراطورٌ أن غزو مملكة أخرى هو عينُ الفضيلة، فإن مجرد كونه إمبراطوراً لا يجعل كلامه هذا مقارباً لأي صواب، بل يُحتم عليك واجبك الأخلاقي الوقوف ضده. وإن قال لك فيلسوفٌ أن المرأة أدنى من الرجل قيمةً بطبيعتها، فإن كونه فيلسوفاً لا يجعلُ رأيه هذا مقارباً لأي حقيقةٍ علميةٍ قد تم اكتشافها في هذا السياق، على أنه قد يقولُ هو نفسهُ فكرةً أخرى حكيمةً جداً وصائبة، فكونه قد قالَ تلك الأولى لا يجعل بالضرورة الثانية غير حكيمة، بل تُعاملُ كلٌ منهما على حدة.

داني "موافقا": كلامٌ مقنعٌ إلى أبعد الحدود.

[89] **رجل الكهف**: إلا أنه يمكنك البحث عن سبب جودة منتج ما أو سبب إخراجه بهذه الحلّة أو تلك، فيمكنك لهذا الغرض أن تبحث في الآلة التي صنعته. وكذلك الأمر في عالم الأفكار؛ عندما تريدُ فهمَ لماذا وكيف برزت هذه الفكرة إلى الوجود، فأنت تبحث في قصة صاحبها. باستثناء هذه الحالة، فقيمة الأفكار معزولةٌ تماماً عن أي مكاناتٍ إجتماعية لأصحابها وعن سيرهم الذاتية، لكنها مرتبطةٌ بالضرورة بسياقها التاريخي والمكاني في قصةِ الثقافةِ الإنسانية ولا يمكن فهمها خارجه.

داني "بإعجاب": ملاحظةٌ قيمة.

[90] **رجل الكهف**: وإذ ذاك قد قيلَ فيمن لا يريدُ الاطلاع على نتاج غيره، فلدينا الحالةُ المرفوضةُ أيضاً والتي هي على النقيض من ذلك. لأن كلّ ما يقومُ به من تركزت عنايتهُ على الحفظِ فقط هو تكرارُ معلوماتٍ قديمة. وجهده هذا هو بلا قيمةٍ للمجتمع، لأن هذه المعلومات موجودةٌ مسبقاً وأي منا يمكنه الاطلاع عليها بالعودة إلى مصادرها الأصلية وبثقةٍ أكبر، بجودة ونقاء وصحة المعلومة، من تلك الثقة التي قد نوليها للمعلومة التي يكررها الحافظ، فقد تتعرضُ المعلومة للتشويهِ المتعمدِ أو غير المتعمدِ من قبله.

لوسيل "مؤيدة": صدقت.

[91] **داني**: إذاً، نحن لا نريدُ شخصاً حافظاً لكل قوانين الرياضيات لكنه لا يعرف كيف يستخدمها، ولا شخصاً يريد أن يفرض علينا ما يراه مناسباً لحل المسائل الرياضية، بل نريدُ شخصاً يفهم قوانين الرياضيات ويعرف كيف يستخدمها وكيف يستنبط قوانين جديدة منها. وبالمثل لمختلف المعارف

الأخرى.

[92] **رجل الكهف**: بالضبط يا عزيزي، يجبُ على كل عاقلٍ أن يطلع على جميع النتاج الفكري السابق له ذي الصلة بموضوع بحثه قبل أن يتفوه بأي كلمة. وعندها فقط يجب أخذ أفكاره على محمل الجد. وإلا، فنحن إما نقابلُ ببغاءً يردد كلاماً معروفاً كان قد استظهره، أو نقابلُ رجلاً قادماً من عصورٍ سابقة يقولُ كلاماً قد تمت معالجته.

لوسيل: منطقيٌ جدا.

رجل الكهف: هيا بنا نعد طعام الإفطار.

****

الباب الثالث
في أهليةِ الدماغ لإصدارِ الأحكام

(أثناء تناول الطعام)

[93] **داني**: هل نستطيع الاعتماد على الدماغ لاستنباطِ أفكار وقيم ومفاهيم ذات قيمة إذا ما غني به بالطريقة التي خلصنا إليها قبل قليل؟

رجل الكهف: في الواقع، قد أولي الدماغ البشري، الرائع دون أدنى شك، قيمة تفوق بكثيرٍ قيمته الحقيقية. لقد تم تحميله ما لا يستطيع حمله، واعتُبر من قبل الغالبية من الناس سيداً يمكن الاحتكام إليه، بل وصلَ الأمرُ بالبعضِ إلى تأليهه. لكن يمكنني أن أطرحَ لكما ثلاثة أسباب رئيسية على الأقل تدفعني إلى مخالفتهم في هذا.

[94] **داني** "متحمسا": هاتِ ما عندك.

رجل الكهف: مهما أغرتنا ذواتنا للنظر إلى أنفسنا كبشر على أننا كائناتٌ متفوقة، سادة الكوكب، بل دفعتنا عجرفتنا الساذجة هذه لنرى أنفسنا سادة الكون كله، فإن الواقع يقولُ إننا مجردُ ثدييات أدى بنا عملُ الانتقاءين الطبيعي والجنسي، قانونا الطبيعة الصارمين، للحصول على هذه الأدمغة عبر طريق طويلٍ وشديدِ التعرجاتِ من تاريخ نوعنا منذ أن بدء أسلافنا بشق طريقهم مستقلين عن أبناء عمومتهم من الرئيسيات. فإذا كان ما يميز الأسد، كنتيجةٍ للمسار التطوري لنوعه، هو قوته المهيبة. وما يميز ذكر الطاووس هو ذيله الذي يسلبُ الألبابَ جمالا. وما يميز بعض الطيور، كالصقور، هو عيونها التي قد تصل لثماني أضعاف قدرة العين البشرية، والتي لو كنا نملك مثلها لأمكننا مشاهدة نملةٍ تسيرُ على الأرض ونحن نقف على سطح بناءٍ من عشر طوابق. فبنفس المنظور، تميّز الإنسان بدماغه الكبير.

[95] **لوسيل**: تقصد أن المسار التطوري للكائناتِ المختلفةِ واجه تحديات مختلفة. وعليه، عَمِلت الطبيعة على اتخاذ مسار تطوري مركز على ما فيه فائدةٌ لكل كائن حي في ظلِ ظروفه البيئية الخاصة. وبالتالي، حصلنا على تنوعاتٍ شديدة التباين بين الكائناتِ في ميزاتٍ تتراوح من قدرة البقاء على قيد الحياة بدرجاتٍ تفوق غليان الماء وتتدنى تحت تجمده، إلى كائناتٍ تغير ألوانها، وأخرى ذات سرعة عدو فائقة، وأخرى ذات قدرة على البقاء دون غذاء لفتراتٍ طويلة، وهكذا حصل كلُّ كائنٍ على ما يمتاز به، وما امتاز به الإنسان هو الدماغ.

[96] **رجل الكهف**: ولو أن الأمرَ شديدُ التعقيد، لكن بما أننا لسنا بصدد البحث فيه الآن، فإنني ساكتفي بموافقتكِ على أنكِ قد فهمتِ ما أرمي إليه؛ وهو أن الدماغ البشري، كما لاحظَ الفيلسوف توماس هوبز، عبارةٌ فقط عن نسخةٍ مطورةٍ من نظيره لدى الحيوانات الأخرى. وكما شرح الأمر توماس بينك في كتابه "حرية الإرادة": "إن ما تدور حوله نظرية هوبز هو أن البشر لا يختلفون عن

الحيوانات الأخرى إلا في كونهم نُسخاً أكثر تعقيداً من الشيء نفسه. فالاختلافاتُ في الذكاء والقدرة بيننا وبين الحيوانات هي اختلافاتٌ في الدرجة وليست اختلافات في النوع. وينكر هوبز أننا نمتلك أية ملكاتٍ نفسية تختلف اختلافاً جذرياً عن أي قدراتٍ لدى الحيوانات... فهو يرى أن الفعلَ الإنساني مجردُ صورة أكثر تعقيداً من فعل الحيوان... الفرق الوحيد في حالة الفعل البشري، بفضلِ ذكائنا الأكثر تطوراً، أن الرغبات التي تحث على أفعالنا تكون أكثر تنوعاً وتعقداً في محتواها.". هل نحن متفقون على هذا؟

لوسيل "وهي تضع لقمةً في فمها": بالتأكيد.

[97] **رجل الكهف**: يتضح من هذا إذن، أن أدمغتنا قد تطورت في الغابات لتتعامل مع الأمور التي تهم بقاء الإنسان؛ كالبحثِ عن الطعام وملاحظةِ وجودِ خطرٍ ما والقيام بمحاكماتٍ عقليةٍ للتصرف بشكلٍ مناسب في المواقف اليومية، كما والتعامل مع المجموعة التي ينتمي إليها الفرد ويعيش ضمنها، وصنع الأدوات وتطوير اللغة والتخطيط للمستقبل، إلى ما هنالك من أمورٍ تخدمُ الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها. وعليه، فنحن نستطيع، وبسهولةٍ، مثلاً تقدير الأعداد القليلة التي كان أسلافنا مُضطرين للتعامل معها كما والأحجام المتوسطة الموجودة في بيئة أسلافنا. وبنفس الطريقة، تقدير المسافات القصيرة والأزمنة التي تتناسب وحيواتنا كأفراد. لكن أدمغتنا تقف عاجزة تماماً عن إدراكِ الأرقام والأحجام والمسافات والأزمنة الكبيرة جداً أو الصغيرة جدا. أدمغتنا تقف عاجزة تماماً حتى عن مجرد تخيلها مهما حاولنا وإن كنا قد اعتدنا تكرارها وتبدو لنا طبيعية تماما.

[98] **دالي** "باستخفاف": أستميحك عذراً، لا يمكنني تصديق هذا.

رجل الكهف: أتفهمُ هذا، فنحن قد اعتدنا الحديث عن الذرات وما دونها، والمجرات وما فوقها، والأرقامُ الكبيرةُ في عصرنا الحالي هي أمرٌ نتعاملُ معه بصفةٍ يومية. لكن على سبيل المثال، كي تعد حتى الميون بمعدل رقمٍ واحدٍ في الثانية دون انقطاع، فلن تتلفظ برقم مليون إلا بعد قرابة الأسبوعين من بدء مهمتك. ولو أردت متابعة مهمتك هذه بنفس الوتيرة التخيلية لتصل المليار، فأنت بحاجة لحوالي 32 سنة. وإن كانت همتك عالية وأردت الوصول للتريليون، بنفس الوتيرة التخيلية، فأنت تحتاج فقط إلى حوالي 32000 سنة. ولن أتابع فوق التريليون لأنه من النادر استعمال الأرقام الأكبر منه على نطاق واسع، لكن أترك لك تخيلَ ملايين ومليارات وتريليونات السنوات اللازمة لعد تلك الأرقام الأكبر بمعدل رقمٍ واحدٍ كل ثانية.

[99] **لوسيل** "بتعجب": لكن يستحيل عد هذه الأرقام بمعدل رقمٍ في الثانية!

رجل الكهف: صحيح. فمن جهة إن الأمر يتعلق باللغة التي تعدين بها الأرقام، ومن جهة أخرى فإن الأرقام الكبيرة يستحيل نطقها، بأي لغةٍ في العالم، بمعدل رقمٍ في الثانية. كما إن الأمر يتعلق بسرعتكِ في عد الأرقام. ناهيكِ عن أنكِ، ككائن حي، بحاجةٍ إلى النوم والأكل والشرب ودخول المرحاض على أقل تقدير للحفاظ على حياتكِ أثناء قيامكِ بهذه المهمة الجنونية. وهذا ما فعله شخصٌ يدعى جيرمي

هاربر في صيف عام 2007، حيث قام بالعد حتى المليون بمعدل بلغ 16 ساعة من العد يومياً، وتطلب منه الأمر 89 يوماً لإنجاز المهمة. ولقد سُجل إنجازه هذا في موسوعة غينس للأرقام القياسية.

[100] **دالي** "مازحا": إذاً، لدي فرصة لدخول موسوعة غينس لو قمت بالعد لأكثر من مليون أو وصلت إلى المليون بأسرع منه.

رجل الكهف: هذا صحيح. لكن لدي قصة أكثر جنوناً قد تعجبك.

[101] **دالي** "بفضول": أسمعنا ما لديك.

رجل الكهف: في مدينة واترلو، الواقعة في ولاية آيوا، في الولايات المتحدة الأمريكية، عاد طفلٌ ذات مرة إلى والدته التي تدعى مارفا درو، وأخبرها أن مُدرسه قد قال إنه لا يمكن لأحدٍ أن يعد حتى المليون. فما كان من هذه السيدة، التي يبدو أنها أعند من اللازم، إلا أن قررت كتابة الأرقام حتى المليون كي ترسل الورقة -أو الأوراق- إلى ذلك المدرس الأبله. لكني لا أعتقدُ أنها قد أرسلتها، لأن الأمر قد استغرق منها خمس سنوات واستخدمت 2473 ورقة لكتابة الأرقام.

[102] **دالي** "ضاحكا": لا بد أن تتوج هذه الامرأة كأعندِ امرأة في العالم. أشكر الآلهة أني لست زوجها. كلا يا صديقي، لن أكتبَ الأرقام، سأكتفي بالعد كي أدخل موسوعة غينس.

رجل الكهف: خيارٌ حكيم. إذاً، دعنا نقل إنك تريد العد حتى المليار -آخذين بعين الاعتبار تجربة جيرمي هاربر، كما وطول الأرقام التي هي أكبر من مليون، وبالتالي تستغرق زمناً أطول لنطقها- فأنت يا عزيزي بحاجةٍ إلى حوالي 285 سنة كي تصلَ إلى المليار. هذا إرثٌ مزعجٌ ستضطرُ إلى تركه لورثتك كي يكملوه من بعدك على مر بضعة أجيال.

[103] **دالي** "بيأس": إذاً، لا يوجدُ أملٌ لأي إنسان أن يعد حتى المليار، مهما بلغت سرعته في العد، وأياً كانت اللغة التي رغب في استعمالها، ومهما كرس من وقته لهذه المهمة.

رجل الكهف: قد يتمكن من خفض تلك ال 285 سنة ببضعة عقود فقط على أفضل التقديرات النظرية وبأكمل الظروف مثالية. وبالتالي، فعندما أقول لك إن عمر مجموعتنا الشمسية، بما فيها موطننا الأرض، هو أكثر من أربعة مليارات ونصف المليار عام، فأنت بحاجة لحوالي ألف وثلاثمائة عام كي تصل بعدك المتواصل لهذا الرقم. وإنِ أخبرتك أن عمر الكون كما نعرفه اليوم هو حوالي 13.7 مليار سنة، فلكي تعد هذا الرقم أنت بحاجة إلى قرابة أربعة آلاف عام من العد الدؤوب. فلك أن تتخيل حجم هذه الأرقام آخذاً بعين الاعتبار أن كل رقم تقوله يمثل سنة كاملة من سنواتنا التي نعرفها اليوم. بل إن الألف وثلاثمائة عام والأربعة آلاف عام هذين هما قيمتان مهولتان لا يمكنك إدراك مداهما مهما حاولت.

[104] **لوسيل** "مفكرة": فعلاً، أتخيلُ مثلاً كيف كانت الحياة قبل مئة عام وكيف أصبحت اليوم، كم من أمورٍ تغيرت. إن المئة عام لها قيمةٌ ضخمةٌ جداً، فما بالك بالآلاف منها!

[105] **رجل الكهف:** ولهذا السبب يعاني الناس في فهم النظريات العلمية المختلفة. فهم لا يدركون القيمة الحقيقية للزمن عند الحديث مثلاً عن التطور كما أشار كارل سيغان في كتابه "الكون*": "... ولكن جزءاً من مقاومة ما جاء به داروين ووالاس يأتي من الصعوبة التي نعانيها في تصور مرور ألف سنة من الزمن... فماذا تعني سبعون مليون سنة للكائنات الحية التي تعيش جزءاً من مليون جزء من هذه المدة؟ إننا هنا أشبه ما نكون بالفراشات التي تحلق يوماً كاملاً وتظن أنها ستحلق إلى الأبد.". هذه خدعةٌ تنخدع بها أدمغتنا بسهولةٍ جدا؛ فنحن ندفعُ ألفاً من العملة النقدية لشراء شيءٍ ما، بل ربما مليوناً أو أكثر، لكن الألف والمليون هي أرقامٌ مهولةٌ في واقع الأمر.

لوسيل: صحيحٌ تماماً، كم هو بسيطٌ أن يقول شخصٌ إن عمره خمسون عاماً، لكن كم من الأحداث قد احتوتها هذه الأعوام الخمسون!

[106] **رجل الكهف:** ولهذا، فإن أردتِ شرح التطور للناس بقولكِ: "إن أولَ حياةٍ قد برزت على الأرض قبل 3.7 مليار سنة، واحتاج الأمرُ حتى 1.2 مليار سنة خلت ليتطور التكاثر الجنسي." فيستحيل عليهم استيعاب كم أن الفارق الزمني بين هذين الرقمين مهولٌ جدا. ومع هذا فتتابعي لتقولي لهم: "إن أولى الفقاريات قد ظهرت فقط قبل 500 مليون سنة" فأيضاً لن يفهموا كم أن الزمن كبيرٌ جداً بين هذه وسابقتها. ثم تتابعين الشرح لتقولي: "إن هذه الفقاريات لم تخرج من الماء لتستعمر اليابسة إلا قبل 365 مليون سنة من الآن فقط. وإن الثدييات احتاجت قرابة 165 مليون عام بعد ذلك لتظهر فقط قبل 200 مليون سنة من الآن كقوارض صغيرة الحجم. وإن أولَ الرئيسيات منها لم يظهر إلا بعد ذلك الزمن ب 115 مليون سنة؛ أي قبل 85 مليون سنة من اليوم. والذي تابع مسيرته التطورية، من حجم صغيرٍ كالسنجاب تقريباً، لمدة 50 مليون سنة حتى يصل لأولى القردة فقط قبل 35 مليون عام من الآن. ولينتظر بعدها أكثر من 30 مليون سنة ليتمكن أحد ذريته من المشي منتصباً على قدمين قبل 4.4 مليون سنةٍ خلت من الآن. وأن عليه الانتظار بدوره وهو يتطورُ ببطءٍ مدة 2.6 مليون سنة ليبدأ الإنسان المنتصبُ أول هجرة كبرى له خارجاً من إفريقيا قبل 1.8 مليون سنة. وأن على سلالته بدورها الانتظارُ مليون عام ونصف المليون بعد ذلك ليظهر أول إنسانٍ عاقلٍ قبل حوالي 300 ألف سنة فقط من الآن، والذي بدوره انتظرَ معظمَ هذه السنوات تقريباً قبل أن يفكر في بناء أول مدينةٍ له قبلَ بضعةِ آلافٍ من السنين من الآن فحسب، ليقف عندها صائحاً بأعلى صوته في وجه الكون كله قائلاً: أنا ربكم الأعلى!" فإن الأمر لن يُفهم في أدمغتهم إلا كقصةٍ عاديةٍ مثل قصصِ ما قبل النوم. لذا، فهم سيستخفون به.

[107] **داني "بجزن":** وهل من طريقةٍ لجعلهم يدركون الأمر؟

رجل الكهف: يجيبك نيل شوبين في كتابه "السمكة داخلك" بقوله: "... إن من يُدرّسون علم المستحاثات غالباً ما يستخدمون تمثيلَ السنة الأرضية... لنأخذ تاريخ الأرض، الذي يبلغ 4.5 مليار سنة، ونقوم بتصغيره إلى سنةٍ واحدة. بحيث يكون منشأ الأرض في الأول من يناير، ومنتصف ليلةِ

ما المثقف؟

الأخير من ديسمبر هو الحاضر. فحتى يونيو كانت الطحالب والبكتريا والأميبا. وأول حيوانٍ له رأس لم يظهر حتى أكتوبر. وأول ظهورٍ للإنسان الأول كان في الحادي والثلاثين من ديسمبر. إننا كالعديد من الحيوانات والنباتات، التي عاشت منذ القِدم، قادمون جددٌ إلى حفلةِ الحياةِ في الأرض فحسب.".

[108] **دالي** "بتعجب": لم يظهر الإنسان إلا في اليوم الأخير من العام! هل هذا معقول؟

رجل الكهف: ربما كنت لتكون أسعد بكثير لو تركتك تعتقد هذا مقارنةً بما سأقوله لك الآن. إن الدقيقة الواحدة في ذلك المقياس تعادل أقل بقليلٍ من تسعة آلاف عام من أعوامنا. وبالتالي، فإن أول ظهور للإنسان العاقل في إفريقيا كان فقط قبل نصف ساعةٍ من منتصف الليل. وإن كل ما نسميه "الحضارة البشرية" محصورٌ في الدقيقة الأخيرة قبل منتصف الليل. وإن كل الفلسفات والأساطير والعلوم والأفكار التي وصلتنا من أسلافنا محصورة في الثلاثين ثانية الأخيرة قبل لحظة منتصف الليل التي هي الآن. وما نعتبره الحدث المعيار للتاريخ العالمي اليوم، أقصد ميلادَ المسيح -على فرض وجوده التاريخي-، قد حصل عند الساعة 23:59:46؛ أي، قبل أربعة عشر ثانية فقط من بدءِ الاحتفال. وأترك لكما إسقاطَ جميع الأحداث في التاريخ البشري على هذا المقياس كي تستطيعا تقدير زمن حدوثها نسبةً إلى عمر الأرض. وتذكرا أننا نتكلم عن عمر الأرض فحسب، لا عن عمر الكون الذي يفوق عمرها بأكثر من ثلاثة أضعاف.

[109] **دالي** "بعصبية": هذا أمرٌ مريع! كل التاريخ البشري، كل الحضارات التي عاشت يوماً، كل الملوك والأباطرة، كل الحكماء والفلاسفة، كل الأنبياء والآلهة، كل الحروب، كل الاختراعات، كل إنسان سمعنا عنه، كل الآثار التي تركتها الحضارات السابقة لنا، كل النتاج البشري محصورٌ في الدقيقةِ الأخيرة من عام كامل هو عمرُ الكرة الأرضية. وتُذكرني أيضاً أننا لا نقارن هذا الآن بعمر الكون! من يحتاج هذه المقارنة؟ لو قمنا بها فسينحصرُ كل هذا في الثواني الأخيرة فقط.

[110] **رجل الكهف:** كلامك صحيح. وإن المقارنة نفسها بعمر الكون تسمى السنة الكونية. وفيها تعادلُ الدقيقة الواحدة أكثر من 26 ألف سنة من سنواتنا. وعليه، فبالنسبة للكون المتأهب للاحتفال بعيد ميلاده الأول، قبل دقيقة واحدة من منتصف الليل كان النياندرتال لا يزال يتجولُ على سطح الكرة الأرضية، وولد المسيح قبل أقلَّ من خمس ثوان من الآن. بالنسبة للسنة الكونية، لا يبلغ عمر الواحد منا -مهما طال- إلا أقلَّ من عُشرين من الثانية فقط. ما قيمة عُشرين من الثانية مقارنةً بسنةٍ كاملة؟ تلعبُ وتدرسُ وتعملُ وتدخرُ المالَ وتشتري منزلاً وتتزوجُ وتسافرُ وتنجبُ أطفالاً وترى أحفادك وتبلغ من الكبر عتياً بعد عقودٍ من الزمن قضيتها لاهثاً وراء المال وفي أروقة المحاكم، كل أحلامك التي بنيتها وكافحت من أجل تحقيقها، كل ما حصل معك، وكل ما سيحصل معك، يحصلُ بالنسبة للكون في غضون عُشرين من الثانية فقط. طرفة العين تأخذُ ضِعف هذا الزمن! مهما بلغ بك العمر فهو بالنسبة لعمر الكون، المقدر بسنةٍ واحدة، يشكلُ نصف طرفة عين. ليتها طرفة كاملة، بل نصف طرفةٍ فقط. دالي! هل تفهمني؟ أنت لن تعيش نصف طرفة عين بالنسبة للكون، وتريدني أن أعتقدَ أن دماغك

قادرٌ على إدراكِ ماهية الوجود كله؟ هل تراني غبياً أمامك؟ بالنسبة للكون، أنت وهذه الذبابة سواء، الفرق بينكما مهملٌ تماما.

داني "واضعاً يديه على رأسه": نحن لاشيء. لاشيء!

[111] **رجل الكهف:** هل تريدُ أن تقنعني أن هذا الدماغ قادرٌ على تطوير منطقٍ يؤهله ليحكم على الوجود ب "منطق عقلاني" ونحن لا نستطيعُ حتى مجرد إدراكِ الكون على كنهه الحقيقي، بل نقتصرُ على إدراكِ ما سمحت لنا حواسنا وأدمغتنا بإدراكه منه فقط؟ بل أكثر من ذلك، إننا نريدُ أن نسقطَ هذا "المنطق العقلي" على ما هو خارج الكون أيضا! هل ترى عجرفةً طفوليةً أنانيةً ساذجةً أكثر من هذه؟

[112] **لوسيل** "بألم": كم هو ساذجٌ هذا الإنسان الذي لا يدركُ كم احتاج الأمر من عمر الكون حتى تشكلت المجموعة الشمسية، ثم كم تطلب الأمر من زمن على أحد كواكبها عمل فيه الانتقاءان الطبيعي والجنسي عملاً دؤوباً دون كللٍ أو ملل مؤديان لظهوره مؤخرا. إنه فعلياً لم يوجد في هذا الكون إلا منذ لحظات يعيش فيها المحظوظ ذو العمر المديد زمناً يقارب نصف طرفة عين يفترض خلالها بكل صفاقةٍ أن الكون كله قد وجِدَ من أجله. هذا أتفهُ ما يمكنني التفكير به.

[113] **رجل الكهف:** ولأزيدكِ تعجباً، سأخبركِ أن جميع أنواع الكائناتِ الحية التي تعيش اليوم تُشكلُ أقلَ من واحدٍ في المئةِ من تشكيلةِ مجملِ الأنواعِ الحيةِ التي عاشت يوما. أي، إن معظمَ تاريخ الحياة على هذا الكوكب كان في المياه، والذي كان لمعظمه عبارة عن كائناتٍ وحيدة الخلية. وإضافة لهذا، فإن أكثر من تسعة وتسعين بالمئة من الأنواع التي وُجدت يوماً على سطح هذا الكوكب قد انقرضت. هل لكِ أن تتخيلي كم نوعاً مختلفاً من الكائناتِ الحية قد جرّبَ الحياة على هذا الكوكب، ناهيكِ عن تعدادِ أفرادها؟ هل بإمكانكِ تخيلُ الأمر؟

لوسيل "بحزن": يصعبُ على دماغي استيعابه.

[114] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": لنتفكر في أمرٍ آخر إذن. حاولي تخيلَ سرعة الضوء مثلاً، إنها تبلغ نحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة تجعله قادراً على الدوران حول الكرة الأرضة سبع مراتٍ ونصف في غضون ثانية واحدة فقط، وتجعله يقطع المسافة بين الشمس والأرض، البالغة حوالي 150 مليون كيلومتر، في ثمان دقائق وعشرين ثانية تقريباً، وبسرعته هذه، يقطع الضوء نحو 9.5 تريليون كيلومتر في السنة الواحدة، نسميها سنة ضوئية. إن الشمس هذه التي ترينها بعينيكِ المجردة، بهذا الحجم المتواضع، هي في الواقع تتسع لمليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية داخلها. كما إن كلَّ المادة في كامل المجموعة الشمسة تشكل أقل من 0.2 بالمئة من كتلة الشمس لوحدها. والتي بدورها، على الرغم من حجمها المهول هذا، تعتبرُ نجماً متوسطَ الحجم، وهي شديدة التواضع أمامَ أصدقائها العمالقة.

لوسيل "بذهول": ماذا تقول!

ما المثقف؟ ثم إن أدمغتنا مقيدةٌ بعالم ثلاثي الأبعاد وزمن رتيب بنسق معين على هذا الكوكب.

[115] **رجل الكهف:** ثم إن أدمغتنا مقيدةٌ بعالم ثلاثي الأبعاد وزمن الفناء ثابتا. لكن الفيزياء أخبرتنا أن الكون ليس ثلاثي كل شيء سهلٌ وواضح. ثلاثة أبعادٍ وزمن الفناء ثابتا. لكن الفيزياء أخبرتنا أن الكون ليس ثلاثي الأبعاد، مع أنه يستحيل علينا إدراك إلا ثلاثة منها فقط، كما أن الزمن ليس ثابتاً كما نُحب له أن يكون، بل هو يتباطأ كلما زادت السرعة. فلو رغبتما، في إجازتيكما القادمتين العام المقبل، السفرَ إلى مركز مجرتنا درب اللبانة لاكتشافه، بدل استكشاف الحياة البرية كما فعلتما هذا العام، فهذه رحلةٌ ستستغرق منكما، في مركبةٍ فضائيةٍ تسيرُ بسرعةٍ قريبةٍ من سرعة الضوء، نحو الواحد والعشرين عاماً. لكن سفركما بهذه السرعة سيجعلُ الزمن يتباطأ جداً بالنسبة لكما مقارنةً بالزمن الذي أعيشه أنا على الأرض. لهذا السبب، يؤسفني أني لن أتمكن من مراسلتكما لفترة طويلة من رحلتكما ولو قضيت البقية الباقية من عمري أفعل ذلك. فتلك الواحد والعشرون عاماً، التي ستمر عليكما في هذه الرحلة، ستعادلُ حوالي ثلاثين ألف سنةٍ من سنوات كوكب الأرض. لذا، فلا يمكنني حتى أن أضمن أني سأتمكن من جعلِ ورثتي يتابعون مراسلتكما لتسليتكما ولنقل الأخبار إليكما. ولو قررتما أن تتابعا رحلتكما، بما أنها ليست فرصة قابلة للتكرار بسهولة، وأن تطوفا في جولةٍ سريعةٍ حول الكون المعروف، كتلك الجولاتِ التي يقومُ بها البعض حول العالم، فهذه الجولة ستأخذ منكما حوالي ستة وخمسين سنة إذا قمتما بها من غير توقف بل ودون إبطاءٍ لسرعة مركبتكما. هذا يعني أنكما ستقضيان ما تبقى من حياتيكما تقريباً في هذه الرحلة، وهذا شيءٌ جيد؛ لأنه بغضون ذلك الزمن ستكون مليارات السنين قد انقضت على الكرة الأرضية. لن تجدا أحداً يستقبلكما عند عودتكما من هذه الرحلة مرحباً بوصولكما مُسنين سالمين. لن يحتفل بعودتكما أحد. لن تدخلا موسوعة غينس للأرقام القياسية، ولن يهرع المراسلون التلفزيونيون لمقابلتكما. لن يهلل أحدٌ لإنجازكما البطولي، لا ولن يكتبَ عنه أي صحفي ولا حتى في الصفحة الأخيرة من جريدةٍ يوميةٍ ساخرةٍ رخيصة. ببساطة، لن تكون الأرض موجودة في ذلك الوقت، بل ستكون الشمسُ نفسها قد ماتت.

[116] **دالي** "بعصبية": ماذا تقول بحق السماء! ما هذه المفارقة؟

رجل الكهف: هذا هو الواقع يا صاح. إنكما ستكسبان عرضاً مجانياً للسفر إلى المستقبل في تلك الرحلة. أليس هذا عرضاً لطيفاً تقدمه لكما قوانين الكون؟

دالي "مفكرا": هذا عصيٌ على الإدراك.

[117] **رجل الكهف:** يبدو لي أنك تخاف من المستقبل. لذا، دعنا منه الآن ولنتجه إلى الماضي. أنا متأكدٌ أنك تملك ذكريات جميلة من أيام الطفولة؛ تلك الأيام التي كانت فيها أكبر همومك محصورة بتفكيرك بكيفية إقناع والدتك أن تعطيك قطعة من الشوكولاتة أو أن تسمح لك بمشاهدة توم وجيري. من منا لا يحبُ توم وجيري؟ من منا لا يحن إلى تلك الأيام؟

دالي "بابتسامةٍ عريضة": دون أدنى شك. يا لك من مخادع. جعلتني أعيشُ تلك اللحظاتِ الآن وكأنها حصلت بالأمس. كم أحن إلى أيام الطفولة تلك.

[118] **رجل الكهف:** إليك إذاً ما كتبه ستيف غراند عن ذكريات الطفولة هذه في كتابه "الخلق*": "... على أي حال، أتمنى أنك تملك الآن ذكريات لتجارب من طفولتك. شيء يمكنك تذكره بوضوح، شيء يمكنك رؤيته، ربما شمه أيضاً، كما لو كنت هناك حقا. في الواقع، لقد كنت هناك حقاً في ذلك الزمن، أليس كذلك؟ وإلا فكيف لك أن تتذكره؟ لكن هذه هي المفاجئة المذهلة: أنت لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من ذراتِ جسدكَ اليوم كانت هناك عندما حصلَ ذلك. كلُّ جزءٍ منك قد تم استبداله مرات عديدة (ولهذا أنت تأكلُ بطبيعة الحال) أنت لست بنفس الهيئة التي كنت عليها آنذاك أيضا. النقطة هنا هي أنك مثل غيمة؛ شيءٌ ما يبقى ثابتاً على طول الفتراتِ الزمنية بينما يتدفق في الوقتِ عينه. المادة تتدفق من مكانٍ إلى آخر ولحظياً تتجمعُ لتشكلك. أياً ما كُنت، أنت لست نفسَ المادة التي هي تصنعك. إن لم يجعل هذا شعرَ جسدك يقف في مؤخرة عنقك، اقرأه مرة أخرى حتى يحصل هذا، لأن هذا ضروري.".

داني "بعصبية": عليك اللعنة. لقد دمّرت لي لحظاتٍ حالمة كنت أعيشها.

[119] **رجل الكهف** "بحزم": ومن قال لك إن كهفي هو منتجعٌ للاستجمام؟ هل قلتُ لك إن مجالستي هي وسيلةٌ للإسترخاء الحالم؟ هل وعدتكَ بهذا؟ هناك عددٌ لا يحصى- ممن هم بارعون في ذلك. هم موجودون في كل مكان، في كل حي، في كل شارع، في كل قناة تلفزيونية، لكن ليس هنا! إن كنت تريد أن تعيش في الأحلام فاذهب إلى أحد دور العبادة، ستجدُ أخصائيين في صنع الأحلام من كل صنفٍ ولون، لكن لا تأتي إلي. أنا هنا لأهز أركانك من الداخل، لأوقظك من أحلامك الوردية ومن سباتك الدوغماطيقي. إن لم أستطع فعلَ هذين الأمرين، فمجالستي مضيعةٌ للوقت. أنا أقولُ لك كلاماً لا يوجد أحدٌ خارج هذا الكهف يريدك أن تعرفه.

لوسيل "خارجةٌ من المرحاض": على رسلكما. ألا أستطيع ترككما لدقيقةٍ واحدة!

[120] **رجل الكهف:** داني قد أخطأ العنوان. هو يعتقد أن كهفي مركز Spa!

لوسيل "برقة": أعتذرُ بالنيابة عنه. يبدو أنه يحبُ توم وجيري أكثر من اللازم.

داني "بخجل": أستميحك عذرا.

رجل الكهف "مشعلاً غليونه": لا عليك يا صاحبي، أعرف أني قد أثقلت عليكما.

[120.1] **لوسيل** "بابتسامةٍ خجولةٍ واضعةً يدها على كتف رجل الكهف": كلا مطلقاً، تابع أرجوك.

رجل الكهف: لسنا مضطرين لتكملة هذا النقاش يا أصدقائي. يمكننا الحديث عن أي شيءٍ آخر؛ عن الموسيقى على سبيل المثال.

لوسيل "بعينين لامعتين": كلا، كلا، أريد أن أسمع المزيد من تلك الحقائق الصادمة.

داني "بابتسامة": أرجوك أكمل يا صديقي. أكرر اعتذاري.

[121] **رجل الكهف** "متنهداً": إذا قمنا بجمع الأرقام من الواحد وحتى اللانهاية، ماذا تعتقدان أن يكون الناتج؟

لوسيل "ببساطة": بالتأكيد لانهاية، هذا واضح!

[122] **رجل الكهف:** كلا. إنه -1/12.

[123] **لوسيل** "بدهشة": ماذا تقول! هل هذا يعني أني لو جمعت الأرقام 1+2+3... وصولاً إلى رقم كبير جداً، فعندما أتوقف سأحصل على نتيجة -1/12؟

رجل الكهف: كلا، ستحصلين على رقم كبير جداً جدا. لكن لو وصلتِ إلى اللانهاية في جمعك، ستحصلين على رقم صغير جداً وهو 1/12. ليس هذا فحسب، بل إنه سالب -1/12. هذا يعني، أنكِ إن جمعتِ الأرقام الموجبة وصولاً إلى اللانهاية الموجبة ستحصلين على رقم سالبٍ بالغ الصغر.

لوسيل "بذهول": هذا لا يُعقل.

[124] **رجل الكهف:** أعرف أنه لا يُعقل. دماغكِ لن يستوعبه. ليس فقط لأن دماغكِ لم يتطور ليتعامل مع اللانهائيات فحسب، بل لأن اللانهائيات هي أرقامٌ رياضية موجودة نتعاملُ معها لكن لا يمكن عدها، وهذا ما يعجز أيضاً دماغكِ عن فهمه. وفي الواقع، لا أعتقدُ أن هناك شيئاً ما لانهائياً داخل هذا الكون الذي نعيش فيه سوى الأرقام اللانهائية التي نتعامل معها رياضيا.

لوسيل "مفكرة": فهمتُ عليك.

[125] **رجل الكهف:** ماذا لو أخبرتكما أيضاً أن نواة الذرة أصغر من الحيز الذي تشغله الذرة بمئة ألف مرة. هذا يعني أن المادة كلها، بما فيها أنا وأنتما، تتكون في الواقع بغالبيتها الساحقة من فراغ. ولذا، فإن النيوترينوات الآتية من الشمس، مسافرةً بسرعةٍ تقاربُ سرعة الضوء، تمر عبر الكرة الأرضية وكأنها غير موجودة. ففي هذه اللحظة، وفي كل لحظة، يمر عبر كل سنتيمترٍ مربع من جسديكما حوالي مئة مليار نيوترينو في الثانية الواحدة، لكنكما لم ولن تشعرا بهذا.

دالي "بتوتر": مئة مليار لكل سنتيمتر مربع! هل أنت مدركٌ لما تقول؟ ولا أشعرُ بها!

[126] **رجل الكهف:** لست مدركاً لما أقول، لكنه أمرٌ حقيقي أعرف أنه يحصل وإن لم أدركه. وعليك أن تعلم أنه ليست فقط هذه النيوترينوات هي ما يمرُ عبر جسدك على مدار الساعة.

دالي "مقاطعاً بعصبية": هذا كثير، أنت تريدُ أن تصيبني بالجنون.

[127] **رجل الكهف** "بهدوءٍ وهو ينظف غليونه": يبدو أني لم أجعلك تتوتر من سفرك إلى المستقبل فحسب، بل ومن الإشارة إلى ما يعبر خلال جسدك. لذا، فإني أعتذر عن هذا وأطلب منك أن تنساه وتجيبني، هل أنت مستقر في مكانك الآن؟

دالي "بتهكم": ما هذا السؤال! طبعاً أنا كذلك. ألا تراني جالساً على الكرسي أمامك؟

[128] **رجل الكهف**: إذا كان الجلوس على الكرسي يعني أنك ثابتٌ في مكانك، فهل أفهمُ من هذا أن جلوسك على مقعد السيارة أثناء سفرك يجعلك أيضاً ثابتاً في مكانك؟

داني "مفكرا": يجعلني ثابتاً في مكاني بالنسبة للسيارة. لكن في واقع الأمر، فأنا والسيارة نتحرك معا؛ وبالتالي، لو اتصلت بي هاتفياً أثناء سفري وسألتني ذلك السؤال فلن أقول لك إني ثابتٌ في مكاني.

[129] **رجل الكهف**: لكنك اعتبرت نفسك مستقراً في مكانك وأنت تعلم أن الأرض تتحرك.

داني: لأني افترضت أنك تقصد ب "مكاني" مكاني بالنسبة إلى الأرض.

[130] **رجل الكهف**: ولِمَ افترضت هذا في كلتا الحالتين؟

داني "مفكرا": ربما لأن دماغي مبرمجٌ تلقائياً على معايرة النسبية مع الأرض التي يفترضُ ثباتها.

[131] **رجل الكهف**: صحيح. فدماغك يقوم بمعايرة حركتك نسبة للأرض، والتي يفترض، على خطأ، ثباتها. فمع أنك عملياً تتحرك بسرعةٍ تفوق الأربع ملايين ونصف المليون كيلومتر في الساعة، كنتيجةٍ لدوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشمس، ودوران المجموعة الشمسية حول مركز مجرة درب اللبانة، والتي هي بدورها تسبح متحركة في الفضاء. ناهيك عما يؤثر في كل هذه الكتل من جاذبيةٍ متبادلةٍ مع الكتلِ الأخرى في الكون. إضافة للتسارع الذي ينطلق به كل شيءٍ في الكون كنتيجةٍ للانفجار الكبير. ومن يعلم، فقد يكون الكونُ نفسهُ متحركاً أيضاً لو نظرنا إليه نظرةً خارجية. لكن كل هذه الحركة لا تهم دماغك البشري الذي تطور على سطح الأرض، فهو يهملها تماماً مع أنها موجودة، بل هو غيرُ قادرٍ على إدراكها أساساً، لكنها بالنسبة لمراقبٍ خارجي أمرٌ لا يمكن تجاهله.

داني "مازحا": على هذا المراقب الخارجي أن يكون بمواصفاتٍ تفوق الخيال كي يتمكن من مراقبتي وأنا أتحرك بهذه السرعة الفائقة.

[132] **رجل الكهف**: لا شك في هذا، يجبُ أن يكون بمواصفاتٍ تفوق الخيال. لكن دعنا من هذا المراقب الخارجي التخيلي واستمع لهذه الحقيقة. إن ملئ ملعقة شاي من مادة نجم نيوتروني يعادلُ وزن جبلٍ عادي. ويستحسن بك أن تتمكن من حملها بقوة؛ فلو وقعت منك، فمن الممكن أن تخرق الكرة الأرضية بالكامل لتخرج من الطرف المقابل للعالم. ومن غير المستبعد أن تخرج من تحت سرير أحدهم وهو مستلق عليه، كرصاصةٍ خارجةٍ من باطن الأرض، ثم تعود بفعل الجاذبية الأرضية فتسقط مجدداً، وتبقى على هذا المنوال من الحركة المتباطئة تدريجياً حتى يوقفها الاحتكاك في مركز الكرة الأرضية. ولن يتمكن رجالُ الشرطة من إيجاد الرصاصة التي قتلت سيء الحظ هذا، لأن أدمغة رجالِ الشرطة غير مؤهلةٍ لتخيلِ مادةٍ بهذه الكثافة والتعامل معها، لأنها ببساطةٍ غيرُ موجودةٍ على كوكب الأرض.

لوسيل "مازحة": يُستحسن بنا إذن التأكيد على تعليم الفيزياء للمحققين.

ما المثقف؟

خذي هاتين الورقتين وافصليهما عن بعض.

[133] **رجل الكهف** "معطياً ورقتين للوسيل": خذي هاتين الورقتين وافصليهما عن بعض.

لوسيل "وهي تشد كل ورقة بإحدى يديها": تفضل، لقد قمت بهذا.

رجل الكهف: عظيمٌ جدا. يمكنكِ فصل أي شيئين ملتصقين إذا طبقتِ قوة كافية لفصلهما، كما فعلتِ الآن، وهو أمرٌ نعتبره ثلاثتنا بديهياً تماما؛ لذا، لم تُفاجئ عندما نجحتِ بالقيام به. لكن لو أعطيتكِ كواركين مثلاً، بدل الورقتين، وطلبتُ منكِ فصلهما؛ فإن الطاقة التي كانت مُلصقةً لهما ستتحرر أثناء قيامكِ بشدهما لإبعادهما عن بعض مُشكلة كواركين جديدين يلتصقان بالكواركين القديمين. فستبدئين مهمتكِ بمحاولةٍ لفصلِ الكواركين بكلتا يديكِ، لينتهي بكِ المطاف بكواركين في كل يد. تماماً كما لو انتهى بكِ المطاف الآن بأربع ورقاتٍ كاملة، اثنتان في كل يد، بعد فصلكِ للورقتين التين أعطيتك إياهما. هذا أمرٌ واقعي، وليس خدعة سحرية. لكنه أمرٌ يستحيلُ على دماغكِ اعتباره منطقياً لأنه لا يحصل معنا في خبراتنا اليومية. لكن لو كان ثلاثتنا عبارة عن كواركاتٍ، بدل أن نكون بشراً، لكان هذا منطقياً تماماً بالنسبة لنا، بل ولكان لدينا مدارس فلسفية تبحث الأمر، ورجالات دين يذكروننا كم نحن محظوظون بهذه النعمة الإلهية، التي ما هي في الواقع سوى قانون من قوانين الطبيعة كأي قانونٍ آخر.

[134] **لوسيل:** بدأت أشعر بالضياع.

رجل الكهف: أعرف هذا. فإن نيلز بور قد قال: "أي شخص لم يصعق بواسطة نظرية الكم، هو لم يفهمها.". أما ريتشارد فاينمان فكان أكثر دقة في تعبيره إذ قال: "إذا كنت تعتقد أنك تفهم نظرية الكم... أنت لا تفهم نظرية الكم".

[135] **داني** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأنه كما أشار ريتشارد دوكنز في كتابه *وهم الإله*: "... نحن حيواناتٌ متأقلمةٌ تطورنا في العالم المتوسط، وهذا يحد مما نحن قادرون على تخيله. النافذة الصغيرة في برقعنا تسمح لنا... بأن نرى العالم المتوسط فقط.". لماذا؟ يجيب بقوله: "... نافذة برقعنا العقلية ضيقة لأنها لم تكن بحاجة لأن تكون أوسع في سبيل مساعدة أسلافنا على البقاء...". وهذا ما دفع جون هالدين ليكتب في مقالٍ له بعنوان *عوالم ممكنة*: "... إن اعتقادي الشخصي هو أن الكون ليس فقط أغربُ مما نفترض، لكنه أغربُ مما يمكننا أن نفترض... أنا أعتقدُ أن هناك أشياء أكثر في السماء والأرضِ مما تم الحلم به، أو يمكن أن يتم الحلم به، في أي فلسفة.".

لوسيل "موافقة": يبدو أنه مصيب.

[136] **رجل الكهف** "مشعلاً غليونه": يمكنني أن أستمر حتى المساء بتزويدكما بحقائق يستحيلُ على أدمغتنا استيعابها حتى في أبسطِ الأمور التي نتعامل معها في حياتنا اليومية بشكلٍ جد طبيعي غير مدركين لماهياتها بشكلٍ فعلي، لكني أعتقد أن الفكرة قد وصلت. فأدمغتنا، كما حواسنا كلها، محدودة

النطاق جدا. فعيوننا مثلاً لا ترى إلا جزءاً تافهاً من الطيف الكهرومغناطيسي، نسميه الطيف المرئي. وآذاننا لا تدرك إلا قسماً لا يكاد يذكر من الموجات الصوتية. فمن وجهة نظرٍ كونية نحن صمٌ بكمٌ تماما. كما إن المدى الذي نتمكن فيه من الشعور بالاختلافاتِ في درجاتِ الحرارة هو مدى لا يكادُ يذكر على الاطلاق ضمن المدى الكلي الذي تتدرج فيه درجات الحرارة في الواقع. في الماضي، لم نكن ندرك هذه الحقائق لأن كل معارفنا كانت مستمدة بشكلٍ حصري بما أمدتنا به حواسنا البشرية فقط، فاعتقدنا أنفسنا مميزين بأدمغتنا. لكن وكما أوضح كلٌ من نيل دي غراس تايسون ودونالد جولد سميث في كتابهما *البدايات*: "... المشكلة هي أنه لم يتحقق أي اكتشافٍ علمي تقريباً خلال القرن الماضي بفضل الاستخدام المباشر لحواسنا، بل تحققت هذه الاكتشافات بفضل التطبيق المباشر للرياضيات والمعدات التي تتجاوزُ نطاق حواسنا. هذه الحقيقة البسيطة تفسرُ لنا لماذا -من وجهة نظر الشخص العادي- تبدو فيزياء الجسيمات ونظرية الأوتار ذات الأحدَ عشرَ بعداً أموراً غير منطقية. أضف إلى هذه القائمة الثقوب السوداء والثقوب الدودية والانفجار العظيم. في الواقع، هذه المفاهيم تبدو غير منطقية للعلماءِ أنفسهم أيضا...". لكن الكون ببساطةٍ لا يكترث لما تدركه كائناتٌ ضئيلة ذات حجم لا يذكر مطلقاً بالنسبة لعظمته. وهو ليس مضطراً أبداً ليتماشى مع ما تفهمه أدمغتنا التي لم تطورها الطبيعة أساساً لفهم الوجود، بل لتحافظ على حيواتها فقط. ولا فهمُ نشأة الكون ومصيره، ولا اختراعُ التكنولوجيا وتطويرها، ولا تسخيرُ موارد الكرة الأرضية لمصلحة هذا الكائن الأناني قد كانت من ضرورياتِ بقاءه أثناء صراعه من أجل البقاء والتكاثر. وعليه، لم تتطور أدمغتنا لاستيعاب هذه الأمور ولا التعاطي معها؛ وبالتالي، فهي غيرُ منطقيةٍ بالنسبة لها. لذا، فإني أرى أن الاحتكام إلى "العقل" في الانطولوجيا مثلاً يعتبرُ ضرباً من العبثِ الطفولي الصرف. بل علينا كما أشار لورانس كراوس في كتابه *كونٌ من لا شيء*: "... إذا رغبنا في أن نستقي استنتاجات فلسفية عن وجودنا، وأهميتنا، وأهمية الكون ذاته، لابد أن ترتكز استنتاجاتنا على المعرفة الإمبريقية. إن العقلَ المتفتح حقاً يعني إجبارَ خيالنا على التوافق مع دليلِ الواقع وليسَ العكس، سواءُ استحسنا تضميناته أم لم نستحسنها.". فالواقع هو المعيار، لا ما نريد له أن يكون كما تشتهي أدمغتنا القاصرة.

لوسيل: أنت محقٌ في هذا.

[137] **رجل الكهف:** ليس هذا فحسب، بل إن أدمغتنا لم تتطور لتعيش ضمن مجموعاتٍ كبيرة من الأشخاص. إن التجمعات البشرية التي تضمُ آلافَ الأشخاص هي تجمعاتٌ حديثةٌ جداً في تاريخ جنسنا، فما بالكِ بالتجمعات التي تضمُ الملايين منهم! هذا وإن الفرد يعيش اليوم ضمن مجموعةٍ هي من الكبر لتشمل سكان العالم كله، الذي يقاربُ اليوم الثمانية مليارات، يتفاعلون جمعياً مع بعضهم البعض بطريقةٍ أو بأخرى. هذا أمرٌ لا نستطيعُ مطلقاً الاحتكام إلى الدماغ البشري في تسييره. وما الركون إلى أدمغتنا، القاصرة عن التعامل بشكلٍ جيدٍ مع أعدادٍ ضخمةٍ من الشركاء، إلا السببُ المباشرُ لتاريخنا الدموي كجنس بشري. وهذا هو بالضبط ما لعب عليه ثواليث القمع تاريخيا. وبديهي أن الركون إلى ما يمكن "للعقل" قبوله هو أسهلُ بما لا يقاس من محاولة كبح ما يدفعنا إليه. وهكذا، تمكن ثواليث

القمع من جعلنا بشراً أنانيين وعنصريين وكارهين للغير. في الواقع، هم قاموا فقط بتغذية ما برمجت الطبيعة أدمغتنا عليه.

داني: ملاحظةٌ قيمة!

[138] **رجل الكهف**: يجب علينا أن نفهم أننا نعيش في مجتمع بشري غير طبيعي، وأعتقدُ أن لا أحد منا يريدُ مقايضة هذا والرجوع للعيش في مجتمع طبيعي بسيطٍ كما كان يعيش أسلافنا للمدة الأطول من تاريخنا في حقب ما قبل التاريخ. على أي حال، سواء رغبنا بهذا أم لم نرغب، فإننا في الواقع قد بلغنا نقطة اللاعودة. وعليه، فيجبُ أن نقوم بكبح ما تدفعنا إليه غرائزنا إن أردنا الخيرَ لأنفسنا وللأجيال القادمة. وهذا ما أشار إليه ريتشارد دوكنز في كتابه *الجين الأناني*: "... إن شعوري الشخصي- هو أن مجتمعاً بشرياً مبني فقط على القانون الكوني الأناني عديم الشفقة للجين سيكون مجتمعاً كريهاً جداً لنعيش فيه... كن حذراً إذا كنت، مثلي، ترغب في بناء مجتمع يتعاون فيه الأفراد بسخاءٍ بعيداً عن الأنانية لصالح الخير العام، فإنه يمكنك توقع القليل من المساعدة من جانب الطبيعية البيولوجية. فلنحاول تعلم الكرم والايثار، لأننا ولدنا أنانيين...".

[139] **داني** "مجففاً عرقه": إذن، فالدماغ قاصرٌ بشكلٍ كبيرٍ لأسبابٍ طبيعيةٍ بحتة. وهذا سببك الأول.

رجل الكهف: صحيح، وهذا ما أوضحه ريتشارد دوكنز في كتابه *وهم الإله*: "ما نراهُ في العالم الحقيقي هو ليس العالم الحقيقي الغير مصقول، لكنه نموذجٌ عن العالم الحقيقي تم تنظيمه وتنسيقه بواسطة معلوماتنا الحسية. نموذجٌ مبني بطريقةٍ تجعله مفيداً من أجل التعامل مع العالم الحقيقي. طبيعة هذا النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات...".

[140] **لوسيل** "باهتمام": ملاحظةٌ جميلة. وما هو السبب الثاني؟

رجل الكهف: سببي الثاني هو خليطٌ من أسباب طبيعية وبيئية وثقافية. أو لنقل، هو حلقة الوصل بين السببين الأول والثالث. فهو يتعلق بطريقة عمل الدماغ، والتي تتأثر دائماً بالمخزون الثقافي، والذي هو السبب الثالث.

لوسيل "بحماس": هل لك أن توضح.

[141] **رجل الكهف**: باستثناء الأوامر التلقائية التي يقوم الدماغ بإصدارها بناءً على برنامج قسم الغرائز، فإن الدماغ يحتاج دائماً للرجوع إلى محتويات الذاكرة لفهم أي بياناتٍ قادمة له من وحدات الادخال كي تحمل معنى ما بالنسبة له. وعليه، فإن الدماغ يقوم بمقارنة أي مدخلاتٍ تأتيه مع محتوياتِ الذاكرة كي يستطيع إدراك وتمييز الأشياء، وتثقيل قيمة المعلوماتِ المدخلة، وفهم محتوياتها، ومن ثم يستطيع إعطاء الأوامر للتصرف بناء على ذلك. كما إن لديه نزعة كبيرة لمحاولة إدراك كل ما يحيط به، وتحميل هذه المُدركات معاني ما، ومحاولة إيجاد علاقات منطقية -من وجهة نظره- بين هذه الأمور المختلفة. كما وإنه يتمتع بميزة المقاربة؛ فليس من الضروري أن تكون المدخلات مطابقة تماماً لما تحتويه الذاكرة من

معلومات، بل يكفي أن تكون مشابهة لها كي يعتبرها متطابقة. وهو في هذه الأخيرة يشبه ماسحات البصمات التي تستخدمها الشركات لمراقبة دوام موظفيها. فحين يتمُ حفظُ بصمةِ أي موظف لأول مرة في الجهاز يتم السماح بهامش تقريبي أثناء المقارناتِ اللاحقة. ولو لم يُسمح بهذا الهامش، فلن يتعرف الجهاز على بصمة الموظف في المستقبل إذا كانت يده متسخة أو مخدوشة. لهذا السبب، يعمدُ المدراءُ إلى السماح بهذا الهامش من عدم الدقة، والذي إن تمادوا في رفعه سيصلون مرحلةً تختلطُ فيها على الجهازِ بصماتُ بعض الموظفين التي شاءت الصدفة أن تكون متقاربة.

داني "مقاطعاً بحماس": لقد حصلَ معي موقفٌ من هذا النوع في السابق.

[142] **رجل الكهف** "متجاهلاً المقاطعة": كما إن الدماغ يعمدُ للتعميم تلقائياً، فمن المعروف أن المعلومات الموجودة في البيئة هي لانهائية؛ وبالتالي، إن لم يكن الدماغ قادراً على التعميم، فإنه سيكون مضطراً لتحمل تكلفة التعرف على المتشابهات كلما تعرض لجديدٍ منها بما يتضمنه هذا من مخاطرة. كما وإنه ينزع تلقائياً إلى وضع افتراضات والتعامل معها على نحو يقيني. ويقومُ دوماً بإصدار أحكام مسبقةٍ لكل شيءٍ دون إدراكنا.

[143] **لوسيل** "مقاطعة": لكن لِمَ كل هذا ؟

رجل الكهف: لأن الانتقاء الطبيعي قد فضل هذه المواصفات في الدماغ. تخيلي مثلاً واحداً من أسلافنا قبل ملايين الأعوام وهو مستلق في مكان مكشوف في الغابة يستمتع بدفءِ شمس الصيف ونسماتِ الهواء العليل وزقزقة العصافير. وبينما هو في قمة الاسترخاء، حيث لا هموم تثقلُ كاهله، ولا فواتيرَ تنتظرُ منه دفعها، ولا رجلُ كهفٍ يزعجه بأفكاره، إذ يلحظُ أن العشبَ يتحرك في مكانٍ محدد. فإن قام بتجاهل هذا وأغمض عينه تاركاً الهواءَ العليلَ يداعبُ جسده، فإن هناك احتمالاً أن يفتحها وهو يصرخ من الألم لأن نمراً كان كامناً في ذلك العشب وقد انقض عليه وبدأ بافتراسه. لكنه لو قامَ بافتراض أن خطراً ما كامناً هناك، بسبب اهتزاز العشب، وقفز مذعوراً متسلقاً أقرب شجرة، مضحياً بتلك السكينة التي كان ينعمُ بها، والتي يحسده داني عليها، فإنه قد ضمن الحفاظ على حياته بنسبة مئةٍ بالمئة. وحتى إن لم يكن هناك نمرٌ كامنٌ في العشب، يبقى الخيار الأكثر سلامة أن يفترض وجوده، ويتصرف بناءً على هذا الافتراض، طالما أنه غير متيقن بنسبة مئةٍ بالمئة من عدم وجود النمر.

[144] **داني** "بحماس": صحيح! هذا يشبه أنه من الأسلم أن تفترض وجود طفلٍ سيقطعُ الشارعَ من أمام كل سيارة متوقفة وتتصرف بناءً على هذا. فقفط أولئك السائقون الذين يفترضون هذا في كل مرة يصادفون فيها سيارة متوقفة، يتعذرُ عليهم رؤية ما قد يكون كامناً وراءها، هم اللذين لا يدهسون أي طفلٍ في حيواتهم.

[145] **رجل الكهف**: تماماً، ولنفرض الآن أنه وفي اللحظة التي قفز فيها جدنا متسلقاً الشجرة إذ بنمر يهرع من ذلك العشب محاولاً الوصول إليه، لكنه يتمكن من تسلق الشجرة وينجو بحياته. عندها، فإنه من الأسلم أن يتعلم من درسه هذا بأن يفترض دائماً أن أي عشب يتحرك هو بالضرورة يحتوي على نمرٍ

ما المثقف؟ إلا أنها تبقى الخيارَ الأكثر موائمة عندما كامن فيه. وإن لم يصادف هذه الحالة مرة أخرى في حياته كلها، فإن الانتقاء الطبيعي قد حافظ تلقائياً على حيوات تكون حياته هي الثمن في هذا الرهان. وعليه، وتعميمات؛ وبالتالي، فقد تكاثروا وسيطرت الأفراد الذين جنحت أدمغتهم إلى وضع افتراضاتٍ وما أنا وأنتما إلا أفرادٌ من سلالةِ سلالاتهم تدريجياً على الحوض الجيني حاملين معهم هاتين النزعتين. في حياته. فنحن في الواقع ندين ذلك الذي قفز على الشجرة لأنه وضع افتراضات وقامَ بتعميمها لاحقاً وقد ورثنا عنه هاتين بوجودنا إلى تلك اللحظة التي قرر فيها جدنا قطع جلسة الاسترخاء تلك. وإن بشكلٍ غير النزعتين. لذا، فإن أدمغتنا تجنح للتصرفِ على هذه الشاكلة في كل النواحي تقريباً، من العمل تلقائياً مبرر، بل وغير مقبولٍ أحياناً. ونحن بحاجةٍ إلى تدريب حثيثٍ لكبح هاتين النزعتين في المجالات التي لا يجبُ أن ينشطا فيها. فكما أوضح كارل بوبر في كتابه *منطق البحث العلمي*: "... إنه من غير الواضح إطلاقاً إن كان من الصواب منطقياً أم لا استخلاص قضايا عامة من قضايا خاصة مهما بلغ عددها، إذ من الممكن أن يكون هذا الاستنباع خاطئا. فمن المعروف أنه مهما بلغ عددُ البجعاتِ البيضاء التي رأيناها؛ فإنه لا يسمح لنا بالقول إن كل البجع أبيض.".

[146] **لوسيل** "مفكرة": هذا منطقي. وماذا عن قولك إن الدماغ يحتاج إلى محتوياتٍ في الذاكرة ليقوم بتقييم الأمور، وباقي الأشياء التي أشرت إليها قبل قليل؟

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": كي لا أستفيض كثيراً، سأحاولُ الاختصار ما استطعتُ دامجاً السببين الثاني والثالث.

داني "وهو يصبُ القهوة": تفضل.

[147] **رجل الكهف**: لقد جادلَ مارك توين، ببصيرة ثاقبةٍ، في كتابه *ما الإنسان* أن: "... دماغ الإنسان مبنيٌ بطريقةٍ لا تجعله قادراً على ابتداع أي شيءٍ مطلقاً، لكن يمكنه فقط استخدام مواد حصلَ عليها من الخارج". وهو في هذا يشبه الآلة التي تقومُ بتحويلِ مدخلاتٍ ما إلى مخرجاتٍ مغايرة بالشكل. لكن هذه الآلة لن تستطيع إعطاءك أية مخرجاتٍ مالم تزودها بالمدخلاتِ في بدايةِ الأمر. وإن طبيعة ونوعية وجودة وقيمة مخرجاتها محكومةٌ بالضرورة بطبيعة ونوعية وجودة وقيمة المدخلات التي زُودت بها. يقول مارك توين: "إن دماغك هو مجرد آلة، ولا شيء أكثر من هذا. أنت لا تملك السيطرة عليه، وإنه لا يملك السيطرة على نفسه. إنه يعمل فقط بواسطة مؤثراتٍ خارجية. هذا هو القانون الذي صُنع به. إنه قانون الآلات.". ويضيف: "... الآلة البشرية، المحرك المجرد من الشخصية. أياً ما كان الإنسان، فإنه كذلك بناء على الطريقة التي صُنع بها وعلى التأثيرات الوراثية والبيئية والمجتمعية التي أثرت بصنعه، إنه متحركٌ وموجهٌ ومأمورٌ بواسطة مؤثراتٍ خارجية فقط. إنه لا يبتدع أي شيء، ولا مجرد فكرة واحدة.". وهذا صحيح. فجميع مفاهيمنا وقيمنا ومبادئنا قد قمنا بتعلمها من محيطنا، ويستحيل على أدمغتنا ابتداع أي مفهوم غير مستوحى من محيطنا الملموس. لذا، فلن تجدا في أي ثقافةٍ صحراويةٍ أو استوائيةٍ قديمةٍ مفهوماً للثلج مثلاً، لأنهم لم يصطدموا به في حيواتهم كلها. وبالمقابل، لن تجدا مفهوم

الصحراء بحرها اللاهب عند سكان الأسكيمو القدماء. لن يستطيعوا إدراك ماهية الصحراء الحقيقية مهما حاولتما وصفها لهم. سيضطرون للقيام بمقارباتٍ تخيلية في محاولة لتخيلها. وإنكما مهما حاولتما تخيل كائن عجيب الشكل فلن يسعفكما دماغاكما في تخيل كائنٍ بمواصفاتٍ غير أرضيةٍ بالكامل. قد تتمكنا من جعله غريباً جداً، بخلط مفاهيم لا تتمازج عادةً في الطبيعة مع بعضها البعض في كائنٍ واحد، لكن أن يكون مغايراً بالكامل لكل المفاهيم التي نعرفها، فإن هذا مستحيل.

[148] **لوسيل** "بحماس": هل لك أن تعطيني مثالا؟

رجل الكهف: كلا بالطبع، فلو أعطيتكِ مثالاً لناقضت نفسي! فمهما حاولتُ التفكير بمثالٍ يحتوي بالكلية على مفاهيم غير معروفة من قبل فإني سأفشل. ولو ذكرت لكِ مثالاً من أغرب ما يكون، فهذا يعني، بالضرورة، أني قمت ببنائه في مخيلتي بناء على مفاهيم أعرفها مسبقاً، وكل ما قمت به هو مجرد إعادة خلطها بطريقة غير مألوفة. ولنفرض جدلاً أني تمكنت من ابتداع فكرة أصيلةٍ بالكامل لشيء ما أو كائنٍ ما، فأنا لن أفلت من قبضة أن ما ابتدعته يبقى شيئاً أو كائناً، وهما مفهومان أرضيان. وهذا ما أكد عليه العديدُ من الفلاسفة منذ زمن طويل، كباروخ سبينوزا وديفيد هيوم على سبيل المثال. وبكلمات جون كيرتنشر في كتابه *كيف صُنِعَت الآلهة*: "... الدماغ يتصرّف بصورة كبيرة كمرآة... لا توجد صورٌ فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها نظيرٌ في مكانٍ ما خارجيا...". وكما شرح الأمر بيرتراند راسل في كتابه *ما وراء المعنى والحقيقية*: "تنطبق قاعدة هيوم، بأنه لا توجد فكرةٌ بدون انطباع سابق، على تعلم معاني كلمات الأشياء... وبالتالي، فلا كلمة ضرورية في قائمة مفرداتنا يمكن أن يكون لها معنى مستقل عن الخبرة. بالتأكيد، إن أي كلمةٍ يمكنني فهمها لها معنى مشتقٌ من خبرةٍ ما.". ويشرح كيفية تعلمنا بقوله: "معنى كلمةٍ من كلماتِ الأشياء يمكن فقط تعلمها بسماعها عند نطقها متكررة في وجود الشيء. الارتباطُ بين الكلمةِ والشيء هو مجردُ علاقةٍ مثل أي علاقةِ اعتياد. مثل العلاقةِ بين النظر واللمس. فعندما يتم الارتباط، فإن الشيء يقترحُ الكلمة والكلمة تقترحُ الشيء؛ تماماً مثلما يوحي الشيء المرئي بإحساس اللمس، والشيء الذي يُلمس في الظلام يوحي بإحساس الرؤية... ما إن تتم إقامة العلاقة بين الشيء وبين ما تعنيه الكلمة، فإن الكلمة تكون مفهومة في غياب الشيء؛ أي توحي بالشيء، تماماً بالطريقة نفسها التي يوحي بها النظر أو اللمس أحدهما بالآخر.".

[149] **لوسيل** "مفكرة": هكذا إذن تقوم أدمغتنا بتعلم الأشياء وإدراكها لاحقا.

رجل الكهف "وهو يلتقطُ قلماً بيده": بالطبع. فعندما كنتِ صغيرة قام أهلكِ بتعليمكِ الكلمات ومدلولات كل منها، كأن تمسكَ والدتكِ القلم هكذا وتقولَ لك إن هذا اسمه قلم. ولاحقاً، كلما تعلمتِ كلمة جديدة تضعينها في أرشيفك. لذا، فأنتِ تفهمين ما أقول، أو هذا ما أتمناه. على أي حال، إنكِ، في الواقع، تفهمينه بناء على المعاني التي تحملينها أنتِ في ذاكرتك للكلمات المختلفة، لا كما أفهمها أنا بالضبط. ولو أردنا التأكد من أن كلانا يحملُ مفاهيم متطابقة لكل كلمة نتفوه بها؛ سيصبح حوارنا أكثر من ممل. لهذا، فطالما أننا نتكلم نفس اللغة، فإننا نتكلم دون توقف آملين أن الآخر يشاطرنا نفس

ما المثقف؟

المفهوم للكلمات التي نقولها؛ أو على الأقل، مفهوماً قريباً بما يكفي ليفهم فكرتنا بعد أن نستعرضها له كما نفهمها نحن. لكن في الواقع، يستحيلُ على شخصين إدراك نفس الفكرة بتطابق تام، فالتشويش دائماً موجود، لأن كل شخص قد تعلم معاني الكلمات والمفاهيم بشكلٍ مستقلٍ عن الآخر، كما إن عقلية كل شخص قد بُنيت عبر خوضه معتركاً في الحياة يختلف عن المعترك الذي خاضه الآخر. وهذا ما أشار إليه الآن سنايدر عندما قال: "البنية المعرفية تقوم على الطريقة التي ننظر بها إلى العالم، والأفكار المسبقة التي تبنيناها عن الأشياء المألوفة بالنسبة إلينا".

[150] **لوسيل** "بتعجب": هل لك أن توضح؟

رجل الكهف: إن الذي يحصل هو أن دماغكِ يقوم بمقاربة كل الاهتزازاتِ الصوتيةِ التي تصله بما يحتويه من قاعدة بيانات، باستخدام ميزتي الترشيح والمقاربة اللتين أشرتُ إليهما سابقاً، وطالما أنه يدرك معاني هذه الاهتزازات الصوتية فأنتِ تعتقدين أنكِ فاهمة لها؛ وبالتالي، فاهمة لما أقول. لكن فقط عندما لا تجدين معنى لما أقول في قاعدة بياناتكِ، ستطلبين مني التوضيح بكلماتٍ أخرى تعرفين معناها.

[151] **داني** "مفكرا": هل لي بمثال أكثر تفصيلا؟

رجل الكهف: لك ذلك. خذ النظرَ على سبيل المثال. عندما تنظرُ إلى شيءٍ ما تدخلُ حزمة الضوء المرتدة عن هذا الشيء إلى عينيك وتصطدم بالشبكية. ثم تشفر البيانات إلى ملايين النبضات العصبية التي تتسارع في العصب البصري لتصل بعد خمسين ميلي ثانية إلى الخلايا العصبية في المهاد ليقوم بفلترتها. تقوم خلايا عصبية خاصة بتحليل الألوان والأشكال والتباينات ثم ترسلُ نتائجها، عبر قواعد بيانات تجاربك السابقة، من القشرة البصرية في الخلف إلى الفص الأمامي حيث يُعادُ تجميعُ كلِّ الأجزاء لتشكلَّ صورةً واحدةً ذات معنى، ثم ترسلُ مجدداً إلى القشرة البصرية؛ وعندها، تستطيعُ رؤية الصورة بشكلٍ واعٍ. لذلك، يقول غيرهارد روث: "بشكلٍ عام، أهمُ وسائلِ الإدراك لدينا هي الذاكرة. تسعة وتسعون بالمئة مما نراه نتصوره من ذكرياتنا. الواحد بالمئة المتبقية تمثله الأعضاءُ الحسية". وعليه، فإن ما تحتويه الذاكرة هو أمرٌ حاسمٌ تماماً لإدراكنا للأمور. فلو أني عرضتُ على شخصٍ ما شيئاً لم يشاهد مثله من قبل، فدماغه سيحاول تقريب هذه المعلومات الجديدة إلى أقرب شيءٍ موجودٍ في أرشيفه، أو يصنفها في خانةٍ من الخانات على أقل تقدير.

[152] **لوسيل** "بحيرة": أريد مثالا!

رجل الكهف: هل أنتِ خبيرةٌ في السياراتِ وكلّ ما يتعلق بها؟

لوسيل: لستُ بمهارة داني؛ فهو خبيرٌ بها.

داني "مزهواً بنفسه": بالتأكيد، إنها هوايتي المفضلة. فوالدي كان خبيراً ميكانيكياً؛ لذا، فقد ترعرعت بين أجزاء المحركاتِ قبلَ أن أتخذ مساراً مغايراً في حياتي وأتجه نحو الصحافة.

[153] **رجل الكهف:** عظيمٌ جداً، إذاً أخبرني؛ لو أعطيتك الآن عبوة فيها زيتٌ معدني، هل ستستطيع تمييزه إن كان زيتاً للمحرك، أم لعلبة التروس الأوتوماتيكية، أم لعلبة التروس اليدوية، أم للفرامل، أم للمقود الهيدروليكي؟ وهل ستستطيع الحكم على كونه صالحاً للاستعمال أم لا؟

داني "بزهو": بكل سهولة، وفي لمح البصر.

[154] **رجل الكهف:** وماذا عنكِ يا لوسيل؟

لوسيل: ليس بتلك الدقة طبعاً، لكني سأعرف أنه زيتٌ للسيارات.

[155] **رجل الكهف:** وماذا لو أعطيت العبوة لجدنا الذي فقز على الشجرة كجائزة مني على تصرفه الحكيم هذا؟

لوسيل "مفكرة": أعتقد أنه لن يفهم ما هو هذا الزيت على الإطلاق.

[156] **رجل الكهف:** بل لن يطلق عليه مسمى زيتٍ مطلقا؛ فهو لا يعرف البترول ولا السيارات ولا أي شيءٍ من هذا القبيل. جلُّ ما أتمناه هو أن تسعفه غرائزه ليحكم أن هذا السائل غيرُ صالح للشرب.

داني "ضاحكا": هذا عملٌ شريرٌ من قبلك.

[157] **رجل الكهف:** في الواقع، أعتقدُ أن غرائزه ستساعده بسهولةٍ على تقرير أنه سائلٌ لا يصلح للشرب، وأعتقد أنه سيجده بلا قيمة، وسيرميه رامقاً إياي بنظرة احتقار على هديتي عديمة القيمة هذه. هل لاحظتما الإختلاف بين ثلاثتكما؟ فأنتَ يا داني لديك مخزونٌ مفصلٌ لأنواع الزيوتِ في دماغك. فعندما ترى الزيت وتشمه وتلمسه برؤوس أصابعك، فإن دماغك سيستقبل هذه الإشارات، وسيقوم باستخراج محصلةٍ لها بلمح البصر، ثم يقارنها بالأرشيف الموجود عنده، وعندها سيقومُ بالإشارة إلى هذا الزيت ويحكم عليه بسهولة. وكلما كنت خبيراً أكثر، أي تملك معلومات أكثر تفصيلاً، سيحكم دماغك على الزيت بصورة أكثر دقة وبسرعةٍ أكبر. وأنتِ يا لوسيل، ستعرفين أن هذا الزيت هو زيتٌ للسيارات، لكن لن تستطيعي تقديم إجابة أكثر دقة؛ فلا يوجدُ لديكِ أي تبويباتٍ تحت عنوان "زيوت للسيارات" الموجود في دماغك. أما جدنا، الغاضبُ مني حالياً، لا يوجدُ لديه أساساً هذا العنوان في دماغه؛ لذا، فإنه لن يميز ماهية هذا السائل الذي بيده.

لوسيل "مفكرة": منطقيٌ جدا.

[158] **رجل الكهف:** وبالتالي، كي تتمكني يا لوسيل من الحكم على الزيتِ كما فعل داني، أنتِ بحاجةٍ ليتم تعليمكِ تماماً بالطريقةِ التي ذكرتها اقتباساً من بيرتراند راسل قبلَ قليل. وإن أردتُ تبرير موقفي لجدي، فالطريق أمامي طويلٌ جداً في تعليمه حتى أجعله مقارباً لداني في قدرته على تمييز الزيت المذكور وتقدير قيمته الحقيقية. ولا أعتقدُ أن لدي صبراً كافياً للقيام بهذه المهمة. لذا، فربما سأعطيه ورقة مئة دولار أمريكي، اعتذاراً مني على سوء تصرفي، وليشتري بها ما يشاء.

داني "بتهكم": ما هذا الهراء! هو لن يفهم قيمتها.

[159] **رجل الكهف**: صحيحٌ تماماً، لا توجد أي قيمةٍ لهذه الورقة في أرشيفه الدماغي. هل لاحظت؟ نحن نحدد ماهية الأشياء بناءً على ما يوجد في أدمغتنا من معلوماتٍ مسبقةٍ فقط. ما ذكرته كأمثلة على الأمور المادية ينطبق أيضاً على تقييمنا للأمور الاجتماعية من قيم ومبادئ وأخلاق، وما نعتبره صواباً أو معيباً أو شائناً أو ممدوحاً أو مذموماً، كما وللأفكار وما نجده منها منطقياً أو غير قابلٍ للتصديق. كل هذا نستمده من محتويات ذاكراتنا، وليس بالضرورة مطلقاً أن تكون لهذه المحدداتِ الذاتية التي نملكها أي صلة بموضوعية القيم والمفاهيم وماهياتها المجردة.

[160] **لوسيل** "مفكرة": كلامك منطقيٌ جدا. والآن أخبرني، من فضلك، ما هي أهمية نظام الترشيح؟

رجل الكهف: إن الدماغ البشري قادرٌ على امتصاص أحد عشر مليون وحدة من المعلومات في الوقت نفسه، غير أننا لسنا واعين إلا إلى أربعين وحدة منها كحدٍ أقصى. تخيلي لو كان عليكِ التعامل مع كل الأصوات التي تسمعينها الآن على قدم المساواة دون إهمال ما هو غير ذي فائدة، إن هذه الضوضاء ستجعلكِ غير قادرة على التركيز فيما هو مهمٌ منها. لو كان كلامي، وصوت الماء الذي يغلي الآن معلناً أنه جاهزٌ ليصبَ في فناجيننا، وزقزقة العصافير، وحفيف الأشجار، وصرير الرياح، وباقي الأصوات التي نسمعها الآن كلها على قدم المساواة بالأهمية؛ فسيستحيل عليكِ التركيز فيما أقول. في الواقع، لو كان عليّ أنا التركيز في كل الإشارات التي ترد إلى دماغي الآن؛ لاستحال عليّ بناء جملة مفيدة واحدة.

[161] **لوسيل** "بتركيز": هذه ميزةٌ عظيمةٌ إذن!

رجل الكهف: لذا، فإن نظام الترشيح، إضافة إلى قدرة القسم اللاواعي من الدماغ على إدارة الكثير من مهامنا، هما ميزتان لا تقدران بثمن يعملان جنباً إلى جنب على مدار الساعة. ومن دونهما، لأصبحت حيواتنا جحيماً، ولأمست أبسطُ مهامنا تتطلبُ قدرات استثنائية.

[162] **داني** "بفضول": كيف هذا؟

رجل الكهف: بما أنك محبٌ للسيارات، فتخيل لو أن على دماغك التركيز على قدم المساواة في كل ما تراه وتسمعه وتحس به وأنت تقود سيارتك بسرعة مئة وعشرة كيلومترات في الساعة. في هذه السرعة، أنت تقطع أكثر من ثلاثين متراً ونصف المتر كل ثانية. إن كمية المعلومات الواردة لحظياً إلى دماغك في هذه السرعة مهولة جدا. ليس هذا فحسب، بل أنت تقوم، إضافة إلى استقبال هذا الكم الهائل من البيانات ومعالجته لحظياً، بالتفكير بما عليك فعله أثناء القيادة، وبما يفعله السائقون المحيطون بك، والنظر في المرآة الثلاث، ومراقبة جهاز تحديد المواقع، وربما التفكير بما قالته لك لوسيل بالأمس، وبتلك المخالفة المرورية التي قمت بها، وبذلك المقال الذي رفض رئيس التحرير نشره لك، وإلى ما هنالك من أمور يعمل دماغك على إدارتها في الوقت عينه أثناء قيادتك للسيارة. حاول أن

تفكر بوعيك في كل هذه التفاصيل عندما تقود سيارتك في المرة القادمة كي تفهم قصدي. دون نظام ترشيح، أو فلترة، لما هو مهم وما هو غير مهم، ودون مساعدة الأقسام اللاواعية من أدمغتنا، سنكون عاجزين عن القيام بأبسط الأمور في الواقع. لكن بسبب هذه المساعدة الجليلة فإننا متعددو مهام بسهولة. نحن نترك للأقسام اللاواعية من أدمغتنا مهمة القيام بالكثير من الأمور التي نقوم بها فعلياً، ونركز نحن بالأقسام الواعية على بعض الأشياء المهمة منها فقط. وهكذا يمكنك يا داني القيام بأكثر من أمر في الوقت عينه؛ كأن تمشي ذاهباً إلى مكانٍ ما وأنت تأكل شطيرة تحملها في إحدى يديك، بينما تحمل في اليد الأخرى حقيبتك، وتجري مكالمة هاتفية مع لوسيل عبر سماعة في أذنك. هل لك تخيل كم من أمرٍ يتحكم به دماغك أثناء هذا، وكم من بياناتٍ ترد إليه لحظياً، وكم من أمرٍ يقوم بإصداره في الوقت عينه؟ ولأكون صريحاً معك، فإن أدمغتنا تقوم بإدارة تسعين بالمئة مما نفعله دون علمنا على مدار الساعة دون توقف.

[163] **داني** "متفاجئا": لكن هذا يعني أننا غير واعون لمعظم ما نقوم به.

رجل الكهف: هذا صحيح، فإن الوعي يشكل قسماً صغيراً جداً من الدماغ. فالقسم الواعي من الدماغ يقع في القشرة المخية، وهي طبقةٌ متجعدةٌ تبلغ سماكتها ميليمتراً واحداً فقط تغلف الدماغ. وفي الواقع، إن اللاوعي لا يتحكم منفرداً في إدارة الكثير مما نقوم به، كما والتحكم بفهمنا وإدراكنا للأمور فحسب، بل إن كل قراراتنا تتم في اللاوعي، ثم ندركها بوعي فنعتبرُ أننا قررناها. تماماً كما وصف غيرهارد روث: "نشعر بالمهانة لأننا كالدمى بين يدي العقل اللاواعي الذي يقرر متى يصبح الوقت مناسباً لنا للقيام بأمر آخر أو التفكير بأشياء أخرى. حتى الأفكار الواعية الجديدة يمليها علينا العقل اللاواعي.". وكما شرح آلان سنايدر: "القرارات التي نتخذها لا تكون قائمة على أفكار واعية، القرارات التي نأخذها تكون من العقل الباطن. يكاد الوعي أن يكون بمثابة فكرة مستدركة. يجادل البعض بأننا لا نملكه حتى، وأنه يبدو كتمرين للعلاقات العامة في الدماغ يوحي لك بأنك معني بالأمر".

[164] **لوسيل** "بدهشة": هذا مذهل! لكن لماذا؟

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": إن كنتِ تقصدين "كيف حصل هذا؟" فإن جون بارغ يجيبك بقوله: "التأثيرات لعقولنا الباطنة موجودة في كل وقتٍ وفي كل مكان، ويظهر تقدم الأبحاث مدى اتساع سيطرتها؛ إذ لم نجد أن الأشياء التي كنا نظن أنها باطنية هي أشياء تتم في العقل الواعي، بل العكس تماما. ففعلياً، تقلص الوعي تدريجياً وتحول إلى رجل صغير الحجم داخل رؤوسنا... لا يعني هذا أنه مع الوعي قد تم التخلص من العقل القديم، بل أضيف الوعي إليه وتوجب عليه حينها أن يتعلم كيفية التعامل مع العقل الباطن. هكذا يعمل الانتقاء الطبيعي؛ إنها عملية تدريجية، فهو ليس تغييراً جذرياً، إذ لا يصبح لدينا دماغ جديد فجأة، فالأشياء القديمة لاتزال موجودة ولا يزال تأثيرها علينا قويا... معظم تصرفاتنا هي مزيجٌ من العمليات الواعية واللاواعية، فبطريقةٍ ديناميكيةٍ تكافليةٍ تدعم هذه العملية بعضها بعضا. تطور الوعي وتأخر بالتطور، لكنه تطور عبر استغلال البنى الموجودة

مسبقاً في الدماغ، والتي كانت غير واعية...". وإن كنتِ تعنين بسؤالكِ "ما الفائدة من هذا؟" فيجيبك الآن سنايدر بقوله: "التفكير البطيء ومحاولة التوصل إلى حلولٍ جديدةٍ غير مفيدٍ للتطور. نريدُ أن نكون سريعين تجاه ما هو مألوف".

[165] **دالي** "مفكرا": وكأني أفهم من كلامك أننا لا نملك إرادةً حرة.

رجل الكهف: صحيح، ولو أني لم أهدف لنقاشِ هذا الموضوع الآن. فلو أني أردت هذا، لكنت نهجت نهجاً مختلفاً في الحوار. لكن تسليط الضوء على عدم امتلاكنا لحرية إرادة هو أمرٌ جوهريٌ في تدعيم موقفي من عدم أهلية الدماغ لإصدار الأحكام، وهذا هو ما نبحث فيه اليوم.

[166] **دالي** "متحمسا": ومع ذلك، هل لك أن تشرح أكثر؟ فأنا أفكر في هذا الأمر منذ مدة.

رجل الكهف: لِمَ لا! لقد أثبت علم الأعصاب أن جميع قراراتنا يتم اتخاذها في اللاواعي قبل أن ندركها بوعي. يذكر سام هاريس في كتابه *حرية الإرادة* إحدى التجارب ذات الصلة: "استخدم عالم الفيزيولوجيا بينيامين ليبيت تخطيط أمواج الدماغ ليُري أن النشاط في القشرة الحركية للدماغ يمكن أن يُلاحَظ قبل ثلاثمئة ميلي ثانية من شعور الشخص أنه قرر التحرك.". كما إن مخابر أخرى قد وسعت العمل باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي؛ فكانت النتيجة، كما وصفها أحدُ من قام بهذه التجارب، وهو جون ديلان هاينز، أنه "وجدنا أن نشاط الدماغ يشير إلى القرار الذي سيتخذه الشخص قبل سبع أو عشر ثوان من اتخاذ القرار الواعي. إذن، يبدو أن الدماغ يحث على القرار ويبرمجه. وفي تلك اللحظة عندما يعترينا ذلك الشعور الذي يقول: أنا الآن أقرر؛ يكون القرار قد اتُخذ منذ فترة طويلة.". وهذا لا ينطبق على القراراتِ البسيطة أو الروتينية فحسب، كما أشار أنطونيو رافغيل: "الحد الأدنى من السرعة التي يستطيع الدماغ فيها اتخاذ قراراتٍ مهمة، أي غير عشوائية، يقارب المئتين وأربعين ميلي ثانية، إنها سرعةٌ كبيرةٌ جدا. وفي العديد من الحالات، يكون الدماغ قد اتخذ قراره في حين لايزال الشخص يفكر بالموضوع.". ولذا، يؤكد سام هاريس: "أنا، كمراقبٍ واعٍ لخبرتي، لا يمكنني تخليق الأحداثِ في القشرة الجبهية لدماغي أكثر مما أتحكم في نبض قلبي.".

لوسيل "بحماس": لقد شاهدت فيديوهات عن هذه التجارب على الإنترنيت، إنها مثيرةٌ للاهتمام حقا.

[167] **رجل الكهف:** إنها أمرٌ أجمع عليه تقريباً جميع علماء الأعصاب بعد دراساتٍ وتجارب مطوّلة. فإن اللحظة التي تقررين فيها أمراً ما، هي فقط تلك اللحظة التي يُدرك فيها وعيكِ القرار الذي اتخذه دماغكِ مسبقاً في القسم اللاواعي منه. وكما يصف سام هاريس الأمر: "هناك الآن حقيقة واحدة تبدو غير قابلة للجدل؛ ببعض لحظاتٍ قبل أن تصبح واعياً بما سوف تفعله لاحقاً -وهو الوقت الذي تبدو فيه لذاتك ممتلكاً مطلق الحرية للتصرف على النحو الذي تريد- يكون دماغك قد قام مُسبقاً بتحديد ما ستفعله لاحقا؛ بعدها، تصبح أنت واعياً لهذا القرار مؤمناً أنك من قام باتخاذه... إن القول إنه كان بإمكاني فعل خلاف ذلك إن أردت، هو كالقول إنه كان بإمكاني العيش في عالم آخر، لو كنت

أعيش في عالم آخر.". في الواقع، أنتِ لا تملكين حرية تقرير الفكرة التالية التي ستخطر على بالكِ، فأي حرية إرادةٍ تعتقدين بها! وباختصار، فإن علم الأعصاب اليوم قد أثبت أن ما قاله توماس هوبز: "إني أقر بهذه الحرية، بأني أستطيع أن أفعل إذا أردت. ولكن أن أقول: أستطيع أن أريد إذا أردت، فهذا في رأيي كلامٌ سخيف." صحيحٌ تماما.

[168] **لوسيل** "مفكرة": إن هذا يدفع للتفكير العميق في الموضوع. لكن أخبرني الآن، ماذا عن ميزة المقاربة؟

رجل الكهف: لولاها لكان علينا التعرف من جديد على كل شيء وكأننا نصادفه للمرة الأولى. فذلك القلم الذي استخدمته والدتكِ لتُعلمكِ أن هذا الشيء يسمى قلماً لم يعد موجوداً الآن. ومع هذا، فدماغكِ يقارب كل ما يشبه ذلك الشيء ليفترض أنه مثله؛ وبالتالي، فأنت تلقين اسم "قلم" على كل واحد من الأقلام في العالم. ولولا هذه الميزة أيضاً لما فهمتي عليّ أني أقصدُ القلم عندما أقولُ "قلم"؛ لأن صوتي لا يشبه صوت والدتك. ونبرة صوتي، بل ولهجتي، يختلفان عنها كذلك. فعملياً، الموجة الصوتية التي تصلكِ عندما أقول "قلم" تختلف تماماً عن تلك التي وصلتك من والدتك. لكن على الرغم من هذا، فإن دماغك قد ألغى هذه الاختلافات وقارب ما وصله مني اليوم بالمخزون الذي لديه ففهمَ أنني ووالدتك قد تكلمنا عن الشيء ذاته، بل عن مفهوم واحدٍ هو مفهوم القلم لا ذاك القلم بعينه. وبنفس الطريقة، إذا أعطيتكِ ورقة لتقرئيها مكتوبة بخط يدي؛ فقطعاً خط يدي لا يشبه إطلاقاً الأحرف والكلمات المطبوعة التي تقرئينها في الكُتب، لكن دماغكِ سيهمل هذا الاختلاف بسهولة؛ وعندها، ستُسَمين خط يدي "خطاً مقروءا". أما إن كان خط يدي يبتعد كثيراً عن الطريقة القياسية التي نكتب بها الكلمات على الآلة الكاتبة، لدرجةٍ يتعذرُ فيها على دماغكِ مقاربة ما كتبتُ مع محتوياته السابقة من المفردات؛ فعندها، لن تستطيعي تمييز كتابتي وستقولين ان لي "خطاً غير مقروء".

لوسيل "بلطف": أعتقد أن خطك مقروء.

رجل الكهف: هذه مجاملةٌ لطيفة. أما أنا فلا أعتقد هذا؛ فإني أعاني في قراءة ما كتبته بيدي في أحيان كثيرة.

لوسيل "ضاحكة": لا تبالغ!

[169] **رجل الكهف:** هذا حقيقي. على أي حال، بالمناسبة، أنتِ لا تقرئين الكلمات حرفاً حرفا. كنتِ تفعلين هذا أثناء تعلمكِ الكتابة والقراءة. لكن لاحقاً، أصبح دماغكِ يتخيل الكلمات كما يرى أنه يجب عليها أن تكون من السياق العام. ولن تتوقفي لتقرئي حرفاً حرفاً إلا إذا كانت هناك كلمة جديدة عليك؛ كمصطلح لم يمر معكِ من قبل. وعليه، لو كنتُ قد وقعتُ في أخطاء إملائية، طالما كانت في حدود المعقول، فدماغكِ سيتجاهلها تماماً، وغالباً لن تشعري بوجودها على الإطلاق، بل إنه قادرٌ على تصويبي لو أخطأت باستعمال بعض المفردات. أو لأكون دقيقاً، إنه يقوم بفهم الجملة كما يرى، من وجهة نظره، أنها يجب أن تكون. فربما أنا لم أخطأ بأي كلمة، بيدَ أني استعملت كلمة غير موجودة في خزينة

مفرداتك لكنها قريبة من إحداها؛ عندها، فمن وجهة نظر دماغك، سيعتبرها كلمة خاطئة بحاجة للتصويب؛ وعليه، فإنه سيقوم بالتصويب المناسب تلقائياً دون أن تشعري. وفي هذا يقول آلان سنايدر: "أدمغتنا قادرة على تزييف المعلومات التي تصل إلى شبكية العين. بعبارة أخرى، إذا أمكننا تجاهل ما هو موجود فعلياً أمامنا والتشديد على ما نظن أنه يجب أن يكون أمامنا فإن هذا سينجح. الدماغ قويٌ جدا". وتؤكد على تحكم الدماغ بما يصله من بيانات سوزانا مارتينيز كونديه بقولها: "نختبر الأوهام في جميع الأوقات. نادراً ما يحصل تطابق تام بين الخيال والواقع. إذن، بطريقةٍ ما، كلُّ ما نراه تقريباً هو مجرد وهم".

[170] **لوسيل** "بتركيز": لكن تخيل كم ستكون الحياة صعبة بدون هذه الميزات، لن يفهم أحد منا الآخر مطلقاً، وسيتعرف كل منا على كل شيء مرة جديدة في كل لحظة.

[171] **رجل الكهف**: ولهذا، فإننا ما إن تعلمنا شيئاً ما فإن الدماغ سيضعه في ذهنه كمفهوم عن هذا الشيء، مالم يقصد عامداً حفظ بيانات الشيء لذاته لغرض ما. لذا، فعندما تم تعريضكِ لمفهوم القلم فهمه دماغك وراح يطلق على كل ما يشبه ذلك الشيء، ويقوم بنفس وظائفه، الاسم ذاته. لكن لو حفظه لذاته فقط؛ فعندها، لن تستطيعي إطلاق مسمى "قلم" على أي قلم آخر ولو اختلف عن ذلك القلم في لونه أو طوله فحسب.

[172] **لوسيل** "مفكرة": الآن بت أفهم ما قلته لنا بالأمس: "لم يدرك الرعايا حتى الآن أن هناك جدراناً مختلفة للبرج، وأن هناك سطحاً وأن هناك درجاً حلزونيا. لا يمكنهم استيعاب الفكرة أساسا. كيف وهم لم يشاهدوا برجاً ولا درجاً في حيواتهم؟ هذه كلماتٌ لا تحمل معانٍ بالنسبة إليهم. مفهوم النظر من ارتفاع عالٍ بشكلٍ شمولي لا يمكنهم تصوره، فلا وجود له في الغرف.".

[173] **رجل الكهف**: ملاحظتك جيدة. وبالمثل أيضاً في مثالنا الحالي، لو أعطيتُ القلم لجدنا، كاعتذار مني على قلة أدبي معه، فلن يدرك ماهيته بتاتاً، فهو لا يملك هذا المفهوم في دماغه. وبالتالي، وجب علينا تعليمه إياه كما نعلم الطفل الصغير تماما.

دالي "مازحا": دع جدنا وشأنه، ألا يكفيه ذعره من النمر. أعطه شطيرة شهية أو كعكة لذيذة بدل هذه الخردة التي تقدمها له من حين لآخر.

[174] **رجل الكهف**: في الواقع، ليس عليّ ذلك. إن عليه تحمل مشاكستي كما نتحمل نحن مشاغبات أبنائنا وأحفادنا. ثم هل تعتقد أني أقدر له تصرفه ذاك؟ إني أعتقد أنه لو كان ذا بصيرةٍ نافذةٍ وحكيماً بما يكفي ليكون محط تكريم لبحث هو عن النمر بدل أن يهرب منه معطياً الفرصة لنسله كي يدمروا هذا الكوكب بكل ما عليه. ولو فعل هذا، فإني أؤكد لك أن جميع الأجناس الحية كانت لتشكره حتى آخر لحظةٍ من عمر هذا الكوكب.

دالي "بحزن": لا أستطيع سوى تأييدك يا صاحبي؛ فما فعله نسل ذلك الرجل لا يمكن التكفير عنه

بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

لوسيل "بعينين دامعتين": أرجوكما، لا أريد تذكر البؤس الذي سببه البشر؛ فأنا هنا الآن كي أنساهم.

[175] **رجل الكهف:** على أي حال، وكما تُخطأ ماسحات البصمات أحياناً، فإن لميزة المقاربة وجهها المرح. فلو كنتِ تسمعين أشخاصاً يتكلمون بلغةٍ لا تفهمينها فإن دماغكِ سيعمل جاهداً كل الوقت، لا إرادياً، على محاولة مقاربة ما يسمع. وليس من النادر أن تلتقطي كلمة مشابهة لكلمةٍ في لغتكِ فيقوم دماغكِ بتأويلها على أنها تلك الكلمة. بل ليس من النادر أن يكون صوتاً غير بشري مطلقاً فيحوله الدماغ إلى كلماتٍ بشريةٍ يفهمها.

[176] **دالي** "بحماس": لقد خبِرتُ هذا مرات عديدة؛ كأن أستمع لآلة تصدر صوتاً ذا تواترٍ ثابتٍ فأشعر وكأن الآلة تردد كلمة ما أو جملة ما. وكلما ركزت في ذلك الصوت أكثر كلما زاد يقيني أنها تقول ما يتهيأ لي.

[177] **لوسيل** "بمرح طفولي": وأنا حصل معي موقف مشابه في أيام طفولتي. كنت في رحلةٍ مع ثلاثةٍ أو أربعةٍ من الأشخاص المتدينين في إحدى الغابات، وإذ بصوتٍ قصير يصدر، لا أعرف مصدره، بدا لي كأنه نعيق غراب. لكن أحد الجالسين، وهو أكثرهم تديناً، قال: "هل سمعتم كلمة يا رب؟"، ثم بدأ الآخرون على التوالي بتأييده. لا أذكر إن أيده الجميع، لكني أذكر يقيناً شخصاً واحداً قام بهذا على الأقل. ثم وضعوا افتراضاً مفاده أن جِنيّاً ما موجودٌ في المكان وقد قال "يا رب"، وقاموا بتصديق فرضيتهم هذه بسرعة وتصرفوا على أساسها مما جعلني متذكرة لهذه الحادثة الغريبة حتى اليوم.

[178] **رجل الكهف:** إن ما حصل هو أن دماغ ذلك الشخص، والذي كما أشرتِ كان أكثر الموجودين تديناً، قارب نعيق الغراب، أو أياً كان الصوت، لكلمة "يا رب"؛ فهي تتكرر على مسامعه أكثر بكثير من نعيق الغربان. وعندما أفصح عن هذا، حفز قوله أدمغة المتدينين الآخرين لتقوم بنفس المقاربة. فبالنهاية، هم لم يتعرضوا لنعيق الغربان في حيواتهم اليومية بنفس التكرار الذي تعرضوا به لكلمة "يا رب". وإن هذه الحادثة ليست غريبة كما وصفتِها يا لوسيل؛ فهذه الأخطاء في المقاربات الدماغية تحصل بتكرار عالٍ مما يدفع الناس إلى التيقن بما يؤمنون به لأنهم يعتقدون أنهم يرون أو يسمعون أشياء تؤيد إيمانهم. فكم من مُسلم قد وجد اسم الله أو اسم محمد مكتوباً على بيضة دجاج أو حبة بطاطس. وكم من مسيحي قد شاهد مريم العذراء متجسدة في غيمة في السماء، وكم منهم من شاهد المسيح مرسوماً على رغيف للخبز. وكم من بوذي قد شاهد البوذا في صخور الجبال. فما يشاهده هؤلاء الأشخاص هو مقاربات خاطئة حصلت في أدمغتهم لأشياء اعتباطية تماماً في الطبيعة. حيث قامت أدمغتهم، النهمة لإعطاء معانٍ لكل شيء، بإعطائها معانٍ عن طريق تقريبها لمحتوى ما من مفاهيمها المسبقة. وكلما كنتَ متديناً أكثر كلما زاد احتمالُ أن تشاهد وتسمع ما يزيد من إيمانك؛ مما يقوي إيمانك أكثر؛ فتشاهد وتسمع ما يقويه أكثر، وهكذا دواليك.

[179] **داني** "مفكرا": لهذا إذن لم يحصل مطلقاً أن شاهد شخصٌ إشارات من دين لا يعتنقه؛ كأن يشاهد بوذيٌ المسيح، أو مسلمٌ مريمَ العذراء.

رجل الكهف: صحيح، فذاكراتهم غير مملوءة بهذه المفاهيم، فكيف لأدمغتهم أن تصبغ هذه المعاني على هذه الأشياء الاعتباطية إلا لو كانوا متعرضين لها بشكلٍ مكثف؛ كشخصٍ مسلم يعيش في بيئة مسيحية أو يفكر في اعتناق المسيحية؛ عندها، قد يشاهد أو يسمع ما من شأنه حثه على قراره هذا. دماغه سيخدعه بإشارة ما ويجعله يعتقد أنها حقيقية. لقد شاهد أو سمع شيئاً ما، هل تريده أن يكذب عينيه أو أذنيه؟

داني "بحزن": فعلاً إنها مهمةٌ صعبة.

[180] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": وهذا يفسر إذاً أن الأشباح لا تظهر إلا لمن يؤمن بها، والجن كذلك. وقصص تناسخ الأرواح لا تُتداول إلا في المجتمعات التي تؤمن بها، وهكذا بالنسبة لباقي الأمور التي لا يراها ويسمعها ويعيشها إلا أناسٌ مؤمنون بها. كما إن جميع من عاش تلك التجارب التي تسمى الاقتراب من الموت، أو أولئك الذين يعتقدون أنهم قد ماتوا فعلاً ثم عادوا إلى الحياة، لم يشاهدوا في رحلاتهم تلك سوى ما يعتقدونه مسبقاً عن الموت أو ما يتداوله أبناء مجتمعاتهم عنه. لم يحصل قط أن روى أحدهم رواية ليست مطروقة أو شاهد أشياء لا يمكن وصفها أو أنها لم تُوصف فعلاً من قبل.

[181] **رجل الكهف:** صحيحٌ تماماً، مع أنه غالباً سيكرر عبارة "أشياء لا يمكن وصفها، ولا يمكن تخيلها" لأن هذا ما يفترض أن يكون عليه العالم الآخر، بيدَ أنه عندما يستفيض في حديثه، تربنه يصف كل شيء، كما وسيتخيله بدقةٍ كل من يستمع له.

[182] **لوسيل** "ضاحكة": ناهيك عن أن كل مُعتقدٍ يؤكد على أنه المعتقد الوحيد الصحيح وباقي المعتقدات خاطئة. كما أن المنطق يقول إنه يستحيل أن يكون الجميع على صواب؛ وبالتالي، يجب أن يكون هناك على الأكثر معتقدٌ واحدٌ هو الصحيح. وبما أن ما بعد الموتِ هو واحدٌ لجميع البشر؛ فعليه، يجب أن يكون معتقدٌ واحدٌ على الأكثر، من تلك المعتقدات، هو الذي سيُثبت الرواة صحته. لكن المضحك في الموضوع أن رواية كلٍ منهم تؤكد معتقده بالذات. والنتيجة، هي أن لدينا روايات عن تجاربَ شخصية بعددِ تلك المعتقدات.

[183] **رجل الكهف:** كلامكِ صحيح. لكن الحقيقة، على أي حال، هي أنه لم يمت أحدٌ منهم بالفعل. كلُّ ما حصل هو محض اختلاق أدمغتهم التي خدعتهم ليعتقدوا أنهم يعيشون رحلة ما؛ تماماً كالحلم. وعليه، فلن تستطيع أدمغتهم ابتكار شيءٍ ما لم يتم إدخاله فيها مسبقا. وبالتالي، لن يرى أي شخصٍ في "رحلة الموتِ" العالمَ الآخر بمنظورٍ لم يألفه مسبقاً عنه، تماماً كما أنه يستحيلُ على الحالم أن يرى أشياء لا يعرفها من قبل في حلمه، وإن قام بدمجها بطريقةٍ بالغةِ الغرابة. قد تكون الصورة الكلية أغرب من الخيال، لكن عناصرها المنفردة هي عناصر مألوفة حتما.

داني "مازحا": أتمنى أن أعيش تلك التجربة يوماً ما.

[184] **رجل الكهف:** اسمعا قول باروخ سبينوزا، ذا البصيرة النفّاذة، في "رسالةٍ في إصلاح العقل": "ليس هناك... أي وهم، بل هناك فقط ادعاءاتٌ صادقة.". هذا لأن "... الوهم لا يبدع شيئاً ولا يُقدّم للفكر جديدا. وإن الذكريات الكامنة في الدماغ وفي المخيلة هي وحدها التي يقع استذكارها، فينتبه إليها الفكر جميعاً دونما تمييز. فقد يتذكر المرءُ مثلاً كلاماً منطوقاً وشجرة، فيخلط فكره بين هذه الذكريات ويُسلِّم بوجودِ شجرة تتكلم...". ثم يشرح أمراً بالغ الأهمية: "... أولُ ما ينبغي أن ننتبه إليه هو أن قدرة الفكر على التوهم تكون أعظمَ بقدر ما يكون فهمه للأشياء أقلَّ وإدراكه الحسي- لها أكثر، وتكون قدرته أقل بقدر ما يزداد فهمه للأشياء. فكما لا نستطيع مثلاً...، طالما كنا نفكر، أن نتوهم أننا نفكر ولا نفكر، فكذلك لا نستطيع، بعد معرفةِ طبيعةِ الأجسام، أن نتوهم ذبابة لا متناهية... رغم أننا نستطيع التلفظ بكل ما نشاء التلفظ به. لكن، كما قلنا، كلما ضعفت معرفة الناس للطبيعة سَهُلَ عليهم إنشاء أوهام أكثر؛ كأن يتوهموا أشجاراً تتحدث، وأناساً يمسخون فجأة حجارة أو ينابيع، وأشباحاً تظهر في المرايا... وأموراً كثيرة أخرى من هذا القبيل.". هذا لأنه "... لا شيء مما يوجد في الطبيعة يناقض قوانينها، وكل ما يحدث إنما يحدث وفقا لقوانين طبيعية محددة، فينتج عنه، وفق قوانين محددة، معلولاتٌ محددة تربط بينها علاقاتٌ ثابتة. وبالتالي، فكلما تصورت النفس شيئاً من الأشياء تصوراً صحيحاً كشفت، لا محالة، عن آثاره الموضوعية...". وعليه، "... إذا تمت لنا معرفة طبيعة الدائرة وطبيعة المربع مثلاً فإننا لن نستطيع بعد هذا المزج بينهما وتكوين فكرة دائرةٍ مربعة...". ويخلص مُصيباً إلى "لاحظوا أن الوهم، متى اعتُبر في ذاته، لا يختلف كثيراً عن الحلم. بيد أن الحلم يفتقر إلى تلك الأسباب التي تُقدمها الحواس إلى الإنسان اليقظ، كما أن الصور التي تظهر لهذا الإنسان في المنام لا تصدر عن أشياء تشغل حيزاً خارجاً منه. أما الخطأ فهو يتمثل... في أن يحلم المرءُ وهو في حالة يقظة. ويُسمى الخطأ هذراً إذا كان بارزاً جدا.".

داني "بإعجاب": إنه لا شك يتمتع بذهن حصيف كي يصل إلى كل هذه الدقة من الاستنتاجات قبل قرون من تطور علمي النفس والأعصاب.

[185] **رجل الكهف:** إن لباروخ سبينوزا أثراً لا يمكن إغفاله في توجيه الفكر الإنساني نحو العقلانية. بالمناسبة يا داني، لقد تذكرتُ شيئاً آخر. بما أنك محبٌّ للسيارات، هل لاحظت كيف نرى السيارات على أنها غاضبة، أو مرحة، أو ضاحكة، أو أنها مصبوغة بتعبير ما؟ الأطفال لا يتورعون عن التصريح بهذا بينما يخجل الكبار عادة منه فيلجؤون إلى وصف السيارات بتعابير أخرى أكثر شمولية؛ كأن يقولوا مثيرة، متوحشة، راديكالية، ناعمة، إلى ما هنالك من أوصاف.

داني "ضاحكا": بالطبع لاحظت هذا، ودائماً ما كنت أعتقد أنه أمرٌ مثيرٌ للسخرية مع أني أشعر به.

[186] **رجل الكهف:** مرد هذا هو أن الدماغ قد تطور في بيئةٍ لا توجد فيها سيارات، بل حيوانات.

والآن، إن تصميم مقدمة السيارة يخدع الدماغ. فمن السهولة بمكان أن يرى الدماغ مصابيحها الأمامية على أنها عيون، وفتحة المشعاع على أنها فم. وهكذا، سيجنح الدماغ لا إرادياً إلى ملاحظة تعبير وجه هذا الكائن الغريب.

دالي "بحماس": تأكيداً لكلامك، ليس من النادر أن يقول الأطفال عن مصابيح السيارة أنها عيون السيارة.

[187] **رجل الكهف:** كلنا قد قرأ كلمة ما على ورقةٍ فيها خربشة لا تمت لأي كلمة بصلة، أو سمع كلمة ما من صوتٍ اعتباطي تماما. الدماغ يقوم بعملٍ مثير للإعجاب ليستخلص أموراً يفهمها من كل شيء.

لوسيل "وهي تصبُ المزيد من القهوة": إذن الدماغ يخدع نفسه بسهولةٍ جدا.

[188] **رجل الكهف:** بسهولةٍ أكثر مما تعتقدين. دعينا نجرب أن نخدع أنفسنا الآن. فكري في طعام ما تشتهينه كثيراً، ركزي في الأمر لبعض الوقت وستشمين رائحته، بل وستشعرين بمذاقه. لم يقدمه الإله لك لأنك اشتهيته كما فعل مع مريم العذراء في محرابها، فلا معجزات تحصل في هذا الكهف بكل أسف. إن دماغك قد خدع نفسه. فكري بأغنيةٍ ما وستسمعينها، وهكذا دواليك. هذا وإني لا أتكلم في كل ما سبق عما يعرف بالهلوسات السمعية والبصرية، ولو أنها أمورٌ أخرى تثبت بشكلٍ واضح كم أن الدماغ قادرٌ على خداع نفسه؛ حيث إنه ليس من النادر أن يعاني أحدهم من هلوساتٍ والتي يقنعه دماغه أنها آتية من العالم الواقعي بينما هي محض اختراع وتأويل الدماغ نفسه.

دالي "مؤيدا": صحيح، كلنا مررنا بتجارب من هذا النوع وإن لم تصل إلى الحالة المرضية التي ذكرتها.

[189] **رجل الكهف:** وبالمقابل، فإنك دماغك ما إن يعتاد على الإشارات التي تأتيه فإنه يعمد لتجاهلها كي يتيح لنفسه التعامل مع غيرها من مستجدات. فعندما تلبس ساعة بيدك سرعان ما ستفقد الإحساس بوجودها، وربما ستفتقدها إن لم تنظر بعينيك أو تلمسها باليد الثانية لتتأكد من وجودها. وعندما تضع عطراً فإنك ستشم رائحته مؤقتاً وبعدها لن تشعر بها. ستعتقد أن الرائحة قد زالت، لكنك ما إن قابلت شخصاً ما فإني آمل أن تكون قد وضعت عطراً لطيفاً يجعله يثني على رائحته التي لا تشمها أنت. وعندما دخلتما كهفي لابد أنكما شممتما رائحة مميزة فيه لكنكما لا تميزانها الآن مطلقا. وإن انتقلتما للعيش في مدينةٍ مكتظة فسيتصدع رأساكما أثناء التجوال فيها للمرات الأولى لكثرة ما يستقبل دماغاكما من مدخلاتٍ بصريةٍ وسمعيةٍ وسواها. لكن مع الوقت، سيعمد دماغاكما على تجاهل هذه المؤثرات الكثيرة المتكررة؛ فتصبحان قادرين بسهولةٍ على التجول في المدينة شاردي الذهن أو مشغولين بأمر ما متجاهلين كل ما حولكما تماما.

[190] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": صحيحٌ جداً، لطالما سألت نفسي عن السبب.

رجل الكهف: لأن دماغكِ يريد أن يتيح لكِ التركيز على ما قد يوجد من مستجدات. فطالما أن

التنبيهات التي كان قد أعطاكِ إياها قد حازت على التجاهل المتعمد من قبلك، فيدرجها في خانة الأمور الغير مهمة كي يتيح لكِ التنبه لما قد يكون مهماً من مستجدات. فبتجاهله لرائحة العطر ورائحة الكهف يسمح لكِ الآن بالانتباه إلى رائحة حريق مثلاً، ستكون الرائحة الوحيدة التي تشمينها. وبالمثل، فإنك في المدينة ستلفت نظركِ الأمور التي تستجد فيها فقط بعد أن بات كل ما فيها من مؤثراتٍ اعتيادياً لك.

لوسيل "مفكرة": منطقيٌ جدا.

[191] **رجل الكهف**: إن المهاد يعمل بشكل لا واعٍ دون توقف لفلترة المدخلات ومشاركة المهم منها معنا. نحن عملياً تحت رحمته؛ فما يراه المهاد ضرورياً لنا كي ندركه فسندركه، وما يراه غير ذلك فسيتم التعاطي معه في اللاوعي ولن نشعر به مطلقا. ولذا، فإن للخبرات السابقة والتدريب ومحتويات الذاكرة دوراً حاسماً فيما يلتفت إليه القسم الواعي من الدماغ. ألا تلاحظان كيف ينتبه الأشخاص المختلفون لأمورٍ مختلفةٍ في الموقف ذاته؟

لوسيل "بحماس": بالطبع.

[192] **رجل الكهف**: لأن كلاً منهم قد برمج دماغه على الاهتمام بأشياء تختلف عن الآخرين؛ وعليه، فإن كلاً منهم سينتبه إلى أمور يرى دماغه أنها تهمه وسيتجاهل الأخرى. نحن بالكامل نخضع لأهواء الأقسام اللاواعية من أدمغتنا. ليس هذا فحسب، بل إن أدمغتنا تضع الافتراضات التي تراها مناسبة وتجعلنا نعتقد بها كما أوضحتُ مسبقا؛ ولذا، فنحن نُخطأ كثيراً لأننا عبيدٌ بالكاملِ لما تعتقده أدمغتنا والذي ليس بالضرورة مطلقاً أن يكون هو الواقع. اسمعا هذه التجربة اللطيفة التي قام بها بيرتراند راسل وأوردها في كتابه *ما وراء المعنى والحقيقة*: "... في وقتٍ ما كنت أربي الحمام، ووجدت أنه نموذجٌ للفضيلة الجنسية. ولكني في إحدى المراتِ أدخلت عليه حمامة جديدة تشبهُ تماماً إحدى الحمامات السابقة المتزوجة. أخطأ الزوج معتقداً الحمامة الجديدة أنها زوجته وبدأ الالتفاف حولها. فجأة، إكتشف خطأه وبدا مُحرجاً كرجلٍ في مثل موقفه...". لم يتوقع دماغ ذكر الحمام هذا أن من الممكن أن تدخل عليه أنثى مشابهة لزوجته فاعتقد تلقائياً أنها زوجته. لم يكترث للتدقيق بحواسه قدر اكتراثه بتوقعاته المسبقة. ونحن كبشر نواجه هذا النوع من الأخطاء على نطاقاتٍ واسعة جداً، وإن كنتُ آمل ألا يُخطأ أي منا زوجه كذكر الحمام سيء الحظ ذاك.

داني "ضاحكا": كم كان موقف ذلك المسكين محرجا.

[193] **رجل الكهف** "مشعلاً غليونه": وعليّ الإشارة إلى أن وضع افتراضاتٍ وأحكام مسبقةٍ هو أمرٌ لا يقتصر فقط على فهم الواقع وادراكه فحسب، بل يتعداه إلى وضع افتراضاتٍ عن الأشخاص الذين نقابلهم للمرة الأولى أيضا. هذا ما أوضحه اليكس تودوروف بقوله: "عندما نلتقي بشخصٍ جديدٍ للمرة الأولى، فإن أقل من مئة ميلي ثانية كافية لنتخذ قراراً عن الوجه الجديد ولتحديد ما إذا كان الشخص يبدو جديراً بالثقة أو كفؤا. إن هذا لا يعني أن هذه الاستنتاجات صحيحة، ولكننا نقوم بها بسرعةٍ

على كل حال.". وأظهرت دراسات ألكس تودوروف أننا نطلق الأحكام على الوجوه بسرعةٍ لدرجةٍ لا تتيح معها أي فرصةٍ للأقسام الواعية من أدمغتنا بالتدخل. وعندما يبدأ المنطق بالعمل، نشعر بمزيد من الثقة حيال افتراضاتنا حتى ولو كنا على خطأ. فيقول في هذا: "حتى ولو لم نكن ننوي إطلاق الاحكام المسبقة، حتى ولو لم تكن لدينا أية نية لتقييم الوجوه، تقوم أدمغتنا بتصنيفها في خاناتٍ محددة على أية حال. لذلك، يعتبر جزءٌ كبيرٌ من هذه العملية أوتوماتيكيا".

لوسيل "مقطبةً حاجبيها": إن من المعيب وغير المنطقي أن نقوم بهذا.

[194] **رجل الكهف:** بالنسبة لوعيكِ إنه كذلك، لكن تذكري أن وعيكِ هو عبدٌ عند لاوعيكِ، والأخيرُ لا يكترث لآراء الأول. فعندما شاهدتماني للوهلة الأولى، قام دماغاكما بمحاكماتٍ عقليةٍ لاواعية قاما فيها بتقييم مظهري ووجهي والموسيقى التي أسمعها والطعام الذي أعده، ثم قاما بحساب ما يجب عليكما التصرف به، آخذين بعين الاعتبار جوعيكما، وحاجتيكما الفوريتين للطعام، وإمكانية أن تأويا عندي مقارنة باحتمالية ايجادكما طعاماً ومكاناً مناسباً لنصب الخيمة في الوقت القصير الذي كان متبقياً لكما قبل حلول الظلام الدامس، ثم أرسلا محصلة كل هذه التقييمات إلى وعييكما على شكل قرارين قاما باتخاذهما آمرين وعييكما بتقريرهما. ولو أن محصلتي هاتين الموازنتين قد اختلفتا جذرياً بين دماغيكما، مما كان من شأنه أن يعطي نتيجتين مختلفتين، لوجدتكما تتنازعان بين راغبٍ بالحديث معي وراغبٍ بالهرب ذعراً مني. وهكذا تختلف آراء الناس.

دالي "بتهكم": ودماغك أيضاً قد قام بنفس الشيء.

رجل الكهف "بوجهه الخالي من التعابير": دون أدنى شك.

[195] **لوسيل** "متعجبة": ماذا تقصد بلو إختلفت هاتان الموازنتان بين دماغينا؟

رجل الكهف: لو كنتِ مثلاً قد مررتِ بتجربةٍ سلبيةٍ مع شخصٍ ذي مواصفاتٍ شكليةٍ تشبهني، أو شخصٍ يستمع إلى بينك فلويد، لأعطاكِ دماغكِ تحذيراً أني أشكل مصدر خطر محتمل. ومع أني بريءٌ تماماً من التهمة التي وجهها دماغكِ إليّ، إلا أن القاضي القابع في رأسكِ لن يهتم لهذه الحقيقة وسيعتبرني مُداناً وسيصدر الحكم عليّ فورا. ولوجدتكِ، والحالة هذه، تتنازعين مع داني الذي قد يكون، على عكسكِ تماماً، قد ارتاح كل الإرتياح لي. ولو استطاع داني أن يقنعكِ بأن تُجريا على الأقل حديثاً معي لمدة دقائق لوجدتكِ ترتعدين خلالها خوفاً مني، مع أنه لا علاقة لي لا من قريب ولا من بعيد بذلك الشخص الذي قد مررتِ بتجربةٍ سلبيةٍ معه في السابق. والجدير بالذكر أنكِ قد لا تتذكري مطلقاً تلك التجربة، لكنها مخزنة هناك في مكان ما في أعماق لاوعيك. ولو ارتاح داني تماماً للحديثِ معي ولم يجد أي مبرر كي لا تبقيا عندي الليلة الماضية، لوجدته قد أخذكِ جانباً وهو يحاول إقناعكِ بالأمر. لكن بالنسبة لكِ، لن تكترثي لكلامه؛ لأنه سيكون عندكِ كل المبرراتِ كي لا تبقي. ولو طلبت منكِ تبريراً لموقفكِ السلبي هذا فإنكِ على الأغلب إن كنتِ صادقة ستقولين: "لا أعرف، لكني لست مرتاحة لهذا الشخص". وإن كنتِ غير صادقة، فستخترعين عدداً لا يحصى من المبرراتِ

كلها غير حقيقية أو غير منطقية لكنكِ ستصرين عليها. وستتوقف درجة عنادكِ هذه على درجة السلبية في تجربتكِ القديمة التي لا تذكرينها. ربما ستصل إلى مرحلة أن تهربي مذعورة، في اللحظة التي شاهدتِني فيها، وأنتِ تشدين داني معكِ محاولةً ألا أشعر بكما. ربما سيصل بكِ ذلك الذعر درجةً تتخيلين فيها أنه من الممكن لي أن أتقفى أثركما ليلاً وأصيبكما بسوءٍ على حين غفلةٍ من عيون كل البشر الآخرين. ومن المحتمل جداً ألا تكوني قد مررتِ بتجربة شخصية سلبية، بل فقط قد سمعتِ شيئاً سلبياً عن أشخاص بمواصفاتٍ تنطبق علي؛ فسيجنح دماغكِ إلى الحكم علي بناء على ذلك. رغم أنكِ على الأرجح لا تذكرين ذلك على الإطلاق. لكن عدم تذكركِ لما قد سمعتهِ منذ طفولتكِ مثلاً لا يعني أنه غير موجود داخل جمجمتك. إن وعيكِ لا يتذكره، لكنه لا يزال فاعلاً في قراراتِ لا وعيكِ. لكن الذي حصل، لحسن الحظ، كما قصصتماه عليَّ بالأمس، كان عكسَ هذا تماما. ولذا، فنحن مجتمعون الآن.

[196] **لوسيل** "مفكرة": إن ما قلته يفسرُ الكثير من تعارضات البشر في مشاعرهم حيال أمرٍ ما أو شخصٍ ما. كلٌّ منا قد خَبِرَ هذا التعارض في الشعور الداخلي مع الآخرين. لكن كيف لدماغي أن يتصرف بهذه الحماقة ليصدر حكماً عن شخص لا يعرفه؟

رجل الكهف: هل نسيتِ جدنا المذعور؟ قلتُ لكِ إن الوعي بطيءٌ جداً لتقرير الأحكام مقارنة باللاوعي. وعندما تكون حيواتنا على المحك في اتخاذ قرارٍ ما، كالتعامل مع شخصٍ غريب، فإنه ليس من الحكمة أن تتيح أدمغتنا لأقسامها الواعية الوقت الكافي للتعرف على هذا الشخص كي تقرر بعدها بوعي فيما إذا كان هذا الشخص جديراً بالثقة أم لا، هل سيقتلنا أم سيساعدنا، فربما سندفع حيواتنا ثمناً لمعرفة الإجابة. وهكذا، عَمِلَ الانتقاء الطبيعي على حفظِ سلاسلاتِ الأشخاصِ الذين جنحت أدمغتهم إلى القيام بتلك المحاكمات اللاواعية والتصرف على أساسها وإن كانت غير منطقية. بينما أولئك المنطقيون قد دفعوا حيواتهم ثمناً لرجاحةِ عقولهم ولم يتركوا أي ذريةٍ تُذكر في الحوض الجيني.

[197] **لوسيل** "بتعجب": لكننا لم نعد نعيش في تلك العصور!

رجل الكهف: لكن أدمغتنا كذلك. يقول ديفيد بوس في كتابه *علم النفس التطوري*: "إن البشر الحاليين مصممون بالضرورة للبيئات السابقة التي هم نِتاجها... إننا نحمل أدمغة تكاد تكون من العصر الحجري في بيئةٍ حديثة...". وكتب كل من آلان ميلر و ساتوشي كانازاوا في مقالةٍ لهما في *Psychology Today*: "... أفكارنا ومشاعرنا وسلوكياتنا يتم إنتاجها ليس فقط من خلال تجاربنا الفردية وبيئاتنا في حيواتنا الخاصة فحسب، وإنما أيضاً بسبب ما حدث لأجدادنا منذ ملايين السنين...". فكما أن أجسادنا هي نتاجُ تلك السنواتِ الطويلة من التطور، فإن أدمغتنا كذلك، وأجهزتنا النفسية أيضا. وهكذا، فإن الافتراضات والتعميمات التي كانت مفيدة لأسلافنا للحفاظ على حيواتهم، كما وانتقائيتهم في التعامل مع الأفراد حسب درجة الشبه بهم مما يعني أنهم من الأقارب لا من الغرباء الذين قد يشكلوا مصدر خطر، وغير هذه من أمورٍ لا مجال لذكرها الآن، قد ورثناها عنهم

ما المثقف؟

وبتنا نقوم بها في عالم يجتمع فيه الناس اليوم على اختلاف الوانهم وأشكالهم في غرفةٍ واحدة. وكما أشرتُ سابقاً، فإن ثواليث القمع قد عملوا تاريخياً، ومازالوا يعملون إلى الآن، على تغذية هذه النزعات فينا. ونحن نتقبلُ هذا بسهولةٍ لأنه متأصلٌ في الأقسام اللاواعية من أدمغتنا مع أنه غير منطقي على الإطلاق كما أشار جون براغ: "يخطئ حدسنا ودوافعنا في بعض الأحيان. توجد، على سبيل المثال، تلك الصورة النمطية الثقافية المرتبطة بأشخاصٍ مجتمعاتٍ معينةٍ كالاعتقاد أنهم ليسوا أذكياء أو أنهم كسالى. ومنذ الصغر، نتعرض لهذه التأثيرات الثقافية من التلفاز، أو الأصدقاء، أو الأهل، لتشكل لاحقاً تأثيرات ضمنية تتحول إلى انحياز لا يجب أن يكون موجوداً في أدمغتنا".

لوسيل "بحزن": هذا صحيح. إنه موجودٌ في كل مكان.

[198] **رجل الكهف**: ويستغلُ رجالات ثواليث القمع كل هذه القابليات الدماغية عندنا ليروجوا لما يريدون. يستخدمها رجلُ السياسة ورجلُ الدين ورجلُ الاقتصاد كي يلعبوا في قرارات البشر. هناك أفرعٌ متخصصةٌ، لكلٍ مما سبق، يتعلم فيها الناس كيف يخدعون العامة ويؤثرون في الأقسام اللاواعية من أدمغتهم لدفعهم إلى تبني أفكار معينة، أو شراء منتجات معينة، أو القيام بصفقات ما، أو أي شيء من هذا القبيل. ناهيك عن أن تكرار فكرة ما على أدمغتنا سيجعل أدمغتنا تعتقد بهذه الفكرة على أنها مُسلّمة دون الحاجة لأن نتقصى وراء حقيقتها. أدمغتنا تجنح إلى الكسل والتراخي. ألا تري الثقافة الاستهلاكية المنتشرة اليوم؟ ألا تري نتائج جهود الحملات التسويقية والإعلانية في جميع المجالات وفي كل الأماكن؟ وما من كلام في هذا أصدق مما قاله بيرتراند راسل في كتابه *النظرة العلمية* بفكاهته المعهودة: "إن أموالاً باهظة تُدفع لمن يبتكر إعلانات حسنة، وهو بهذا جدير. لأن المقدرة على جعل أعداد كبيرة من الناس تصدق ما تؤكده هي مقدرة قيّمة جدا. تأمل أهميتها مثلاً عند مؤسسي الأديان. لقد كان عليهم في الماضي إتباع أقصى صور الدعاية. وكم كانت حياتهم لتصير أمتع وأهنأ لو أنهم استطاعوا الذهاب إلى وكيلٍ فاشترى منهم حقوق احترام أتباعهم إياهم وأعطاهم في مقابل هذا نسبةً مئويةً من الإيرادات الدينية المترتبة على ذلك...". ويضيف نقطة غاية في الأهمية: "... ويبدو أنه في ضوء فن الإعلان يمكن أن يُستنتج أنه عند الغالبية الساحقة تُدق أية قضيةٍ إذا كُررت على نحوٍ يثبتها في الذاكرة. فمعظمُ ما نصدقه لأننا سمعناه مؤكداً، ولسنا نذكر أين أكد بتصديقنا، وحتى لو كان التوكيد قد قام به مُنتفعٌ بتصديقنا، وحتى لو كان القول غير مؤيدٍ بأي دليل...".

دالي "مفكرا": صدقت في هذا أنت وراسل.

[199] **رجل الكهف**: إن البشر يختلفون جداً في طرق إدراكهم للواقع بحسب تجاربهم في الحياة. فلو فصلت أخين توأمين حقيقيين، وجعلت كلاً منهما يربى في بيئةٍ مختلفة، فإنهما عندما يكبران سيصبحان متشابهين بالشكل فقط، ولا شيء سواه. ستختلف تفضيلاتهما للطعام والشراب واللباس، ستختلف نظرتاهما لما هو مشينٌ وما هو معيبٌ وما هو مقبولٌ وما هو بخلاف هذا، ستختلف نظرتاهما للعالم وتعاطيهما معه كما وأحكامهما على الأمور المختلفة فيه. إن التأثير الجيني المشترك الذي سيؤثر في سلوكيهما

وأفكارهما ومهاراتهما سيكون أقل وضوحاً بكثير من التأثيرات البيئية المختلفة التي خبرها كلاهما، والتي ستؤثر فيما سبقت الإشارة إليه. لهذا كتب فريدرخ هايك: "ليست كلُّ المعرفة... هي جزءٌ من أعمالنا الذهنية، ولا أعمالنا الذهنية هي الكلُّ لمعرفتنا..."، لكنه يضيف إلى المعرفة "كل التأقلماتِ البشرية للبيئة التي اشتُقّت من التجارب السابقة.".

[200] **لوسيل** "بدهشة ": هل هذا معقول!

رجل الكهف: بكل تأكيد. فالإنسان يصبغُ رؤيته على الواقع من خلال دماغه ويتصرف بناء على هذا الأساس. وهذا الأخير يبني صورةً عن العالم محدودةً وقاصرةً بناء على تكوينه البيولوجي من جهة؛ ومن جهة أخرى، بناء على كل ما مر به في حياته من معارف وتجارب وخبرات. إن كلاً منا يعيش داخل جمجمته فقط. ولا أريد أن أطيل النقاش عليكما لأثبت لكما فيزيائياً أنه لا يمكن لشخصين أن يشاهدا نفس المنظر على الإطلاق أو أن يسمعا نفس الصوتِ على الإطلاق، إضافة إلى أن كلاً منهما سيدرك هذا الصوت أو ذاك المنظر بناء على منظوره العقلي الخاص فحسب، إلا أني لا أجد في هذا تعبيراً أكثر دقة مما قاله بيرتراند راسل في كتابه *عبادة الإنسان الحر*: "الحقيقة التي يجب مراعاتها هي أنه، في حدود ما أمكن اكتشافه، لا يوجد مُعطى معيناً يدركه اثنان من الناس في نفس اللحظة. الأشياء التي يراها اثنان مختلفان من الناس عادةً ما تكون متماثلة، وشديدة التماثل، بحيث يمكن استعمال نفس الكلمات في الإشارة إليها، وبدونها ستكون الاتصالات بالآخرين فيما يتعلق بالأشياء التي يتم إدراكها مستحيلا. ولكن على الرغم من هذا التماثل، يبدو أن هناك بعض الفروق؛ وهي عادةً ما تنجمُ عن الفروق في وجهات النظر. وبالتالي، فإن كل شخص في حدود معطياتِ حواسه يعيش في عالم خاص. هذا العالم الخاص يحتوي على فضائه الخاص، أو فضاءاته الخاصة، حيث يبدو أن الخبرة تقودنا إلى الربط بين فضاءِ النظر مع فضاء اللمس والعديد من الفضاءات التي للحواس الأخرى...".

دالي "متأملا": هذا مثيرٌ للتفكر.

[201] **رجل الكهف**: قلتُ لكما: نحن عبيدُ أدمغتنا التي بنت مفاهيمها عبر سنواتِ خبراتنا الماضية. وإن كلَّ ما ندركه من هذا العالم، وكلُّ ما نتصرفه، يتم من خلال هذا، وفقط من خلال هذا. خارج حدود غرائزنا، وما يترتب عليها من تصرفاتٍ وأخلاقياتٍ ومشاعر نشترك بها لأنها ضروريةٌ لحفظِ النوع، لا يوجد برنامجٌ مشتركٌ في أدمغتنا يحدد لنا المقبول والمرفوض، والجيد والسيء، والمنطقي وغير المنطقي، والحسن والمعيب، وكل ما هو مختلف بين البشر في هذه التقييمات. هذه أمورٌ تمدنا بها ثقافاتنا، وأهلونا، ومدارسنا، ومحيطنا، وأصدقاؤنا، وفلاسفتنا، وحكمائنا، ورجالات ديننا، وقنواتنا التلفزيونية، ومجلاتنا، وكل من زرع فكرة أو مفهوماً في رؤوسنا لتتجول لاحقاً بحرّيةٍ في الأقسام اللاواعية من أدمغتنا متحكمةً في منظور كل فرد منا للعالم وما يطلقه من أحكام وما يصوغه من أفكار. لذا، يقول آلان سنايدر: "ليس لدينا منفذٌ واعٍ للطريقة التي تقوم فيها أدمغتنا بصياغة الأفكار. ما نراه أساساً هو المعلومات بعد أن يتم دمجها لتتشكل أفكاراً ومبادئ وتسميات كاملة متكاملة".

طرق تفكيرهم المتباينة.

دالي "مفكرا": هكذا إذاً نصنعُ الناسَ على مختلِف طباعهم وطرق تفكيرهم المتباينة.

[202] **رجل الكهف**: بالضبط. نحن نصنع المجرم ثم نعاقبه، ونصنع الجاهل ثم نسخر منه، ونصنع الفاشل ثم نهزأ به، ونصنع نسخاً من الأتباع ثم نتباهى بأعدادهم. "ماذا؟ أتسعى إلى أن تتضاعف عشر- مرات، مئة مرة؟ أتبحث عن مريدين؟ فتّش إذن عن أصفار!" كتبها فريدريك نيتشة في "أفول الأصنام".

لوسيل "بألم": صدقت.

[203] **رجل الكهف**: لهذا السبب، عندما يقول لي شخصٌ ما: "لقد فكرت بعقلي وتوصلت إلى هذا"، فإن ما أسمعه هو: "لقد توصل دماغي إلى هذه الفكرة بناء على العمل الذي قام به القسم اللاواعي منه، بقدراته البيولوجية المحدودة، وبكل ما يحتويه من ميزاتٍ تجعل تفكيري غير موضوعي، مُعالجاً الأفكار التي زُرعت فيه، بناء على كل ما تم تلقيني إياه سابقاً وكل ما مررتُ به من تجارب في حياتي.". هل هذا يعني بالنسبة لكما أن هذا القرار هو قرارٌ يجب أن يُؤخذ به على أنه موضوعي، سواء كان هذا القرار تصرفاً يقوم به أم فكرة يقوم بتقديمها؟

لوسيل: كلا بالطبع.

[204] **رجل الكهف**: هذا ينطبق أيضاً على الوزن الذي أعطيه لرأي أحدهم عندما يقول لي: إن هذا الأمر منطقي أو غير منطقي، مستهجن أو محبب، معيب أو شائن، مقبول أو غير مقبول، بديهي أو طبيعي، صحيح أو خاطئ، وما إلى هنالك من أحكام يصدرها الناس على مختلف الأفكار التي قد تُطرح عليهم. ومن الجدير ذكره، أنه مهما بلغ عدد من يقومون بالإجماع على رأي ما تجاه قضيةٍ معينة، فإن هذا لا يعني، لا من قريبٍ ولا من بعيد، أن رأيهم صائب؛ وإنما يعني شيئاً واحداً فقط، وهو أنه قد تمت برمجتهم بطريقةٍ تجعلهم يُجمعون على هذا الرأي. سواء تمت هذه البرمجة بواسطة الانتقاء الطبيعي لقسم الغرائز، أو البرمجة بواسطة الثقافة بالتلقين أو بواسطة البيئة بالخبرات لما هو سواه.

دالي "موافقا": ملاحظةٌ قيمة.

[205] **رجل الكهف**: إذن، بناء على كل ما سبقت الإشارة إليه، نجدُ أن الإنسان يمتلك دماغاً قاصراً جداً في قدراته المنطقية والاستيعابية لأنه تطورَ في الغابات ليعيش مدةً أقصاها نصف طرفةِ عين يقوم فيها بالغالبية الساحقة من عملياته في قسمه اللاواعي، معتمداً اعتماداً شبه كاملٍ على ما تحتويه ذاكرته من بيانات، وإن ما يقوم به في قسمه الواعي هو فقط تلك الأفكار والقرارات التي قرر القسم اللاواعي منه إملائها على القسم الواعي، وإن كل ما يقوم به من عملياتٍ فكرية ومحاكماتٍ عقلية محكومٌ بالضرورة بما تم إدخاله فيه من بيانات سابقة، بغض النظر عن صحة أو موضوعية هذه المعلومات والمفاهيم؛ دماغاً لا يمكن لوعيه أن يقرر منفرداً ما إذا كان يريد شرب القهوة أم الشاي، بل هو مضطرٌ للامتثال لما سيمليه عليه لاوعيه حتى في قرارٍ تافهٍ كهذا. هل ترى، يا دالي، أية أهليةٍ لهكذا دماغ كي يكون الحكمَ والفيصل في تقييمه لأي شيء؟ هل ترى أية قيمة للأفكار والخواطر التي سينتجها هكذا

دماغٌ على المستوى الكوني؟

دالي "بحزن": كلا على الإطلاق.

[206] **رجل الكهف**: ها أنت تجيبُ نفسك بنفسك على سؤالك: "هل نستطيع الاعتماد على الدماغ لاستنباط أفكار وقيم ومفاهيم ذات قيمة إذا ما عُني به بالطريقة التي خلصنا إليها قبل قليل؟".

دالي "بابتسامة": لم أكن أعرف الإجابة عندما سألتُ هذا السؤال.

رجل الكهف: بما أنك بت تعرفها الآن، فدعنا نخرج لنتمشى قليلاً في هذه الطبيعة الساحرة.

****

الباب الرابع
في برمجةِ الأدمغة

(في الليل، بعد العشاء، ثلاثتهم جالسون داخل الكهف يشربون النبيذ ويستمعون إلى موسيقى البلوز، الإنارة خافتة)

[207] **لوسيل** "بابتسامة": أعتقد أننا أثقلنا عليك يا رجل الكهف؛ لقد قلنا لك إننا سنغادر في الصباح ولم نفعل. سننامُ هنا هذه الليلة وسنغادرك صباح الغد شاكرين حسن ضيافتك ورحابة صدرك.

رجل الكهف "وهو يملأ الكؤوس": ما هو مخطط رحلتكما.

لوسيل: ليس لدينا وجهةٌ محددة. أردنا فقط تمضية الإجازة في الغابة.

رجل الكهف: وها أنتما في الغابة!

[208] **داني:** صحيح. ونحن مسروران جداً بلقائك؛ إن الحديث معك لا يشبه الحديث مع أي أحد آخر. لكن، كما أشارت لوسيل، نحن لا نريد أن نثقل عليك ونقتحم خلوتك.

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": إذا كنتما ترغبان في الرحيل من أجلي، فأنا مستمتعٌ بوجودكما معي. لكن إن كان لسببٍ في نفسيكما، فأنتما بلا ريب أحرار.

لوسيل " بخجل": في الواقع كلا، نحن نرغب في الحديث معك أكثر؛ فرغبتنا كانت تجربة متعة الاستكشاف في هذه الرحلة. وإن الحوار معك هو استكشافٌ أيضاً، لكنه من نوع آخر، أكثر ثراء.

رجل الكهف "نافثاً الدخان": إذاً، لا داعي للتفكير في استعمال الخيمة بعد الآن.

لوسيل "بعينين لامعتين": أنا جِدُّ ممتنةٍ للطفك.

[209] **داني** "مازحا": لكن هل تعدني ألا تسافر بي إلى المستقبل حيث أتوه في الفضاء ولا أجدُ أرضاً أعودُ إليها، وألا تذكرني بما يعبر في جسدي؟

رجل الكهف "رافعاً كأسه": أعطيك كلمتي بذلك.

داني "رافعاً كأسه بسعادةٍ بالغة": فلنشرب إذاً نخب صداقتنا.

(يطرق ثلاثتهم كؤوسهم قائلين: نخبُ صداقتنا)

[210] **لوسيل:** كنت أفكر هذا المساء في أنه إذا كانت كل تلك الأسباب، التي تحدثنا فيها منذ الصباح، تؤثر في طريقة تفكير كل الناس، بمن فيهم من يُعتبر مثقفاً بطريقة أو بأخرى، عندها جال في خاطري: ماذا عن الرعايا؟

رجل الكهف: أولئك المساكين خاضعون بالكليةِ لكل تلك التأثيرات، التي سبقت الإشارة إليها،

دون أي تحكم واعٍ فيها من قِبلهم، إضافة إلى خضوع أدمغتهم المطلق لسيطرة ثواليث القمع الذين قاموا ببرمجتها بطريقة تحولهم إلى كائناتٍ غرائزية فقط؛ وذلك عبر تطويرهم لاستراتيجياتٍ، معقدة وذاتية العمل وتلقائية، يخضع لها كل إنسان منذ ولادته بشكل تلقائي.

[211] **لوسيل** "بدهشة": كيف هذا؟

رجل الكهف: هل تذكرين أننا كبشر نمتلك قسم الغرائز بشكل أساسي نتشاركه مع باقي الكائنات، وما يميزنا نحن كبشر في حقيقة الأمر هو قسما المعالجة والذاكرة الكبيران نسبيا.

لوسيل: كيف لي أن أنسى!

[212] **رجل الكهف:** منذ لحظة ولادتنا يكون قسم الغرائز لدينا فاعلاً بشكلٍ تلقائي. وفي مراحلنا المبكرة، يبدأ لدينا حب التعلم؛ فضول الأطفال الذي نتشاركه مع غالبية الثدييات. فلو كان لديكِ رضيعٌ في المنزل وحيوانٌ أليف لوجدتِ أن كِلاهما يُثار انتباهه لبعض الأمور على قدر المساواة، ويُثار فضوله ليتعرف على ما يوجد حوله بنفس القدر تقريبا. إن طفلكِ الذي يرمي كأساً زجاجياً فيكسره هو ليس بشرير، إنه يتعلم. ويستغربُ، أشد الاستغراب، كيف أن الكأس قد انكسر. بينما الكرة المطاطية، مثلاً، لم تنكسر. هذا المستوى الذي نتشاركه مع الثدييات الأخرى قبل أن نبدأ بالافتراق عنهم ويبدأ الطفل بالمراحل الأكثر ازعاجاً للأهل وهي الطرح المتكرر للأسئلة؛ أسئلة الماهية والكيفية والسببية وغيرها، بمراحلها المختلفة، التي خبرها كلُّ من رعى طفلا. هنا، يبدأ قِسما المعالجة والذاكرة الناميان بالعمل دون توقف؛ وهنا، يبدأ الدور الفعلي للقمع الفكري. كم هي نسبة الآباء والأمهات الذين يتعاطون مع هذه الأسئلة بموضوعيةٍ وبروح علميةٍ حقيقية؟ كم هي نسبة أولئك الذين يجيبون أبناءهم إجابات صحيحة مبسطة تتناسبُ ومستوى مداركهم؟ كم هي نسبة أولئك الذين يقولون لأبناهم "إن سؤالك هذا ذكي حقاً وأنا لا أعرف إجابةً له؛ سنذهبُ غداً إلى المكتبة أو إلى المُتحف أو إلى فلان من الناس لنبحث عن الإجابة سويا"؟ كم هي نسبة هؤلاء مقارنةً بنسبةِ من سيجيبون أبناءهم إجابات نمطية ساذجة، وعلى الأغلب غير صحيحة، أو سيُسكتون أبناءهم بمنعهم عن إثارة المزيد من الأسئلة، أو حتى يقومون بعقابهم إذا كان السؤال مُحرجاً أو يمسُّ ما يعتبره ذلك المجتمع خطاً أحمر؟

لوسيل "بتعجب": إذن إنها غلطة الأهل وليست مسؤولية ثواليث القمع.

[213] **رجل الكهف:** من جهةٍ، يمكنني التأكيدُ أنها مسؤولية الأهل المباشرة؛ فالفرد منهم يتعلم استعمال أي جهاز يشتريه، لكنه يقوم بإنجاب إنسان جديد إلى الحياة، بقمة اللامبالاة كأي حيوان آخر، دون أن يتعلم أي شيء عن الأطفال وأسس تربيتهم ورعايتهم. أقل ما يمكنني أن أصف به هذا التصرف هو أنه أشنع جريمةٍ يقوم بارتكابها الأفراد. إنها أفظع جريمةٍ قد يقوم بها أي منا. والمصيبة أنه لا يوجد قانون حتى اليوم يجرم هذا الفعل. إنها جريمةٌ قانونية، بل ومباركةٌ ومؤيدةٌ من قبل الجميع تقريبا. إن هذا ضربٌ من الجنونِ الخالص.

لوسيل "مقاطعة": أوافقك الرأي.

[214] **رجل الكهف:** لكن من جهةٍ أخرى، كيف تضعين اللوم على الأهل وكأنهم آلهة؟ هل نسيتِ أنهم هم الرعايا داخل الغرف؟ إنها مسؤولية ثواليث القمع الذين يقومون بشكل ممنهج، على مر الأجيال، بالعمل على تقييد قسمي الذاكرة والمعالجة، اللذان يميزاننا كبشر عن باقي الحيوانات، وتغذية قسم الغرائز وتوجيه طاقة الدماغ الكلية نحوه. والنتيجة، هي أننا نعيش عبر الأجيال في مجتمعاتٍ من "الحيوانات البشرية". لذا، فإنه من النادر أن تسمعي شخصاً يقول لكِ إنه يريد دراسة كل ما يتعلق بالأطفال، وتجهيز كل المستلزمات المادية لهم، والتخطيط لمستقبلهم، قبل التفكير بمجرد إنجابهم. لكنه هو نفسه يتعلّم قيادة السيارة، ويتدرب على القيادة وقتاً طويلاً، ثم يُجهز للسيارةِ موقفاً آمناً، قبل التفكير بشراءٍ واحدة. إنكِ غالباً ما تسمعين شغف الناس بإنجاب الأطفال ضاربين بأي اعتبار آخر عرض الحائط. وإذا ما سألتِ أحدهم كيف سيربى هذا الطفل؛ سيكون الجواب التقليدي: "سيربى كما ربينا وكما ربي جميع الأطفال من حولنا". أليس هذا الجواب يعني ضمنياً: "ليس لدي أدنى فكرة عما تتكلمين عنه"؟ أليس هذا هو بالضبط ما سيقوله لكِ أي حيوان آخر لو قُدّرت له إمكانية الإجابةِ على ذاتِ السؤال؟ إنه يجيبك وكأنه قد رُبّي أفضلَ تربيةٍ في العالم. ولذا، فتقليدياً، ستكون الجدات والعمات والخالات والأمهات هن مستشاراته وكأنهن مختصاتٌ بتربيةِ الأطفالِ بالخبرات التي كسبنها سابقا. ولو أشرتِ إلى هذه النقطة فأنتِ ستضعين نفسكِ في مأزق؛ حيث سيتضح ضمنياً أنكِ غير موافقةٍ على طريقةِ تفكير هؤلاء، وأنكِ تعتقدين أنهن غير مؤهلات كفاية، وأنهن يقمن بتكاثر حيواني. وهنا، سيقف الجميع ضدك بدعم من ثالوث القمع شخصيا؛ فإفهامُ الناس هذه النقطة سيجعلهم يشعرون بسيطرة ثالوث القمع عليهم وأنه قد قام بتجهيلهم وجعلهم كائنات غرائزية فحسب.

[215] **لوسيل:** بكل تأكيد. إنه من المعيب جداً أن تُشير إلى هذا؛ لأنه يُشير ضمنياً إلى عدم ثقتك بمن يُفترض فيك أن تحترمهم، كما يعني أنك تراهم غير كفؤ. لا يوجد إنسانٌ يقبل بسهولةٍ أن يُشار إليه على أنه غير قادر على تحمل مسؤولية إنجاب طفل وتربيته التربية السليمة.

[216] **رجل الكهف:** بيدَ أن أحدهم لن يتحرج في الاعتراف أنه لا يستطيع إجراء عملية جراحية أو حتى قيادة حافلة أو غيرها من الأمور التي تُعتبر مِهناً تحتاج إلى دراسةٍ متخصصة، لكن لأن إنجاب الأطفال لم يعتبره ثواليث القمع أمراً يحتاج إلى رخصة، فبات الجميع يعتقد أنه مؤهلٌ للقيام به كأي أمر بيولوجي آخر؛ كالأكل وممارسة الجنس على سبيل المثال. فكما أن هذين الأمرين لا يحتاجان -من وجهة نظرهم- إلى تدريب ورخصة، فكذلكَ إنجاب الأطفال.

لوسيل "مقاطعة": تحليلٌ صائب.

[217] **رجل الكهف:** هذا ناهيكَ عن أن ثواليث القمع قد عمدت تاريخياً إلى تشجيع إنجاب الأطفال، ولم يحصل العكس في بعض المناطق إلا مؤخراً جدا. هناك أدلةٌ واضحةٌ على هذا عبر التاريخ كله منذ أقدم الكتابات التي حصلنا عليها. خذي مثلاً نصاً سومرياً معروفاً باسم "جلجامش وإنكيدو والعالم الأسفل"

ففيه إشارة واضحة إلى أن حال الميت مرهون بعدد أطفاله. فنجد أن "... الذي أنجب ولداً واحداً... ساجدٌ عند الجدار يبكي بحرقة." بينما "... الذي أنجب ولدين... يسكن في بيتٍ من الآجر ويأكل الخبز." أما "... الذي أنجب ثلاثة أولاد... إنه يشرب من ينابيع الأعماق." و "... الذي أنجب أربعة أولاد" فإن " قلبه مبتهج..." وإن "... الذي أنجب خمسة أولاد" فإن "يده مبسوطة كالكاتب الطيب" ويتابع العد ويزداد تحسن حالِ الميت في العالم الأسفل بزيادة عدد أبناءه دون وجود أي إشارةٍ إلى أن هذا مرهون بتربيتهم تربية جيدة أو حتى ضمان معيشةٍ حسنةٍ لهم، بل فقط تكاثر كالحيواناتِ تماما.

[218] **لوسيل** "بتعجب": لكن لماذا؟

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": لأن زيادة عدد الأبناء تعود بمزايا عديدة على أي ثالوث قمع تبدأ من إلهاء الرعية بهم وتنتهي بزيادة أعداد من سيدافعون عنه ويضحون بحيواتهم من أجله.

[219] **دالي** "مفكرا": لكن ألا تؤدي هذه السياسة المستهترة إلى مجتمعاتٍ أقل جودة، مما يُحمّل ثواليث القمع تكاليف إضافية؟

رجل الكهف: نعم بالطبع. لكن لا يمكنك الحصول على كسبٍ مالم تدفع ثمنا. وهذا ثمنٌ زهيدٌ جداً بالنسبةِ لأي ثالوث قمع مقابل الكسب الكبير الذي يحصل عليه من خلال التحكم بالناس بتوجيههم غرائزياً كما وزيادة أعدادهم. لم يكن بإمكان ثواليث القمع التحكم بالناس عبر طرق أخرى، كما أنه أقل الطرق تكلفةً وأسهلها. فنحن بالنتيجةِ كائناتٌ بيولوجية، وقسمُ الغرائز عندنا يعمل بالضرورة، وتنشيطُ هذا القسم هو أسهلُ مما لا يقاس من كبحه.

[220] **دالي**: إذاً، تبدأ المشكلة مع التكاثر الحر وقيام الرعايا بتنشئة المواليد بواسطة تربيةٍ عشوائية.

[221] **رجل الكهف**: لكن لا يقف الأمر هنا؛ هذه هي البداية فحسب! فنحن نجد في كل مجتمع عادات وتقاليد صارمة الكثير منها قد تم تطويره من قبل الأسلاف لكنه لم يعد مُفيداً مطلقاً للأجيال اللاحقة. وهنا، يجدُ الوليدُ نفسه مكبلاً بقيودٍ من الأعراف والعادات والتقاليد والطقوس الدينية لا يفهم لها معنى، بل وتتكرر على مسامعه أمثالٌ وحكمٌ شعبيةٌ كثيرها يحوي معاني مدمرة، كما إن قسماً كبيراً من كل ما سبق قد فقد معناه لدرجةِ أن الطفل يسأل أهله عن معنى هذا الأمر أو الحكمة منه فيراهم غير عارفين للإجابة. ومع هذا، فهم جميعاً مضطرون للامتثال لهذه التقاليد والأعراف. فكم يصدق فيهم قول ديفيد أركوهارت في كتابه "كلماتٌ مألوفة":"... الرجال عندما يربطون عقداً لا يفكونها أبداً، لكنهم يوثقون أنفسهم بها وأبناءهم من جيل إلى جيل.". وهكذا، يجد هذا الكائن المسكين نفسه مكبلاً بعدد لا ينتهي من الأفكار التي لا يحق له التساؤل عنها؛ وإن فعل، فسيتم قمعه وإسكاته. وبهذه الطريقة، يقوم الأهل، عن جهلٍ منهم، بتجهيز الطفل كما يريد ثالوث القمع خاصتهم.

[222] **لوسيل**: ولا ننسى التلفاز وغيره من الأدواتِ التي تقوم ببرمجةِ أدمغةِ الأطفال.

رجل الكهف: هذه أدواتٌ مثاليةٌ حديثةُ العهد يستعملها ثواليث القمع لبرمجةِ أدمغة الناس. ونحن

نساعدهم كأهلٍ بتعويد أطفالنا عليها منذ نعومة أظفارهم. فأصبحنا نرى غالبية الأطفال يقضون جُلَّ أوقاتهم جالسين كالبلهاء متلقين لما يُعرض لهم على الشاشات؛ فيعتادون أن يكونوا متلقين لأي شيء يُعرض عليهم دون مسائلة. وبهذا، نكون قد دققنا آخر المسامير في نعوشِ أدمغتهم الفتية الشغوفة للمعرفة ببرمجتها على أن تصبح بالوعات تستقبلُ ما يدخل إليها بجبورٍ دون القيام بأي تفكير.

[223] **لوسيل** "بحزن": صحيحٌ تماما. كيف سيفكر الطفل إذا كان أهله يجبرونه على القيام بأمور لا يفهم لها معنى، وإذا سألهم فسيقمعون سؤاله، وإذا حاول اللعب والاستكشاف فسيجلسونه ويضعون أمامه شاشة يتلقى منها دون أن يستطيع التفاعل معها، كما ويجبرونه على القيام بتصرفاتٍ أو الالتزام بقوانين لا يفهم لها مغزى. حتماً سينشأ هكذا إنسانٌ بليداً محدود التفكير يُصدق كل ما يسمع، ويُنفذ كل ما يُطلبُ منه، لا يجرؤ على التفكير وإثارة التساؤلات، ولا على التجريب والاكتشاف.

[224] **دالي** "بحماس": لكنه سيدخل المدرسة! وهناك، سيتعلم أموراً مختلفة ويغدو إنساناً واعيا.

رجل الكهف: تقصد أنه سيبدأ برنامجاً متكاملاً لقولبة فكره كما يريد ثالوث القمع، وحشو دماغه بالمعلومات التي يرى الثالوث أنه يجب حشوها في أدمغة الرعايا.

[225] **دالي** "بتعجب": هل أنت ضد التعليم المدرسي؟

رجل الكهف: كلا. بل على العكس؛ أريد أن يدخل جميع الرعايا إلى المدارس وبعدها الجامعات والتعليم العالي، ولا أشجع مطلقاً أي شخصٍ على تجاوز هذا في حياته مهما كلفه الأمر، لكن أن تعتبره بسذاجةٍ على أنه تثقيفٌ للرعايا ومساعدةٌ لهم على بناء عقليةٍ حرةٍ شغوفةٍ بالمعرفةِ واعيةٍ مثقفة، فهذا ما أراه مُثيراً للسخرية؛ فهو بالضبط ما يروج له ثواليث القمع بين الرعايا.

دالي "بعصبية": لم أفهم تناقضك هذا.

[226] **رجل الكهف:** النظام المدرسي هو أداةٌ طورها ثواليث القمع ليبرمجوا أدمغة الناس؛ حيث يقومون بتعليمهم ما يرونه مناسباً لمصلحتهم هم، لا لمصلحة الرعايا. على سبيل المثال؛ هل تعتقد أنك تدرس التاريخ الحقيقي في المدرسة، أم التاريخ كما يُراد لك أن تعرفه؟ هل تعتقد أنه يتم اطلاعك على النظريات العلمية بحيادية، أم على العلوم بما يتوافق وما يُراد لك معرفته عنها؟ لا شك أن ثالوث القمع يريد تعليمك؛ فهو يريد أشخاصاً قادرين على العمل في المجتمع لخدمة مصالحه. لذا، فهو يُعلّمك في حدود ما يخدم هذا الغرض فحسب. إنه يريد أناساً من مختلف الاختصاصات، فلا بد من تعليم هذه التخصصات للرعايا؛ وإلا، فمن أين له بمهندسين وأطباء ومصرفيين وما إلى هنالك؟ وكيف له أن يقوم بأدلجة الرعايا إن كانوا لا يستطيعون قراءة ما ينشره بينهم من مطبوعات، وإن لم يتعلموا التاريخ والسياسة ومختلف الأفكار كما يُراد لهم أن يعرفوا منها؟ هل نسيت أن الخارجين ينشرون بينهم أفكاراً يريد ثواليث القمع مواجهتها؟ لقد فرضت الحتمية التاريخية على ثواليث القمع إقامة الأنظمة التعليمية الممنهجة لمواجهة التعلم الحر ولمواجهة الأفكار التي لا يرغبون بها. إنها ضرورةٌ تاريخيةٌ وليست خياراً حراً

بالنسبة لهم. فهم قد كانوا في السابق يعمدون إلى تعليم حُفْنٍ من المهنيين الاختصاصات التي تحتاج إلى دراسة، بينما يُغرقون باقي مجتمعاتهم في أميةٍ وجهل مطبق. لكن، رويداً رويداً، لم يعد دوام هذا الحال ممكناً منذ أن بات الرعايا قادرين على الاتصال بالغرف الأخرى بحرية والتعرض لمفاهيم جديدة لم يعتادوها ومقارنةِ أنفسهم بغيرهم لأنه، كما كتب جورج أورويل في رواية "1984"، "... الجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها مطلقاً، كما إنها لا تثور لمجرد تعرضها للاضطهاد. ومالم تُتح لها إمكانية المقارنة بين أوضاعها الراهنة وبين أوضاع أخرى، فإنها لن تُدرك أبداً حقيقة كونها مضطهدة...".

لوسيل "مقاطعة بدهشة": نقطةٌ هامةٌ فعلا.

[227] **رجل الكهف** "متجاهلاً المقاطعة": فطور ثواليث القمع تدريجياً استجابةً ذكية لذلك بتأسيس برامج لغسيلِ الأدمغة، أكثر تطوراً من مجرد ترك المهمة للأهل ولبعض المربين، وأخضعوا لها الغالبية الساحقة من الرعايا إلزاميا. وعندما طُوِّرت هذه المنظومات، طُوِّرت، تماماً كما نصح الفيلسوف يوهان فيتشة، بأن تكون برامج متكاملة تهدف إلى تدمير المشيئة الحرة للفرد كي يُضمن أنه لن يستطيع أن يفكر في حياته كلها بطريقة تخالف ما بُرمج عليه. ناهيكما عن أن هذه الاستراتيجية قد آتت أُكلها من ناحيةٍ أخرى أيضاً. فالتعامل مع أميين مغرقين في ظلمات الجهل هو أمرٌ لا يطاق في ظل التقدم الحضاري؛ إن هؤلاء عالةٌ على سيدهم. تخيلا لو كان جميع أفرادِ مجتمع ما أميين، كيف يمكن لأي لثالوثِ قمع أن يستفيد، في مجتمع معاصر، من أشخاص جُلُّ ما يمكنهم فعله فقط هو الأعمال البدائية اليدوية؟ إن البراعة الحقيقية، يا داني، تكمن في أن تجعل هؤلاء الأميين يتعلمون ما تريد لهم أن يتعلموه؛ فيعتقدوا أنفسهم فاهمين، بينما هم في الحقيقة قد تمت برمجتهم تماماً كما تُبرمج الروبوتات.

داني "مذهولا": ملاحظةٌ قيمة.

[228] **رجل الكهف**: اسمعا ما قاله نيكولاي بوخارين وأوجين بريوبراجنسكي في كتابهما "ألف باء الشيوعية": "ومن بين وسائل القمع الفكري التي تملكها الدولة الرأسمالية ثلاثٌ تستحق الذكر: المدارس الرسمية والكنيسة الرسمية والصحافة الرسمية أو شبه الرسمية. البرجوازية تدرك تماماً أنها لا تستطيع السيطرة على الجماهير الكادحة بواسطة العنف الخالص. يجب السيطرة على عقول العمال حتى كأنهم في شباك العنكبوت. الدولة البرجوازية تنظر إلى العمال وكأنهم دوابٌ تكدح. ويجب على هذه البهائم أن تعمل ولكن بشرط ألا تعض. لهذا السبب، لا يمكن الاكتفاء بضرب هذه البهائم أو قتلها إذا حاولت أن تعض، وإنما تدريبها وترويضها أيضاً، تماماً كما تُروَّض الحيوانات المفترسة على أيدي المدربين. بنفس الطريقة، تملك الدولة الرأسمالية مدربين وظيفتهم أن يُخدروا ويُدجنوا البروليتاريا. وهؤلاء هم الأساتذة والمعلمون والإكليروس والكُتّاب والصحفيون البرجوازيون. في مدارس الدولة، يتولى هؤلاء الأخصائيون تعليم الأطفال منذ الصغر إطاعة رأس المال والنفور من «المتمردين». وهكذا، تُحشى أدمغة الأطفال بالخرافات عن الثورة والحركة الثورية، ويمجدون الأباطرة والملوك وكبار الصناعيين. وفي الكنائس، يبشر القساوسة، الذين يتلقون مرتباتهم من الدولة، بأن الله هو مصدر

كل السلطات. ويوماً بعد يوم، تُردد الصحف البرجوازية هذه الأكاذيب بينما تعمد الدولة الرأسمالية إلى منع الصحافة العمالية في معظم الحالات... الدولة البرجوازية، باختصار، ترمي إلى تثقيف العمال بحيث يشبهون الحيوانات الداجنة التي تعمل كالأحصنة وترتضي بأقل قدر ممكن من الغذاء.". وإني إذ أقتبس هذا بحرفتيه، إلا أنني لا أريد حصر نفسي بها. بل إني أرمي إلى الإشارة إلى أن ما ذكر فيه هي استراتيجيات يستخدمها ثواليث القمع على اختلاف أشكالهم، وإن لم يكن جناحهم الاقتصادي موسوماً بالرأسمالية المقيتة والديني موسوماً بالمسيحية، فثواليث القمع موجودةٌ بمختلِف الأشكال والألوان؛ وما نماذجها المتنوعة عنا ببعيدة. فعليكما، لكي تكونا أكثر موضوعية وشمولية، وأقلَّ تحيزاً وقصوراً، استبدالُ المفرداتِ الملائمةِ ب "ثواليث القمع" والأخرى الملائمةِ ب "الرعايا".

داني "شارد الذهن": فهمت مقصدك تماماً، إلا أني أفكر في الكلام، فهو عميقٌ جداً وواقعي.

[229] **رجل الكهف**: ثم إن هذا النظام المدرسي مبني على حشو دماغ الطفل بمعلوماتٍ كي يقدم بها امتحاناً يجيب فيه على الأسئلة، كما يُراد منه، كي ينتقل إلى المرحلة الأعلى حيث ينسى كل ما تعلمه في تلك المرحلة السابقة. فهو مبني بطريقة تشبه ألعاب الفيديو؛ الهدف هو الانتقال إلى المرحلة التالية فقط، وليس الهدف هو التعلم من أجل التعلم لبناءِ المجتمع. وإن قواعد هذه اللعبة بسيطة جدا؛ احفظ ما هو مكتوب هنا، كرره في الامتحان، مبروك لقد نجحت، وهذه شهادةٌ تثبتُ أنك استطعت تكرار ما قلنا لك بنسبة مئوية من الدقة قدرها كذا؛ هيا بنا إلى المرحلة التالية. ويستمر هذا الوضع إلى أعلى المراحل، مما يُخَرِّج من الجامعات، من ضمن من يَخرج منها، أساتذة يقومون بتدريس الطلاب بنفس الطريقة؛ معظمهم لا يفقه ما يتكلم عنه، يردد للطلاب ما هو مكتوبٌ في الكتاب ثم يطالبهم بإعادة كتابته على أوراق الامتحان، وهكذا دواليك جيلاً بعد جيل.

لوسيل "بتركيز": هذا توصيفٌ دقيق.

[230] **رجل الكهف**: ناهيكِ عن أن المدرسين بمعظمهم يقومون بعملهم هذا من أجل حفنةٍ من المال يقتاتون منها. المالُ هو حافزهم، لا بناء أجيال المستقبل. دعكِ من العبارات الفارغة التي يرددها الجميع، انظري إلى الواقع! الطالبُ بالنسبةِ إلى المدرس حفنةٌ من المال، ليس رجلَ المستقبل. والمريضُ في نظرِ الطبيب حفنةٌ من المال، ليس إنساناً يستحق الشفقة والرحمة. ويرى كلٌّ من المحامي والقاضي ورجلُ الشرطةِ المظلومَ حفنةً من المال، ليس مسكيناً يحتاج إلى مساعدة. عندما تسألين التاجر عن نصيحته في أي المنتجاتِ هي الأفضلُ من بين الخياراتِ المتاحةِ في متجره كي تشتريه، فإن ما يسمعه منكِ هو "أي منتج من بين هذه البدائل المختلفة يحقق لك هامش ربح أعلى أو إنكَ تريد التخلص منه قبل غيره؟" ويجيبكِ على هذا الأساس. وهكذا دواليكِ بالنسبة للجميع. هذه إحدى تجليات النظام التعليمي المبني على التنافس بأنانيةٍ بطريقةِ ألعاب الفيديو. ولها أسبابٌ أخرى كثيرة بالتأكيد. هذا ولا بُدَّ توجدُ استثناءات، فلا يجوز التعميم في كل ما أتكلم عنه، لكني أتكلم عن الحالات العامة.

[231] **لوسيل** "بتعجب": أليس هذا سببه الرأسمالية التي استشرت في العالم كالسرطان؟

رجل الكهف: لا شك مطلقاً في هذا. لقد قلتُ للتو إن له أسباباً أخرى. لكن ما رميتُ إليه هنا هو أننا ننهج في تعليمنا الأطفال نهجاً تنافسيا. وهذا ما أرفض تأسيسه في الرعايا؛ لأنهم إن شبّوا عليه في مدارسهم، فمن الطبيعي أنهم سينهجونه لاحقاً في حيواتهم؛ وعليه، تكون النتيجة الطبيعية لهذا ما وصفته قبل قليل. ولقد أشار ألبرت آينشتاين إلى هذا الأمر في كلمةٍ عن التربية ألقاها في نيويورك عام 1936 بقوله: "... إن العمل على أن ينال إنتاجنا استحساناً وتقديراً حافزٌ سليم، ولكن أن نتحدى زميلاً باعتبارنا أفضل وأقوى وأكثر ذكاءً منه، أمرٌ يؤدي إلى معايرة سيكولوجيةٍ غاية في الأنانيةِ قد تكون وخيمة العاقبةِ على الفرد والمجتمع. ولذا، ينبغي على المدرسة ألا تلجأ إلى هذه الوسيلة الرخيصة لخلق الطموح ولحمل التلاميذ على الاجتهاد في العمل.".

[232] **داني:** أوافقك الرأي في هذا. لكن عودةٌ إلى ادعائك بأنه برنامجٌ لغسيل الأدمغة وبرمجتها، إني لازلت أذكر أن بعض الأسئلة في الامتحان كانت تقول: "ما هو رأيك؟" أو "علل رأيك في هذا الأمر".

رجل الكهف: نعم، هذا الفخ اللطيف. هل كنت تجرؤ على الإجابة بما هو خارج الكتاب وتنال النجاح؟ وإن كان الموضوع فيه ما قد يمس أحد أركان ثالوث القمع، هل كنت تجرؤ على التفكير بكتابة ما قد يجول في ذهنك من رأي خاصٍ لم يُقال لك في المدرسة؟

لوسيل: كلا، لازلت أذكر كيف كان المدرسون يخبروننا بما يجب علينا الإجابة به على هذا النمط من الأسئلة كي نضمن النجاح. وحتى إن كان الموضوع علمياً خالصاً، كالرياضيات على سبيل المثال، لم نكن نجرؤ أن نقوم ببرهنة الإجابة بغير الطرق التي تم تدرسيها لنا؛ وإلا، فنحن نخاطر بالنجاح في الامتحان.

[233] **داني** "بحماس": لقد ذكرتني إشارة لوسيل الآن إلى الرياضيات بتلك القصة الشهيرة لجورج دانتزيج عام 1939 عندما تأخر مرة عن محاضرةٍ للبروفيسور جيرزي نيمان ليجد مسألتين مكتوبتين على السَّبورة، فاعتقد أنهما واجبان منزليان على الطلاب حلها، ليكتشف بعد قيامه بحلهما أنه قد حلَّ مثالين على مسائلَ رياضية مفتوحة؛ أي، لم يحلها أحدٌ من قبل.

[234] **رجل الكهف:** فعلاً إنها قصةٌ مثيرةٌ للتأمل جداً، وقد تم تسويقها كثيراً على أنها مثالٌ للتفكير الإيجابي، بيدَ أني أراها من زاوية أخرى؛ فليس التفكير الإيجابي هو ما دفعه إلى حلها. لقد كان يعتقد "أن عليه حلها"! ولم يكن يعرف أنها من أكثر النماذج الإحصائية شهرة، التي لم يتمكن أحدٌ من إثباتها رياضياً، وعندها قال لنفسه: "أنا أثق أن بإمكاني حلها". لو أن هذا هو الذي حصل، لاعتبرته تفكيراً إيجابياً وثقة بالنفس. ألم يقل مصطفى خليفة في "القوقعة": "... البطلُ لا يمكن أن يكون بطلاً لسلوكه طريقاً بالإكراه."؟ وجورج دانتزيج قد أشار بنفسه أكثر من مرة إلى أن قصته يتم المبالغة في طرحها للجمهور وإعادة صياغتها مراراً وتكرارا.

[235] **داني** "مفكرا": إذاً، لو أنه حضر مبكراً وسمع ما قاله البروفيسور جيرزي نيمان لما فكر بحلها على

الأرجح.

رجل الكهف: هذا ما أعتقده. في الحقيقة، لا أحد يعرف، ولا حتى جورج دانتزيج شخصياً، فيما كان يمكن أن يحصل لو أنه لم يتأخر. لكن الواقع يقول إن هناك عدداً لا يُحصى من الطلاب والمدرسين قد كرروا نفس هذين المثالين تكراراً أعمى على أنهما مسألتان غير قابلتين للحل، بينما اتضح أنهما ليستا كذلك. فلك أن تتخيل كم من أمورٍ يتم تناقلها على نحوٍ أعمى داخل السلك التعليمي.

[236] **دالي** "بحماس": تذكرتُ مثالاً آخر في الرياضياتِ أيضا؛ وهو اكتشافُ الطالب روبرت غاريستو عام 1987 لخطأ ارتكبه اسحق نيوتن في عمله العظيم "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية".

[237] **رجل الكهف** "مشعلاً غليونه": هل لاحظت يا عزيزي؟ لقد ذكرتُ مثالين فقط، أحدهما من جامعة بيركلي حصل في سنة التخرج بدرجةِ الدكتوراه، والآخر من جامعة شيكاغو حصل بعد ثلاثمائة عام بالتمام والكمال من نشر كتابٍ يُعد من أشهر وأهم ما أنتج الفكر الإنساني على الإطلاق، فكيف لم يلحظ هذين الأمرين، ومثلهما أمثلةٌ كثيرة، عددٌ لا يحصى- ممن اطلع عليهما مسبقاً من أهم الأدمغة في هذا المجال أو ذاك في العالم؟ السببُ، ببساطةٍ، هو أن النظام التعليمي تلقيني. وإذا كنتَ قد ذكرتُ مثالين من الرياضيات، والتي لها من الحياد والتجرد ما ليس لأي فرع آخر من فروع المعارف الإنسانية، فلك أن تتخيل كمية ما قد يتم تحريفه ثم تلقينه في الفروع المعرفية الأخرى، الأقل تجريداً وحيادية، وخاصة عندما تكون أموراً تلامسُ أحد أركان ثواليث القمع. وإذا كانت مثلُ هذه الأمور تحصل في أرقى جامعات العالم، وفي أعلى المستويات الدراسية، كالمثالين المذكورين، فلك أن تتخيل ما يحصل في المدارس العادية والجامعات التقليدية في الدول النامية. هل لك أن تتخيل حجم الكارثة؟

دالي "بحزن": لا أريد أن أتخيل.

[238] **رجل الكهف** "بحزم": بل عليك هذا إن كنت تريد أن تفتح عينيك! اسمع ما ذكره أحد أهم الأدمغة التي عاشت يوماً، وأكثرها ثقافة وموسوعية، وهو بيرتراند راسل، في سيرته الذاتية عن أيام دراسته في كامبردج: "كانت كامبردج هامة في حياتي لأني أدين لها بما كونت من صداقات وبما اكتسبت من خبرة بالمناقشة الفكرية، ولكنها لم تكن هامة من ناحية التعليم الأكاديمي الفعلي. ولقد تكلمت فيما سبق عن تعليم الرياضيات وفساده، كما إن كل ما تعلمته من فلسفة يبدو لي الآن خطأً. ولقد قضيت سنوات طويلة بعد تخرجي أحاول أن أتخلّص بالتدريج من عادات التفكير التي اكتسبتها هناك. وكانت العادة الوحيدة في التفكير التي اكتسبتها، والتي كان لها قيمة حقيقية، هي الأمانة الفكرية... فلستُ أذكر مثلاً واحداً لمُدرسٍ استاء عندما أوضح له تلميذٌ من تلاميذه أنه كان على خطأ...". فإذا كان هذا ما قاله فيلسوفٌ بقيمة بيرتراند راسل عن تجربته الشخصية في أحد أهم الصروح التعليمية على وجه الأرض قاطبة، فلماذا تتوقع مني أن أقول عما دونه من مراكز تعليمية بسيطة، والتي تنتفي فيها الميزة الوحيدة التي وجدها بيرتراند راسل في كامبردج؟

دالي "بحزن": إن مجرد التفكير فيما تقول يصيبني بالدوار.

[239] **رجل الكهف**: لهذا قلتُ لكما إن الأنظمة التعليمية هي منظومات تقوم بتجهيز الأفراد ليصبحوا نُسخاً متشابهة بما يتوافق ومصالح ثواليث القمع؛ تم إلباسها لباس اللعبة، تكون إلزامية في نصفها الأول، ثم يتم تسليم إلزاميتها إلى قسم الغرائز في نصفها الثاني.

[240] **لوسيل** "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: السباق من أجل الألقاب والمناصب. ألا ترى كيف أن الألقاب والفرص الوظيفية هي ما يحفز الناس على متابعة الدراسة الأكاديمية؟ ألا ترى أن معظم الأهل، الذين يريدون لأطفالهم متابعة التعليم، يقومون بِحثّهم منذ نعومة أظفارهم على الظفر بلقبٍ ما في شبابهم؟ ولهذا السبب تجدين قِلة منهم يبدعون في مجالاتهم لاحقاً، فهم قد أصابوا الهدف؛ وما عملهم اللاحق إلا وسيلة لكسب المال والتنافس عليه. المالُ هو الحافز الذي يبقى لديهم بعد الظفر بذلك اللقب المنشود. وهنا، يتساوى الجميع في حوافزهم، ويمضي جميع أفراد المجتمع في سباق محموم في محاولةٍ للحصولِ على قسم أكبر من الكمكة.

[241] **دالي** "وهو يصبُّ المزيد من النبيذ في الكؤوس": تقصد كسب المزيد من المال.

رجل الكهف: طبعاً، لكن الأوراق المالية المطبوعة محدودةٌ بالنتيجة؛ هي ليست لانهائية. فهي كالكمكة، والجميع يحاول أخذ ما أمكنه منها؛ فيقضون حيواتهم يتبادلون فُتات الكعك ويكتنزون ما أمكنهم اكتنازه ليأكله النمل والجرذان لاحقا.

[242] **دالي** "باستغراب": لكنك، في نفس الوقت، قُلتَ إنك تشجع الجميع على متابعة الدراسة إلى أعلى المراحل الدراسية الممكنة!

رجل الكهف: صحيح، فهي الطريقة الوحيدة المتاحة للتعلم أمام الأطفال. وأن يتعلم الأطفال خيرٌ من ألا يتعلموا. كما إني أريد لأبناء المجتمع أن يُجيدوا أعمالهم، التي وإن كانوا يقومون بها على الأغلب بهدفِ المال لا لأي هدفٍ آخر، فإن أقل الأضرار هو أن يقوموا بها بإتقان، وهذا ما قد يُكسبهم إياه التعليم المنظم. ناهيك عن أن الفُرص قد تُتاح أمام من تابع دراسته لمراحل متقدمة في أن يُصادف ما قد ينير عقله ويجعله يخرج من الغرفة ويصعد البرج. وإن كان هذا ليس شرطاً، لكنه يزيد من الاحتمال نظريا. وهناك العديد من العوامل الأخرى التي تدفعني للحث على متابعة الدراسة. لكن لا التربية ولا النظام التعليمي هما موضوعانا لهذه السهرة. لذا، ولكيلا يُساء فهمي، أقولُ اختصاراً: أنا لستُ ضد التعليم المدرسي. أنا ضد أساليبه التي تُتبع في أماكن كثيرة وضد اعتباره تثقيفاً للرعايا. إنه تعليمٌ مِهني بأفضل أحواله لا أكثر.

[243] **لوسيل** "بتعجب": لكين كيف للألقاب أن تكون جزءاً من قسم الغرائز؟ لم أفهم هذا!

رجل الكهف: عندما نرى الشاب يعمل جاهداً على ادخار المال لبناء منزل جميل وتجهيزه بأفضل

حال ممكن، هو يفعل هذا، دون وعي منه على الأغلب، ليجتذب قرينة ذات مستوى أعلى مما كان بإمكانه اجتذابه لو لم يملك منزلاً فاخراً، أو هو يفعله ليحافظ على قرينته الحالية. هذا بالضبط ما تفعله العديد من فصائل الطيور التي تعتمد الزواج الأحادي؛ حيث يبني الذكور أعشاشهم محاولين بذل أفضل جهد ممكن فيها، لتأتي الإناث وتقبل التزاوج مع ذوي الأعشاش الأفضل. وذلك الشاب الذي يحاول أن يلبس أغلى الثياب ويركب أجمل السيارات يفعل هذا لنفس السبب؛ وهذا بالضبط ما يفعله كلٌ من الطاووس والديك على سبيل المثال. نحن لدينا تراتبيةٌ هرميةٌ نفهمها تمام الفهم، وكذلك الشمبانزي.

[244] **لوسيل** "مقاطعة": ما هي الحكمة من هذا؟

رجل الكهف: عدد الرعايا في أي غرفةٍ محدود. ولذا، فإنهم في سباقٍ محموم فيما بينهم، تدفعهم إليه جيناتهم، للحفاظ على بقائهم أولاً، ولزيادة فرصهم في التكاثر ثانيا. هذا ما تفعله جميع الكائنات على هذا الكوكب البائس. إنه الصراع من أجل البقاء لغرض التكاثر؛ قانون الطبيعة القاسي. ونحن عندما نقوم بتوجيه جميع قدرات الدماغ البشري المهولة للعمل بما يدفع إليه قسم الغرائز من الدماغ فحسب، فنحن عملياً نصنع وحوشاً لا وجود لمثلها في الطبيعة. وهذا هو حالُ الرعايا؛ يقضون حيواتهم في صراع لا مبرر له من وجهة نظر عقلانية وإن كان مُبرراً غرائزيا. وكحال الطاووس الذي يتفاخر بذيله رائع الجمال ليجذب الاناث، يتفاخر البشر بالمناصب والألقاب. وكما أن الطاووس والأيل والرنة لا يخفون ميزاتهم التنافسية حتى عند عدم الحاجة إلى إبرازها -كما تفعل العصافير المغردة أو الضفادع مثلاً- فكذلك الرعايا الذين يحوزون ألقاباً، أو يمتهنون مهناً يعتبرها المجتمع مهناً جديرة بالاحترام، أو يحصلون على بعض المناصب التي هي مناصب محدودة العدد في ذلك المجتمع، فترين هذه الألقاب ملتصقة بأسمائهم وكأنهم ولدوا بها، بل إنهم فعلاً يدرجونها في بطاقاتهم الشخصية وجوازات سفرهم في بعض الدول! فهم يستعملونها كميزة تنافسية يحملونها معهم أينما ارتحلوا، كالطاووس جاراً ذيله وراءه كيفما تحرك جاهزاً لرفعه والتفاخر به أينما لاحت أنثى أمامه، أو كالأيل والرنة الحاملين لقرونهما على رؤوسهما أينما ارتحلا رغم أنهما لا يحتاجانها بشكل دائم.

[245] **داني** "مفكرا": وهل الكنية التي تُستعمل في بعض المجتمعات تُستخدم لنفس السبب برأيك؟

رجل الكهف: بالتأكيد. فالشخص البسيط الذي لم يتابع دراسته لمرحلةٍ متقدمةٍ يحصل منها على لقب يضيفه لاسمه ولم يفز بلقب ما أو منصب ما، ومهنته لا تُعد مهنة تكسبه ميزة تنافسية في المجتمع، يلجأ إلى التفاخر بأنه قد نجح في الاقتران وإنجاب الأطفال. لقد فاز في ذلك الصراع الغرائزي بين أقرانه، فيتفاخر بفوزه هذا بكنية يناديه الناس بها لإظهار الاحترام. وغالباً ما يُحبُّ أن يكني نفسه باسم ابنه الذكر في المجتمعات الذكورية، والمرأة كذلك. بل قد يقوم محيطه بتكنيته منذ طفولته أو شبابه كي ينحصر تركيزه في الحياة على استحقاق تلك الكنية عن جدارة. كما إن أداء بعض الطقوس الدينية قد تعطيه لقباً يضيفه إلى اسمه ليتباهى به، وهكذا دواليك.

[246] **لوسيل** "مفكرة": وماذا عن المثقفين الحقيقيين، الذين خرجوا من الغرفة وصعدوا البرج، ألا يتفاخرون أيضاً بألقابهم؟

رجل الكهف: باستثناء الحاجة اللازمة لذكر اللقب هم لا يستعملونه، بل لا يهتمون له؛ فالطريق إلى الألقاب سهلٌ وواضحٌ وقصيرٌ ولا يتطلّب الخروج من الغرفة. إن من يتحمل تبعات مغامرة الخروج من الغرفة، ومشقة صعود البرج، هو شخصٌ لا يبحث عن الألقاب. الألقاب يوزعها ثواليث القمع داخل الغرف. لا توجد ألقابٌ على البرج. ومن يصعد البرج لا يصعده بحثاً عنها، فهو يعرف أنها غير موجودة هناك. الألقاب للرعايا، لأولئك المساكين المتنافسين داخل الغرف المظلمة، لا لمن يبحث عن الحرية خارجها. فها هو تشارلز دارون يرفض شهادة الدكتوراه الفخرية من أوكسفورد. بالنسبة له، إنها حَطٌّ من قيمته، أو على الأقل، هي بلا قيمةٍ على الإطلاق. لم يبني تشارلز دارون برجه كي يأتي بعض رجالات أوكسفورد ويعطوه لقبا. لو أراد هذا اللقب لحصل عليه منذ شبابه. فالطريق إلى هذا اللقب أسهل بما لا يقاس من الطريق الذي سلكه تشارلز دارون في حياته ليصل إلى المرتبة التي وصل إليها في سجل التاريخ البشري. هذا تحقيرٌ واضح لكل جهوده التي بذلها عبر حياته رافعاً البرج حجراً حجرا. ولقد كافأه التاريخ على هذا الجهد، فاسم "دارون" نفسه قد اضحى أهمَّ من أهمِ لقب قد يحوزه أي إنسان.

[247] **داني** "مفكرا": ملاحظةٌ قيمة. فهناك عددٌ كبيرٌ من حاملي إجازة الدكتوراه من أوكسفورد، لكن هناك "دارون" واحد في التاريخ الإنساني كله.

رجل الكهف: ولقد كسب احترامه هذا عن جدارة بجهده وعرق جبينه واقفاً في وجه العالم أجمع، لا لأن أحداً ما قد تكرم عليه ووافق على منحه هذه الصفة. تماماً كما وصف الأمر أحدُ أعز أصدقاءه وأشد المدافعين عنه، توماس هكسلي، في مقالٍ نشره بعد وفاة تشارلز دارون في مجلة *الطبيعية*: "لم يحارب أحدٌ بشكلٍ أفضل، ولم يكن أحدٌ أكثر حظاً، من تشارلز دارون. فإنه قد عثر على حقيقةٍ عظيمة تحت وطء الأقدام، وملعونة من قِبل المتعصبين الدينيين، وموضع سخريةٍ من قِبل العالم أجمع. وقد امتد به العمر لكي يراها، بشكل رئيسي عن طريق مجهوداته، وطيدةً في العلم بشكل لا يمكن دحضه، ومندمجة بشكل لا يمكن فصله مع الأفكار الشائعة للناس، ومكروهةً ومُهابةً من قِبل هؤلاء الذين من شأنهم أن يلعنوا ولكنهم لا يجرؤون. ماذا يمكن لرجلٍ أن يريد أكثر من هذا؟ ...".

لوسيل "بإعجاب": لا شيء على الإطلاق يمكن أن يريده إنسانٌ أكثر من هذا.

[248] **رجل الكهف**: إن الإغراء بالجوائز والمكافئات والألقاب هو أحد وسائل ثواليث القمع لشراء المثقفين الخارجين من الغرف. لذا، نجد جان جاك روسو يكتب في اعترافاته: "... وكان أسوأ ما جرّته كتاباتي هو التكريم الذي كان من المحتمل أن يولوني إياه...".

لوسيل "بتعجب": أسوأ شيء هو التكريم!

[248.1] **رجل الكهف:** "... لا أتذكر سارتر قائلاً أبداً إن المثقف يجب أن يبقى خارج الجامعة بالضرورة. هو بالتأكيد قال: إن المثقف لا يكون مثقفاً إلا عندما يتم إحاطته وتَمَلُّقُهُ وتطويقه والغطرسة عليه من قِبل المجتمع ليكون على هذا النحو أو ذاك، لأنه عندها فقط، على هذا الأساس، يمكن لعمل المثقف أن يتم إنشاؤه. وعندما رفض جائزة نوبل في 1964 كان يتصرف بالضبط حسب مبادئه" هكذا أشار إيدوارد سعيد إلى جان بول سارتر في كتابه *تمثيلات المثقف*. وهذا حرفياً ما كتبه جان بول سارتر في كتابه *ما الأدب؟*: "... إنها تطوقه، وغطرستها أو مطالبها الخبيثة، ورفضها أو هروبها هي المعطيات الحقيقية التي يمكن بناء العمل على أساسها." فلولا توافر هذه الإشارات لكانت المؤشرات تدلُّ على أن هذا المثقف إنما هو مثقف سلطة، لا باحث حر، لاسيما إن تم تكريمه من قبل السلطة!

[249] **لوسيل:** لكن أليس هؤلاء الخارجون هم بشر؟ أليسوا كائنات غرائزية أيضا؟

رجل الكهف: بالطبع هم كائنات بيولوجية لديها غرائز، لكنك تنسين أنهم موجودون على البرج وليس داخل الغرف المكتظة. فكلما ارتقى الإنسان صعوداً على البرج، كلما ابتعد عن غرفته التي خرج منها؛ وبالتالي، كلما انخفضت لديه الحاجات الغرائزية وصولاً إلى حدها الأدنى. لقد أصبح يرى أموراً لا يراها الآخرون، وهمومه مختلفة عن همومهم، بل إن احتياجاته وتطلعاته مختلفة أيضاً، باستثناء الحد الأدنى اللازم للبقاء على قيد الحياة ككائن بيولوجي.

[250] **لوسيل** "بتعجب": لِمَ؟

رجل الكهف: لسببين. يقول باروخ سبينوزا في *علم الأخلاق*: "... بقدر ما تكون معرفة النفس للأشياء واسعة، يكون خضوعها للانفعالاتِ المترتبة على هذه الأشياءِ أقل، ويكون تأثرها بالأشياء ذاتها أقل." هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى، يقول سيغموند فرويد ووليم شتيكل في كتابهما *الكبت*: "... إن نشاط الإنسان يتوقف على ما عنده من طاقة حيوية، فإن أفرط في الناحية الجنسية قل نشاطه في الحياة وبالعكس.". فبالمثل أقول: لا يمكن للإنسان أن يوجه طاقته لإشباع غرائزه ولإعمال فكره مفرطاً في الأمرين معاً، لا بد أن يكون الإفراط في أحدهما يحصل على حساب الإقلال من الآخر؛ لأن طاقة الإنسان محدودة. وإن الذي يحصل هو أنه إن قرر نقل طاقته من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، فإنما هو لاإرادياً ينقل معها ماهيته وكينونته. وهكذا، دون أن يشعر، لا يعود فرداً من الرعايا، جسداً من الأجساد. شرطَ ألا يكون جهده في بناء ثقافته وسيلة لإشباع غرائزه فحسب؛ أي، للتنافس الجنسي عبر التباهي بثقافته.

دالي "مفكرا": هكذا إذن تتشكل ماهية المثقف.

[251] **رجل الكهف:** القاعدةُ البسيطةُ الواضحةُ تقول: بالقدر الذي تنتقل فيه ماهيتك من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، بالقدر الذي تقل فيه ماهيتك الغرائزية وتزداد ماهيتك الثقافية، حتى تبلغ درجة الكمال عندما تفقد أي اهتمام بقسم الغرائز. فهذا سقراط -على فرض وجوده التاريخي- يقول في محاورة *الدفاع* لأفلاطون: "... برؤني أو لا تبرؤني، ولكني لن أفعل، على اليقين، شيئاً آخر غير هذا،

وحتى لو وجب علي أن أموت مرات عديدة.". هل كان سقراط انتحارياً أو مكتئباً يريد الموت؟ كلا مطلقاً، لكن ماهية سقراط قد أصبحت فِكر سقراط لا جسده. لقد حاول رفع الإدانة عن نفسه دون التنازل عن فكره حيث قال: "... ما أفعله ليس إلا محاولة إقناعكم شباباً وشيوخاً بألا تعنوا بأجسامكم وبثرواتكم فوق عنايتكم، وبنفس الحماس، بالنفيس من أجل أن تصير أحسن... الفضيلة لا تأتي من الثروة، وإنما بالفضيلة تصير الثروة وكل شيء آخر من خيرات للبشر سواء في حيواتهم الخاصة أو العامة...". أليس كلامه هذا يوضح ما أقوله؟

لوسيل: مثيرٌ للإعجاب.

[252] **رجل الكهف:** وعندما لم ينجح، نجده يقول في آخر تلك المحاكمة بعد صدور القرار النهائي بإعدامه: "... إنني لا أحمل في قلبي ضغناً كبيراً ضد من صوتوا بإدانتي ولا ضد متهمي... والذي أطلبه منهم يقيناً هو أنه حينما يكبر أطفالي فعاقبوهم، أيها الأثينيون، بأن تقلقوهم كما أقلقتكم أنا، وذلك إن بدا لكم أنهم يعنون بالثروة أو بأي شيء آخر فوق عنايتهم بالفضيلة. وإذا بدا لهم أنهم شيءٌ، بينما هم ليسوا كذلك، فلوموهم، كما فعلت أنا معكم، على عدم العناية بواجبِ العناية، وعلى الاعتقاد بأنهم شيءٌ بينما هم بغير قيمة. إن فعلتم هذا، فسأكون قد عوملت منكم بالعدل أنا وأبنائي.".

[253] **لوسيل** "متعجبة": كيف لإنسانٍ ألا يحقد على قاتليه؟

رجل الكهف: أنتِ لا تحملي مشاعراً إلا تجاه الأمور التي تهمك. وبالنسبة لسقراط، جسده لا يهمه قدر أهمية فكره؛ لذا، فهو لم يحقد على قاتليه. هم يقتلون جسده فقط وليس فكره. ناهيكِ عن أنهم رعايا، من وجهة نظره، أناسٌ مساكين، أطفالٌ صغار، لا يُلامون على ما يفعلون. هل لاحظتِ آخر همومه في هذه الحياة؟ هل لاحظتِ بمَ كان يفكر بعد صدور قرار الإعدام النهائي بحقه؟ كانت هذه آخر كلمات سقراط للعامة قبل ايداعه السجن انتظاراً لتنفيذ حكم الإعدام. وخلال هذه المدة، رفض جميع محاولات أصدقاءه لتهريبه والنجاة بحياته. من يكترث لهذا الجسد الفاني مقابل ما قد يقال عن سقراط الفكرة الذي فر من السجن لخوفه من أذية ذلك الجسد!

لوسيل "بألم": لقد تفطر قلبي وأنا أتخيل الأمر.

[254] **رجل الكهف:** ونجد بعده بألفي عام جوردانو برونو الذي أوقعت به الكنيسة لتسجنه بتهمة الهرطقة فيقضي سبع أعوام في السجن يذاق فيها صنوف العذاب وهو يأبى التراجع عن أفكاره العلمية التي رفضتها الكنيسة. وحين يأسوا منه وأصدروا حكم الإعدام بحرقه حياً قال بكل جسارة للقاضي: "ربما أنت تقول هذه الجملة بخوفٍ منها أكبر من خوفي أنا متلقيها". هل من بسالةٍ أعظم من هذه؟ وعندما تم اقتياده إلى ساحة الإعدام، سُحِلَ في الشوارع، ليكون عبرة لغيره، مُكبلَ الفم -بطريقة بشعة أربأ بنفسي أن أصفها لك- لخوفهم من كلماته؛ ثم عُلق عارياً رأساً على عقب وحُرق حياً حتى صار رماداً دون أن يرف له جفن. هل كان مازوشياً؟ أم إنه كان يحافظ على بقاء كينونته كما يفعل أي إنسانٍ آخر، لكن كينونته كانت تتمثل في فكره لا في جسده؟

[255] **لوسيل** "بعينين دامعتين": هذا مقرزٌ جداً دون أن أعرف التفاصيل. لكن ألهذا الحد يخاف ثواليث القمع من الخارجين الأحرار؟ وألهذا الحد يمكنهم أن يتخلوا عن خوفهم من الموت في سبيل كلماتهم؟

رجل الكهف: هكذا يكون من صعد البرج؛ ينقل ماهيته من جسمه الفاني إلى فِكره. وما هذان إلا مثالان يفصلهما ألفا عام، والنتيجة واحدة في كل الأزمان وكل الأماكن. من يصعد البرج يخافه ثواليث القمع ويحاولون عقابه، لكنه يكون قد تجرد من جسده الفاني على أي حال وتحول إلى فكرة. ماهيته أصبحت تفوق حدود جسده المحدود؛ وبالتالي، فهو لا يمكن أن يكون غرائزياً بعد ذلك. لهذا السبب، نجده مستعداً لتقبل الموت في سبيل عدم التنازل عن فِكره. وما يزعج ثواليث القمع هو أنه لا يمكنهم إلا قمع الجسد، والذي يصبح تدريجياً بلا قيمة عند صاحبه بشكل تلقائي كلما ارتقى البرج صعودا؛ وبالتالي، لا قيمة حقيقية لهذا العقاب الذي لا يخشاه إلا الرعايا العالقون في ذواتهم الحيوانية، المنقادون وراء غرائزهم؛ لذا، يعمل ثواليث القمع على تنمية هذا الأمر فيهم كي يتمكنوا من تهديدهم بعقوباتهم. لقد رحل جسدا سقراط وجوردانو برونو، الآيلين إلى الفناء على أي حال، ورحل جلادوهما إلى مزبلة التاريخ، لكن بقي سقراط وجوردانو برونو الفِكر، وسيبقيان ما بقي إنسانٌ على قيد الحياة. وإن كان هناك من درس قد علمنا إياه التاريخ فهو أن الفكرة لا يمكن قمعها؛ فهي خالدةٌ بعد فناء جسد صاحبها رغم أنوف ثواليث القمع. هذا هو إكسير الخلود الحقيقي. هذا هو سر الخلود الذي بحث عنه جلجامش. تحرر من غرائزك، واصعد البرج، وتابع الصعود حتى آخر رمقٍ في حياتك. انقل ماهيتك من جسدك الفاني إلى رسالةٍ لا يمكن لها أن تفنى.

دالي "بجدية": هذا خطيرٌ ما تقوله يا رجل الكهف!

[256] **رجل الكهف**: هذا هو الواقع، بل جانبٌ فقط من الواقع. ولذا، فإن الرعايا تتم برمجتهم، إلى أقصى الدرجات، على أن يبقوا كائنات غرائزية مبرمجة بشكل كامل. وهم في هذا أدنى مرتبة من الحيوانات كما أشار عبد الرحمن الكواكبي في كتابه *طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد*، واصفاً الرعايا بأسراء الاستبداد، قائلاً: "... فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه... يعيش خاملاً، خامداً، ضائع القصد، حائراً، لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته، ويدرج أيامه وأعوامه، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستقر تحت التراب... أما ملذات هؤلاء التعساء فهي مقصورة على لذتين إثنتين: الأولى منها لذة الأكل؛ وهي جعل بطونهم مقابر للحيوانات، إن تيسرت، وإلا فمزابل للنباتات. أو بجعلهم أجسامهم في الوجود، كما قيل، أنابيبَ بين المطبخ والكنيف، أو جعلها معامل أعدت لتجهيز الأخبثين. واللذة الثانية هي الرعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت دمامل جرب على أديم الأرض يطيب لها الحك ووظيفتها توليد الصديد ودفعه. وهذا الشره البهيمي في البعال هو ما يعمي الأسراء ويرميهم بالتزاوج والتوالد... فإذا بلغ الشاب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يفر من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه أبواه، ثم هو يتولى التضييق على نفسه

بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولى المستبدون التضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله. وهكذا، يعيش الأسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة هم ووادي غم، يودع سقماً ويستقبل سقماً، إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.".

دالي "مفكرا": يا له من كلام بليغ تقشعر له الأبدان. لا عجب إذن في أن الشكوك تحوم على أنه قد اغتيل بالسم ولم يمت موتاً طبيعيا.

[257] **لوسيل** "باستغراب": وكيف يبقيهم ثواليث القمع عالقين في غرائزهم هكذا؟

رجل الكهف: الأساليبُ كثيرة وهي تتطور دائماً وأبدا. فتمنية الثقافة الاستهلاكية بين الرعية أحد جوانبها. والموضة، التي باتت مسيطرة على كل صغيرة وكبيرة من جوانب الحياة، والتي هي متغيرة بشكل دائم كي يبقى البشر في سباقٍ محموم للعمل الدؤوب من أجل شراء المنتجات الجديدة أولاً بأول، لا لأنهم بحاجتها، بل فقط لأن عليهم شراؤها. ولترى كم أنهم مسلوبو الارادة، فقد تمادت الموضة لتطال أشكال أجساد البشر. فباتوا يقومون بعملياتٍ جراحية، لا مبرر طبي لها على الإطلاق، فقط كي تتماشى أشكالهم مع الموضة الدارجة. فلم يكتفوا بأن يكونوا نسخاً في عقولهم وطرق تفكيرهم فحسب، بل باتوا يتسابقون في أن يكونوا نُسخاً في ملابسهم وأنماط معيشتهم وأشكال أجسادهم أيضا.

لوسيل "بحزن": كلامك صحيح.

[258] **رجل الكهف**: كما يعمد كل ثالوثٍ دائماً إلى ابتداع الأعداء ظاهرياً، ليُبقي رعاياه في خوف، فينصب نفسه حامياً لهم، كما كان واضحاً في الحكاية التي قصصتها عليكما الليلة الماضية. وهذا يعود على الثالوث بفوائد عظيمة من ضمنها -فيما يخص ما نتكلم عنه الآن- أن تتمسك الرعية بهذا الحامي ويخضعوا لأوامره برضوخ كاملٍ عن طيب خاطر. وعليه، فإن أي إجراءٍ يراه الثالوث مناسباً للتحكم بمصادر المعلومات المتاحة للرعايا يصبح سهل التنفيذ بحجة حمايته لهم. فقد تتم الرقابة على المطبوعات والمنشورات وما يُعرض على الشاشات وما يقال في الخطب، بل وبحرية الولوج إلى الانترنيت، وغيرها من الوسائل التي قد يرى الثالوث أن من مصلحته إجراءها لتوجيه المعلومات التي يُسمح للرعايا الاطلاع عليها، سواء الصحيحة منها أو الكاذبة، فالمعيار هو فقط مصلحته الشخصية، لا جودة المعلومات ودقتها وأهميتها. وكما قال آرثر سولزبيرجر: "احجب المعلومات الصحيحة عن أي إنسان، أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف، إذن فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان".

لوسيل "بحماس": هذا ما يفعلونه فعلا؛ يقيدون مصادر المعلومات ويقومون بتوجيه ما يُعرض منها بما يتناسب وأهواءهم.

[259] **رجل الكهف**: وبهذا، لا يبقى للرعية إلا ثالوث القمع خاصتهم كمصدر أساسي للمعلومات. فيقوم

مرتزقته، الذين يتم الترويج لهم على أنهم النخبة المثقفة في المجتمع، بنشر المعلومات بعد تشذيبها بين الرعية، فيشرحون لهم الأنظمة الاقتصادية والسياسية المتبعة في الغرف الأخرى، والأديان الأخرى، والعلوم المختلفة، والتاريخ، والآداب، والفلسفات، وأخبار العالم، وهكذا في كل الأمور. فيظن الرعية أنهم باتوا يعرفون شيئاً حقيقياً، بينما هم لا يعرفون إلا ما يُراد لهم أن يعرفوه وإن كان من محض خيال قائله، لكن يؤخذُ به بسذاجةٍ على أنه أمرٌ حقيقي، تماماً كما يُصدّق الطفل الصغير أي شيء يقوله له أبواه وإن كان خاطئاً أو من ابتداع مخيلتيهما.

لوسيل "وهي تصبُ المزيد من النبيذ": صدقت. هذا ما يحصل بالفعل.

[260] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": كما إنه من المعروف أن لكل إنسانٍ وقتاً محدداً في هذه الحياة. ولذا، فإن توجيه طاقات أدمغة الرعايا لتنحصر في قسم الغرائز يجعلهم مبرمجين ليقضوا حيواتهم لاهثين وراءها. فالمغريات لا نهائية؛ لأن رجالات الاقتصاد خلّاقون دائماً في إيجاد المزيد والمزيد من الأمور المادية التي يجذبون الرعايا إليها بأساليبهم وحيلهم الماكرة في الإعلان والتسويق؛ فيقضي المساكين حيواتهم يدورون في حلقاتٍ مفرغةٍ من العمل لتحصيل المال للوصول إلى ما أمكن من هذه المغريات. ومن يصيبه اليأس، ويعجز عن مقارعة أقرانه، يلتقطه رجالات الدين ليعدوه بإعطائه بعد مماته كل ما اشتهته نفسه ويئس من إمكانية تحصيله إن هو كرس حياته لهم؛ فيقع المسكين في شركهم، فهو لا يملك شيئاً ليخسره على أي حال.

داني "مقاطعاً بحماس": هذا يفسر التناسب العكسي بين مستويي الثروة والتدين عند الرعايا حول العالم بصورة عامة.

[261] **رجل الكهف**: بالتأكيد هو واحدٌ من أسبابٍ عديدة. لكن مقصدي هنا، هو أن جهود ثواليث القمع تتكامل بما لا يتيح للرعايا أي وقتٍ فراغ لرفاهيةِ التفكير بأي شيء يخرج عن نطاق ذواتهم؛ فتراهم يقضون حيواتهم بين مسكين لاهثٍ وراء لقمة العيش، يفني عمره فقط محاولاً البقاء على قيد الحياة وتأمين أبسط متطلباتها، إلى أن تأتيه ساعة الموت التي كان يعمل جاهداً كل حياته فقط لتأخيرها، إلى آخر لاهثٍ وراء تجميع المزيد من المال لزيادة ثروته؛ وبالتالي، زيادة رفاهيته وإشباع غرائزه التي لا تشبع، وآخر باذل جلّ وقته في محاولةٍ للحصول على مبتغاه بعد الموت. وهكذا، فهم جميعاً في سباقٍ محموم، هموم تثقل كواهلهم، مغرقون في ذواتهم الأنانية، متناحرون بين بعضهم كلما تعارضت مصالحهم، يتشاجرون لأتفه الأسباب كالأطفال الصغار، فلا يبقى لديهم لا الوقت ولا الجهد لترف التفكير فيما هو خارج الغرفة، ناهيك عن التفكير في الخروج منها ثم صعود البرج.

لوسيل "بعينين سارحتين": فيما أنت تتكلم، أنا أتذكر أناساً أعرفهم ينطبق عليهم ما تصف.

[262] **رجل الكهف** "نافثاً دخان غليونه": هذا لأني أصف الواقع ولا أتكلم بأفكار من مخيلتي. أنظري مثلاً إلى المشاهير من الأعلام الذين يتم الترويج لهم ليُمسوا محط إعجاب الجماهير، غالبيتهم أناس فارغون تماماً، تتم صناعة بعضهم بأفضل المعايير كي يكونوا جذابين غرائزياً، ويتم ترويجهم في المجتمعات

على أنهم نماذج للشخصيات الناجحة، فيمسون قدوة للأجيال الناشئة. اسألي أي طفل أو مراهق عن قدوته ومثله الأعلى في الحياة وراقبي الإجابات. كم هو عدد العلماء والفلاسفة والباحثين والمثقفين الذين سيتم الإشارة إليهم؟

لوسيل "بحزن": أعتقد أن النسبة لا تكاد تذكر.

[263] **رجل الكهف**: هذا مؤكد. فغالبية الرعايا لم يسمعوا بمعظمهم على أي حال؛ فمن خرج من الغرفة قد حلت عليه اللعنة ولن يتم الترويج له بين العامة. وإن اضطروا لذكره في وسائل الإعلام، فسيشيرون إليه غالباً على أنه مارق أو مخبول. وهذا في مقابل ترويج وإشهار الناس الفارغين أو المرتزقة من أشباه المثقفين وأدعياء الثقافة، ونشرهم في كل مكان في الإذاعات والقنوات التلفزيونية والمجلات والانترنيت، كي يصبحوا قدوة الرعايا ومثلهم الأعلى ومصدر ثقافتهم. والتلفاز أشهر وسيلة لفعل هذا. هذا الجهاز الكريه الذي بات يعد من أهم متطلبات كل منزل، بل ويسبق السرير والثلاجة في الأهمية بالنسبة للكثيرين. يتجمهر حوله أفراد الأسرة طيلة الوقت يتلقون ببلاهةٍ ما يُعرض لهم، والذي تم صياغته وإخراجه بأبهى حلة ليعطي أقوى تأثير ممكن. وما من توصيف لهذا أكثر دقة مما قاله مورتيمر آدلر وتشارلز فان دورن في كتابهما "كيف تقرأ كتاباً": "... إن مُشاهد التلفزيون ومستمع الراديو وقارئ المجلة يتلقى مركباً كاملاً من العناصر -من البلاغة اللغوية البارعة إلى البيانات والإحصاءات المنتقاة بعناية- لتجعل من السهل عليه أن يقرر رأيه بأدنى حدٍ من الجهد والصعوبة. وهذا الجمعُ غالباً ما يكون فعالاً حتى إن المشاهد أو المستمع أو القارئ لا يقرر رأيه أبداً. وعوضاً عن ذلك، فإن المتلقي يُدخِلُ هذه الآراء مجتمعة في رأسه، كما يُدخِلُ شريط الكاسيت في آلة التسجيل؛ وبعدها، يضغط المفتاح المناسب ليكرر الآراء حيثما وجد ذلك مناسبا؛ وبهذا، يكون قد قام بأداءٍ مقبول دون الحاجة إلى أن يفكر." لقد كتبا هذا عام 1972، فلكِ أن تتخيلي التطور الحاصل في فعالية هذه الأدوات منذ ذلك الوقت وحتى اليوم.

لوسيل "بحزن": يا له من توصيف دقيق. فعلاً إن هذا هو ما يحصل بالضبط؛ فالناس يكررون ما يسمعون فقط.

[264] **رجل الكهف**: هذه جوانب فقط، وليست كل شيء، مما يُقام به لبرمجة أدمغة الناس والتحكم بأفكارهم. وبعدها، يغدو الناس نُسخاً متشابهة يرددون كالببغاوات ما تم حشوه في أدمغتهم معتقدين بسذاجةٍ أنهم يقولون آراءهم الشخصية حول هذا الأمر أو ذاك.

[265] **دالي** "بحزن": فعلاً، بعد كل غسيل الدماغ هذا، والذي لم نأتِ على ذكر كل أساليبه، يُقال للرعايا فكروا بعقولكم.

[266] **رجل الكهف** "بغضب": تماماً، بعد كل ما تحدثنا عنه طوال اليوم، وبعد هذه البرمجة التي قضينا السهرة نتناقش حولها، يقالُ لك: فكر بعقلك. أي عقلٍ هذا الذي ستفكر به بحق السماء؟ ما الذي بقي لك من دماغك الحر الذي ولدت به لتستعمله في التفكير؟ بماذا ستفكر؟ مالذي ستصل إليه؟

إذا كانت المدخلات مقيدة وموجهة، وطريقة المعالجة قد تم إحكام برمجتها وتقييدها، فحتماً ستكون مخرجاتها سهلة التنبؤ بها. لا توجدُ أفكارٌ تهبط من السماء على الناس، الأفكار يتم توليدها في الأدمغة. وإذا كان لدينا مليون دماغ قد بُرمجوا بذاتِ الطريقة، ثم أعطيتهم المعلومات ذاتها، فحتماً سيصلون إلى ذاتِ النتيجة. وبالتالي، هي عملية سهلة التنبؤ بنتائجها لأي ناظر خارجي. تماماً كما يقوم صانعوا الروبوتات ببرمجتها؛ ولذا، فهم قادرون على التنبؤ بما ستقوم به.

لوسيل "بألم": إنهم مخدوعون بشدة.

[267] **رجل الكهف** "بحزم": بالتأكيد هم كذلك. يعتقدون أنهم يفكرون ويصلون إلى النتائج باستخدام أدمغتهم وما هم إلا ببغاواتٌ يكررون ما قد حُشي داخل رؤوسهم. بل وإن اعتقادهم بأنهم قد فكروا بعقولهم يجعلهم، وبصفاقةٍ، يحسبون أنفسهم جديرين بمقارعة أهم الفلاسفة والباحثين والعلماء وكأنهم على قدر المساواة معهم فكرياً؛ وبالتالي، فيمكنهم الحكم على إنتاجاتهم الفكرية. كيف لا وهم قد استعملوا عقولهم أيضاً!

[268] **لوسيل**: كلامك صحيح، أراهم يملؤون مواقع التواصل الاجتماعي ضجيجاً. فقد أصبح المراهق يعتقد أن بإمكانه الحكم على أهم الأعمال الفلسفية والعلمية ويقوم بتقييم هذا وذاك من العلماء والفلاسفة والباحثين.

دالي "بألم": إنه أمرٌ مخجل.

[269] **رجل الكهف**: بل إنه أمرٌ كارثي. هذه الفوضى الفكرية لا تبشر بأي خير. فكما أن المريض لا يمكنه أن يطلب العلاج إلا إذا اعترف بمرضه أولاً، فكذلك الرعايا لا يمكنهم أن يحرروا أدمغتهم إلا إذا اعترفوا أنهم بحاجة لهذا التحرير. ولهذا السبب، يبرمج ثواليث القمع أدمغتهم بطريقةٍ تجعلهم يعتقدون أنهم أحرار. فهم كالمريض الذي لا يعلم بمرضه؛ وبالتالي، لن يفكر مجرد تفكير بعلاجه.

[270] **دالي**: لكنني بالمقابل أراهم يلجؤون إلى ثواليث القمع في أتفه أمور حياتهم. انظر إلى القنوات التلفزيونية، أو مواقع الانترنيت مثلاً، وشاهد مدى تفاهة الأسئلة أو المشاكل التي يطرحونها ويريدون حلولاً لها.

رجل الكهف: بالتأكيد. هل نسيت أنهم مغرقون في ذواتهم ومسلوبو الإرادة مقيدو التفكير؟ لذا، لا يمكنهم اتخاذ أبسط القرارات الحياتية لوحدهم دون الرجوع إلى ثواليث القمع. لقد قلت لكما هذا بالأمس. همومهم ومشاكلهم قد تم تقييدها بسفاسف الأمور ليُشغلوا أنفسهم بالتفكير فيها. فهذا المراهق نفسه، الذي أشارت إليه لوسيل وهو يحاكم أهم العقول البشرية ويقيّم إنتاجاتهم الفكرية والعلمية، تجده يسأل رجل الدين خاصته عن الطريقة الصحيحة لدخول المرحاض مثلاً، أو عن الطريقة الأفضل للنوم أو للجماع أو للأكل أو للشرب، وعلى هذا فقس.

دالي "بحماس": هذا ما قصدته.

[271] **رجل الكهف:** لقد تمت برمجته على أن دخول المرحاض أو النوم أو الجماع أو تناول الطعام والشراب بطريقةٍ ما قد تكون ذات عواقب وخيمة عليه؛ وبالتالي، فهو يكترث لهذه التفاصيل ويسألُ عنها. وبنفس الوقت، قد تم افهامه أن ذاك الفيلسوف ما هو إلا مجرد مجنون؛ لذا، فهو يستهزئ بأفكاره بسهولة. كما تم إفهامه أن ذلك العالِمَ ما هو إلا شخصٌ قد استخدم عقله، تماماً كما يفعل هو؛ وعليه، فهو مؤهلٌ للحكم على أفكاره بندية. ناهيك عن أنه قد تم إعماء بصيرته ليرى الأفكار العظيمة ماهي إلا مجرد أفكار لا تلامس واقعه وحياته، بينما الأكل والنوم ودخول المرحاض أمورٌ تلامسها.

دالي "بحزن": عجيب هذا التناقض.

رجل الكهف: ليس عجيباً، بل هو مفهوم ومنطقي إلى أبعد الحدود. فكر به بتمعن.

[272] **لوسيل:** كما يحزنني أن أرى نِسب مشاهدة أي مادةٍ معروضةٍ سواء على التلفاز أو على الإنترنيت تتناسبُ طرداً مع مستوى تفاهة محتواها. وكذا الأمر بالنسبة للكتب والمجلات الأعلى مبيعاً والأغاني الأكثر رواجا.

[273] **رجل الكهف:** ألا يُعتبر هذا مؤشراً خطيرا؟ ألا يوضح لكِ أن غالبية البشر على هذا الكوكب هم كائناتٌ غرائزية فقط فارغون فكريا؟ ألا يوضح لكِ أن الناس يعيشون في غيبوبة بانتظار الموت؟ ألا يجعلكِ هذا تحكين رأسكِ وأنتِ تقولين: "أي نوع من الأشخاص هذا الذي أعيش بينهم بحق السماء؟".

[274] **لوسيل:** لا شك في هذا. لقد برمجهم ثواليث القمع، كما شرحت تماماً، لدرجة أن كلاً منهم قد لبس درعاً واقياً يحميه مما قد يصله ممن صعد البرج.

[275] **رجل الكهف:** بالتأكيد. فهذا سقراط المسكين لم يصدر قرار إعدامه عن قاضٍ تابع لثالوث القمع بشكلٍ مباشر. فالنظامُ هناك كان يقضي بإجراء قرعةٍ كل عام لجمع ستة آلاف رجلٍ من عامة الشعب ليكونوا القُضاة في ذلك العام يتم توزيعهم على عشرة محاكم لكل منها ستمائة رجل. ولقد تغيّب عن محاكمة سقراط نحو مئةٍ منهم؛ وبالتالي، فهو قد مثل أمام خمسمائة -أو خمسمائة وواحداً- من عامة الشعب كان مصيره معلقاً بين أيديهم. كما إنه من المرجح جداً أن حشداً غفيراً من الناس قد حضر المحاكمة. ولو أرادوا الحفاظ على حياة ذلك الشيخ المسكين لفعلوا. لقد فهمَ سقراط هذا؛ لذا، نجده يقول في *الدفاع*: "... ما سيجعلني أدان، إن حدث وأدنت، ليس هو مليتوس ولا أنيتوس، بل هو افتراء هذه الكثرة وقدحهم فيّ. وهي أمورٌ أدانت، وستدين فيما أعتقد، كثيرين من الآخرين من الرجال الفضلاء، فمن المتوقع ألا ينتهي الخطر عندي.". من قتل سقراط هم الأثينيون أنفسهم الذين أفنى سبعين عاماً محاولاً تعليمهم الحكمة "... وذلك ليس فقط بغير أجر، بل وكذلك دافعاً من جيبي في سرور لمن يرغب في الاستماع إلي" كما قال في محاورة *أوطيفرون*. هذا أكثر ما يفطر فؤاد المثقف: أن يُحارَبَ من قِبل من يفني حياته من أجل تنويرهم. وتماماً كما تنبأ سقراط، أدين بذاتِ الطريقة بعده عددٌ لا يحصى من الرجال الفضلاء والنساء الفاضلات حتى يومنا هذا. يبدو أن ما قاله في محاورة

"أوطيفرون" هو حقيقةٌ عبر تاريخية عبر ثقافية ولا تنطبق على الأثينيين وحدهم ولا على سقراط وحده: "... فالأثينيون في الحقيقة، على ما أعتقد أنا، لا يبالون كثيراً بأن يعتبر المرءُ نفسه ماهراً حكيماً وذلك مادام لا يقوم بتعليم حكمته. ولكن ما إن يعتقدوا أن أحداً يريد جعل الآخر على مِثاله، هنا هم يثورون...".

[276] دالي "بألم": بالفعل، هذه حقيقةٌ يترتب عليها ألمٌ لا أريد تخيله. أن تتكلف مخاطرة الخروج من الغرفة، وعناء صعود البرج، وبعدها تقضي حياتك محاولاً إنارة عقول الرعايا، بكل شفافية، لا دافع لك إلا واجبك الأخلاقي نحوهم الذي ألزمك به ضميرك، ثم تلاقي منهم صنوف الإذلال والعقاب. لا يمكن أن يوجد ألمٌ يفوق هذا الألم. لكن ألا يجب أن يرد المثقف عليهم؟ أليس من العدل أن يثور ضدهم؟ هم سيقتلونه. الأمر ليس مزاحاً!

[276.1] رجل الكهف: قال سقراط قبيل موته في محاورة "أقريطون": "... لا يجبُ... ردُ الظلم بالظلم ولا فعلُ السوء في حقِ أي شخصٍ من الناس مهما يكن ما نعانيه على أيديهم... إنه ليس من الصواب، على أي شكلٍ، لا ارتكابُ الظلم ولا ردُ الظلم بالظلم ولا، عندما نعاني الظلم، أن نثأر بالردِ بالشر...". ولا أجرؤ أنا على مخالفته في هذا.

(يلاحظ رجل الكهف أن عينا لوسيل الكبيرتان مغرورقتان بالدموع، فعرف أنه قد أثقل عليها بأفكاره، كما أدرك أنه كان منفعلاً جداً. فتنهد، ونظف غليونه، ثم ملأه بالتبغ وأشعله)

[277] رجل الكهف "بهدوء": هل كل ما تحدثنا به منذ الصباح حتى الآن كافٍ ليجيب على سؤاليك: "لِمَ المثقفون مختلفون هكذا؟" و "كيف نجد الناس مقتنعين تمام الاقتناع بأمور متناقضة وكلٌ منهم يدعي أنه استعمل عقله ووصل إلى تلك القناعات؟" يا لوسيل؟

لوسيل "بألم": أجل، لقد أجبت على سؤاليّ، وليتك لم تفعل.

[278] رجل الكهف: وأنت يا داني، قلت ونحن نشرب قهوة الصباح: "دائماً ما أسأل نفسي- كيف يمكن للبشر أن يكونوا بهذا الاختلاف في مداركهم وجميعهم، إذا استثنينا ذوي الأمراض الدماغية، لديهم أدمغةٌ يُفترض أنها تعمل بنفس الكفاءة كما تهضم أمعائهم بنفس الكفاءة على وجه التقريب. أو لنقل، إني أتفهم وجود اختلافات طفيفة في المحاكمات العقلية للبشر ناتج عن اختلافات تركيباتهم الجينية، لكن ليس أن تكون اختلافات صارخة في طرق تفكيرهم. لا نجد هذه الاختلافات الصارخة في طرق عمل أيديهم وأرجلهم وأمعائهم كما نجدها في أدمغتهم. هل لديك أي تفسير لهذا؟" والآن، هل وجدت لدي تفسيرا؟

داني: بالطبع.

رجل الكهف: عظيمٌ جداً، طابت ليلتكما.

****

البابُ الخامس
في المركزيةِ العرقية

(يفتح داني عينيه وينظر حوله ليجد نفسه وحيداً داخل الكهف. وإذ بصوت جون لينون يتناهى إلى مسامعه وهو يغني Imagine. فتبسم قائلاً لنفسه: "ما هذا الرجل! إنه لا يكل ولا يمل، وكأنه يحمل هموم البشرية كلها على كتفيه!" ثم غسل وجهه وحمل جهاز تسجيله وخرج من الكهف ليجد لوسيل ورجل الكهف جالسين يشربان القهوة ويغنيان الأغنية)

[279] **داني** "مبتسما": لن تكون نهايتك أفضل من نهايته.

رجل الكهف "بلا مبالاة": ومن يكترث!

[280] **داني** "ضاحكا": عليك أنت أن تكترث إن كنت لا تريدني أن أنعتك بالجنون.

رجل الكهف "مقدماً فنجان القهوة": "... على هذا سأرد بكلمة الحق التالية: أنت لم تُصب، أيها الصاحب، إن كنت تعتقد أنه وجبَ على رجلٍ ذي قيمة مهما ضئلت أن يحسب حساب إمكان أن يحيى أو أن يموت. إنما عليه أن يعتبر شيئاً واحداً في سلوكه: وهو إن كان يسلك سلوكاً عادلاً أم ظالماً، وإن كان عمله عملَ رجلٍ فاضلٍ أم شرير...". هكذا كان سقراط ليجيبك كما قال في محاورة "الدفاع".

داني "ممتعضا": ها قد بدأنا!

[281] **رجل الكهف:** نحن لم ننته حتى نبدأ. في الواقع، نحن لا ننته أبدا. لكن يبدو أن النبيذ قد أوقف عقلك تماماً وتحتاج وقتاً كي تجعله يعمل بكفاءة وكأنه محرك ديزل قديم.

داني "مبتسما": بل إن الحوار معك هو ما أوقظ عقلي طوال الليل.

رجل الكهف: لماذا؟ هل كنت تتذكر توم وجيري، أم كنت مسافراً إلى المستقبل تائهاً في الفضاء؟

داني "ضاحكا": أتوسل إليك دعني أستيقظ أولاً، ألا يوجد فترة استراحة؟ أعترفُ أن دماغي محرك ديزل قديم.

[282] **رجل الكهف:** ألم تقرأ الرسالة التي أرسلها تشارلز داروين من البرازيل إلى أخته سوزان عام 1836؟

داني "ساخرا": لقد أرسلها إلى سوزان وليس إليّ. على أي حال، ماذا قال فيها؟ هل سيعود قريبا؟

[283] **رجل الكهف** "مُربتاً على كتف داني": "... الشخص الذي يجرؤ على إضاعة ساعةٍ واحدةٍ من الوقت لم يكتشف قيمة الحياة..." إنها نصف طرفة عين يا صاح، أي استراحةٍ تريد في غضون نصف طرفة عين؟ عندما تموت سترتاح إلى الأبد.

[284] **دالي** "متنهداً بخجل": في الحقيقة، بعد خلودكما للنوم ليلة أمس بقيت مستيقظاً أراجع كل ما تحدثنا فيه طوال اليوم. لقد كان دماغي يعمل، دون أن أستطيع كبحه، على ربطِ كل ما أشرنا إليه بأمورٍ أعرفها وقد لاحظتها مسبقاً في حياتي وخلال أسفاري الكثيرة. كنت أتذكر كيف يقوم الناس من كل ثقافة بالنظر إلى الثقافات الأخرى؛ حيث يقومون بتقييم عادات وتقاليد وأخلاق الآخرين، بل وحتى أطعمتهم وأزيائهم، من خلال منظورهم الثقافي الخاص. مع أن حكمهم هذا عار تماماً عن أي موضوعية.

لوسيل "موافقة": وما أكثرهم!

[285] **دالي**: بل إن الأمر ليتجاوز ذلك. فإن الناس من كل ثقافة غالباً ما ينظرون إلى ثقافتهم، بكل ما تحتويه من ملابس تقليدية وأصناف للطعام وعادات وطقوس دينية، على أنها أفضل من كل أقرانها من الثقافات الأخرى، ويتباهون بإرثهم الثقافي هذا، مهما بدت سذاجته، ودائماً ما يرددون كم أنهم محظوظون بما تحتويه ثقافتهم. مع أن الواقع يقول إنها مجرد إحدى الثقافات في العالم لا تمتاز عن غيرها، بل ربما قد تكون في الواقع أسوأ من نظيراتها، بيد أنهم دائماً ما يصرون على أفضليتها. وهذا ما عصيَ عليّ تفسيره. كيف لهم، والحالة هذه، أن ينظروا إلى مجتمعاتٍ قد سبقتهم في سلم الحضارة، تمتاز عنهم بكل شيء، ومع هذا، لا يرون فيها إلا أشياء سلبية متجاهلين عمداً كل الإيجابيات، أو أن يقوموا بالاستخفاف بأهميتها، بينما يرون في مجتمعاتهم المتأخرة عن ركب الحضارة، الغارقة بالجهل والتخلف والفقر والفساد، كل ما هو جيد، متعامين عما هو واضح فيها من أمورٍ كارثية لا يمكن تقبلها، أو إنهم يقومون بالاستخفاف المتعمد بوزن هذه السلبيات وتأثيرها عليهم. أليس هذا غير منطقي؟ أليس من المنطقي أن يسارع أبناء كل ثقافة في نقل كل ما تمتاز به الثقافات الأخرى كي يُحسّنوا من واقعهم المُعاش، بدل هذا التمسك العنيد بما يملكون من نواحٍ ثقافية بالية أكل عليها الدهر وشرب؟ أليس هذا ما تفعله الشركات حول العالم؟ لم لا تقوم به الثقافات أيضاً؟

رجل الكهف: لقد أجبتك عن كل هذا، لكن يبدو أن طول الحوار قد جعلك تنسى بعضاً مما فيه.

دالي "بخجل": هذا متوقعٌ جداً، ولهذا أنا أسجل كل محاوراتنا كي أعود إليها مستقبلاً.

[286] **رجل الكهف** "بابتسامة": لا عليك يا صديقي. بدايةً، إن مقارنتك الثقافات بالشركات مقارنةٌ غير عادلة. فالشركاتُ هي مؤسساتٌ ماليةٌ يديرها أفرادٌ بهدف الربح فقط، والذي يحصلون عليه كفارقٍ بين الإيرادات الإجمالية والنفقات الإجمالية. وعليه، فهم دائماً ما يهدفون إلى رفع الأولى قدر الإمكان، وخفض الثانية قدر الإمكان. وفي بيئة تنافسية، فإن التعلم من الآخرين هو أمرٌ ضروري إن أردت لشركتك ألا تعلن الإفلاس عاجلاً أم آجلا. أما إن كنت تديرُ شركة احتكارية فلن يهمك هذا الأمر كثيراً، حيث لا يوجد منافسون لك، ولن تلجأ إلى الاستفادة من تجارب الآخرين إلا، في حدود الضرورة القصوى، عندما تدعو الحاجة إليها فقط. وإن الثقافات التي طُوّرت تاريخياً في رقع جغرافية منفصلة لهي أشبه بالشركات الاحتكارية لا التنافسية. ولهذا السبب، يسمى انتشار أفكار ثقافية غريبة عن مجتمع ما في هذا المجتمع ب "الغزو الثقافي". فما لم تكن هذه الأفكار قد اضطر ثالوث القمع

إلى تبنيها نقلاً عن تجربة شركةٍ احتكاريةٍ أخرى، لأنه وجد فيها ما يحفظ بقاءه أو يُدعم من سلطته، فإنه غالباً ما يكون سبب انتشار هذه الأفكار هو محاولة ثالوثٍ آخر مد أذرعه إلى رقعةٍ جغرافيةٍ تقع خارج نطاق نفوذه الأصلي. وعليه، سيحاول الثالوث، المعتدى على مملكته، محاربة هذا التمدد الذي يهدد بقاءه.

دالي "مقاطعاً بخجل": لم أنتبه لهذا.

[287] **رجل الكهف:** أما الخطأ الكارثي الذي وقعت به، في مقارنتك تلك، هو ظنك أن الرعايا، من كل غرفة، هم الذين يتوجب عليهم نقل الإيجابيات إلى ثقافتهم متناسياً أن الرعايا ما هم إلا البروليتاريا في تلك الشركة وليسوا مجلس إدارتها. مجلسُ إدارتها هو ثالوث القمع.

دالي "مفكرا": كلامك صحيحٌ تماما.

[288] **رجل الكهف:** على أي حال. عودةً إلى نقطتك الرئيسية. فإن توصيفك الذي بدأت به كلامك يمكن التعبير عنه بكلمةٍ واحدةٍ صكها ويليام سومنر عام 1906 في كتابه "أساليب شعبية": "**استعراقية** هي الاسم التقني لهذه النظرة للأشياء التي تكون فيها مجموعة الفرد هي المركز لكل شيء وكل الآخرين موزونون ومقيّمون بالإحالة لها...".

دالي "بتعجب": استعراقية! ما هذه الكلمة القبيحة! أياً تكن، فإن قبحها يوازي قبح ما تصفه.

[289] **رجل الكهف:** في الواقع، إن المصطلح الذي صكه هو "Ethnocentrism" والذي أُفضل أن أعبر عنه ب "مركزية عرقية". وما استعمالي لكلمة "استعراقية" -وهي إحدى المرادفات التي تُستعمل لهذا المصطلح- إلا لأني وعدتك أن أعبر عنه بكلمةٍ واحدة لا كلمتين.

دالي "ضاحكا": على أي حال، لم أسمع بهذا المصطلح من قبل، وأنا سعيدٌ بوجوده.

[290] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": هناك دائماً أول مرة.

دالي "مبتسما": صدقت.

[291] **رجل الكهف:** وسواء كنا نتحدث عن مركزيةٍ عرقية، أي عن قيام الأفراد بتقييم كل الثقافات الأخرى بناء على معاييرهم الثقافية الخاصة والتي يرونها صواباً مطلقاً، أم عن تحيز لدى الأفراد للنظر إلى إيجابيات ثقافاتهم متعامين عن سلبياتها، وقيامهم بعكس هذا مع الثقافاتِ الأخرى، دونما استعراقية، فإن كلا الحالتين مردهما إلى عاملين رئيسيين.

[292] **دالي** "متلهفا": ما هما؟

رجل الكهف: هل نسيت أن ثالوث القمع في كل غرفة يروّج بين الرعايا أن غرفتهم هي أفضل الغرف في العالم؟ وهل نسيت ما قاله بيرتراند راسل في كتابه "النظرة العلمية": "... إنه عند الغالبية الساحقة، تُدق أية قضية إذا كُررت على نحو يثبتها في الذاكرة. فمعظم ما نصدقه لأننا سمعناه مؤكداً،

ولسنا نذكر أين أكد بتصديقنا، وحتى لو كان التوكيد قد قام به مُنتفعٌ بتصديقنا، وحتى لو كان القولُ غير مؤيدٍ بأي دليل..."؟ ناهيك عن المعلومات المغلوطة التي يروجها كل ثالوثٍ عن الغرف الأخرى، والتي بدورها عندما يتناقلها الناس ستصبح حقائق في أذهانهم أيضا. كيف سيتمكن كل ثالوث من ضمان استقرار الرعايا حسبما برمجهم عليه لدرجة أن يكونوا مستعدين للتضحية بحيواتهم في سبيله، إن لم يكونوا مقتنعين، دون أدنى ريب، أن غرفتهم هي أجمل الغرف وأكملها وأكثرها مثالية؟ لن يتركهم مطلقاً دون تأكده من أنهم قد اقتنعوا بهذا تمام الاقتناع. وإلا، فهو يضحي بوجوده إن هو تهاون في هذا الأمر. إنه ليس أمراً ثانوياً، بل مسألة بقاءٍ أو فناءٍ بالنسبة له.

داني "بخجل": صحيح، لقد نسيتُ هذا.

[293] **رجل الكهف:** وإن نتيجة هذه البرمجة تكون كما وصفها مارك توين في كتابه "ما الإنسان" أن: "... الأمم لا تفكر وإنما تشعر فقط. ومن جهة ثانية، تأتيهم مشاعرهم من خلال أمزجتهم، لا عقولهم. كل أمةٍ يمكن أن تُجلب -بواسطة الظروف، لا المجادلات- على موائمة نفسها لأي نوع من الحكومات أو الأديان التي يمكن ابتكارها. مع الوقت، إنها ستلائم نفسها مع الظروف المطلوبة. لاحقاً، ستفضلهم وستقاتل بشراسة من أجلهم. ولمثل هذه الحالاتِ لديك التاريخ كله: اليونان، والرومان، والفرس، والمصريون، والروس، والألمان، والفرنسيون، والإنكليز، والإسبان، والأمريكيون، والأمريكيون الجنوبيون، واليابانيون، والصينيون، والهندوس، والأتراك. ألفٌ من الأديان الهمجية والوديعة، كل نوع حكومةٍ يُمكن أن تخطر على بال، من نَمِرٍ إلى قِطةٍ منزلية. كل أمةٍ تعرف أنها تملك الدين الوحيد الصحيح ونظام الحكومة العقلاني الوحيد. كلٌ منهم يحتقر كل الآخرين. كلٌ منهم هو حمارٌ ولكنه لا يشعر بهذا. كلٌ منهم فخورٌ بتفوقه الخيالي. كلٌ منهم يعتقد جازماً أنه الطفل المدلل للرب. كلٌ منهم، بدون أدنى شك، واثقٌ وهو يدعوه كي يدعمه في وقت الحرب. كلٌ منهم يُدهش عندما يذهب دعم الرب إلى الأعداء، لكنه، بحكم العادة، قادرٌ على تبرير هذا واستئناف الثناء عليه. باختصار، كل الجنس البشري راضٍ، راضٍ دائماً، راضٍ باستمرار، لا يمكن لشيء أن يخرّب رضاه. سعيدٌ وممتنٌ وفخورٌ بغض النظر عن دينه، وسواء كان سيده نمراً أم قطة منزلية...".

لوسيل "بحزن": فعلاً، إن كلامه صحيحٌ تماماً، إنه يصف الواقع.

[294] **رجل الكهف:** ما من تعبير يصف بدقةٍ حال الناس كتوصيف بينيامين فرانكلين عندما قال: "كل طائفة تفترض أنها تمتلك كل الحقيقة، وكل الآخرين الذين يختلفون عنها مغرقون في الخطأ. كرجلٍ يسافر في طقس ضبابي، يرى أولئك الذين أمامه على مسافةٍ ما من الطريق ملتفين بالضباب، وأيضاً الناس في الحقول على جانبي الطريق، لكن كل من هو قريبٌ منه يظهرُ له بوضوح مع أنه في الحقيقة غارق في الضباب تماماً كحال أي أحدٍ منهم".

لوسيل "بألم": إنه توصيفٌ دقيق.

[295] **رجل الكهف:** وبما أن الإيمان كما عرفه أمبروز بيرس في "قاموس الشيطان" هو: "... اعتقادٌ من

دون دليل فيما قد قيل من قِبل شخص يتحدث بدون معرفة عن أشياء لا نظير لها". أي، غير موجودة، أو لا مُناظر لها حقيقي على أرض الواقع. فإنه، بكلمات كارل سيغان، "لا يمكنك إقناع مؤمن بأي شيء، لأن إيمانه غير مبني على دليل...". وهذا يجعلُ الأمر كما وصفه توماس باين: "إن النقاش مع شخص تخلى عن استعمال سلطة العقلانية، وفلسفتهُ تتضمن النظر إلى الإنسانية باحتقار، هو أشبه بإعطاء دواء لميّت، أو محاولة هدي ملحدٍ بواسطة الكتاب المقدس". وبرأي آرثر كلارك: "ليس هناك شيءٌ على الإطلاق، مهما كان سخيفاً، لم تكن أعدادٌ ضخمةٌ من الناس مجهزة لتؤمن به، وغالباً بحماسٍ شديدٍ، لدرجة أنهم سيفضلون القتال حتى الموت على تغيير أوهامهم. بالنسبة لي، هذا تعريفٌ عمليٌّ جيدٌ للجنون".

دالي "مقاطعا": هذا واقعٌ مؤلم.

[296] **رجل الكهف**: فلا عجب إذن أن ينتهي مارك توين، في آخر *ما الإنسان*، إلى نظرة تشاؤميةٍ من محاولة إصلاح الأمم قائلاً: "... آخذاً بعين الاعتبار ما يمكن لهم تحمله ومع ذلك يبقون سعداء؛ فأنت تُجلّني زيادة عن اللزوم عندما تعتقد أن بإمكاني أن أضع أمامهم نظاماً من الحقائق البسيطة الباردة التي تأخذ منهم بهجتهم. لا شيء يمكنه فعل هذا. كل شيء قد تم تجريبه دونما نجاح. أتوسلُ إليك ألا تُقلق نفسك.".

[297] **دالي** "متعجبا": ولماذا تقلق نفسك إذن؟ كل الناس سعيدون ومتأقلمون مع واقعهم. وهم لا يفكرون. هم لم يفكروا عندما قبلوه، فكيف لهم أن يفكروا في تغييره؟

رجل الكهف "مشعلاً غليونه": ما رأيك أن أنتهي من الإجابة على سؤالك الأول وبعدها نبحث هذا الأمر؟

دالي "بابتسامة": صحيح. أكمل من فضلك.

[298] **رجل الكهف**: كان ذلك هو السبب الأول. أما عند النظر إلى السبب الثاني، فإننا نجد أن الطبيعة تساعد ثواليث القمع من جديد في مهماتهم. وكأن الطبيعة تأبى إلا أن تجهزنا كي نكون رعايا تحت إمرتهم.

[299] **دالي** "بدهشة": كيف هذا؟

رجل الكهف: لقد قلت لك إن إدراكنا للواقع محكومٌ بإدراك أدمغتنا له. بكلماتٍ أخرى، محكومٌ بما تريد لنا أدمغتنا أن نراه في هذا الواقع. وما من إنسان يستطيع أن يمضي في حياته دون أن يكون معتقداً أنها حياةٌ جيدةٌ تستحق أن تُعاش. إن ذلك الذي يجنح دماغه للنظر إلى واقعه بسوداوية، مركزاً على السلبياتِ فيه لا الإيجابيات، سيقع بسهولةٍ فريسةً للاكتئاب مهما كانت حياته جيدة إن نظرتَ إليها أنت كمراقبٍ خارجي.

[300] **لوسيل** "مقاطعة بحماس": صحيح، فما قصص اكتئاب وانتحار المشاهير بقليلة، مع أن حياة الواحد

منهم يحسده عليها الغالبية الساحقة من الناس، وهذا دائماً يثير استغرابي.

رجل الكهف: لأن دماغ هذا المسكين، لسبب أو لآخر، لم يركز إلا على السلبيات في واقعه. سيكون خلاقاً في ابتكار السلبيات، غير مبصر لأي إيجابيات، ولو كان يملك كنوز الأرض كلها. فليست الوقائع هي ما يحكم نظراتنا إلى الحياة، بل ما تريد أدمغتنا أن نرى ونفهم منها. فكما أنه في النظام الرأسمالي تجدين أن التكلفة الفعلية للمنتج أو للخدمة لا يكون لها وزن هام في تحديد سعره قدر وزن وأهمية عوامل أخرى، فكذلك الواقع الخارجي، بالنسبة للدماغ، لا أهمية حقيقة له مقارنة بأهمية عوامل أخرى. ألم أشرح لكما هذا من قبل؟ وعليه، فإن شخصاً كهذا قد يؤدي به اكتئابه المزمن إلى الانتحار، كما أشرتِ، أو على الأقل اعتزال الناس ما أمكنه.

لوسيل: صحيح. لقد تحدثنا عن هذا مسبقا.

[301] **رجل الكهف:** وعلى النقيض تماماً لهذا، سيكون الآخر الذي قد قام دماغه بالتعامي عن كل السلبيات في حياته، مهما بلغ بؤسها، والتركيز على الإيجابيات فيها، أو اختراع إيجابيات وهمية يُرضي بها دماغه الجذِل. أمثال هذا هم الذين تصخب بهم الحياة في المجتمعات. يخلقون أوهاماً تجعلهم محبين للحياة، ويتعامون بالكامل عن كل ما من شأنه أن يُنغصها عليهم. وهذا ما يفضله الانتقاء الطبيعي في البشر. ولأتوخى الدقة، إن هذه الحالة المتطرفة نادرةٌ جداً، بيد أن الانتقاء الطبيعي يفضل كل ما اقترب منها أو لامسها.

[302] **دالي** "بحماس": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الحياة عبر كل تاريخها لم تكن تلك الحياة السعيدة الهانئة، بل دائماً ما كانت حياةً تعسةً صعبة. ولولا هذه الميزة، لانقرض الجنس البشري منذ أن تفتق الوعي لديه. هل نسيتَ جدنا؟

[303] **دالي** "ضاحكا": كلا أرجوك، هل عدنا إليه!

رجل الكهف: نحن لم نتركه حتى نعود إليه؛ لقد سمحنا له بالنوم فحسب. هل لك أن تتخيل حياة هذا البائس الذي كلما اهتز عشبٌ أمامه سيفترض أن هناك نمراً يستعد لافتراسه. هل تستطيع تحمل الحياةِ ليوم واحدٍ على هذه الشاكلة؟ أليس هو أجدر بالاكتئاب والانتحار من ذلك المراهق الذي لم يشتري له والده هاتفاً جديداً، أو من ذاك العاشق الذي هجرته محبوبته، أو من ذاك التاجر الذي خسر صفقة تجارية؟

دالي: لا مجال للمقارنة.

[304] **رجل الكهف:** وبالتالي، فإن هذه الميزة، الغير منطقية، جوهريةٌ لبقائنا كأفراد في هذه الحياة الصعبة. وعليه، فقد سيطرت سلالات الأفراد الذين جنحت أدمغتهم للتأقلم مع واقعهم، مهما بلغ بؤسه، بل وعلى التمسك بحيواتهم مهما بلغ شقاؤها، لأنهم هم الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة والتكاثر، لا أمثالُ ذاك المسكين المتشائم المكتئب. وبين هذا وذاك درجاتٌ لا حصر لها.

دالي "مفكرا": أعتقد أن تحليلك منطقي.

[305] **رجل الكهف**: ولذا، فإن دماغك قادرٌ على جعلك تتأقلم على العيش في أصعب الظروف وأشدها قسوة. وذلك بتعاميك عن كل ما قد ينغص حياتك، والتركيز على أشياء تدفعك للتعلق بها. والآن، أنتقل إلى النقطة التالية وهي أن أدمغة البشر تجنح إلى الرتابة، ترتاح لما هو مألوف، فالجديدُ دائماً ما كان مصدر قلق للدماغ. وعليه، تجنح أدمغة الناس عادة للتأقلم مع واقعها، بحكم العادة، ثم ما تلبث أن تأبى تغييره وإن كان هذا التغيير نحو الأفضل. فالتغيير دائماً ما يتضمن تحديات جديدة الدماغُ بغنى عنها، فيحثُ الناسَ على رفض هذا الجديد المبهم، والركون إلى البالي المألوف بسعادةٍ وحبور. وكلما تقدم الإنسان بالعمر، أي كلما اعتاد دماغه على نمطٍ ثقافي معين لفترة أطول، كلما زادت صعوبة تقبله لأي تغيير مهما كان طفيفاً، ولو كان صنفاً من الطعام أو أي شيء تافه من هذا القبيل، فما بالك بالأمور الأكثر أهمية!

دالي "مفكرا": هذا يفسرُ الكثير.

[306] **رجل الكهف**: ولمزيج مما سبق، يجنح الناس عادةً إلى التركيز على إيجابياتِ ثقافاتهم، والتركيز على سلبياتِ غيرها. فمن يريدُ أن يفتح عينيه ليقول: إن واقعي يحتاج إلى تغيير ؟ هذه جملةٌ يترتبُ عليها عملٌ عظيم، وأدمغتنا تجنح للكسل والتراخي.

لوسيل "مفكرة": لهذا إذن يقاوم الناس التغيير، بل لا يفكرون فيه.

[307] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": ليس من الغريب إطلاقاً أن تجدي شخصاً قد اضطر لتغيير شيءٍ ما في حياته، كتغيير مسكنه أو عمله، أو اضطر للعيش في ثقافة مختلفة، يتحرق شوقاً إلى ماضيه الغائب، ويتفتق قلبه حنيناً إلى ما اعتاد عليه في السابق، حتى وإن كان واقعه الجديد الذي يعيش فيه، من وجهة نظر موضوعية، أفضلُ بما لا يدع مجالاً للمقارنة مع ما يحن إليه هذا التعس. بل قد تكون هذه المقارنة ضرباً من الجنون إذا قمنا بها بتفكيرٍ منطقي. لكن دماغ هذا المسكين لا يهتمُ للموضوعية ولا للمنطقية، فتربنه كدراً غير قادرٍ على تبصر- إيجابيات واقعه الحالي، وغير قادرٍ على التنعم بما بين يديه، يمضي أيامه في ألم الحنين إلى ماضيه البائس. قد يبدو هذا لكِ بنظرة سطحيةٍ أمراً لا يمكن تبريره، وقد تقولين إن هذا الإنسان مختلٌ عقلياً أو أبله. إلا أنه ليس كذلك. هو فقط أسير ما ألفه دماغه سابقاً، والذي يفتقده حاليا.

[308] **لوسيل** "بحماس": هذا يفسر إذن تشكيل المهاجرين عادةً لمجموعاتٍ ثقافية داخل البلدان المضيفة، ينقلون إليها ما أمكنهم من إراثهم الثقافية، مقاومين الاندماج في هذه الثقافات الغريبة، وقد يبقون على هذا الحال أجيالاً عديدة.

[309] **دالي** "مقاطعا": لكن بالمقابل، هناك كثيرون ممن يغيرون طباعهم وعاداتهم ويحاولون تقليد الثقافات الأخرى، بل ويبالغون في هذا التقليد، ويتمردون على كل ما تحتويه ثقافاتهم ويستهزئون به.

[310] **رجل الكهف:** قلت لك إن بين الناقم على ثقافته بالكامل وبين من يهيم بعشقها درجات لا حصر لها. هل تريد لكل البشر أن يكونوا صنفاً واحداً أو صنفين؟ ألا تذكر أني قلت إن البشر تُشكلهم حيواتهم المختلفة بكل ما مروا بها من خبرات وتجارب، وأنه لا يتشارك اثنان في تفاصيل حياتيهما؛ وبالتالي، فكلٌ منهما ستُشكِلُ دماغه ظروفٌ مختلفة تجعله أسيراً لها؟

داني "بخجل": صحيح.

[311] **رجل الكهف:** وعليه، فإذا حفز سببٌ ما شخصاً ما على النقمة على ثقافته، أو حفزه سببٌ ما على عشق ثقافةٍ أخرى بعينها، فإنه قد ينساق وراء هذا. وبشكلٍ عام، إن احتمالية استجابة الشخص لهذا المؤثر تبلغ أوجها في مرحلة المراهقة ثم تتراجع بوتيرة ثابتة. وليس من الضروري أن يكون هذا التغيير نقلة كاملة في الثقافة، بل قد يكون محصوراً في جزئية معينة منها أو تفاصيل بعينها، نتيجة مؤثرٍ ما سبّب له عقدة نفسية معينة أو كبتٍ تعرض له في الطفولة. وهنا، تزداد احتمالية أن يستجيب هذا الشخص للمؤثر ذي الصلة استجابة إيجابية. وستجد، والحالة هذه، أن الشخص سيعمد إلى المبالغة في القيام بما قد كُبِتَ عنه أو المبالغة في النهج منهجاً يثبت لنفسه فيه أنه على عكس العقدة التي قد تشكلت في ذهنه. في الواقع، إنه من السهل جداً على العين الخبيرة أن تقرر فيما إذا كان تصرفٌ ما من تصرفات أي شخصٍ ناتجٌ عن عادةٍ أم عن ردةِ فعل.

[312] **داني** "بدهشة": هل تريد أن تقول إن كل تفضيلاتنا وتصرفاتنا محصورة بين عادةٍ وردةِ فعل؟ ألا يوجد مَن يغير مِن عادة ثقافية، أو يخالف بعض النواحي في ثقافته، فقط لأنه قد اقتنع أن هذا هو عين الصواب؟

رجل الكهف: بلى طبعاً، لكن من الواضح أنك لم تستيقظ بعد! كفاك تعميماً فيما لا يعمم فيه إلا جاهل. لا تطالبني بتعميماتٍ لا يمكنني القيام بها. لستُ ساذجاً لأضع التعميمات هنا. أنا أجيبك على الحالات التي تشير أنت إليها فحسب. عندما نتحدث عن أمور كهذه فهناك عددٌ لا نهائي من مزيج الاحتمالات الرياضية. علينا دراسة كل حالة بعينها لفهم سبب سلوكها هذا المسلك أو ذاك. وأحيطك علماً أنه ما من سلوكٍ يقوم به إنسانٌ على وجه الأرض غير مبرر؛ أي، لا يمكنك تقصي الدافع وراءه والسبب الكامن الذي حفز عليه، لو أتيحت لك المعلومات الكافية عن هذا الشخص، كما والوقت اللازم للتحليل. لكن بما أننا اتفقنا بالأمس على أن الأفكار لا تهبط على الناس من السماء؛ فبالتالي، عندما يقوم شخصٌ ما، لسببٍ أو لآخر، بكسر قاعدةٍ ثقافية، أو ربما هجر ثقافةٍ بأكملها، فإن هذا يكون نتيجة حافز ما قد دفعه إلى ذلك. صحيحٌ أن هذا الحافز قد يكون مؤثراً خارجياً صادفه في مسيرة حياته، إلا أن هذا المؤثر عينه لن يؤثر بذلك الذي لا يملك عقدة أو كبتاً ذا صلة قدر تأثيره بمن يملك أحدهما. هل نسيت نظام الترشيح في الدماغ؟ الأول لا توجد عنده مشكلة أساساً؛ فعلى الأغلب، سيدع ذلك المؤثر يمر مرور الكرام ولن يلقي له بالاً. ولكي تجعله يُشكل استجابة إيجابية لهذا المؤثر فعليك أن توجهه أولاً كي ينتبه له، ثم عليك القيام بعملٍ جادٍ كي تقنعه به، وبعدها فقط قد يستجيب

له، أو قد تجد أن جهدك قد ذهب هباء. لا يوجد لديه حافز للاستجابة لمؤثر من شأنه أن يغير عادة ما لديه. هذا التغيير سيقلق دماغه. أما الثاني، فعلى العكس، سيكون يقظاً منتظراً هذا المؤثر، أو ربما كان يبحث هو عنه في الأصل، وإن كان غير واعٍ للسبب الذي أصبح دفيناً في لاوعيه كما أوضحت لكما بالأمس.

داني "بابتسامة خجولة": لقد توسلت إليك أن تتيح لي المجال كي أستيقظ قبل أن نبدأ حوارنا، لكنك أبيت.

[313] **رجل الكهف**: لا أعتقد أن عدم استيقاظك هو المشكلة لأنك كنت تفكر في هذا الليلة الماضية! على أي حال، بشكلٍ عام، يلجأ الناس إلى الالتزام بإطار ثقافي محدد تمت برمجتهم عليه منذ الطفولة. وهكذا، فإنهم سيختلفون في طباعهم وتصرفاتهم ونظراتهم للأمور، حسب اختلاف تجاربهم في الحياة، لكنهم يبقون عادة ضمن ذلك الإطار العام؛ ولذا، يمكنك أن تجمعهم في ثقافة واحدة، فاختلافاتهم هذه غير جذرية ثقافيا. وإن تعرض أحدٌ ما أثناء برمجته في فترة الطفولة إلى تشديدٍ عالٍ على جانب، أو عدة جوانب، من هذا البرنامج الثقافي العام، فإنه عندما يكبر قد يميل إلى أن يكون متشدداً فيه أكثر من اللازم. أو إنه سيميل، غالباً مع وجود محفز ما، للانقلاب على هذا الأمر بعينه، والقيام بعكسه، كردة فعل، وكأنه بهذا يعاقبُ من جعل هذا الأمر عقدة لديه. إنه كالقنبلة اليدوية التي سُحِبَ مسمار أمانها، جاهزٌ للانفجار حالما تتاح له اللحظة المناسبة للقيام بكل ما مُنع عنه سابقا. ولذا، فإنك ستجده عادة يبالغ في القيام بما مُنع عنه، عندما لا يستطيع أحدٌ منعه، مقارنة بمن يفعل الأمر ذاته بحكم العادة.

داني "بانتباه": فهمتُ عليك.

[314] **رجل الكهف**: والآن، هل حللتُ لك المعضلة التي جعلتك مستيقظاً الليلة الماضية؟

داني "بابتسامة": أعتقد هذا.

رجل الكهف: إذن، قم واستحم ودعنا نأكل شيئاً ما قبل أن نناقش أي موضوع آخر كي تستيقظ تماما.

داني "ضاحكا": وهو كذلك.

****

البابُ السادس
في ماهيةِ الثقافة

(يمشي ثلاثتهم قاصدين الشاطئ بعد أن استحموا وتناولوا فطورهم)

[315] **لوسيل:** كنتما تتكلمان عن الثقافة منذ أن استيقظ دالي، فهل لنا أن نحدد ماهية الثقافة؟

رجل الكهف: يجيبك على هذا روبرت بيرسدت في كتابه "النظام الاجتماعي" بقوله: "إنه ليس من السهل القول على وجه التحديد ماهي الثقافة..." فغالباً يقوم كل باحثٍ بتعريفها من زاوية ما بما يتوافق ونوعِ بحثه كما وغرضه من استعمالها فيه. وهذا ما فعله روبرت بيرسدت نفسه في موضع لاحق من الكتاب المذكور: "... على أي حال، كي نتجنب قدر الإمكان الصعوبات التي تعلق بالمصطلحات الفنية، وكي نحتفظ بمزايا البساطة والشمولية، سنقوم بتعريف الكلمة على النحو التالي: الثقافة هي ذلك المركب الكامل الذي يحتوي على كل طرائق تفكيرنا وأفعالنا وكل شيء نحصل عليه كأفراد في مجتمع ما...". وفي الحقيقة، لا أجد ما يمنعني من موافقته على هذا التعريف إلا أن تُفهم العبارة الأخيرة على نحو مادي لا ثقافي.

لوسيل "وهي تتعثر": فهمتُ قصدك.

[316] **رجل الكهف:** ومع ذلك، فكما أنه لا يمكن تجاوز تشارلز داروين عند الحديث عن البيولوجيا، فإنه لا يمكن تجاوز ادوارد تايلور، المتأثر بتشارلز داروين لسخرية المقارنة، عند الحديث عن الأنثروبولوجيا. والذي يقول في كتابه "الثقافة البدائية": "الثقافة أو الحضارة، مأخوذة بمعناها الأنثروبولوجي الواسع، هي ذلك المركب الكامل الذي يحتوي المعارف، والعقائد، والفنون، والأخلاق، والأعراف، وأي مقدرات أو عادات أخرى يتم اكتسابها بواسطة الفرد لكونه جزءاً من مجتمع ما...". هذا التعريف يعتبر التعريف الكلاسيكي الأشمل لمفهوم الثقافة، ولن تجدي أي تعريفات شمولية لاحقة تخرج كثيراً عن إطاره. إن الثقافة، كما أعنيها يا لوسيل، تشمل كل ما يتناقله الأفراد لا جينياً باستثناء الأموال والممتلكات. وبتعبير أكثر اختصاراً وتحديداً: هي مجمع كل الميمات المنتشرة والتي تنتقل من فرد إلى آخر.

[317] **دالي** "بتعجب": الميمات! ماهي الميمات؟ في الصباح استعراقية والآن ميمات! ما هذه الكلمات الغريبة التي تأتينا بها؟

رجل الكهف: الميمات هي مصطلح صكه ريتشارد دوكنز ونشره لأول مرة في كتابه "الجين الأناني" عام 1976 ليعني به: "...اسم يجسد فكرة الوحدة القائمة على الانتقال الثقافي، أو الوحدة القائمة على التقليد...". وعرّفه بقوله: "...كيان قادرٌ على الانتقال من دماغ إلى آخر...". فكما أن الحياة قائمة على جينات تنتقل عبر الأفراد من جيلٍ إلى آخر بواسطة التكاثر البيولوجي، فكذلك الثقافة قائمة على ميمات تنتقل عبر الأفراد في الجيل نفسه، كما ومن جيلٍ إلى آخر. فكل فكرة هي ميم، وكل معلومة هي

ميم، وكل لحن موسيقي هو ميم، وكل طريقة عمل شيء ما هي ميم. كل ما ابتدعته الأدمغة البشرية هي ميمات. باختصار، كل ما تكتسبه كفرد منذ لحظة ولادتك هي ميمات.

[318] **لوسيل** "مفكرة": هل المقطوعة الموسيقية هي ميم، أم كل علامة موسيقية داخلها هي ميم؟ وهل كل نظرية علمية أو فكرة فلسفية أو منظومة دينية هي ميم، أم إنها تجمّعٌ لميماتٍ أصغر؟

رجل الكهف: في الواقع، تصدى صاكك المصطلح نفسه للإجابة على هذا السؤال وإن إختلفت الآراء حوله. بيدَ أني أميل إلى تأييده عندما قال: "...إن كانت جملة موسيقية واحدة من سمفونية بيتهوفن التاسعة مميزة وخالدة في الأذهان على نحو كاف يسمح بتجريدها من سياق السمفونية كلها... يمكن القول عندئذ إن هذه الجملة الموسيقية تشكل ميماً...". وأضاف: "إن ميم نظرية دارون هو القاعدة الأساسية للفكرة المشتركة بين مختلف الأدمغة التي تفهم النظرية... وإن كان بالإمكان تقسيم نظرية دارون إلى مكونين فرعيين، بحيث يؤمن بعض الأشخاص بالمكون A ولا يؤمن بالمكون B، فيما يؤمن بعضهم الآخر بالمكون B ولا يؤمن بالمكون A، لابد عندئذ من النظر إلى المكونين A و B باعتبارهما ميمين مستقلين. أما إن كان تقريباً كل من يؤمن بالمكون A يؤمن أيضاً بالمكون B، أي إذا كان الميمان مرتبطان على نحو وثيق...، فيصبح من الملائم أن نجمعهما في ميم واحد.".

[319] **دالي**: إذن، المهم أن يكون للميم معنى مميز؛ فإن كانت علامة موسيقية واحدة أو حرف واحد أو كلمة واحدة تحمل معنى مميز إذا تم تناقلها بمفردها فهي ميم. وإذا كانت جملة كاملة قد تفقد معناها الخاص إن حُذفت منها كلمة فتصبح بكاملها ميماً. وإن طريقة صنع شيء ما هي بكاملها ميم. وكل فكرة مميزة بذاتها هي ميم، وكذلك كل معلومة، وهلم جرا.

[320] **رجل الكهف**: صحيح، فكل التفاصيل في حيواتنا هي ميمات. بدءاً من الميم الذي يحدد لك طريقة التحية المناسبة وذلك الذي يحدد لك طريقة جلوسك الملائمة لكل مقام والآخر الذي يحدد لك طريقة الأكل المناسبة، إلى ذلك الميم الذي يحدد لك ما هو الإله والآخر الذي يحدد لك ما هو الوطن، وهكذا دواليك.

لوسيل "مبتسمة": شكراً على التوضيح.

[321] **رجل الكهف**: هذا وإن مجموع الميمات الموجودة في دماغ فرد ما تشكل ثقافته تماماً كما أن مجموع الجينات في حمضه النووي تشكل جسده.

[322] **دالي** "مفكرا": إذاً، الثقافة كلمة واسعة جداً، فهي تشمل كل شيء غير مادي!

[323] **رجل الكهف**: بالضبط. فأنت تشمل بهذه الكلمة جميع الأفكار، والأسماء، والمعلومات، واللغات، والأديان، والعادات، والتقاليد، والأعراف، والايديولوجيات، والحكم، والشعارات، وأساليب المعيشة، والرياضات المختلفة، والفنون المختلفة، وآداب المائدة، وطرق طهي الطعام، وطرق صناعة الأشياء، وأنماط البناء، وفنون العمارة، وفنون القتال، والنظريات السياسة، والنظريات الاقتصادية،

والعلوم، والفلسفات، والموضات، والأزياء، وما إلى هنالك من أمور يتناقلها البشر فكرياً، أو يقومون باكتشافها أو ابتكارها أو تعلمها.

[324] **لوسيل:** إذاً، هي باختصار، جميع النتاج الفكري للجنس البشري؛ كل الأفكار والمعارف.

[325] **رجل الكهف:** صحيح. وعليه، تكون ثقافة الفرد الواحد مُقدرة بمقدار ما يحوزه من هذه المعارف. وثقافة مجموعةٍ ما هي ما يتناقلون من أفكار ومعارف مختلفة، وتسمى ثقافة محلية. والثقافة بشكلها العام هي مجموع كل ما ذكر.

[326] **دالي:** وهل يمكن تقسيم المعارف الإنسانية ضمن مجموعاتٍ مستقلة، أم إنها لا بد أن تترك كمجموعة واحدة عشوائية المحتوى؟

رجل الكهف: في الواقع، لن تجد تصنيفاً متفقاً عليه للمعارف الإنسانية. فغالباً ما اعتاد الباحثون تقسيمها حسب ما يخدم أغراض بحثهم لأن هذه المعارف متداخلةٌ ببعضها البعض، سواء من حيث تطورها التاريخي أو تشاركها بالمهمات، فيندر أن تجد فرعاً منها مستقلاً بذاته لا يؤثر ولا يتأثر بغيره. أو إن هذا ما أراه. فمع وجود هيكليات محددة لكل فرع منها، كما يعرف أي طالب جامعي، لكن تصنيف هذه الفروع، أو قل التخصصات، في بوتقات جمعية هو أمرٌ متروكٌ لكل باحثٍ كي ينظمه حسب الطريقة التي ينظر بها إلى الأمر. ومع هذا، إن كنت مُهتماً، يمكننا النظر إلى الموضوع نظرة علوية متجردة، لا نظرة من زاوية معينة، ونرى ما يمكننا أن نصل إليه.

[327] **دالي** "متحمسا": يبدو هذا ممتعاً، فلنقم به.

رجل الكهف "متكئاً على شجرة ناظراً إلى الأفق": يا له من منظرٍ ساحر. من المؤكد أن هذه كانت أول جملة في تلك الحكاية.

[328] **لوسيل** "متعجبة": أتفق معك أن جمال الطبيعة يسلبُ الألباب؛ لكن عن أي حكاية تتحدث؟

رجل الكهف: إنها قصة الإنسان؛ رحلته بحثاً عن المعرفة.

[329] **دالي** "بحماس": اقصصها علينا.

رجل الكهف "شارد الذهن مركزاً نظره على الأفق": ليس الآن يا صديقي، ليس الآن. فهذه قصة طويلة متشعبة جدا. كما أنه لا يجوز لي تدنيس طهارة هذا المكان بقذارة الإنسان.

[330] **دالي:** إذن، أجبني على سؤالي. كيف يمكننا تقسيم المعارف الإنسانية؟

رجل الكهف "وهو يخرج غليونه من جيبه": إني مقتنع تماماً بأن نظرية المعرفة هي المحور الرئيسي الذي يتحكم بنظراتنا لكل شيء. هي الأساس الذي يجب أن ننطلق منه دائماً، ونتأكد من سلامته، قبل أن نبحث في أي أمر. وعليه، فإني أجد نفسي- مدفوعاً لتقسيم المعارف الإنسانية بنظرة ابستمولوجية. أي، تجميع المعارف ضمن مجموعاتٍ وفقاً لطريقة معرفتنا بها وتقييمنا لها.

دالي "بحماس": جميلٌ جدا.

[331] **رجل الكهف**: وبالتالي، فإني أرى اليوم المعارف الإنسانية مقسمةً إلى ثلاثةِ أقسام رئيسة. أولها من الجهة اليمنى هو ذلك القسم الذي يحتوي الأديان، والفنون بأنواعها، والعادات، والتقاليد، وما إلى هنالك من أمور نحكم عليها من وجهة نظر ذاتيةٍ لا موضوعية. حيث لا توجد قوانين موضوعية مجردة للحكم على ما تحتويه هذه المجموعة، بل إن القوانين التي تحكمها هي قوانين ذاتية. أي قوانين وضعها الأفراد حسب ما ارتأوا هم، لا لأي سببٍ آخر. ففيها نجد اختلافات صارخة بين تقييمات الناس لمحتوياتها، ولا يمكنهم العودة إلى مرجعيةٍ موضوعيةٍ للاحتكام، ويترك فيما تحتويه هذه المجموعة هوامش كبيرة للناس، وآراؤهم لها أهمية كبرى في قيمة محتوياتها.

[332] **لوسيل**: هذه هي المجموعة التي يتشاجر الناس على تقييمات محتوياتها إذن. ولا يمكن لهذا الشجار أن ينتهي لانتفاء وجود مرجعيةٍ موضوعيةٍ يمكن الاحتكام إليها.

[333] **رجل الكهف**: صدقتِ. أما في الجهة اليسرى فإننا نجد المجموعة التي تحتوي عكس ذلك. وهي مجموعة العلوم الطبيعية، بقسميها النظري والتطبيقي، مع كل ما تحتويه من فروع ومجالاتٍ مرجعيتها قوانين علمية مجردة وموضوعية. حيث تنتفي الذاتية في التقييم هنا، أو التحيز، أو حتى إبداء الآراء. فيجب أن يُحتكم دائماً إلى القوانين الطبيعية، التي تكون لها الكلمة الفصل، لا آراء الناس وما يرغبون أو يفضلون.

[334] **دالي**: إذاً، تحتوي هذه المجموعة على كل العلوم وتطبيقاتها، حيث لا مكان للآراء الفردية وللنزاع حول صحة الأمور حسب ما يرى كل فردٍ من منظوره، أو حسب ما يرغب أن تكون عليه القوانين والقواعد، بل الكل مضطرون للامتثال للقوانين الطبيعية الصارمة الحيادية التي هي المرشد والحاكم.

[335] **رجل الكهف**: أصبت. وبين هذا وذاك توجد مجموعة ضخمة جداً من المعارف قد خرجت من عباءة الأحكام والتفضيلات الذاتية، التي تخضع لها عناصر المجموعة اليمنى، لكنها في الوقت عينه لم تصل بعد إلى إتباع المنهج العلمي بالكامل، وأن تخضع للسلطة اللامحدودة لصرامة القوانين الطبيعية، بل لا يزال للعامل الشخصي تأثير فيها، وإن كان يتناقص تدريجياً مع الوقت بتناسب عكسي- مع زيادة صرامة القوانين التي تتطور فيها يوماً بعد يوم. يمكننا تسميتها بمجموعة العلوم الإنسانية والاجتماعية. هذا لأنها لا تحتوي علوماً طبيعية، بل تحتوي كل العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان والمجتمعات البشرية. على رأسها الفلسفة وعلم الاجتماع، ثم تأتي باقي العلوم الأخرى كالأنثروبولوجيا والديموغرافيا والتاريخ والسياسة والاقتصاد والأديان واللغات ونحوها، وما ينضوي تحت كلٍ من هذه العلوم من فروع هي أكثر من أن تحصى- وكما هو ملاحظ، فإن دراسة هذه العلوم تختلف كثيراً عن دراسة العلوم الطبيعية، التي يمكن فيها تحييد كل المؤثرات أثناء دراسة ظاهرة ما، وحيث لا تأثير لشخصِ الباحث في نتيجة بحثه، وحيث يمكن القيام بالتجربة وتكرارها ثم تعميمها، إلى ما هنالك من أساليب تصبغ البحث العلمي. وهذه أمورٌ لا تزال متعذرة على أعضاء هذه المجموعة؛ لذا، فإنها لم تصل بعدُ إلى تلك

الموضوعية المطلقة التي وصلت إليها العلوم الطبيعية.

[336] **لوسيل** "بتعجب": مهلاً، لقد قلت إن الأديان تنتمي إلى هذه المجموعة، ألم تكن في المجموعة الأولى قبل قليل؟

رجل الكهف: الدين، من حيث هو دين، بطقوسه وأساطيره ومعتقداته ينتمي للمجموعة الأولى، أما دراسة الأديان وفلسفاتها ومقارنة الأديان وما شابه هذا فهي تنتمي إلى المجموعة الوسطى كحال الفنون بأنواعها؛ فكل فن من الفنون ينتمي للمجموعة الأولى، أما دراستها فلا ينبغي أن تخضع لأهواء الدارسين، بل لها قواعد وقوانين؛ لذا، فهي في المجموعة الوسطى، وهكذا دواليك. كما أن الفلسفة، من حيث هي فلسفة، لا تنتمي إلى هذه المجموعة لكن دراستها تنتمي إليها.

[337] **دالي** "متعجبا": ولأي مجموعة تنتمي الفلسفة إذن؟

رجل الكهف: الفلسفةُ، من حيث هي فلسفة، موجودة كمظلة تظلل البوتقات الثلاث. مدارسها تتدرج على هذه المظلة. وأوضح لونين يصبغان هذه المظلة هما المثالية المسيطرة على القسم الأيمن منها، والمادية أو الواقعية المسيطرة على القسم الأيسر، بمدارسها المختلفة، إضافة إلى كل التوجهات الفلسفية والمدارس المتنوعة.

[338] **دالي** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الفلسفة تتدخل في كل المعارف الإنسانية، وفي كل فروع المعرفة، كما وفي المباحث الثلاث الرئيسة لها. باختصار، لا يمكن الهروب من الفلسفة. لا يمكن لإنسان أن يهرب من الفلسفة، ولا يمكن لفرع من المعارف الإنسانية أن يهرب منها.

[339] **لوسيل** "مفكرة": وماذا عن علم النفس؟ لم تشر إليه.

رجل الكهف: علم النفس، كما أراه اليوم، هو في اللحظة الحالية يضع قدماً في العلوم الإنسانية والأخرى في العلوم الطبيعية. وإني أراه متجهاً بسرعة، بالتزامن مع تطور علم الأعصاب والعلوم الأخرى ذات الصلة، ليصبح بعد بضعة عقود علماً حقيقياً بشكلٍ كامل.

لوسيل "بتعجب": لم أفهم عليك.

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": سأوضح لك الأمر.

[340] **دالي** "بفضول": تفضل.

رجل الكهف: في الماضي السحيق كانت كل معارف البشر ـ مادية صِرفة؛ كانت بسيطة جداً وهزيلة، لكنها كانت مادية بالكامل.

[341] **دالي** "متعجبا": لماذا؟

رجل الكهف: انظر اليوم إلى الناس البسطاء الفقراء، هل لديهم وقت ليتفكروا في أي شيء

فكري؟ هل يبدعون أفكاراً فلسفية ونظريات سياسية واقتصادية ونحوها؟ أم إن جُل اهتمامهم هو العمل بكدٍ كي يُحصّلوا لقمة عيشهم؟

داني: هؤلاء المساكين لن يهتموا إلا بتأمين قوتهم بالطبع.

[342] **رجل الكهف:** وهكذا كان الإنسان الأول؛ يكدح كل وقته في تأمين قوته والحفاظ على حياته. فلم تكن لديه الرفاهية اللازمة للتفكير بأي شيء، أو ابتداع أي شيء، لا يخدم الحفاظ على بقاءه بشكل مباشر. لكن مع بدء الاستقرار النسبي، وبالتدريج، بدأت الأفكار المجردة والميتافيزيقية بالظهور، لتتطور تدريجياً ببطءٍ شديد لتصل عظمة سيطرتها في أيام أفلاطون ساحبة البساط بالكامل من تحت أقدام المادة، لتصبح الأخيرة ماهي إلا تجليات لعالم مثالي ميتافيزيقي. لكن في البداية، فإن كل معارف الناس، على بساطتها، كانت محصورة بأمور مادية، وكانوا يستمدونها بواسطة ما نطلق عليه اليوم بالمصطلح المعاصر "المنهج العلمي التجريبي".

[343] **لوسيل** "بدهشة": كان لدى الإنسان البدائي علوم تجريبية! كيف هذا؟ العلوم معقدة جداً!

رجل الكهف: يشرح هذا بيرتراند راسل في كتابه *النظرة العلمية* بقوله: "لئن بدت الطريقة العلمية معقدة في شكلها النهائي المهذب، فهي في جوهرها غايةٌ في البساطة. فهي تتلخص بملاحظة تلك الحقائق التي تُمكن من يلاحظها من اكتشاف قوانين عامة تسري على حقائق من نفس النوع. فالمرحلتان، وهما الملاحظة أولاً، واستنتاج قانونٍ ثانياً، كلتاهما ضروريتان، وكلتاهما قابلتان للتهذيب إلى غير حدٍ تقريباً. ولكننا نجدُ أن أولَ رجلٍ قال (النارُ تحرق) إنما كان يستخدم الطريقة العلمية في جوهرها إن كان قد سمح لنفسه بأن يُحرق عدة مرات. فهذا الرجل قد مر فعلاً بمرحلتي الملاحظة والتعميم...". وهكذا بالنسبة لباقي معارف هذه العصور الغابرة، كانت كلها أموراً بسيطة من هذا النوع. لذا، فإني سأعتبر المعارف الإنسانية في تلك العصور كلها، على ضحالتها، حيث لا فنون ولا آداب ولا أديان ولا خيال خصب، تنتمي إلى مجموعة العلوم الطبيعية.

داني "بابتسامة": ملاحظةٌ لطيفة.

[344] **رجل الكهف** "وهو يتابع المسير": لكن بكل أسف، في وقتٍ لاحق، انتشرت الخرافة بين الناس انتشار النار في الهشيم لتصل تدريجياً إلى سيطرةٍ مطلقة. لدرجة أن كل المعارف، بما فيها أكثر المعارف تجرداً كالرياضيات، أصبحت قابعة تحت سيطرة المجموعة اليمنى حالياً. في هذه المرحلة، لم يكن هناك تقريباً من مجموعاتٍ أيضاً، كحال المرحلة السابقة عليها، لكن مع تغيير عنوان المجموعة. لم يكن هناك من مرجعيات موضوعية يمكن الاحتكام إليها، لأن الفكرة التي سيطرت كانت تقضي- بكلمات بيرتراند راسل في كتابه *أثر العلم في المجتمع*: "... إن العالم الطبيعي ليس ذاتي المحتوى سببياً...". وعليه، فإن كل ثقافة قد صاغت قوانينها الخاصة؛ فأمسى الجفافُ غضباً من الآلهة، والمرض عقوبة على تصرفٍ ما قام به المريض آنفاً، والخسوف سببه موت الملك، والكسوف نذير شؤم، وتشوه المولود مرده إلى فكرة ما راودت الأم أثناء الحمل، والعقم سببه لعنة ما لسبب ما، وهطول الأمطار هو نتيجة لدعاء الناس،

والموت سببه خروج الروح، والصرع سببه الأرواح الشريرة التي تلبّست المريض، وهكذا كان لكل أمرٍ طبيعي سبباً خرافياً ما. وكانت هذه الأسباب تختلف من ثقافة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر. فأضحى الطب شعوذة، والفلك تنجيماً، والكيمياء خيمياء. وانتشر السحر والدجل، وازدهرت الخرافات، ورُبطت الماورائيات في كل ما يمس حيوات الناس. وبكل أسف، لا يزال أثر هذا الإرث الخرافي مستشرياً كالسرطان في أدمغة معظم الناس حول العالم حتى هذه اللحظة.

[345] **لوسيل:** ومتى بدأت العلوم تحصل على مجموعتها المنفصلة إذن؟

رجل الكهف: القصة طويلة. ففي الحقيقة، كان الشامانات والكهنة والسحرة والمشعوذون قد قاموا بتطوير شيءٍ من العلوم في الواقع، وإلا لَمّا يكن بإمكانهم الاستفادة من الظواهر الطبيعية للتأثير على الناس وإقناعهم بما يريد ثواليث القمع أن يقنعوهم به، لكنهم كانوا يخفونها عن الرعايا وينشرون بينهم تلك الخرافات؛ وهكذا، كانوا يتمكنون من إقناعهم بما عليهم إقناعهم به مما من شأنه تدعيم سطواتهم عليهم. بيد أن المنهج العلمي كما نعرفه اليوم تعود بدايته إلى غاليليو غاليلي. وبكلمات بيرتراند راسل في كتابه "أثر العلم في المجتمع": "ربما كان أهم عامل في القضاء على النظرة التي سبقت النظرة العلمية هو قانون الحركة الأول الذي ندين به إلى غاليليو، وإن كان ليوناردو دافنشي قد سبقه إليه إلى حد ما.".

[346] **دالي "بحماس":** مالذي تغيّر؟

رجل الكهف: يجيبك بيرتراند راسل في كتابه "الدين والعلم" بقوله: "... إن العصور الوسطى اعتقدت أن بعض الأشياء تحدث بطريقةٍ منتظمةٍ، مثل شروق الشمس وتعاقب الفصول، في حين إنها اعتبرت الأشياء الأخرى علامات ونذراً تشير إلى أحداث آتية، أو أنها دعوة إلى الناس كي يتوبوا عن خطاياهم. ولكن منذ أن جاء غاليليو ورجال العلم ينظرون إلى القوانين الطبيعية على أنها قوانين متغيرة وليست ثابتة. فهذه القوانين تخبرنا كيف أن الأجسام تتحرك في ظروفٍ معينة، وبذلك تستطيع أن تمكننا من حساب ما سوف يحدث في المستقبل، دون أن يعني هذا أن ما حدث لا بد وأن يستمر في الحدوث... مثل هذا المفهوم كان أصعب من أن يستوعبه العقل في العصور الوسطى، الذي فهم قوانين الطبيعة على أنها تأكيدٌ لاستمرار حدوثها، فضلاً عن أن هذا العقل نسبَ الظواهر غير المعتادة وغير المتكررة إلى إرادة الرب مباشرة وليس إلى أي قانون طبيعي.". ولهذا، عندما قال باروخ سبينوزا في "رسالة في إصلاح العقل": "يبدو كأني أستخلص هنا نتيجة من التجربة، وقد يقول بعضهم إنني لم أثبت شيئاً، نظراً إلى كوني لم أقدم برهاناً، فإذا أصررتم على هذا، فها هو ذا البرهان: لا شيء مما يوجد في الطبيعة يناقض قوانينها، وكل ما يحدث إنما يحدث وفقاً لقوانين طبيعية محددة، فتنتج عنه، وفق قوانين محددة، معلولات محددة تربط بينها علاقات ثابتة. وبالتالي، فكلما تصوّرت النفس شيئاً من الأشياء تصوراً صحيحاً كشفت لا محالة عن آثاره الموضوعية..." فإن القارئ العادي في ذلك الزمان، كحال كثيرين ممن يعيشون في هذا الزمان، لن يعتبر هذا برهاناً لما خلص إليه باروخ سبينوزا، بل فرضية استخدمها ليثبت بواسطتها فرضية أخرى . فإذا كنا حتى اليوم نعاني في

في ماهية الثقافة

إقناع الكثير من عامة الناس بأن هذه مقدمة أساسية، وذلك لاحتوائها على الخاصيتين اللتين يجب أن تكونا للمقدمة الأساسية كما حددهما بيرتراند راسل في "ما وراء المعنى والحقيقة" وهما: أنها تحدث نتيجة لوقائع محسوسة، وأن تكون بالصورة التي لا يمكن لمقدمةٍ أساسيةٍ أخرى أن تتناقض معها، فلك أن تتخيل العامة في زمني غاليليو وسبينوزا. قد تعتبر أنت، كإنسان متعلم ومتنور، هذا بديهياً، لكنه لم يكن هكذا في الماضي، كما إنه ليس كذلك حتى اليوم بالنسبة للكثير من الرعايا.

[347] **دالي** "بإثارة": إذاً، يعود الفضل إلى غاليليو في وجود الطريقة العلمية.

رجل الكهف: بالتأكيد ليس لغاليليو فقط، بيد أنه كان من أهم مسببات تلك القفزة في الفكر الإنساني. إن بيرتراند راسل يؤكد بكل وضوح في كتابه "النظرة العلمية": "... أعتقد أن العالم الحديث ما كان ليوجد لو أن مئة من رجال القرن السابع عشر قد قُتِلوا في طفولتهم. وعلى رأس هؤلاء المائة غاليليو". هذا وأحيطكما علماً أن أول صرح علمي تم بناءه في العالم هو الجمعية الملكية في لندن على يد الملك تشارل الثاني عام 1660.

[348] **لوسيل** "مقاطعة": وماذا عن الفلاسفة، ألم يكن لهم يدٌ في هذا الأمر؟

رجل الكهف: هل تمزحين معي! كيف لا! وهل يقوم صرحٌ فكري دون فلسفة؟ كنت للتو سأتكلم عن هذا لو لم تقاطعيني. إن الفضل يعود لفرانسيس بيكون في تأسيس المذهب التجريبي. ولمعاصره، المتأخر عنه قليلاً، رينيه ديكارت في تطوير المذهب العقلاني. ليلتحق توماس هوبز بالأول والتعس باروخ سبينوزا بالثاني. وفي عصر الأنوار، لدينا جون لوك وجورج بيركلي وديفيد هيوم على التوالي. ولديك فلاسفة حلقة فيينا أصحاب التجريبية المنطقية، أو الوضعية المنطقية. ولديك بيرتراند راسل وكارل بوبر في القرن العشرين والقائمة تطول.

لوسيل "بخجل": أعتذر عن المقاطعة، إنه اللّهف للمعرفة.

[349] **رجل الكهف:** لا عليك. على أي حال، فإنه منذ أواخر القرن السادس عشر- أو لنقل القرن السابع عشر، بدأت بشكل جدي ترتسم ملامح المجموعة اليسرى من المعارف الإنسانية، والتي أخذت متوسعة منذ ذلك الوقت، بتسارع مضطرد، لتضيف إلى جعبتها مزيداً من الفروع المعرفية. يشير علي شريعتي إلى بروز هذه المجموعة في كتابه "مسؤولية المثقف" بقوله: "في القرنين الرابع عشر- والخامس عشر، عندما كان يقال في أوروبا: جاء العلماء، إن هذا كان يعني علماء الدين... لأن كل النشاطات العلمية مقتصرةٌ على المراكز الدينية...وكانت كل العلوم تحت إشراف الدين ورجال الدين. وفجأة، في القرن السابع عشر، حينما يقال: جاء العلماء، كان السؤال الذي يُطرح هو: أي علماء؟ علماء الدين أم العلماء غير الدينيين؟".

دالي "مبتسماً": ملاحظةٌ لطيفة.

[350] **رجل الكهف:** وفي وقتٍ متأخر عن ذلك برزت ملامح المجموعة الوسطى، وهذا بانسحاب بعض

الفنون من المجموعة اليمنى لتؤسس قواعد منهجية لها مُقلِّدة بهذا العلوم الطبيعية. وهكذا تشكلت لدينا المجموعات الثلاث. بيدَ أنها مجموعاتٌ غير مستقرة.

[351] **دالي** "متعجبا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: إن المجموعة اليسرى تتضخمُ مجتذبة فروعاً علمية جديدة مُحولةً إياها من علوم إنسانية إلى علوم طبيعية، والمجموعةُ الوسطى تجتذبُ المزيد من مكونات المجموعة اليمنى مُحولةً إياها من فنون إلى علوم إنسانية. وهذا ما قصدتُه عندما قُلت عن علم النفس إنه اليوم في مرحلة وسطى من الانتقال من العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية. وبالمثل، فإن باقي الفروع تحذو حذوه بسرعاتٍ متفاوتة. وشيئاً فشيئاً، فإني أعتقد أن المجموعتين اليمنى والوسطى ستتضاءلان حتى يختفيا في المستقبل ليصبح كل شيء مرهوناً بقواعد وقوانين منطقية مضبوطة بحيادية وموضوعية؛ وعليه، تكون موحدة عالميا.

[352] **لوسيل:** وماذا عن الرياضيات؟

رجل الكهف: الرياضيات لغة؛ لكنها ليست لغة حرفية، بل هي لغة رقمية. وبالتالي، حالها كحال الفلسفة واللغات الأخرى، هي كالمظلة التي تظلل كل شيء. فلا يوجد فرع من فروع المعارف الإنسانية لا يستخدم اللغات. لكن لكونها لغة طبيعية، لا لغة مبتدعة بشرية، فإن دراستها تنضوي تحت قائمة العلوم الطبيعية، مخالفة بهذا اللغات الحرفية والفلسفة اللتان تنضويان تحت قائمة العلوم الإنسانية حتى الساعة.

دالي "مفكرا": هذه نظرةٌ مثيرةٌ للاهتمام.

[353] **رجل الكهف:** إذاً، أنت ترى هذا التقسيم للمعارفِ الإنسانيةِ منطقيا.

دالي "بسعادة": منطقيٌ جدا. فنحن ننظر للمعارف حسب القواعد التي تحكمها. وهذا تصنيفٌ حيادي شمولي يتجاوز الكثير من العثرات.

[354] **رجل الكهف:** لكن تنبّه إلى أنه شمولي جدا. إنه كنظرة علوية من نافذة طائرة. كما إنه ديناميكي. ولقد طرحته عليكما باختصار شديد؛ فإننا لو أردنا الخوض في التفاصيل فلن ننتهي منها حتى المساء.

دالي "بابتسامة رضى": لكنه أكثر من كافٍ الآن. شكراً لك.

[355] **رجل الكهف:** وأنتِ يا لوسيل، هل عرفتِ ماهية الثقافة؟

لوسيل "بابتسامة": بالتأكيد، شكراً لك.

رجل الكهف: دعونا نحث الخطى إلى وجهتنا إذن.

****

الباب السابع
في الخطواتِ العشرِ نحو المعرفةِ الموسوعية

(الثلاثة جالسون على الشاطئ جانب موقدٍ للشواء يتناولون الطعام)

[356] **رجل الكهف:** فيم تفكر يا داني؟

داني "مستغرقاً بأفكاره": إني أنظر إلى البحر وأرى فيه الثقافة الإنسانية. إنها كالبحر في اتساعها. وأفكر في نفسي، هل يمكن لي إدراكها؟ تبدو لي مهمة مستحيلة. أشعر أني ضائع تتقاذفني أمواج بحر الثقافة.

[357] **رجل الكهف:** ألم تسمع ما قاله الشاعر الروماني سكستوس بروبرتيوس في إحدى قصائده: "يكفي في الأمور العظيمة أن تريد"؟

داني "ضاحكاً": هذا كلام شعراء. الإرادة وحدها لا تكفي للقيام بشيء.

[358] **رجل الكهف:** يتفق معك جورج هيجل في "أصول فلسفة الحق" فيقول: "... لكن ينبغي علينا أيضاً أن نكون قادرين على تحقيقه؛ وإلا، فإن الإرادة تكون تافهة باطلة...".

داني "بيأس": هل رأيت. قلتُ لك هذه هي المشكلة. أنا غير قادر على تحقيق ما أريد.

[359] **رجل الكهف:** لِمَ؟

داني "بقنوط": ألا ترى أن المعارف الإنسانية متسعةٌ اتساع البحر؟ هل تستطيع شرب البحر كله؟

[360] **رجل الكهف:** على رسلك يا صاح. صحيحٌ أنه يستحيل على إنسانٍ أن يحيط بالثقافة الإنسانية كلها، لكن ألم تسمع بالحكمة التي تقول: "ما لا يُدرك كله لا يُترك جله"؟

داني: بالطبع.

[361] **رجل الكهف:** أريد أن أقوم بتعديل هذه الحكمة لتصبح "ما لا يُدرك جله لا يُترك كله". والآن، أريد أن أستخدم الحكمتين بالتزامن مع بعضها، الأصلية والمستحدثة، لتصبح الحكمة الكاملة "ما لا يُدرك كله لا يُترك جله، وما لا يُدرك جله لا يُترك كله".

[362] **داني** "بتعجب": ماذا تعني بهذا؟

رجل الكهف: ما لا يمكنك أن تحيط به بمعرفةٍ تامة، كحال بحر المعارف الإنسانية، لا تتركه بالكامل، بل اعرف منه قدر استطاعتك. وفي أثناء قيامك بهذا، فإن ما لا تستطيع أن تعرف عنه الكثير، فلا تتركه بالكامل دون أن تعرف عنه شيئاً واحداً على الأقل، لُبّه، أو أهم ما فيه.

[363] **داني** "بدهشة": وكيف لي أن أقوم بهذا؟

رجل الكهف: الأمرُ بسيط. اتبع نصيحة توماس هكسلي.

[364] **داني** "بتعجب": أي نصيحة؟

رجل الكهف: "حاول أن تتعلم شيئاً ما عن كل شيء، وكل شيء عن شيء ما".

داني "ضاحكا": نصيحةٌ لطيفة. لكنك تقولها ببساطة وكأنها أمرٌ سهل المنال.

[365] **رجل الكهف:** دعنا نفكر سوية في خريطة طريق نضع فيها برنامجاً قد يساعدك في الوصول إلى أفضل ما يمكن إنجازه من هذه المهمة. وبهذا، تكون قادراً على تحقيق ما أردت، كما اشترط جورج هيجل، فيكون لإرادتك معنى.

داني "بحماس": دعنا نفعل هذا أرجوك.

[366] **رجل الكهف:** قبل أن تفكر يا داني في أن تحوز المعارف الإنسانية كلها، عليك أن تتأكد أنك مُلِمٌ إلى أبعد الحدود بواحدٍ على الأقل من مجالاتها، وكل ما يحيط به ويتفاعل معه من مجالاتٍ أخرى، وليكن هذا المجال هو نفسه مجال عملك.

داني: هذا بديهي، لا بد أن أعرف كل شيء يتعلق بمجال عملي!

[367] **رجل الكهف:** قد يكون بديهياً بالنسبة لك، لكن الغالبية من الناس لا تتقن أعمالها؛ ومعظم الباقين مغرقون في التخصص، لدرجة العمى الكامل فيما يخرج عن النطاق الضيق الذي هم متخصصون فيه، والذي يقومون به بشكلٍ روتيني كالآلات.

داني "بتركيز": صدقت.

[368] **رجل الكهف:** وبالتالي، لا يجوز لك أن تفكر في أن تصبح مثقفاً وتهدف إلى تغيير العالم، إن لم تكن قادراً على إفادة المجتمع في مجالٍ واحدٍ على الأقل بكفاءةٍ عالية. وإن قِلة قليلة من الناس تقوم بهذا. فمعظم الناس يعملون لهدفٍ واحدٍ فقط، هو كسب المال؛ لذا، فهم لا يكترثون لأي شيء سوى هذا الأمر. لكن إن أردت أن تصبح مثقفاً عليك أن تكون متحرراً من عبودية المال، وأن تنظر إلى مجال عملك كفرع من فروع الثقافة، وهذا ما سيحفزك على تعلم المزيد والمزيد فيه.

داني: أصبت كبد الحقيقة.

[369] **رجل الكهف:** إذن، إن فعلت هذا، تكون قد انتهيت من الشق الثاني لنصيحة توماس هكسلي، ويبقى عليك فقط الشق الأول منها.

داني "ينفجر ضاحكا": وكأنك تقول لي إني قد قطعتُ نصفَ الطريق وأنا لم أغادر مكتبي بعد.

[370] **رجل الكهف:** أنت تقول هذا لأنك لا تعي كم يتطلب من جهدٍ كي تحيط بمجالٍ واحدٍ وبكل ما

يتعلق به. على أي حال، أتمنى أن تكون قد أدركت مقصدي بعمقه وشموليته كما أقصده أنا، لا بالمعنى السطحي لعبارة "أنا ملمٌ بعملي وماهرٌ به" كما يعنيها معظمُ الناس.

داني: أعتقدُ أني فهمتك.

[371] **رجل الكهف**: إذاً لنتابع الرحلة. إن اللغة هي ما يميزنا عن غيرنا من الرئيسيات، وإن الثقافة تنتقل بواسطة اللغة؛ لذا، فعليك أن تكون ضليعاً بلغتك الأم واللغة العالمية السائدة ولغة البلد الذي تقيم فيه.

[372] **داني** "متعجبا": أليس هذا بديهياً أيضا؟

رجل الكهف: قد يكون بديهياً بالنسبة لك، لكن كثيراً من الناس لا يجيدون حتى لغاتهم الأم.

[373] **لوسيل** "باستغراب": إذا كنتُ قد انتقلتُ إلى بلدٍ جديد، فلِمَ عليّ أن أتقن لغة بلدي الأم؟

رجل الكهف: لأنها اللغة التي استُخدِمت لبرمجة عقلك، وهي لغة الثقافة التي بُرمجتِ عليها، فلكي تتمكني من تحرير نفسك عليكِ إتقانها أولا.

[374] **داني** "مفكرا": وماذا عن اللغة العالمية السائدة، ماذا تقصد؟

رجل الكهف: في الوقت الراهن إنها اللغة الإنجليزية. هذه اللغة التي يمكنك استخدامها أينما تجولت في العالم. كما إنها اللغة التي تُنشر فيها كل الأبحاث العلمية، وتترجم لها كل الكتب الهامة، ومحتوى الإنترنت بهذه اللغة هو ثري جدا؛ يمكنك البحث عن أي شيء تريده بواسطة اللغة الإنجليزية. لذا، فهي ضرورية. إن تعلمها يفتح للإنسان آفاقاً لا حدود لها.

داني "مؤيدا": لا شك في هذا.

[375] **رجل الكهف**: ثم إن تعلم أي لغة هو وسيلة لتطّلعَ على ثقافةٍ جديدة؛ فإن اللغة هي أهم عامل في تمييز الثقافات. لا يمكن أن تجد اختلافات جذرية بين ثقافتين يتكلمان نفس اللغة. وبالمقابل، لن تجد ثقافتين متطابقتين تتكلمان لغتين مختلفتين. وأنت إذ تتعلم لغة جديدة فإنما تتعرض لثقافةٍ جديدةٍ كانت محجوبة عنك مسبقا. ولذا، إن كنت تعيش في بلدٍ ما، سواء كان بلدك الأم أو أي بلد آخر، فتعلّم لغته لن يفيدك فقط في الحديث مع الناس وإجراء التبادل الثقافي معهم وقراءة الكتب فحسب، بل سيفتح لك الباب على تعلم ثقافة هذا البلد أثناء مسيرتك في تعلم هذه اللغة.

[376] **لوسيل** "مفكرة": لكن إلى أي حد يجب على الإنسان أن يتقن هذه اللغات؟

رجل الكهف: ليس المطلوب أن يصبح الإنسان من فطاحل اللغة؛ فهذه قد تكون مرحلة أعلى إن أراد الشخص أن يتخصص في إحدى اللغات أو الآداب أو مقارنة اللغات أو البحث في تطوراتها أو دراسة فلسفاتها، لكن المطلوب هو أن يكون الإنسان قادراً على ممارسة المهارات اللغوية الأساسية بسهولة، أي القراءة والكتابة والسماع والمحادثة، إضافة إلى إتقانه للقواعد التي هي العمود الفقري لأي

لغة. لا يمكن أن يصبح الإنسان مثقفاً ما لم يكن قادراً على قراءة الكتب وكتابة النصوص بثبات، دون أخطاء إملائية أو نحوية، ومُستخدماً علامات الترقيم كما ينبغي لها أن تُستخدم. هذا المستوى الذي يجب أن يكون عليه في هذه المرحلة.

لوسيل "بابتسامة": فهمتُ قصدك.

[377] **رجل الكهف:** وأنا إذ أقول هذا، فإن هذا المستوى لا يجعل الإنسان مثقفاً، بل يُملكه الأدوات اللازمة كي يصبح مثقفا. تماماً كما أن تملك شخص ما لكاميرا تصوير احترافية لا يجعله مصوراً محترفاً، لكنه يجعله يمتلك الوسيلة اللازمة ليصبح كذلك.

دالي "مبتسما": تشبيهٌ جميل.

[378] **رجل الكهف:** أما الآن، وما إن أتقنت اللغات المذكورة، واللاتي قد يكنَّ واحدة أو إثنتين أو ثلاثة على حسب الحالة الخاصة بكل إنسان، فعليك أن تُلِمّ بثقافة بلدك الأم والثقافة العالمية السائدة وثقافة البلد الذي تعيش فيه.

[379] **دالي** "مستفهما": هل لك أن تشرح؟

رجل الكهف: عليك أولاً تعلّم ثقافتك الأم، حتى وإن كنت قد انتقلت للعيش في بلدٍ آخر، فهذه الثقافة هي التي برمجت عقلك. ألا تذكر أن طريقة عمل دماغك محكومة بما مررت به من تجارب وما تمت برمجته عليه، وأن هذا كله مزروع في لاوعيك ويتحكم في أفكارك وسلوكك ومشاعرك حتى وإن قررت بوعيك العيش في نمطٍ ثقافي مختلف؟

دالي: صحيح، أتذكر هذا.

[380] **رجل الكهف:** إذن، إن أردت إبطال عمل البرنامج القديم عليك أن تتعلم تلك الثقافة بوعيك هذه المرة، لا بالتلقين كما تعلمتها مسبقا؛ وهذا يتم عبر دراسة تاريخ المنطقة، والحضارات التي تعاقبت عليها، وعاداتها، وتقاليدها، والأديان المنتشرة فيها، والأديان السابقة على أرضها، وكل مكوناتها الثقافية. بهذه الطريقة، ستستطيع فك شيفرات البرمجة لديك، وستستطيع تفهّم طريقة تفكير الرعايا في بلدك الأم، كما والأسباب والعوامل التي شكلتها.

دالي "بإعجاب": صدقت.

[381] **رجل الكهف:** وعليك فعلُ الأمر نفسه بالنسبة لثقافة البلد الذي تعيش فيه. كما عليك فهم مكونات الثقافة العالمية السائدة، والتي هي في الوقت الراهن الثقافة الغربية.

[382] **دالي** "متعجبا": ما أهمية هذا؟

رجل الكهف: عليك أن تعرف أن كل إنسانٍ يتصرّف بناءً على منظوره الثقافي الخاص. وبالتالي، فعليك أن تتعلم الثقافات المختلفة، وأهمها هذه الثقافات الثلاث التي ستتعرض لها أكثر من غيرها، كي

تستطيع أن تفهم تصرفات الناس من حولك، وأن تستطيع لبس نظاراتهم لتنظر إلى الأمور من منظور كلٍّ منهم، لا أن تكون عالقاً بنظاراتك الأصلية فحسب. بالإضافة إلى أن هذا سيمكّنك من تفهم خلفيات الأمور التي تُعرض عليك عبر وسائل الإعلام المختلفة، كما والأحداث الدولية والثقافية والتاريخية التي تؤثر في واقعك.

داني "مفكرا": هذا صحيح.

[383] **رجل الكهف:** إذاً، فقبل أن تصبح مثقفاً، عليك أن تفهم مكونات مجتمعك الثقافي وخلفياتها، ومكونات الثقافة السائدة في العالم التي تؤثر عليك رغماً عنك. عندما تدرك هذه الأمور، ستستطيع أن تحرر نفسك من التأثيرات الغير مرغوب بها، كما وستستطيع قراءة الواقع بموضوعيةٍ أكبر.

[384] **داني** "بشغف": ماذا عن الحضارات الأخرى؟

رجل الكهف: إن تمكنت من أن تُحيط بما سبقت الإشارة إليه فهذا خيرٌ عظيمٌ لا يحوزه غالبية الناس. ومهمتك تلك قد تكون محصورة بثقافة واحدة أو إثنتين أو ثلاثة حسب حالتك الفردانية. وكلما كنت فاهماً لهذه الثقافات أكثر كلما كان هذا أفضل. وكحال اللغات، التي يمكنك أن تتعلم المزيد منها حسب رغبتك أو حاجتك بعد أن تنتهي من تلك التي أشرتُ إليها، فإن الأمر ينطبق على الثقافات. لكن يمكنني تأجيل هذا إلى مراحل لاحقة لأن هناك أموراً أكثر أهمية الآن.

[385] **داني** "بحماس": ماهي؟

رجل الكهف: قبل أن أشير إليها، أريد أن أكون صريحاً معك. إني أعتقد أن ما سبقت الإشارة إليه هو فرض عين على كل إنسان سواء أراد أن يصبح مثقفاً أم لا. فهي كلها أدوات ثقافية أساسية لا بد أن يحوزها أي عاقل يعيش داخل مجتمع ما لأنها ضرورية لتحقيق تفاهم متبادل منطقي بين أبناء المجتمع، كما وتحقيق منفعة متبادلة بينهم. واعلم أن الإنسان عدو ما يجهل. وعليه، فعندما يتشارك أبناء مجتمع ما العيش فيه وهم لا يدركون خلفيات بعضهم الثقافية، فإن من السهل أن يلعب بهم ثالوث القمع ويجعل بعضهم أعداءً لبعض. هذا ولا بد من فهم الثقافة العالمية التي دخلت كل منزل رغماً عن أنوف ساكنيه للغرض نفسه.

داني: صدقت.

رجل الكهف: وبهذا أنتقل إلى أول خطوة لا تتعلق بضرورة وجودك كفرد داخل المجتمع، بل تتعلق بكونك محباً للتعلم.

[386] **داني** "بلهفة": ماهي؟

رجل الكهف: عليك أن تكون مُلماً بالعلوم الحديثة على المستويين النظري والتطبيقي. وهذه الخطوة لا يمكن تجاوزها بحالٍ من الأحوال.

[387] **داني** "بتركيز": لماذا؟

رجل الكهف: أولاً، لأن المنهج العلمي مختلفٌ كل الاختلاف عن أي منهج فكري آخر. فعليك أن تتعلم هذا المنهج بشكل مستقل. إن الطريقة التي ينهجها العلماء مختلفة بالكلية عن الطريقة التي ينتهجها عامة الناس. عليك أن تكون مدركاً تماماً للفرق بينهما. كما وإن التطبيقات العلمية تتدخل في كل شيء في حياتنا المعاصرة، كل شيء على الإطلاق. فبدون إدراكك للعلوم المختلفة وفهمك لها لن تفهم أي شيء من واقعنا المعاش. إضافة إلى أنه، كما أشرتُ بالأمس، لا يجوز لك اليوم أن تقوم بأي بحث دون أن تأخذ بعين الاعتبار رأي العلم فيما يخص بحثك لأن "... المشكل المركزي في نظرية المعرفة، كان ولا يزال نمو المعرفة. ولكي نستطيع دراسة هذا النمو لا بد من دراسة نمو العلم." كما أشار كارل بوبر في "منطق البحث العلمي". وبالتالي، إن لم تكن مطلعاً على العلوم فإن بحثك سيكون بلا معنى تماما.

داني "بتركيز": أكمل من فضلك.

[388] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": هل لدينا شيءٌ ما يُشرب؟

لوسيل "تبحثُ في حقيبتها": تفضل هذه الجعة.

[389] **رجل الكهف:** شكراً لك. ثانياً، إن العلوم قد قدمت إجابات على معظم تساؤلاتنا. لا يمكن لك اليوم أن تفهم العالَم والكون والحياة والظواهر الطبيعية، بل لا يمكنك فهمُ نفسِك، دون أن تبحث عن الإجابة العلمية والتفسير العلمي للظاهرة موضوع البحث. ألا تذكر تلك الحقائق الصادمة التي حدثتكما عنها بالأمس؟ كيف يمكن لك إدراكها دون أن تكون قد اطلعت على العلوم الأساسية؟

داني "ضاحكا": كلا أرجوك، لا نريد العودة لذلك الآن.

[390] **رجل الكهف:** ثالثاً، بما أن تطبيقات العلوم تحيط بنا تماماً من كل الاتجاهات، بل هي تلامس جسدنا، فملابسنا هي من منتجاتها، كما وأطعمتنا، وعلبة الجعة هذه؛ وبالتالي، إنك عندما تطلع على العلوم المختلفة، فإنما أنت تُعلِّم نفسك كيف تعملُ الأشياء، وكيف تُصنع، وكيف يتم إصلاحها. فلا يجوز لمثقفٍ أن يكون منفصلاً عن واقعه الملموس. وما أكثر أنصاف المثقفين، من مثقفي المقاهي، الذين يعيشون في بروج نظرية منفصلين عن واقعهم لا يفقهون منه شيئا.

[391] **لوسيل** "بتعجب": ولِمَ أسميتهم أنصاف المثقفين؟

رجل الكهف: لأنهم يملكون الشق النظري فقط من الثقافة لكنهم لم يقتربوا من الشق العملي منها.

[392] **داني** "مفكرا": هذه نقطة مهمة. إن أغلب المثقفين هم هكذا في الواقع. ما هو السببُ برأيك؟

رجل الكهف: دعنا لا نشتت الموضوع، ولنكمل خارطة الطريق التي نرسمها لك أولا.

داني "ضاحكا": صحيح، دعني أكن أنانياً الآن وأهتم بنفسي.

[393] **رجل الكهف:** عليك يا صاحبي أن تكون مُلِمّا بالأعلام، سواء المعاصرين منهم أو الأسبقين.

[394] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: إن الحضارة الإنسانية هي طريق طويل يرصفه الناس عبر التاريخ. بعض هؤلاء الناس كان لهم الفضل في تغيير مسار هذا الطريق. لذا، عليك أن تكون على درايةٍ بهم. عليك أن تعرف أسماءهم، والحقب الزمنية التي عاشوا فيها، وأهم أعمالهم وآثارهم، والمجالات التي نشطوا فيها. لا يجوز أن تكون مثقفاً وأنت لا تعرف هؤلاء الأشخاص. ستمر أسماؤهم عليك في الكتب، وفي المحاضرات وغيرها، وسيفترض من يشير إليهم أنك عارفٌ بهم. كما إن الحضارة الإنسانية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا عبر النقاشات والجدالات، العبر ثقافية عبر تاريخية، التي دارت بينهم وكنتيجة مباشرة لأعمالهم. فالعالم الذي تعيش فيه اليوم لم يكن ليكون كما هو عليه دون وجودهم. لهذا السبب، لا يجوز مطلقاً تجاوزهم أثناء مسيرتك الثقافية بأي حال من الأحوال.

[395] **لوسيل:** فعلاً، إنه من المخجل جداً ألا يعرف هؤلاء الأعلام معظم الناس اليوم، بينما يعرفون أتفه الراقصين والمغنين والممثلين الاباحيين.

رجل الكهف: لقد شرحت لكما السبب في الأمس.

داني: صحيح.

[396] **رجل الكهف:** عليك أيضاً أن تكون مُلِمّا بالخريطة الطبيعية والسياسية للعالم، سواء كنت متفقاً معها أم لا؛ إنها أمرٌ واقع. وكما كان الأمر مع الأعلام، فإن عليك أن تكون عارفاً للخرائط السياسية لدول العالم، وعارفاً لطبيعة نظام الحكم في كل دولة، ونظامها الاقتصادي، وعملتها، والدين السائد فيها، ولغتها، وما إلى ذلك. عليك أن تكون واعياً للديموغرافيا العالمية، وانتشار الأديان الكبرى، واللغات الأكثر انتشاراً، والأنظمة الاقتصادية والسياسية المختلفة. عليك أن تعرف أسماء ومواقع البحار، والمحيطات، والقارات، والدول الهامة، والمدن الشهيرة، وتوزع الثروات الطبيعية والاقتصادية في العالم.

لوسيل "مقاطعة": هذا كثير. أشعر أن عليّ دراسة الجغرافيا كما كنت أدرسها في المدرسة.

[397] **رجل الكهف:** كلا يا عزيزتي، أنا لا أطالبكِ بهذا. عليكِ معرفة الدول العظمى في البداية، ثم الدول المحيطة بكِ، ثم تنتشرين باتجاه الأبعد والأقل وزناً عالميا. عليكِ معرفة المعلومات الرئيسية بحيث إنك عندما تسمعين اسم دولة، أو تمر عليك في كتاب تقرئينه أو مقالٍ أو أي كان، ستكونين على دراية بالمعلومات الرئيسية عنها. ومع الوقت، ستزداد معلوماتك تبعاً لأهمية الدول، وما يحدث فيها، وما تحتويه من ثروات، وتأثيرها الحضاري، بعد أن تكوني قد صنعتِ هذه التبويبات في دماغك. لا يمكن أن تكوني مثقفة وأنتِ لا تعرفي أين تقع دول العالم أو أين تقع القارات والمحيطات. إن هذا غير مقبول على الإطلاق؛ فهو سيجعل المعلومات عشوائية تماماً في دماغك، ولن تستطيعي استخلاص أي

نتائج سليمة منها.

لوسيل "بخجل": أنت على حق.

[398] **رجل الكهف:** والآن عليكِ أن تكوني مطلعة على المدارس الفلسفية الكبرى، والديانات الكبرى، والأنظمة الاقتصادية والسياسية الرئيسية. عليكِ أن تكوني فاهمة لها لأنها هي من ترسم خريطة العالم الثقافية وتؤثر في كل الثقافات.

دالي: لم أفهم قصدك.

[399] **رجل الكهف:** بكلماتٍ أكثر تبسيطاً، عليك أن تقرأ وتبحث حتى تصبح قادراً على فهم معاني كلمات مثل: شيوعية، ورأسمالية، واشتراكية، وثيوقراطية، وأوتوقراطية، وتكنوقراطية، وأوليغاركية، وديموقراطية، وأناركية، وعلمانية، ووجودية، ومثالية، ووضعية، ومادية، وعدمية، ولا اكتراثيه، ولا دينية، ولا أدرية، وربوبية، والحاد، وهلم جرا. كما والأديان الرئيسية في العالم: المسيحية، والإسلام، والبوذية، والهندوسية، واليهودية، وسواها. على أن تبدأ في كل ما سبق مما هو يلامس واقعك ومجتمعك والمجتمعات المحيطة فيك، ثم الأكثر انتشاراً في العالم، ثم الأبعد والأقل أهمية. عليك الاطلاع على كل هذه التوجهات حتى تصبح مألوفة لك وأنت تفهمها تمام الفهم.

دالي "بيأس": هذه مَهمَّةٌ كبيرة.

[400] **رجل الكهف:** لكنها مَهمَّةٌ لا يمكن التنازل عنها؛ فهذه التوجهات هي ما رسم خريطة العالم الثقافية وهي ما يتحكم بها. إن لم تدرك تماماً ما تعنيه كلٌّ منها لن تستطيع التعمق في فهم وإدراك أي أمر ثقافي، ولن تمتلك الأدوات التحليلية اللازمة. ستكون نظراتك للأمور ضحلة جداً، وستختلط عليك المفاهيم، ولن تستطيع فهم أي أمر ثقافي، ولا تحليله تحليلاً صائباً، ولا تفسيره تفسيراً سليماً. ولا يمكنني أن أقول إلا ما قاله كارل ماركس في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتابه الشهير "رأس المال": "ولا أستطيع أن أساعد هنا إلا بشيءٍ واحد، وهو تنبيه القارئ المتعطش للحقيقة وتحذيره منذ البداية من هذه الصعوبة: ليس في العلم طريق واسعٌ وممهد، ولا يستطيع بلوغ ذراه المشرقة سوى ذلك الذي لا يخشى عناء تسلّق مسالكه الوعرة.". هل كنت تعتقد أن ارتقاء البرج هو كالمشي- في الحديقة؟ أو أن خوض غمرات البحر هو كالسباحة في بركة السباحة؟

دالي "بخجل": كلا.

[401] **رجل الكهف** "مشعلاً غليونه": هل تتم دعوتك عادةً إلى بوفيه مفتوح؟

دالي: نعم، كثيراً، بسبب طبيعة عملي.

[402] **رجل الكهف:** وكيف تتصرف هناك؟ هل تأكل صنفاً واحداً أم ماذا؟

دالي: يختلف الأمر حسبَ الموجود على المائدة؛ فما لا أعرفه لا أقتربُ منه عادة.

[403] **رجل الكهف:** ما رأيك في أن تتذوق قليلاً من كل صنف، ومن ثم تحدد الصنف الذي يعجبك، أو الأصناف التي اشتهتها نفسك، فتكمل وجبتك منها. وبهذه الطريقة، تكون على دراية بجميع الأصناف الغريبة؛ وعليه، فإنك لن تفوت على نفسك فرصة تذوق صنفٍ لم تكن تعرفه وقد يعجبك كثيراً، وإن سألك أحدٌ ما عن أي صنف ستكون قد تذوقته مسبقا؛ وبالتالي، تستطيع إبداء رأيك فيه عن خبرة. أليس هذا تصرفاً حكيما؟

دالي "ضاحكا": بالتأكيد إنه كذلك. لكن عليّ أن آمل أن يتبقى لي المزيد من الطعام عندما أعود لأستزيد مما أعجبني.

[404] **رجل الكهف:** إذا كان هذا مضموناً، هل ترى ذلك التصرف حكيما؟

دالي: ليس هناك أفضلُ منه.

[405] **رجل الكهف:** عظيمٌ جدا. بعد أن تسلّحت بكل ما سبق، فأنت مؤهلٌ الآن للدخول إلى البوفيه الثقافي المفتوح.

[406] **دالي** "متعجبا": أي بوفيه هذا؟

رجل الكهف: لقد ساعدتك بتصنيف المعارف الإنسانية في مجموعاتٍ ونحن في طريقنا إلى هنا، هل لازلت تذكرها؟

دالي: بكل تأكيد.

[407] **رجل الكهف:** أريدك الأن أن تتخيل تلك المعارف الإنسانية كأصناف طعام على المائدة المفتوحة. فعليك أن تتذوق من كل مجموعة منها، وأن تدرك مكونات كلٍ منها، وترابطاتها وبعضها البعض. ثم بعد هذا استزد تعمقاً فيما يجذبك منها. وبهذه الطريقة، فأنت تتعمق في فرع أو أكثر من فروع المعارف الإنسانية، لكنك في الوقت نفسه لست غريباً عن الفروع الأخرى، كما أنك مدركٌ لترابطات وتداخلات وتفرعات هذه المعارف. وهكذا، تكون قد ألجمت نفسك في المائدة الثقافية. ما رأيك بهذا؟

دالي "ضاحكا": فكرةٌ عظيمة. ولو أن لعابي يسيلُ على تخيل الأمر كمائدة طعام عليها أصناف الطعام الشهي، لا المجلدات الضخمة.

[408] **رجل الكهف:** إن من يتحرر من غرائزه ويمارس هواية الثقافة يشعر بلذةٍ تفوق لذة الطعام والشراب والجنس وغيرها من ملذات الرعايا. ألم يقل أفلاطون في "الجمهورية": "... ليس هناك من لذةٍ حقيقيةٍ صافيةٍ فعلاً ماعدا لذة العقل..."؟ لكن لا يُمكن للإنسان أن يبلغ لذة المعرفة هذه إلا عندما يبلغ دماغه.

[409] **لوسيل** "بتعجب": يبلغ ماذا؟

رجل الكهف: يبلغ فكرياً لا جسديا.

[410] **لوسيل:** هل لك أن توضح.

رجل الكهف: إن اللذة، يا لوسيل، مرتبطة ببلوغ القدرة. فلا يمكن للرضيع أن يتلذذ بأشهى الأطعمة قبل أن يبلغ سِناً يتمكن فيه من أكلها. وقبل هذا السن، فإنه قد يتقيأ ألذ الأطعمة إذا ما وضعت في فمه؛ فلا هو قادرٌ على التمتع بأكلها، ولا جسمه قادرٌ على هضمها.

لوسيل: صدقت.

[411] **رجل الكهف:** والطفل غير قادرٍ على إدراك معنى اللذة الجنسية قبل أن يبلغ جنسيا. مهما وصفتِ له متعة الممارسة الجنسية فهو لن يستطيع تفهمها. وغالباً سيرى الأمر مقززاً ولا معنى له مطلقا. قطعةُ شوكولاتةٍ ألذُ منه.

لوسيل "ضاحكة": صحيحٌ تماما.

[412] **رجل الكهف:** وبالمثل، فاللذة العقلية لا يدركك كنهها إلا من خبرها، ولا يختبرها إلا من عمل على تحرير دماغه ثم تطويره بالشكل الصحيح. وعندها فقط سيستطيع التمتع بالملذات الفكرية التي تضاهي جميع ملذات الجسد. فكما أن الرعشة الجنسية التي يستلذ بها البالغون هي أكبر من ملذات الطعام والشراب التي يستلذ بها الأطفال، فكذلك الرعشة الدماغية أعظم لذة من الرعشة الجنسية. وأعتقدُ أن نسبة الفرق بين هاتين الاثنتين تفوق نسبة الفرق بين أدناهما والتي هي أدنى منها. لقد قالها بصراحةٍ آلدوس هكسلي: "المثقف هو الشخص الذي وجد شيئاً واحداً أكثر إثارة للاهتمام من الجنس". ولذا يا داني، إن عملت جاهداً على تطوير دماغك لتصل لمرحلة المائدة الفكرية تلك، فسيكون تذوقها أكثر إمتاعاً وأعظم لذةً بالنسبة لك مما لو كانت عليه كمائدة طعام، وإن كنتَ لا تستطيع إدراك هذا الآن كما لا يستطيع الطفل إدراك كنه اللذة الجنسية.

داني "مفكرا": لا يمكنني مخالفتك طالما أنني لم أجرب هذا.

[413] **رجل الكهف:** "لقد قمتُ، لبعض الوقت، بتفحص مختلف الأعمال التي يتعاطاها الناس في هذا العالم، وحاولت أن أختار أفضلها... يكفيني أن أقول، إنه لم يبدُ لي شيء أفضل من الإتمام الدقيق لما عزمت عليه؛ أي، استغلال حياتي كلها لتطوير عقلي وتقصي جذور الحقيقة... لأن الثمار التي ذقتها وأنا في سبيل ذلك من الحلاوة بمكانٍ بحيث أرى أنه لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يفوقها لذة ونقاوة... صارت روحي مفعمة بفرح لا يقدر أي شيء آخر أن يدخله عليها.". هكذا وصف، رينيه ديكارت تجربته في صعود البرج.

[414] **داني** "بحماس": هذا محفزٌ جدا. لدي فضولٌ كبيرٌ كي أختبر هذا مثله. زدني أرجوك، ماذا بعد؟

رجل الكهف: لقد وصلتَ الخطوة النهائية، ماذا تريد بعد؟ المائدة كلها بين يديك، والطعام الذي عليها لا ينضب، تماماً كما لو كنت في الجنة. إنها الجنة على الأرض يا صاح. يمكنك أن تتذوق وتستزيد

فيها من أي صنفٍ تشتهيه نفسك. وكلُّ صنفٍ يسمح لك بالتعمق فيه دون أن ينضب. ومتى ما اشتهيت أن تأكل من صنفٍ آخر، فالقرار قرارك. يمكنك التوسع في السياسة، أو التاريخ، أو الاقتصاد، أو الانثروبولوجي، أو السوسيولوجي، أو البيولوجي، أو السيكولوجي، أو الكوزمولوجي، أو الميثولوجي، أو الأنطولوجي، أو الابستمولوجي، أو الاكسيولوجي، أو أي مدرسة فلسفية، أو الفلسفة بعمومها، أو أي دين من الأديان، أو مقارنة الأديان بالطريقة التي تراها مناسبة، أو التعلم عن ثقافاتٍ أخرى وحضاراتٍ أخرى، قديمةٍ أو حديثة. يمكنك أن تتعمق في أي فرع تحبه وأنت لست غريباً عن غيره. أو إن أردت، يمكنك أن تمضي- بقية حياتك تتنقل بين هذه الفروع حسب ما يلح عليك دماغك.

داني "بسرور": هذا رائع! أحببتُ هذا كثيرا.

[415] **رجل الكهف** "نافثاً دخان غليونه": وعليّ أن أؤكد على أمرٍ بالغ الأهمية، وهو أن مرورك بكل تلك المراحل يجب أن يكون مرور الفاهم لا الحافظ. تذكر أننا لا نريد شخصاً حافظا. أريدك أن تكون هادفاً للفهم؛ وبطبيعة الحال، فأنت تتعرض للمعلومات التي ستستخدمها كمخزون حفظي في ذاكرتك. عليك أن تُعنى بالأمرين معا. فمدرسة الحياةِ تختلف عن المدرسةِ الحكومية؛ فالأخيرة تمتحنك بما حفظت، أما الأولى فتمتحنك بما وعيت.

لوسيل: ملاحظةٌ قيمة. شكراً للتذكير.

[416] **داني**: لكن لَمَ تُخبرني لِمَ لا أجدُ معظم المثقفين ينهجون هذا النهج؟ لِمَ أرى معظمهم منعزلاً عن الواقع يقرأ الكتب فحسب؟ أراه إنساناً نظرياً فقط يناقش أموراً كلها بعيدة عن الواقع، بينما لا يفقه أي شيءٍ فيما يلامس الحياة المادية التي يعيشها!

رجل الكهف "وهو ينظف غليونه": على الرغم من أن "المثقف" هو مصطلحٌ حديثٌ نسبياً، لكن عبر التاريخ كله كان هناك بصورة أو بأخرى "مثقفون"، هم بناؤو البرج. اختلفنا أو اتفقنا على تعريف المثقف، فإن هذا ليس موضوعنا الآن. على أي حال، فإن المثقف بالصورة التي تطرحها أنت هو كائن حديثٌ جدا. لم يكن مثقفو الماضي -أياً ما كانوا- على هذه الشاكلةِ بتاتا. وإني أرى مرد هذا إلى عوامل ثلاث.

[417] **داني** "بلهفة": ماهي؟

رجل الكهف: أولها، هو الرأسمالية القذرة. التي شجعت، لأسبابٍ لسنا بصددها الآن، على تقسيم الأعمال، والتخصص في اختصاصاتٍ محددة، ومن ثم على التخصص ضمن التخصص لدرجة أن "... التفكير نفسه في عصر التقسيماتِ هذا، ربما أصبح جرفة مميزة..." بكلمات آدم فيرغسون في كتابه "مقالة في تاريخ المجتمع المدني". لذا، فبات هذا الكائن المثقف مقتنعاً أن مهمته محصورة في التعامل مع المجردات والأفكار، مع الورق والأقلام، لكن ليس من شأنه أن يقوم بأي أمرٍ آخر، لأن الأمور

الأخرى يقوم بها عامة الشعب من وجهة نظره. إنه أرستقراطي فكريا.

[418] **لوسيل** "باهتمام": ألم يحث أفلاطون على هذا في *الجمهورية* و*القوانين*؟

رجل الكهف: بالطبع هو أقر هذا من ضمن ما أقره من مصائب آذت البشرية من بعده، لكنها لم تدخل حيز التطبيق الفعلي واسع النطاق إلا بعد سيطرة الرأسمالية. ولولا أني لا أريد لحوارنا أن يتحول إلى حوارٍ في الاقتصاد وفي الاقتصاد السياسي لكنتُ تطرقتُ إلى الموضوع بتفصيلاته.

دالي: صحيح، لسنا بصددِ هذا الآن.

[419] **رجل الكهف:** وثاني العوامل هو وسائل الإعلام. التي روّجت، بتوجيهٍ من ثواليث القمع، لهذه الصورة النمطية عن المثقف كي تنفّر الناس منه. ألا تذكر أنهم يروجون لمن صعد البرج على أنه مجنون؟ لذا، فهي تصوره في الحكايات والمسلسلات والأفلام إنساناً معقداً ومنفصلاً عن الواقع. لا يعرف كيف يتكلم مع الناس، وإن كلمهم، فهو يكلمهم بلغةٍ لا يفهمونها. لا يفهم أحداً، ولا أحد يفهمه. يضع نظارات سميكة. لا يهتم بهندامه ولا بمظهره. ممتعضٌ، عابسُ الوجه، معوز. يشرب القهوة دائماً دون سكر. يدخن التبغ بشراهةٍ أو يكره التدخين كرهاً شديدا. فتلقف الناس هذه الصورة وتقمصها بعضهم، فاعتبروا أنفسهم مثقفين، واعتبرهم الناس كذلك. والجدير بالملاحظة، أن ذلك الذي يريد أي ثالوثٍ عرضه على الرعايا ليأخذوا منه ثقافتهم، يعرضه عليهم في وسائل الإعلام بحلة أنيقة، دبلوماسياً، ذا كاريزما جذابة، تماماً بعكس تلك الصورة المقيتة.

دالي "مفكرا": صدقت. هذا ما يحصلُ فعلا.

[420] **رجل الكهف:** وثالثها، هو أن الكثيرين يلجؤون إلى القراءةِ كمخدر فقط، أي هرباً من الواقع. فكما أن هناك أناساً يهربون من الواقع بلجوئهم إلى التديّن، وآخرين بالموسيقى، وصنفاً ثالثاً بتعاطي أنواع المخدرات أو المهلوسات أو إدمان الكحول، وغيرهم بإدمان ألعاب الفيديو أو مشاهدة الأفلام، فأيضاً يوجد قِسمٌ من الناس يدمن القراءة للهروب من الواقع فقط، يستعملها كمخدر، وكوسيلةٍ لتمضية الوقت. هو لا يثقف نفسه ليقوم بفهم الواقع ومن ثم ليقوم بتحسينه، هو يهرب منه فقط ليعيش داخل فقاعةٍ من عالمه الخاص، فمن البديهي ألا يقارب قراءاته مع ما يحاول الهرب منه.

لوسيل "بتركيز": تحليلك منطقي. فعلاً أعرف نماذج كثيرة من هذا النمط من المثقفين، لكن لم يخطر لي أن أحلل الأسباب بهذه الطريقة.

[421] **رجل الكهف:** "... من الصعب عليه أن يخطأ هدفه لأن قدميه الاثنتين مزروعتان بقوة في الأرض ومضغوطتان عليها بوزن جسمه كاملا. المتوحشون الافريقيون يعبدون الأفعى لأن جسدها كله يلامس الأرض، فهي لابد بالضرورة، تبعاً لهذا، تعرف كل أسرارِ الأرض. إنها تعرفهم ببطنها وبذيلها وبرأسها. هي دائماً على اتصال وتمازج مع الأم. ونفس الأمر ينطبق على زوربا...". هكذا قال الراوي في رائعة نيكوس كازانتزاكيس *زوربا اليوناني* مضيفاً: "... نحن الأناس المتعلمون عبارةٌ عن رؤوسٍ فارغة

في الخطواتِ العشرِ نحو المعرفةِ الموسوعية

تحلق في الهواء.". إن أمثال ذلك المثقف يصدق فيهم هذا القول لأنه منفصلٌ عن الواقع، يعيش في عالم آخر، لا شأن له بمن حوله. لا يلمس الأرض؛ وبالتالي، لن يعرف أسرارها. ليس مزروعاً فيها؛ وبالتالي، سيخطأ أهدافه.

دالي "منفعلا": يا له من تشبيه رائع!

[422] **رجل الكهف**: إنه تعلّم خرائط عن الواقع لكنه لم يطابقها مع الواقع. إنه في الحقيقة قد قايض الواقع كله بخرائط عنه فقط. وما فائدة خرائط لا يُستفاد منها على الأرض؟ ما نفعها إن لم تكن بحوزتك لتستخدمها في زيارة الأماكن المختلفة التي تصوّرها لك؟ تراه يريد مناقشة ما بعد الحداثة وما قبل التاريخ وهو لا يدري ماذا يحصل اليوم. تراه يرغب في معرفة ما قبل الانفجار الكبير وهو لا يعرف كيف تحصل انفجارات الوقود في محرك سيارته. يريد مناقشة ما هو داخل الثقوب السوداء وهو لا يعرف كيف يثقب ثقباً في الجدار. يريد أن يبحث أصل نشأة الحياة وهو لا يعرف كيف تتشكل الأجنة في الأرحام. يريد أن يناقش الفيزياء الكمومية ويبدي رأيه فيها وهو لا يعرف كيف يوصل سلكاً كهربائياً. إنه شغوفٌ بمعرفة إمكانية السفر عبر الثقوب الدودية وهو غير قادر على شراء تفاح لا توجد فيه ثقوبٌ دودية. يريد ابتداع نظام عالمي جديد وهو لا يعرف كيف يعمل نظام التشغيل في حاسوبه. يريد البحث في السفر عبر الزمن وهو لا يعرف كيف تعمل الطائرة التي يسافر بها ضمن نطاق هذا الزمن. يريد تغيير العالم وهو غير قادر على تغيير إطار سيارته أو أسطوانة الغاز في مطبخه. يريد أن ينسخ نظاماً اقتصادياً يعجبه وهو غير قادر على نسخ ملف من حاسوب إلى آخر. هذا إن كنت محظوظاً به يريد هذه الأمور، ولم يكن من ذلك النمط الذي لا يقرأ سوى الروايات والأعمال الأدبية.

[423] **لوسيل** "بحماس": فعلاً، إن غالبية هؤلاء هم مدمنون للأعمال الأدبية فقط.

رجل الكهف: هذا متوقع ومفهوم.

[424] **لوسيل** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الذين يريدون استعمال القراءة كمخدر، للهروب من الواقع، فإن الأدب التخيلي هو أفضل ما يمكنه مساعدتهم في هذا. فهو النوع الوحيد من الكتب التي تقوم بخداع الدماغ كي يعيش منفصلاً عن الواقع.

[425] **دالي** "مذهولا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: إن الدماغ لم يتطور ليتعامل مع المجردات. الدماغ تطور ليتعامل مع الواقع. تطور بطريقة أن يبذل جهداً فيحصل على ثمرته. يذهبُ للصيد، فيعود بفريسة. يمشي، فيصلُ إلى وجهته. يزرع، فيحصد. يطبخ، فيأكل. يبني منزلاً، فيسكن. يصنع شيئاً، فيستخدمه. أما الكسب من القراءة فهو غير ملموس. ولهذا السبب، فإنك في أثناء قراءتك لأي كتاب، خاصة إن لم تكن شغوفاً بمحتواه، فإنك ستصبح شارد الذهن بسرعة، وستثيرُ بسهولةٍ اهتمامَ دماغك أتفه الأمور في محيطك.

لوسيل "مقاطعة بتركيز": صحيح، كلنا قد اختبرنا هذا.

[426] **رجل الكهف:** لهذا السبب، فإن على الإنسان أن يقرأ فقط ما يكون شغوفاً بقراءته كي يحصل دماغه على كسبٍ مباشر من القراءة بحصوله على إجاباتٍ يبحث عنها على سبيل المثال. وإلا، فحتى لو كان الكتاب الذي يقرأه هو من أعظم الكتب قاطبة، لكنه غير مهتم لقراءته، فإن ذبابة تحوم حوله ستكون مثيرة لاهتمام دماغه أكثر من ذلك "الهراء" الذي بين يديه. ولذا، فإن عليه أن يقوم، لحل هذه الإشكالية، بربطِ كل ما يقرأه بالواقع.

[427] **دالي** "مفكرا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: عليك أن تنطلق في قراءاتك من الواقع في محاولة منك لفهمه. ومن ثم، عليك إسقاطُ كل فكرة تقرأها على الواقع كي يبقى دماغك محفزاً وواعياً أن ما تقرأه يلامس الواقع مهما كان مجردا. لكن لو كنت تقرأ بهدف الهروب من الواقع فإن القيام بهذا لن يساعدك. لذا، فإن الأدب التخيلي، على أنواعه، هو ملجؤك الوحيد.

[428] **دالي** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الأعمال الأدبية هي الوحيدة التي يستطيع دماغك أن يعيش فيها. فبدل أن يقوم دماغك بإسقاطِ ما تقرأ على الواقع، فإنه يقوم بالهروب من الواقع وإسقاطِ نفسه في الرواية، أو المسرحية، أو القصيدة، وهذا بتقمصه إحدى شخصياتها على سبيل المثال. فأدمغتنا عندما تطورت في الغابات لم تكن الكتب موجودة، ولا القصص الخيالية؛ وبالتالي، فإن دماغك يخدع نفسه بأن يعيش القصة وأحداثها. وهذا ما يجعلك تتأثر أثناء قراءتك للأدب التخيلي بوجه عام؛ فتفرح وتحزن وتكتئب وتغضب وكأنك تعيش الأحداث بالفعل. نفس الأمر ينطبق على الأفلام والأغاني، التي هي مبنية على أعمالٍ أدبية على أي حال. هل نسيتما حديثنا بالأمس عن كيف أن الدماغ يُخدع بسهولة؟

[429] **لوسيل:** كلا، أبداً، لطالما تساءلت عن سبب تفاعلي مع أحداث الروايات وتأثري فيها واعتبرته أمراً سخيفا.

رجل الكهف: كلا، على الإطلاق، إنه ليس سخيفاً، إنه أمرٌ واقعي لا يمكنكِ التحكم به. قد يختلف هذا التأثر من شخصٍ لآخر، كما إنه ينخفض كلما استطاع الإنسان بناء حِسٍ نقدي عقلاني موضوعي، لكنه يبقى أمراً طبيعياً لا إراديا. بل إن الإنسان ليثار جنسياً لو كان المحتوى فيه إغراء جنسي. وما انتشار الأفلام والمجلات والروايات والصور الإباحية حول العالم إلا دليلٌ على نجاحها في خداع الدماغ. فمن وجهة نظر بيولوجية عقلانية لا يجب أن يُثار الإنسان جنسياً وصولاً لمرحلة القذف أو الرعشة الجنسية دون وجود موضوع جنسي- بحسب تعبير سيغموند فرويد- حقيقي يشاركه التجربة. من وجهة نظر بيولوجية هذا نشاطٌ لا طائل منه، بل وعبثي. لكن أخذاً بعين الاعتبار أننا نحمل أدمغة لم تتطور في ظل وجود هذه الوسائط فإن الأمر يصبح مفهوما. الدماغ يُخدع؛ فيعتبر

الموضوع الجنسي- الوهمي حقيقيا. ونفس الأمر ينطبق على أفلام وروايات الرعب والرومانسية والبطولية وسواها؛ فيعيش المشاهد أو القارئ الحالة بكل تفاصيلها كما لو كانت تحدث معه شخصيا.

داني "مبتسما": أنت داهية. لم أفكر بالأمر على هذا النحو مطلقاً من قبل.

43] **رجل الكهف:** ولهذا السبب بالذات، فإن الأعمال الأدبية هي أكثر ما يتم قراءته حول العالم؛ فهي لا تحتاج لأن ينطلق الإنسان من الواقع أثناء قراءتها. ومع أن الكثير من الأعمال الأدبية العظيمة هي إسقاطات للواقع، إلا أن القارئ الذي يريد الهروب منه لن يلحظ هذا، بل يعيش داخلها في رحلةٍ مجانيةٍ وتجربةٍ خيالية تماماً كما يتعاطى المهلوسات من يريد خوض تجربة ذهنية خارج العالم الواقعي.

لوسيل: إذاً، المثقف الذي تتحدث عنه أنت مختلفٌ تماماً عن هذا.

43] **رجل الكهف:** بكل تأكيد. هل نسيتما ما خلصنا إليه ونحن في طريقنا إلى هنا؟ هل نسيتما أن الثقافة تشمل كل شيء؟ هي ليست تلك المصطلحات الرصينة والكلمات الغامضة فحسب؛ هي كل شيء يحيط بنا. لا أريد مثقفاً يعيش في فقاعةٍ ذهنية. أريد مثقفاً يغير حال الرعايا. يساعد أولئك المساكين داخل الغرف المظلمة. يقوم بتحسين الواقع. كيف بإمكانه فعلُ هذا إذا كان هو نفسه منفصلاً عنهم وعن واقعهم وعما يقومون به من أعمال؟ أريد للمثقف أن يتواصل مع الرعايا بلغتهم وبمفاهيمهم، وأن يحاورهم بما يمكنهم استيعابه، يُشعرهم أنه فردٌ منهم يحس بهم تمام الإحساس، يفهم عليهم ويفهمون عليه، بالإضافة إلى تميزه عنهم لكونه مثقفا.

43] **داني** "متعجبا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: أريده أن يمتلك قاعدة حوار مع الجميع. إن تكلم مع خبير بالحواسيب أن يكون فاهماً بها. وإن تكلم مع ميكانيكي أن يكون قادراً على مجاراته والحديث معه بلغته. وإن تكلم مع مُحاسب أن يكون عارفاً بالمحاسبة. وإن تكلم مع محام أن يكون قادراً على مناقشة القوانين معه. بل أريده إن مارس الجنس أن يكون على علم ومعرفةٍ ليجعل شريكه الجنسي يعيش تجربة مميزة. هكذا يكون المثقف؛ ملم بكل النواحي الثقافية. عليه أن يكون كائناً متكاملاً ملتصقاً بواقعه متعالياً عنه بهالةٍ تميزه عن غيره. لأن تغيير الواقع لا ينطلق إلا من الواقع نفسه ولا يحصل بإسقاطٍ خارجي. وفي ظل التسويق المضاد من قِبل ثواليث القمع، فعلى المثقف أن يُسوّق لنفسه بتقريبها من الرعايا بهذه الطريقة. فضلاً عن أن إلمامه بكل هذه الأمور الحياتية تفيده بشكلٍ شخصي مباشر.

433] **لوسيل:** ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أن يكون قادراً على القيام بخدمة نفسه بنفسه، فلن يضطر للجوء إلى خدمات الحرفيين إلا في حدود الضرورة القصوى، فيكون بهذا ممارساً فعلياً للثقافةِ النظريةِ التي يمتلكها.

434] **داني** "بدهشة": لا يمكنني تخيلُ هذا! ثم إنه لن يستطيع تعلم القيام بتلك الأمور. فالكلامُ النظري شيء، والعملي شيءٌ آخر.

رجل الكهف: ولهذا السبب بالضبط أريده أن يقوم بالخبرة العملية. يقول إيدوارد سعيد في كتابه "تمثيلات المثقف": "... إن وجود المثقف مرهون بالأساس بالمعرفةِ والحرية، ولكن هاذين لا يكتسبان معاً كمجردات... بل كتجارب قد مُرَّ بها في الواقع...". ثم إني لا أتفق معك مطلقاً على أنه لن يستطيع تعلم القيام بخدمة نفسه؛ فالجهل اليوم، في ظل التقدم التكنولوجي، هو قرارٌ شخصي محض. لا يمكن الاعتذار بالجهل طالما أن بإمكانك استخدام محركات البحث على الإنترنيت من هاتفك الذكي وأنت مستلقٍ على سريرك. ولهذا قلت لك إن تعلم اللغة الإنجليزية أمرٌ جوهري في تكوين عقلية المثقف؛ حيث يمكنك البحث عن أي شيء تريد تعلمه وستجد مقالات وفيديوهات تشرح لك أدق التفاصيل في ذلك الأمر. ستتعلمه لمرة واحدة؛ وبعدها، يمكنك تكراره كلما دعت الضرورة. هذا وإن الساعات التي قد تقضيها وأنت تبحث وتتعلم كيفية صيانة شيءٍ ما، أو صنع شيءٍ ما، أو القيام بأمر ما، هي تعلّم، وليست مضيعة للوقت. فإن ما تتعلمه وما تمارسه هو ثقافة. لا يمكنك الاكتفاء بالفقاعة النظرية مالم تلامس بمعارفك الخبرة العملية. وبهذه الطريقة، ستجد نفسك، رويداً رويداً، تزداد ثقافة، وخبرة بالحياة، وفهماً لواقعك ومحيطك، وقرباً من الرعايا وإحساساً بهم.

[435] **داني**: لكن الحرفي، بحكم العادة، سيقوم بالأمر بسرعةٍ أكبر وبجودةٍ أعلى.

رجل الكهف: كما أنه سيقوم به بطريقةٍ تجارية.

[436] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: الحرفي يقوم بعمله كي يكسب المال فقط؛ ولذا، فهو مبرمج على أن يقوم بخطوات معينة ليحصل بعدها على المال. ما يهمه هو المال، وفقط المال. وبالتالي، سيحاول الوصول إليه بأقصر الطرق وأسرعها محاولاً بذل أقل قدر ممكن من الجهد. أما بالنسبة لك، فسيكون الأمر تجربةً علمية. أتفق معك أنه سيكون أسرع منك، وأنك قد تخطأ مرةً أو أكثر، وتتعلم من أخطائك، لكن هكذا يتعلم الناس. ألا تريد أن تصبح مثقفا؟

داني "بتركيز": بلى بالتأكيد.

[437] **رجل الكهف**: ناهيك عن أمرٍ جدّ مهم، وهو أن معظم الحرفيين في دول العالم الثالث والدول النامية يتعلمون حرفهم بالممارسة؛ أي، بالتدريب العملي، دون أي بحثٍ نظري. بيدَ أن كل المهن والحِرف تتكون من مزيج شقين هما عملي ونظري. وإن الشق النظري هو تلك المعلومات التقنية والتفاصيل الدقيقة التي لا يمكن لخبرة الحرفي العادي أن تُكسبه إياها، بل يتم اكتشافها في المخابر التقنية والدراسات العلمية. وعليه، فنعم سيقوم الحرفي بإنجاز المهمة، ونعم سيقدم رأيه المستمد من الخبرة، لكن مالم يكن ملماً بالدراسات النظرية التي تتعلق بحرفته أو مهنته فرؤيته ستكون لا بد قاصرة، وسيكون عمله بعيداً كل البعد عن المثالية أو حتى الجودة أحيانا. ويُستثنى من هذا الحِرف التي تعتمد على الإبداع أكثر من التقنية.

دالي "بدهشة": لم أنتبه لهذه النقطة!

[438] رجل الكهف: لكن بما أنك باحث، فأنت ستقوم بالإلمام بكل الجوانب النظرية والتفاصيل التقنية قبل أن تبدأ ممارستك العملية لأي شيء. وبما أنك تقوم بهذا العمل لنفسك، فستحاول أن تقوم به بأفضل طريقةٍ ممكنة. وكلما كانت بصيرتك ثاقبة أكثر كلما اقتربت من المثالية في عملك. وسيسعَدُ دماغك بالمكافئة في لمسه لنتيجة جهده المبذول. أضف إلى أنك، كمثقفٍ موسوعي مُلِم بمختلف المجالات، ستخرج بحلولٍ وأفكارٍ إبداعيةٍ دامجاً فيها مجالات متنوعة، وهذا ما لا يفعله الحرفي قاصر النظر المحدود بخبرته الروتينية في مجاله الضيق. ألم تقرأ ما كتبه جان جاك روسو في اعترافاته: "ومهما تكن قِلّة ما لدى الإنسان من ميلٍ حقيقي للعلوم، فأول شيءٍ يشعر به حين يقبل على دراسة العلوم هو ترابطها الذي يجعلها تتقارب وتتعاون ويلقي كلٌّ منها الضوء على الآخر بحيث لا يكون ثمة غِنى لواحدٍ منها عن الآخر. ومع أن الذكاء البشري لا يقوى على أن يسعها جميعاً، بل إنه لا بد له دائماً من أن يتخذ واحداً منها كأساس، إلا أن المرء كثيراً ما يجد نفسه في الظلام -لاسيما في العلم الذي اختاره- إذا هو لم يُلِم بفكرة عن العلوم الباقية..."؟ كم من الناس قد وعى هذه النقطة؟

[439] دالي "مفكرا": أعتقد أنك مُصيب. لكن من أين لي بالأدوات اللازمة؟

رجل الكهف: إن الأدوات والمعدات التي تُنتج في الصين اليوم هي زهيدة الثمن. أنت لست بحاجةٍ إلى معدات احترافية كمن يحتاجها للاستخدام اليومي المكثف. كلما احتجت لشيءٍ ما اشتره واضفه إلى صندوق أدواتك.

دالي: فكرةٌ صحيحة.

[440] رجل الكهف: وهكذا، دون أن تشعر، تكون قد تعلمت الواقع بالاحتكاك المباشر معه، وتعلمت أموراً لم تكن تعرفها، وشعرتَ بشعورِ الحرفيين، وتقربت من الرعايا، وأصبحت قادراً على إيجاد أحاديث مشتركة معهم. ليس هذا فحسب، بل هم سيجدون الحديث معك ممتعاً لأنك عالم بخفايا أعمالهم وتستطيع الحديث معهم حولها، ولستَ ذلك المثقف المتعالي الذي سبقت الإشارة إليه.

دالي "بسرور": فكرةٌ رائعة!

[441] رجل الكهف: أنا أتكلّم بالطبع عن الأمور الروتينية والبسيطة. من المؤكد أن هناك أموراً تحتاج تخصصات لا يمكنك تعلمها ببضعةِ ساعاتٍ أو أيام، وأموراً تحتاج معدات غالية الثمن أو كبيرة الحجم لا يمكنك شراؤها، وأموراً يكون إيكالها إلى حرفي أرخص بكثير وأكثر عقلانية من أن تقوم أنت بها. عليك أن تكون حكيم نفسك.

لوسيل: لم يخطر في بالي أن يفكر مثقفٌ، مجرد تفكير، بالقيام بالأعمال الحرفية!

[441.1] رجل الكهف: يجب أن يخطر في بالك إذا كان جان جاك روسو قد قال: "... إنني كنت -في الأعمال التي لا تتجاوز طاقتي- أعمل كأي فلاح...".

ما المثقف؟

لوسيل "بدهشة": فعلاً لا أستطيع تخيل الأمر!

[442] **رجل الكهف:** اسمعي قول توماس هكسلي في كتابه *في دراسة علم الحيوان*: "... في عالم الأدب، التعلم والمعرفة هما شيءٌ واحد، والكتب هي مصدر للاثنين. بينما في العلم، كما في الحياة، التعلم والمعرفة متمايزان، ودراسة الأشياء، وليس الكتب، هي مصدر الأخيرة.". أي، مصدر المعرفة في العلوم وفي الحياة. لذا، لا يمكن للمثقف أن يكون منفصلاً عن التجربة العملية مكتفياً بالمعرفة النظرية.

دالي "مفكرا": مقنعٌ تماما.

[443] **رجل الكهف:** علينا كسر تلك الصورةِ النمطيةِ للمثقف، فهي صورةٌ مشوهةٌ ومنفصلةٌ عن الواقع. علينا الحذر، كل الحذر، من أن نقع في ذلك الفخ؛ أي، أن نكون ذلك المثقف المحدود البصيرة الذي يعتقد أن ما لا يعرفه هو لا يُعتبرُ أمراً يستحق المعرفة. فالمعرفة لا تُحددُ بما يرغب به الأشخاص المنفردون. كتب توماس سويل في كتابه *المثقفون والمجتمع*: "الشخص الذي يُعتبرُ شخصاً واسع المعرفة عادةً لديه معرفة من نوع خاص، ربما أكثر أكاديمية، أو أنواع أخرى من المعارف لا توجد بين السكان على نطاقٍ واسع. الشخص الذي لديه معلومات أكثر في أمور دنيوية أكثر -السباكة، أو النجارة، أو نواقل الحركة الأوتوماتيكية على سبيل المثال- أقل احتمالاً في أن يُقالَ عنه واسع المعرفة بواسطة هؤلاء المثقفين الذين يعتبرون ما لا يعرفونه ليس معرفة... إنه من غير المؤكد، بأي حالٍ من الأحوال، أن النوع من المعرفة المملوكة بواسطة المثقفين هي بالضرورة أكثر ترابطاً منطقياً في تأثيراتها في العالم الواقعي.". هل فهمتَا الآن لِمَ يتوجب على المثقف أن يَطّلعَ على -ويمارس- الأنشطة التي لطالما تم اعتبارها أنشطة غير ثقافية؟ إن هذا الاعتبار بحد ذاته خاطئ! فكما كان واضحاً من تعريف الثقافة؛ لا يوجد شيءٌ اسمه أنشطة غير ثقافية!

لوسيل "بابتسامة": فهمتُ فكرتك.

[444] **رجل الكهف:** لا شك في أن القراءة هي العمود الفقري في تكوين المثقف. إلا أني أرى هياكل عظمية كثيرة. والهياكل العظمية سهلة الكسر، ولا يُستفاد منها إلا كتمثالٍ يستخدمه هاوٍ للزينة. كما إني أرى كتلاً عضلية منتشرة بكثرة في المجتمعات. لا الهياكل العظمية الجرداء، ولا الكتل اللحمية الصماء يمكنها تغيير وتطوير المجتمعات. فقط أولئك القلائل الذين يكسون هيكلاً عظمياً بكتلة عضلية يحصلون على مزيجٍ متناسقٍ وقوي بما يكفي لتحقيق تغييرٍ ما في أي مجتمع.

دالي "مركزا": تشبيهٌ جميل.

[445] **رجل الكهف:** والآن، عودٌ على بدء. هل تعتقد أن خريطة الطريق تلك مفيدة، وتمكنك من خوض غمار بحر الثقافة بثباتٍ دون أن تكون تائهاً تتقاذفك الأمواج؟

دالي "بحماس": بكل تأكيد. إنها تمكنني في كل مرحلةٍ من تملّك الأدوات التي سأستفيدُ منها في المرحلة التالية.

[446] **رجل الكهف**: أعرف أنك تسجل المحاورة كي تسمعها لاحقاً، لكن هل لك أن تتذكر تلك المراحل وتوجزها لي كي أتأكد أنك وعيتها؟

دالي "محاولاً الاستذكار": عليّ أن أكون:

1-مُلماً إلى أبعد الحدود في مجالٍ واحدٍ على الأقل من مجالات المعرفة الإنسانية وكل ما يتعلق بهذا المجال.

2-مُلماً بلغتي الأم، ولغةِ البلدِ الذي أقيمُ فيه، بالإضافةِ إلى اللغةِ العالمية.

3-مُلماً بثقافتي الأم، وثقافةِ البلدِ الذي أقيمُ فيه، بالإضافةِ إلى ثقافةِ الحضارةِ السائدةِ عالميا.

4-مُلماً بالعلوم الحديثةِ وتطوراتها، على الصعيدين النظري والتطبيقي، وفاهماً لمنهج البحث العلمي.

5-مُلماً بالأعلام وأفكارهم وحقبهم الزمنية.

6-مُلماً بخريطةِ العالم الطبيعيةِ والسياسيةِ وتوزع اللغاتِ والايديولوجياتِ عالميا.

7-مُطلعاً على المدارسِ الفلسفيةِ الكبرى، والحضاراتِ الإنسانية الكبرى، والإيديولوجيات الكبرى، والعلوم الأساسية.

8-مُلماً بخريطة المعارفِ الإنسانيةِ وفروعها وترابطاتها.

9-مُتعمقاً في فرعٍ أو أكثر من المعارفِ الإنسانية.

10-زيادة التوسع في الوصايا السابقةِ على مستويي التعمق والشمول.

[447] **رجل الكهف**: جميلٌ جداً، لقد انتهيتَ إلى عشر مراحل، وهذا يسهّل عليك مراقبة تقدمك، فكل مرحلةٍ منها ستعطيك نسبة واحدٍ على عشرة، أو عشرةٍ بالمئة.

دالي "مبتسما": صحيح، لم أنتبه لهذا. إنها مصادفةٌ جيدة.

[448] **رجل الكهف**: إذن، لم تعد يائساً كما كنت أثناء تناولنا للطعام.

دالي: كلا، بل أنا متحمسٌ جداً لأبدأ الإبحار.

رجل الكهف: يسعدني سماع هذا. فلنعد أدراجنا الآن قبل أن يحل الظلام.

(أثناء عودتهم، يخبر الصحفيان رجل الكهف أن عليهما المسير قبل منتصف يوم بعد الغد؛ فيقوم الأخير بإرشادهما إلى الطريق المختصر الذي يفضي إلى أقرب محطةٍ طرقيةٍ خارج الغابة)

****

الباب الثامن
في مفاتيح تحرير الدماغ

(ثلاثتهم جالسون داخل الكهف صباح اليوم التالي يشربون القهوة ويستمعون إلى موسيقى الجاز)

[449] **لوسيل** "برقة": يؤسفني أن يكون هذا آخر يوم لنا برفقتك.

رجل الكهف: إن هذا محزنٌ فعلاً، فصحبة شبابٍ شغوفٍ بالمعرفة مثلكما ممتعةٌ إلى أبعد الحدود.

دالي "مبتسما": ونحن أيضاً لم نشعر بالوقت في رفقتك، وكم كنا لنكون محظوظين لو صادفناك منذ بداية رحلتنا.

[450] **رجل الكهف**: يبدو أن لا شيء يدوم في هذه الحياة إلا الألم والحزن. أما المسرات فسرعان ما تنتهي.

لوسيل "بلطف": لكن مازال أمامنا اليوم بأكمله ولدينا الكثير لنتناقش حوله.

[451] **دالي** "بحماس": صحيح، فأنا أريد مشاطرتك أمراً أفكر به منذ أن كنا على الشاطئ.

رجل الكهف: وما أخرك عن ذلك ؟

دالي "بخجل": خشيت أن أكون مِلحاحاً مُزهِقا.

[452] **رجل الكهف**: كلا يا صاحبي، فالحوار البناء يثري المعرفة ويحرك ركود الأدمغة. "... كل ما نحتاجه هو النقاش؛ وعندها، نكون متأكدين من أننا نقوم بعملٍ جيد. لا يهم ما يمكن أن تكون عليه أخطاؤنا؛ فخطأ سيتصادم مع آخر، كلٌ منهما سيدمّرُ غريمه، وتُستنبطُ الحقيقة...". هكذا كتب هنري باكل في "تاريخ الحضارة في إنكلترا".

دالي "مبتسما": صدقت.

[453] **رجل الكهف**: فما هو ذلك الأمر الذي جال في نفسك؟

دالي: إني إذ فكرتُ في الثقافة والمعارف الإنسانية وقد عقدت العزم على اتباع الخطوات التي نصحتني بها، فوجدت أن المهمة جسيمة يصعب على الإنسان إنجازها؛ إنها ستتطلب مني أن أفرغ جُلَّ وقتي للبحث والتعلم وقراءة الكتب والمجلدات الضخمة.

[454] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": على رسلك يا صاح. من قال لك هذا؟ لقد أشرتُ لك أن عليك اعتبار بحثك الثقافي هواية. أليس للناس هوايات؟

دالي "بتعجب": بالتأكيد.

[455] **رجل الكهف**: وأن تكون مثقفاً يعني أنك تتخذ من الثقافة هواية لك. مهما كان تحصيلك الأكاديمي

في مفاتيح تحرير الدماغ

عالياً، ومهما كانت المهنة التي تعمل بها تُعتبر مهنة ثقافية بامتياز، فإني أريدك أن تفرق تماماً بين مهنتك هذه وبين كونك مثقفا. ذلك العمل المحترف هو مهنة، أما كونك مثقفاً فهي هواية.

داني "مستغربا": لم أفهم المغزى من هذا!

[456] **رجل الكهف**: المهنة هي عملٌ تقوم به لأجل المال. المالُ هو حافزك ومبتغاك. وأنت لا تحصلُ على المال إلا إن أعطاك إياه شخصٌ آخر، أو هذا ما أتمناه. وعليه، فأنت مضطرٌ، عادةً، لأن تداهن وأن تسلك سلوكاً معيناً يضمن لك الحصول على المال.

داني: هذا صحيح.

[457] **رجل الكهف**: والمالُ هو أهم أداةٍ بيد أي ثالوث قمع، وهو سيقطعه عنك إن لم يعجبه نشاطك الثقافي، بالإضافة إلى أنه سفريك به لتنتهج نهجاً يرضيه في بحثك. وبالتالي، سيستخدمك كأداة لزيادة قمع الرعايا والتحكم بهم. وأنا أريدك مثقفاً يساهم في تحرر الرعايا. لذا، وجب عليك ألا تضع بحثك الثقافي تحت رحمة أحد، ولا في ضوء إشراف أو مراقبة أحد. أتوسل إليك، إن لم تكن قادراً على فعل هذا فأرجوك لا تحاول أن تصبح مثقفا. من الأفضل أن تكون فرداً من الرعايا مظلوماً على أن تكون مثقف سلطةٍ ظالما. إن إمتلاك الثقافة أعظم شأناً بكثير من إمتلاك قطعة سلاح، ولا يستطيع ضميري تحمُل تبِعات ما قد تفعله بها إن تم شراؤك.

داني "بنفي قاطع": كلا، يستحيل أن أصبح كذلك. لا تقلق.

[458] **رجل الكهف**: ولذا، فأنا أريدك أن تخرج من تحت عباءة ثالوث القمع بأن تتخذ مهنة لنفسك، أياً كانت، وأن تجعل من بحثك الثقافي هواية. كتب بيرتراند راسل في *الاستيلاء على السعادة*: "واحدٌ من أسباب عدم سعادةِ المثقفين في العصر الحالي هو أن عدداً كبيراً منهم، خاصة أولئك الذين مهاراتهم أدبية، لا يجدون فرصة للتجربة المستقلة لمهاراتهم، لكن يتوجب عليهم أن يؤجروا أنفسهم للمنظمات الغنية التي يديرها غير المثقفون، الذين يصرون في إنتاجهم على ما يعتبره المثقفون أنفسهم هراءً خبيثا...". وأشار إيدوارد سعيد في كتابه *تمثيلات المثقف* إلى أن: "... التهديد الخاص للمثقف اليوم، سواء في الغرب أو العالم غير الغربي، ليس الجامعة، ولا الضواحي، ولا الروح التجارية المروعة للصحافة ودور النشر، لكن الموقف الذي سأسميه احترافية. أنا أقصد بالاحترافية التفكير بعملك كمثقف كشيءٍ تقوم به من أجل العيش، بين الساعة التاسعة والخامسة، بعينٍ على الساعة والأخرى موجهةٍ نحو ما يُعتبرُ السلوك المهني اللائق؛ لا تُأرجح القارب، ولا تشرد خارج النماذج المقبولة أو المحدودة، جاعلاً نفسك قابلاً للتسويق، وفوق كل شيء أنيقا؛ وبالتالي، غير مثير للجدل، وغير سياسي وموضوعي.". ويوضح الأمر جان بول سارتر في كتابه *ما الأدب؟* بقوله: "... هناك صفاتٌ تأتينا فقط بواسطة آراء الآخرين. في حالة الكاتب، الحالة أكثر تعقيداً، لأنه لا يوجدُ شخصٌ قد أُجبرَ على أن يختار لنفسه أن يكون كاتبا. وبالتالي، الحرية هي الأصل. أنا مُؤلِفٌ، بادئ ذي بدء، من خلال نيَتي الحرة للكتابة. لكن في وقتٍ ما يتبع هذا، أنا أصبح رجلاً يعتبره رجالٌ آخرون كاتبا. هذا

الذي عليه أن يستجيب لمطلب محدد، والذي قام باستثمار سواء أعجبه أم لا، مع وظيفة إجتماعية محددة. أياً ما كانت اللعبة التي ربما يرغب بلعبها، عليه لعبها بناءً على التمثيل الذي يملكه الآخرون عنه... وبالتالي، العامةُ تتدخل بعاداتها، ونظرتها للعالم، وتصورها للمجتمع وللأدب ضمن هذا المجتمع. إنها تحيط بالكاتب، إنها تطوقه، وغطرستها أو مطالبها الخبيثة، ورفضها أو هروبها، هي المعطيات الحقيقية التي يمكن بناء العمل على أساسها.". هل لاحظت المشكلة في المهنة الثقافية؟

[459] **دالي** "بتركيز": **فهمتُ مقصدك. كما إنني لاحظت أن جان بول سارتر يقرر أنه مالم تكن هناك معارضة لعملك الثقافي، ومحاولات لكبحه، فإن هذا يعني أنك لا تقوم ببناءٍ ثقافي.**

رجل الكهف: بالتأكيد. فإن لم تلق معارضة، سواء من قِبلِ الرعايا أو من قِبلِ واحدٍ من أركان ثالوث القمع على الأقل، فهذا يعني، ضمنياً، أن مجرى بحثك يتلاءمُ مع ما هو سائدٌ في الغرفة؛ وبالتالي، فأنت لم تخرج بعدُ من الغرفة ولم تبدأ صعود البرج.

لوسيل "بإعجاب": **ملاحظةٌ قيّمة.**

[459.1] **رجل الكهف:** "لقد كان بوسعي أن أرتمي تماماً في أحضان الجانب الأكثر إدراراً للربح. وبدل أن أذلّ قلمي للنسخ كان بوسعي أن أكرسه تكريساً تاماً للكتابة التي كانت... كفيلة بأن تمكنني من أن أعيش في سعة، بل في بذخ، لو أنني وافقت على أن أجمع بين جيبلي المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة. بيدَ إنني كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش لن تلبث أن تخنق نبوغي، وأن تقتل موهبتي التي كانت في قلبي أكثر مما كانت في قلمي، والتي لم تنبعث إلا من أسلوبٍ في التفكير راقٍ أشم هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة. فما من شيءٍ قوي، ولا من شيءٍ عظيم، يمكن أن ينساب من قلم أجيرٍ مرتعش.".

دالي "مردداً بإعجاب": **ما من شيءٍ قوي، ولا من شيءٍ عظيم، يمكن أن ينساب من قلم أجيرٍ مرتعش. من هو قائل هذا الكلام الرائع؟**

[459.2] **رجل الكهف:** إنه جان جاك روسو، الذي يتابع في اعترافاته قائلاً: "إن الحاجة -وربما الجشع- كانت كفيلةً بأن تدفعني إلى أن أتعجّل أكثر من أن أتيقن. ولولا أن الرغبة في النجاح قد زجّت بي إلى الدسائس، لكان من المحتمل أن تجعلني أناضلُ لأقولَ ما قد يطيب للناس، وليس ما هو صادقٌ ونافع. وبدلاً من المؤلّف البارز الذي كان بوسعي أن أغدوه، فإنني ماكنت لأصبح سوى مُستوِّدٍ للورق! لا، لا! لقد كنت أشعر دائماً أن مكانة المؤلّف لا يمكن أن تصبح مرموقةً ومحترمةً إلا إذا كان التأليف بعيداً عن أن يكون حِرفة.". ويشرح السبب بقوله: "إذ إنه من الصعب، كل الصعب، أن يفكر الإنسان تفكيراً نبيلاً سامياً إذا ما كان مضطراً إلى ألا يفكر إلا طلباً للرزق.". ويضيف: "ولكي يكون الكاتب قادراً، ولكي يجسر على أن ينطق بالحقائق الجليلة، ينبغي ألا يُعوّل على النجاح ويركن إليه. ولقد دفعتُ بكتبي إلى الناس بضميرٍ مطمئنٍ إلى أنني إنما تكلّمت من أجلِ الصالح العام، غير حافلٍ بأي شيءٍ آخر. فإذا رُفِضَ الكتاب، فيا تعساً لأولئك الذين لم يشاؤوا أن يفيدوا منه. أما أنا، فما كنت

بحاجةٍ إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش، فإن مهنتي كانت كفيلةً بأن تعولني إذا لم تلق كتبي مشترياً. وهذا بالذات هو الذي جعلها تُباع وتروج.".

لوسيل "بعينين لامعتين": هذا عظيمٌ حقاً، إنها ملاحظاتٌ حاذقةٌ وواقعية.

[460] **رجل الكهف** "وهو ينفث دخان غليونه": وتذكرا ما قاله تشارلز كولتون: "نحن ندين بكل معارفنا تقريباً ليس لأولئك الذين وافقوا، بل لأولئك الذين خالفوا".

داني "مفكرا": فعلاً، هذا صحيح.

رجل الكهف: وللتخلص من هذه الإشكالية، أو الضغوطات كما عبّر عنها إيدوارد سعيد، فإن الحل يكمن في تحويل النشاط الثقافي إلى هواية. فالهواية دائماً تبقى حرة من أي توجيهٍ أو ضغوطٍ أو مؤثرات.

[461] **داني** "مُستفهما": وما هي هذه الضغوط التي حددها إيدوارد سعيد؟

رجل الكهف: "التخصصُ هو أولُ هذه الضغوط. كلما ارتقى الإنسان في النظام التعليمي اليوم، كلما تم تقييده في منطقةٍ محدودةٍ نسبياً من المعرفة. الآن، لا أحد يمكنه أن يملك أي شيء ضد هكذا كفاءة، لكن عندما تتورط في خسارةِ الرؤيةِ لأي شيء يقع خارج الحقل المحدود للشخص -لنقل، قصائد الحب من العصر- الفيكتوري المبكر- والتضحية بالثقافة العامة للشخص لمجموعةٍ من السلطات والأفكار الرسمية؛ عندها، المهارة في هذا الحال لا تستحق الثمن المدفوع لها.". ويضيف: "في دراسة الأدب، على سبيل المثال، والذي هو اهتمامي المحدد.... في النهاية، كمثقف متخصص تماماً بالأدب أنت تصبح مُروضاً ومتقبلاً لأي شيء سيسمح به من يُعتبرون رواداً في المجال. التخصص أيضاً يقتل لديك حس الإثارة والاستكشاف، وكلاهما حاضرٌ بشكل لا يمكن اختزالهُ في تكوين المثقف. في التحليل النهائي، الاستسلام للتخصص هو، كما شعرتُ دوماً، تكاسل. حيث ينتهي بك المطاف لتقوم بما يقوله لك الآخرون، لأن هذا هو تخصصك على أي حال.".

[462] **لوسيل** "بتعجب": لم أفكر أبداً بالأمر على هذا النحو. هلا أخبرتنا بالضغط الثاني؟

رجل الكهف: يتابع إيدوارد سعيد قائلاً: "إذا كان التخصصُ هو نوعٌ من الضغطِ العام الهادفِ في كل الأنظمة التعليمية في كل مكان، فإن الخبرة وعبادة الخبير الحاصلِ على شهادةٍ هما ضغطان أكثر تحديداً في عالم ما بعد الحرب. كي تكون خبيراً عليك أن تكون مزوداً بشهادةٍ من قبل السلطاتِ المعنية. هم يقومون بتوجيهك كي تتكلم بالطريقةِ المناسبة، وتستشهد بالسلطاتِ المناسبة، وتبقى في حدودِ المناطق المناسبة. وهذه تصدق على وجهِ الخصوص عندما تكون مناطق حساسة و/أو مربحة من المعرفة على المحك.". ويَخلُص مُصيباً إلى هذه النقطة الهامة: "في النهاية، إن الخبرة، بالمعنى الدقيق للكلمة، هي على علاقةٍ ضعيفةٍ، نوعاً ما، مع المعرفة...".

داني "باهتمام": هذا كلامٌ لم أكن لأفكر فيه قبل سماعي لقصة البرج. أرجوك تابع.

- 105 -

ما المثقف؟

[463] **رجل الكهف:** "الضغطُ الثالثُ للاحترافِ هو الانجرافُ المحتومُ نحو القوة والسلطة في إتباعها، نحو المتطلبات وامتيازات القوة، ونحو أن تكون مُستخدَماً بشكلٍ مباشرٍ من قِبَلها...".

لوسيل "بحزم": هذا ما لا يجب أن يكون عليه من صعد البرج.

[464] **رجل الكهف:** "لهذا، فإن مشكلة المثقف هي أن يحاول التعامل مع الصدامات ومع الاحتراف الحديث كما كنت أناقشهم. ليس عبر التظاهر أنهم غير موجودين أو إنكار تأثيراتهم. لكن عن طريق تمثيل مجموعةٍ أخرى من القيم والامتيازات، والتي سوف أجمعها تحت اسم الهواية. حرفياً: نشاطٌ مدفوعٌ بالعنايةِ والعاطفةِ بدلَ الربح والتخصص الضيق الأناني. على المثقف اليوم أن يكون هاوياً...".

هذا ما انتهى إليه إيدوارد سعيد.

[465] **دالي** "بخجل": المعذرة. لقد فهمتُ أنك تريدني أن أمارس البحث الثقافي كهاوٍ لا كمهني، إلا أني لم أفهم مقصد إيدوارد سعيد بشكلٍ واضح.

رجل الكهف: لا عليك. يصف إيدوارد سعيد الهواية بوضوح أكبر بقوله: "... الرغبة لكي يتم تحريكك لا بواسطةِ الربح أو الجوائز، بل بواسطةِ الحب والاهتمام الذي لا يمكن إشباعه في إطار الصورة الكبيرة، وفي إقامة روابط عبر السطور والحواجز، وفي رفضك لأن يتم تقييدك لتخصصٍ ما، وفي الاهتمام بالأفكار والقيم بغض النظر عن القيود المفروضة في المهنة.". هكذا يكون المثقف، وهكذا يختلف عن المهني. الفرق بينهما هو في حرية الأول من جميع القيود بينما محدودية الثاني بها.

[466] **دالي** "بتعجب": هذه أغرب هوايةٍ أسمع بها في حياتي. كيف لي أن أمارس هكذا هواية بحق السماء!

رجل الكهف: هل تذكر نصيحة توماس هكسلي؟

دالي: أجل، "حاول أن تتعلم شيئاً ما عن كل شيء، وكل شيءٍ عن شيءٍ ما".

[467] **رجل الكهف:** اسمع ما كتبه عنه هنري مينكن في جريدة "The Evening Sun"، العدد الصادر في 4 مايو 1925: "كبيولوجي ممتهن، لقد غطى في الحقيقة كل العلوم المتخصصة في المجال، ثم برز من خلال أسوارها الأربعة. لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق لا يثير اهتمامه. فضوله امتد من الموسيقى إلى اللاهوت، ومن الفلسفة إلى التاريخ. هو لم يكن يعرف ببساطةٍ شيئاً عن كل شيء، هو عَرَفَ قدراً عظيماً عن كل شيء.". هل لاحظت ماذا فعل؟

دالي: نعم، لقد ركز كل جهوده على تعلم مهنته وما يحط بها، ثم بدأ ينتشر خارجها نحو الأبعد فالأبعد.

[468] **رجل الكهف:** صحيح، لكن ما هو المفتاح لهذا؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": لم يكن هناك شيءٌ على الإطلاق لا يثير اهتمامه.

[469] **رجل الكهف:** بالضبط. بكلماتٍ أخرى؛ كان فضوليا.

داني: هذا صحيح.

رجل الكهف: في الحقيقة، إن معظم الناس فضوليون بطبعهم. تراهم فضوليين ليعرفوا قصص الجوار، وما يجري بين الأصدقاء، وما يفعله الأقارب، وما يحصل مع الزملاء. يراقبون الناس ويتقصون أخبارهم، ويلاحقون أخبار المشاهير في حيواتهم الخاصة، ويسألون عن كل صغيرةٍ وكبيرةٍ لكن فقط فيما يمكن أن أسميه "اهتمامات الرعايا". هكذا هم الرعايا، محدودو الأفق تافهو الاهتمامات. وبالتالي، فإن كل ما عليك القيام به هو إعادة توجيه هذا الفضول، من كونه محصوراً فيما يفعله جيرانك وما اشتراه أقرباؤك وما يحصل مع زملائك، إلى أمورٍ ثقافيةٍ بناءة، إلى أمورٍ حقيقيةٍ تفيد بناءك الفكري والثقافي. "... إنني لم أبدأ العيش إلا حين اعتبرت نفسي رجلاً ميتاً! وبينما رحت أُقدّرُ الأشياء -التي كنت مزمعاً على أن أتخلى عنها- بقيمتها الحقيقية، شرعتُ أشغل بالي بأمورٍ أسمى وأنبل، وكأنما كنت أريد أن أستبق الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أداءها، والتي كنت قد أهملتها -حتى ذلك الحين- إهمالاً شنيعا...". هذا ما فعله جان جاك روسو -الذي قام بهذا التغيير إبان مرضه الشديد الذي ألم به- وهو في الخامسة والعشرين من العمر ليصبح بسببه لاحقاً أحد أبرز وجوه عصر الأنوار. عليكما الاقتداء به.

[470] **لوسيل** "بحزن": صحيحٌ جداً، لو وجه الناس فضولهم الفارغ ذاك نحو المعرفة المفيدة لتغيرت المجتمعات كلها نحو الأفضل خلال بضع سنوات فقط.

[471] **رجل الكهف:** قال جان بول سارتر: إن المثقف "هو الشخص الذي يهتم بأمورٍ لا تعنيه إطلاقا". ويشرح جيرار ليكلرك فضول المثقف في "سوسيولوجيا المثقفين" بقوله: "... يتجاوز المثقف حقل مهاراته المهني... ليتكلم في أمورٍ ليس خبيراً فيها، بل هو يرى نفسه معنياً بها، بل هو متورطٌ فيها... المثقف كائن طفيلي، فضولي بطبيعته، يتجاوز بما عنده من روح نقديةٍ وباحثةٍ كل التزام مهني. وهذا ما حدده ماركس إذ أشار إلى أن الفيزيائي المتخصص بالذرة حين يتحدث عن الانشطار النووي فهو يتحدث بوصفه عالماً، أما حين يتحدث عن الاستخدام العسكري للذرة فهو يعبّر عن نفسه بوصفه مثقفا...". هل فهمت الفكرة يا داني؟ وهل لاحظت الفرق بين كونك ممتهناً وبين كونك مثقفا؟

[472] **داني** "مفكرا": نعم لاحظت. إذن، بدل التساؤل والفضول لمعرفةِ توافهِ الأمور، عليّ أن أسخر ذات الجهد للتساؤل والفضول لمعرفة ما يبني لي عقليتي المثقفة.

[473] **رجل الكهف:** بالتأكيد. إن الناس يحصلون على ألقابهم المعنوية بناءً على ما هم بارعون فيه. وما أنت بارعٌ فيه هو ذلك الشيء الذي يثير اهتمامك وتشغل نفسك به. وعندما تشغل نفسك في الأمور الثقافية فأنت تصبح مثقفا. الأمر بهذه البساطة! وكما قلت لك، فقط أريدك أن تسأل، أريد منك أن تسترجع فضول الأطفال الذي تم سحقه وسلبه منك. في الواقع، عليك التدرب لتعيد اكتسابه من جديد.

[474] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أريدك، بادئ ذي بدئ، أن تكون مقتنعاً أن كل المعارف التي اكتسبتها في حياتك، وكل الأفكار التي لديك، وكل المطلقات التي اعتدت التسليم بها، هي أمورٌ قد تمت زراعتها في دماغك بواسطة ثالوث القمع والرعايا داخل الغرفة التي ولدت بها. هل نحن متفقون على هذه النقطة؟

[475] **داني** "مترددا": أنا متفقٌ معك. لقد اقتنعتُ بهذا مسبقاً، لكن كيف لي أن أتخلص من ذلك الإرث الذي، كما أقنعتني أنت، يؤثر في لاوعيي؛ وبالتالي، على نظرتي للأمور، دون إرادةٍ مني. كيف لي تحييد هذا الأثر أثناء بحثي الثقافي؟ أليس هذا ضرباً من الخيال؟

رجل الكهف "وهو يصبُ المزيد من القهوة": لقد اتسع النقاش كثيراً بسؤالك هذا. أريدكما أن تركزا معي جيداً كي لا نتيه.

لوسيل "بحماس، ممسكةً دفتراً وقلماً": كلي آذان صاغية.

[476] **رجل الكهف** "مخاطباً داني": بما أنك متفقٌ معي على ما ذكرت، فإني أريدك أن تنكفئ على نفسك بضع سنوات. وبكلامي هذا، لا أعني ألا تخالط الناس، بل أعني أن تنسى كل خبراتك ومعارفك القديمة وتركز جُلَّ جهودك على بحثك الثقافي، تسمع وتقرأ أكثر من أن تتكلم وتحكم، وذلك بمحاولةٍ منك لكسر تلك الأقفال التي وضعت على دماغك وإبطال البرمجة القديمة. أن تنكفأ على نفسك معناه أن تبدأ كل شيءٍ من جديد دون قاعدةِ بياناتٍ سابقة تقوم باستخدامها. البياناتُ موجودةٌ، وستلح عليك في أن تعمل أو أن تقوم بالتأثير عليك، لكن خلال هذه السنوات سيكون تركيزك على هذا الأمر بالذات محاولاً كبحه بوعيك.

[477] **داني** "بتعجب": وكيف أقوم بهذا؟

رجل الكهف: أريدك أن تضع جميع الملفات في درج مكتبك وتقفل عليها، كل ما كنت تعرفه من معلوماتٍ وأفكارٍ ومبادئ ومسلماتٍ وبديهياتٍ وحقائق؛ وبهذا، أنت تبدأ كطفلٍ صغيرٍ لا يعرف شيئا. ولذا، أريدك أن تسأل. اسأل عن كل شيء، أي شيء يخطر في بالك. مهما كنت تشعر أنه سخيف أو تافه، لا تهتم لشعورك، فشعورك هذا يجب أن يكون في الدرج المقفول. اسأل تماماً كالأطفال الصغار عن كل شيء.

لوسيل "ضاحكة": لكن هذا مضحك، سيبدو غبيا.

[478] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": لقد تساءل موريس فريهيل "من هو الأكثر غباء، الطفلُ الذي يخاف من الظلمة، أم الرجلُ الذي يخاف من النور؟".

داني "بخجل": أتفق معك، لكن كما أشارت لوسيل، أخجلُ من السؤال.

[479] **رجل الكهف:** هل ترى؟ هذا ما تعلمناه داخل الغرف. هل نسيتما حديثنا السابق؟ الأهلُ يقمعون

في مفاتيح تحرير الدماغ

رجلُ الدين يتهرب من سؤالك ويدعوك إلى إيقاف التفكير، ورجلُ السياسة يعاقبك على سؤالك، ويمنعك من إعمال عقلك، والمدرسُ وزملاءُ الدراسة يستهزءون بسؤالك، وربُ العمل يغضب من سؤالك، وزملاءُ العمل يسخرون من سؤالك. هكذا قاموا بأدلجتك وبقتل شغفك وبجعلك واحداً من الرعايا. لا يجبُ أن تسـأل؛ لأنـك إن سـألت فستتعلم. ولا يجبُ أن تـتعلم؛ لأنـك إن تعلمـت فستخرج من الحظيرة. ولا أحد يريدك أن تخرج من الحظيرة التي هو فيها.

دالي "بخجل": صدقت.

[48] **رجل الكهف** "وهو يشغلُ فيديو على حاسوبه": هل تعلمان من هو هذا الشخص؟

لوسيل "بعينين لامعتين": إنه الرائع جورج كارلن.

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": لنسمع ما يقول إذن.

[48] **جورج كارلن**: ... هل كنتم تعلمون هذا؟ يوجد قدرٌ كافٍ من الهراء ليمسك الأشياء على بعضها في هذه الدولة. الهراء هو الصمغ الذي يربطنا كأمة. أين كنا لنكون لولا هراءنا الأمريكي المألوف الآمن! أرض الحرية، موطن الشجاعة، الحلم الأمريكي، كل الناس سواسية، العدالة عمياء، الصحافة حرة، صوتك الانتخابي يتم حسابه، العمل نزيه، الرجل الجيد يفوز، الشرطة إلى جانبك، الرب يراقبك، مستوى معيشتك لن ينخفض، وكل شيء سيكون بخير تماما. الرواية الرسمية للهراء الوطني... كل واحدٍ من هذه البنود يتم البرهنة على عدم صحته على مستوى أو آخر، لكننا نؤمن بها لأنه قد تم دقّها في رؤوسنا منذ الوقت الذي كنا فيه أطفالا. هـذا مـا يفعلونه بهكـذا نـوع مـن الأشـياء؛ يضعونها في رؤوس الأطفـال ويـدقونها فيهـا، لأنهـم يعرفـون أن الأطفـالَ أصـغر مـن أن يقـدروا عـلى أن يكـون باستطاعتهم بناء مجادلاتٍ متطورةٍ لهكذا نوع من الأفكار. وبالمناسبة، فإن الأطفال حتى عمر معين سوف يصدقون كل شيءٍ يقوله لهم الكبار، كل شيء. لهذا، الأطفال لا يتعلمون مطلقاً أن يثيروا الأسئلة حول الأشياء. لا أحد يسأل عن الأشياء في هذا البلد بعد الآن، لا أحد يثير الأسئلة حول الأشياء. لماذا؟ لأن الناس مفرطو السمنة وسعيدون. الناس ناجحون بشكلٍ مفرطٍ في مصالحهم المادية الذاتية... لذا، لا أحد يريد أن يقوم بأي شيءٍ يغيرُ الوضع الراهن. الناس هم مجرد أدوات. الأمريكيون قد تم شراءهم بصمتٍ بواسطةِ الأدواتِ وألعاب الأطفال. وكنتيجةٍ لهذا، لم يتعلم أحدٌ مطلقاً أن يتساءل حول الأشياء. لا أحد يتساءل في هذا البلد، لا أحد...

رجل الكهف "موقفاً الفيديو": تم شراءهم بصمتٍ بواسطةِ الأدواتِ وألعاب الأطفال.

لوسيل "بألم": هذا مريع.

[48] **رجل الكهف**: إن كان كلامه هـذا صـادقاً عـلى دولةٍ تعـد الأعظـم في العـالم -وقـت تسـجيل هـذه الأمسية- فما هو حال الدول القابعة تحت حكوماتٍ ديكتاتوريةٍ صريحة ودول العالم الثالث؟ دعونا نسمع النصيحة الهامة التي سيقولها.

[483] **جورج كارلن:** ... ليس المهم أن تحث الأطفال على القراءة، الأطفال الذين يريدون القراءة سيقرؤون، الأطفال الذين يريدون تعلم القراءة سيتعلمون القراءة، لكن الأهم بكثير هو أن تُعلِّمَ الأطفالَ أن يُسائِلوا ما يقرؤون. الأطفالُ يجب أن يتم تعليمهم أن يتساءلوا عن كل شيء. أن يتساءلوا عن كل شيءٍ يقرؤونه وكل شيءٍ يسمعونه. الأطفال يجب أن يتم تعليمهم أن يتساءلوا عن أفعال السلطات. الآباء لا يُعلمون أبناءهم مطلقاً أن يتساءلوا عن أفعال السلطات لأن الآباء هم مظاهرُ سلطةٍ بأنفسهم، وهم لا يريدون أن يقوِّضوا هراءهم الذاتي داخل المنزل...

[484] **رجل الكهف** "موقفاً الفيديو": هذا ما أريده منك يا دالي؛ أن تتساءل عن كل شيء. فإن فات الأوان، ولم تعد طفلاً بعد الآن، ليتم تطبيق نصيحة جورج كارلن عليك؛ فعليك القيام بهذه المهمة بنفسك بمسؤوليةِ رجلٍ واعٍ. وتذكر المثل الصيني الذي يقول: "إن الذي يسأل يكون غبياً لخمس دقائق، أما ذلك الذي لا يسأل يبقى غبياً إلى الأبد".

دالي "مفكرا": هذا صحيح.

[485] **رجل الكهف:** عليك أن تتخيل نفسك كائناً فضائياً لا تفهم المغزى من أي شيءٍ على هذه الأرض، لا تفهم لِمَ الأشياء هي على ماهي عليه، ولا لِمَ يتصرف الناس بهذه الطريقة أو تلك. عليك أن تبقى تطرح الأسئلة، وتتابع التعمق في طرحها، فستجد نفسك تتفرع في مختلف المجالات المعرفية بحثاً عن الإجابات. وعليك أن تُدرب نفسك على أن تُبقي هذه الأسئلة تجول في لاوعيك. لا تكن مِلحاحاً في طلب الإجابات، بل عليك أن تُراكِم الأسئلة وتقوم بتصنيفها في دماغك، وستجد نفسك تحل الألغاز رويداً رويدا. وأحياناً، ستجد إجابة على سؤال ما وانت تبحث عن الإجابةِ على سؤال مختلف تماماً، بل ربما في حقلٍ معرفيٍ مغايرٍ تماماً، هذه هي متعة هذه الهواية.

لوسيل "بحماسها الطفولي": يبدو الأمرُ ممتعا.

[486] **رجل الكهف:** دالي! إن طرح الأسئلة هو الوقود الذي تستخدمه لتكوين بناءك الثقافي. وإن القاعدة تنص على هذه المفارقة: كلما زاد عدد الأسئلة التي لا إجابات لها عندك، كلما زاد ارتقاءك الثقافي. وكلما زاد عدد الأسئلة التي يوجد لها إجابات عندك، كلما تدنيت في مستواك الثقافي.

[487] **دالي** "ضاحكا": ما هذه المفارقة المضحكة؟

رجل الكهف: ليست مفارقة مضحكة، بل هي حقيقة. إن الأسئلة هي المصعد الذي تستخدمه لارتقاء البرج. هل نسيت أن الرعايا لا يسألون لأن لديهم إجابات جاهزة عن كل شيء؟ هل نسيت أننا وضعنا كل تلك الإجابات في الدرج وأقفلنا عليها؟ ألم تسمع عبارات مثل "كلما عرفتُ أكثر، كلما عرفتُ أني لا أعرف" أو "كلما تعلمتُ أكثر، كلما أدركتُ أني لا أعرف"؟

دالي: بلى بالطبع.

[488] **رجل الكهف:** هذا لأنك كلما تعلمت شيئاً ما ستشعر بتلك الدهشة التي تقول فيها لنفسك: "كيف

كنتُ على قيد الحياة دون أن أعلم هذا بحق السماء، آهٍ كم كنتُ غافلا!". وفي نفس الوقت، ستثار لديك أسئلة جديدة لم تكن لتخطر على بالك، لأنك أصبحت في عمقٍ مختلف في إدراك الأمر موضوع البحث. في الواقع، إن الأمر أشبه باللعبة التي كلما حللت فيها لغزاً ظهر لك على الفور ألغازٌ جديدة. هذا هو السر، هذه هي الإشارة التي تقول لك إنك على الطريق الصحيح في المعرفة. لو استطعت الإجابة على سؤالٍ ولم تظهر لك على الفور أسئلةٌ أخرى فأعد النظر فوراً في منهج بحثك.

[48] **داني** "بذهول": لماذا؟

رجل الكهف: لأن هذا يعني أنك لم تنتقل إلى مستوى أعمق في إدراك الأمر موضوع السؤال. هذا هو معنى ذلك المؤشر.

داني "بيأس": هذا سيدفعني للجنون لو حصل معي.

[49] **رجل الكهف** "يقف ليتمشى داخل الكهف وغليونه في يده": هل تريد أن تصعد البرج أم تريد أن تبقى في الغرفة؟

داني "بدهشة": طبعاً أريد أن أصعد البرج.

[491] **رجل الكهف:** استمع إذن. فإني إذ أعطيتك البارحة الخريطة، فأنا الآن أعطيك مفاتيح الخروج من الغرفة والصعود على البرج. هل ستضع ملفاتك القديمة في الدرج وتقفل عليها، وتبدأ بتحويل فضولك لتتعلم عن كل شيء يحيط بك، وتسأل الأسئلة كالأطفال الصغار؟

داني "بحزم": سأفعل.

[492] **رجل الكهف:** عليك أن تُدرب نفسك على أن تكون موضوعياً في كل شيء، سواء في طرحك للأسئلة، أو في الإجابات التي تقبلها، أو في أحكامك على الأمور، أو في نظراتك إليها. عليك تحييد نفسك ورغباتك ما استطعت. إن الموضوعية المطلقة مستحيلة على أي إنسان، لكن حاول أن تدرب نفسك كي تستطيع ملامستها.

داني: سأحاولُ قدر استطاعتي.

[493] **رجل الكهف:** وعليك أن تكون صادقاً مع نفسك من الآن فصاعدا. لا تكن كالرعايا، الذين يقنعون أنفسهم أنهم مقتنعون مع أنهم مقتنعون أنهم غير مقتنعين. يكذبون على أنفسهم وهم مدركون أنهم يكذبون عليها. أريدك أن تراجع نفسك كل يوم قبل أن تنام، راجع يومك، احسب أخطاءك بحق نفسك وبحق غيرك، عدّ مظالمك، عليك الاعتراف بما تجهله وبتقييم مدى صحة ما تعرفه. لا يوجد أسوأ من أن تكذب على نفسك وتخدعها. إن "... أشهر نمطٍ للكذب هو ذلك الذي يخدع به الإنسان نفسه. الخداع للآخرين هو جريمةٌ نادرةٌ نسبيا..." كما كتب فريدريك نيتشة في "المسيح الدجال". لا يمكن لأدنى قدرٍ من خداع النفس أن يساعدك في تحقيق مبتغاك، بل على العكس تماماً، من شأنه إعاقتك عنه بكل تأكيد. أنت تريد تحرير نفسك من خداع الثالوث فلا تخدعها أنت. كلما كنت أكثر

شفافية وتصارحاً معها، كلما ساعدك هذا على تحريرها ومن ثم تثقيفها. إن لم تكن طبيب نفسك فمن سيكون طبيبك ويكشف لك الضرر الناجم عن البرمجة التي تعرضت لها؟

دالي "بتركيز": لا أحد سواي.

[494] **رجل الكهف:** صحيح، لا يمكن لأحدٍ أن يريد مصلحة نفسك بإخلاصٍ وصدقٍ ونقاءٍ أكثر منك.

[495] **لوسيل** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أقصد ألا تنتظري الفارس الذي سيأتي إلى نافذتكِ ليلاً، على حصان أبيض مجنح، ليأخذكِ إلى مملكته ويجعلكِ أميرة. لن يأتي هذا الفارس. وإن أتى، فإنما هو سيأخذكِ لتصبحي زوجته، ليمارس معكِ الجنس ويستأنس بوجودكِ في حياته، وليس مطلقاً لأنه يريد إنقاذكِ من واقعكِ وتحسين حياتكِ. "هذا هو القانون، أبقه في ذهنك: من المهد إلى اللحد، الإنسان لا يقوم على الإطلاق ولا بشيءٍ واحدٍ لا يكون هدفه الأول، بل الأوحد، هو تأمين راحة باله واطمئنان نفسه.". هذا هو القانون الذي أقره مارك توين في "ما الإنسان"*. كل الكائنات الحية أنانية. ولا أريد أن أستفيض في هذا الأمر الآن فيأخذنا إلى علم الأحياء وعلم النفس التطوري، لكن أرجوكما لا تكونا ساذجين. نعم هناك أناسٌ يريدون مصلحة غيرهم، لكن فقط، وفقط، لأن من مصلحتهم هم تحقيق ما يعتبره غيرهم مصلحة لهم؛ إنها منفعةٌ متبادلة. وهذا الأمر لا يقتصر على البشر فحسب، بل إن الأمثلة عليه في المملكة الحيوانية أكثر من أن تحصى.

[495.1] **لوسيل** "بدهشة": هذا موضوعٌ مثيرٌ للاهتمام حقا.

رجل الكهف: بالطبع إنه كذلك، لكن علينا ألا نستفيض فيه الآن لنثبته قبل أن ننتهي من موضوعنا الأساسي.

دالي "موافقا": بالتأكيد.

[496] **رجل الكهف:** وإذ ذاك قد قيل، فنفسك لم يبقى لها غيرك قد يهتم بها بحرصٍ نقي، ودماغك لا يوجد أحدٌ على سطح الأرض بإمكانه أن يجعله حراً تماماً، إلا أنت لو أردت. فالقرار قرارك. عليك أخذ زمام المبادرةِ كرجلٍ بالغ مسؤول.

دالي: سأفعل هذا جهد استطاعتي.

[497] **رجل الكهف:** لقد قلت لك بالأمس أن عليك تعلم نظرية المعرفة، وطريقة المعرفة العلمية، ومنهج البحث العلمي، وفلسفة العلم، كي تطبقها في رحلتك الخاصة. ما أريده منك هو أن تكون قادراً على تحديد مشكلتك موضوع البحث، وتحييد العوامل، وتحديد ما يُعتبر فروضاً منطقية ومقدمات أساسية ومعطيات. عليك ألا تتوه في بحثك، بل أن تنطلق فيه بخطى ثابتة. تذكر كمية الهراء المنتشر من الأفكار الخاطئة؛ عليك تعلم كيفية وزنها وإقامة العلاقات بينها.

لوسيل "بتركيز": هذا مهمّ للغاية.

[498] **رجل الكهف:** داني! أن تكون صادقاً مع نفسك وموضوعياً في طرحك للأسئلة يعني بالضرورة ألا تطرح سؤالاً تكون لديك إجابة مسبقة عنه. من البديهي أن لديك الآن إجابات كثيرة، حالك كحال كل الرعايا، لكن هذه الإجابات قد تم وضعها في الدرج والاقفال عليها كما اتفقنا. لذا، فهي بحكم الغير الموجودة. كما إن شعورك لا يجب أن يكون عاملاً مؤثراً في تقييمك للإجابات: منطقي، أو غير منطقي، أو مقبول، أو مستهجن، أو جميل، أو مريح، أو يبعث على الطمأنينة، أو مفزع، أو مخيف، وما إلى هنالك من تقييماتٍ سيقوم بها دماغك لا إراديا. تذكر أن ما يقوم به دماغك لا إرادياً لا علاقة له بموضوعية الإجابات، بل إن البرمجة التي تعرضت لها بالسابق هي ما يدفعك إلى الشعور بهذه المشاعر والقيام بتلك التقييمات.

داني: صحيح، لقد تناقشنا في هذا.

[499] **رجل الكهف:** إذن، عليك أن تضع كل ذلك جانباً وتتبع الأدلة حيث أخذتك رويداً رويداً كمن يلاحق قطة هربت منه في الشارع. أياً ما كان الطريق الذي ستسلكه، مهما كان غريباً ومتعرجاً وغير منطقي، فعليك اللحاق بها بصمت وصبر. وبالمناسبة، لا تقلق على كل تلك الأشياء الجميلة التي اعتدت الايمان بها -وأصرُّ على استعمال كلمة إيمان هنا، فالرعايا يؤمنون فقط ولا يعلمون- لأن "الواقع هو الذي عندما تتوقف عن الايمان به لا يذهب بعيداً". هكذا أجاب كاتبُ الخيال العلمي فيليب ديك طالباً جامعياً كندياً عندما سأله عام 1972 عن جملةٍ واحدةٍ يمكن بها تعريف الواقع. وبالتالي، أياً كانت تلك الأمور التي تؤنسك وتريحك، إن كانت حقيقيةً، فإنها لن تذهب، بل ستجدها من جديد بعد أن تكون قد وضعت نسختها القديمة في الدرج. أما إن كانت وهماً، فعليك أن تكون سعيداً بتحررك منها. أم إن لديك رأياً آخر؟

داني "بتردد": لا أعرف ماذا أقول، إنه سؤالٌ صعب.

[500] **رجل الكهف:** إذاً، فلم لا نسمح بالمخدرات والمهلوسات الكيميائية كما نسمح بتلك الفكرية؟ كلاهما يقوم بنفس المفعول؛ يجعلانك سعيداً ومرتاحاً بصورةٍ غير حقيقية. لم لا نتردد بإقرار ضرورة تحرير الناس من الأولى، بينما أراك متردداً بإقرار ضرورة تحريرك من الثانية؟ لم أفهم وجه الصعوبة في سؤالي!

[501] **داني** "بخجل": أتفق معك على أن المنطق يقول بمساواتهما، بيدَ أني كنت أفكر كم ستكون حياتي صعبة وأنا أتنازلُ عن كل ما اعتدت الاعتقاد به إن لم تثبت لي حقيقته.

[502] **رجل الكهف:** هكذا إذن! "إذا كنت تريد أن تأخذ الحياة بسهولة ابق دائماً مع القطيع، وانس نفسك داخل القطيع، واعشق الراعي، واحترم عضات كلبه.". هذا ما يقوله لك فريدريك نيتشة كما كتب كملاحظةٍ كان عليها أن تُقال على لسان زرادشت في "هكذا تكلم زرادشت". هل هذا ما

تريده؟

دالي "بخجل": كلا بالطبع.

[503] **رجل الكهف:** ألا تذكر أن الرعايا كائنات غرائزية؟ ألا تذكر أن من يصعد البرج يتحرر من غرائزه، ويتحرر من جسده، ويتحرر من كل أشكال العبودية؟ أريد أن أصل بك إلى تلك المرحلة التي تقول فيها ما قاله نيكوس كازانتزاكيس على لسان زوربا اليوناني. والذي لم يكن ليقوله، لسخرية المقارنة، إلا لأنه تأثر بما قاله فريدريك نيتشة على لسان زرادشت. فإذا لم تكن تريد أن تأخذ الحياة بسهولة ببقائك مع القطيع، فهل يا تُرى ستحرر نفسك كما فعل زوربا، وكما أريد منك أن تفعل، كي ترى الحياة على حقيقتها دون أي زيف كما قال فيليب ديك؟ أم إنك تريد أن تكون بين هذا وذاك؟

[504] **دالي** "متعجبا": ماذا تقصد ببين هذا وذاك؟

رجل الكهف: عندما لا تكون متحرراً تماماً فأنت حُكماً متأثر بإيديولوجية معينة أو بأفكار معينة؛ وبالتالي، فإن هذا يمنعك من أن تقوم ببحثٍ حر. ألا تذكر أن الدماغ يجنح إلى الكسل، ويرتاح إلى المألوف، ويخشى عدم الراحة الناجم عن الجديد؟

دالي: بالطبع أذكر.

[505] **رجل الكهف:** لذا، فدماغك سيجنح دائماً، مهما حاولت كبحه، إلى توجيهك كي لا تغير أي شيء من محتوياته. إنه يريد أن ينام قرير العين وأنت تريد إقلاقه. ستبقى في صراع معه أبد الدهر تماماً كصراع سائق مع سيارته التي انفجر أحد إطاريها الأماميين. لذا، وجب عليك أن تتحرر بالكامل كي لا تعيش حالة الجذب هذه.

[506] **دالي** "مستغربا": وكيف يقوم دماغي بحالة الجذب هذه؟

رجل الكهف: عن طريق استخدامه للميزات التي تحدثنا عنها مسبقاً، فيقوم بتوجيهك بإعمائك عن بعض الحقائق وتسليط الضوء على غيرها. وبالتالي، ستجد نفسك تقوم ببحثٍ انتقائي لا واعٍ يهدف إلى إثبات ما تريد إثباته، أو بالأحرى، ما يريد دماغك إثباته، وهو البرنامج القديم نفسه. ولهذا السبب، تجد باحثين كثر يعودون إلى المربع الأول الذي انطلقوا منه فرحين بأنهم عادوا بيقين هذه المرة وليس بتأثير البرمجة، أو هكذا هم يحسبون. هؤلاء المساكين! لم ينتبهوا إلى الانتقائية التي كانت توجه بحثهم. وفي هذا العالم المليء بالأفكار، يمكنك إثبات أي شيء تريده بانتقائيتك أثناء بحثك مستفيداً من كل مزايا الخدع الدماغية والأوهام التي يوفرها لك دماغك الكسول. وهذا ما لا يجب أن تكون عليه كباحثٍ حر. احذر من هذا الفخ، إلا إن كنت تريد لنفسك أن تكون مثقف ثالوثٍ أو أن تبقى فرداً من الرعايا.

دالي "بحزم": كلا. أريد طبعاً أن أكون مثقفاً حرا.

[507] **رجل الكهف:** كي تكون حراً عليك أن تكون صادقاً، وكي تكون صادقاً عليك أن تكون بلا

قناعات، عليك الحذر، كل الحذر، من أعداء الحقيقة.

[508] **دالي:** وماهي أعداء الحقيقة؟

رجل الكهف: كتب فريدريك نيتشة في *إنسان مفرط في إنسانيته*: "أعداءُ الحقيقة: القناعات هي أعداءٌ أشد خطراً على الحقيقةِ من الأكاذيب."، لكنه يعود ليتساءل في *المسيح الدجال* "هل هناك أي اختلافٍ حقيقي بين كذبةٍ وقناعة..."؟ ويتخلَّص إلى الإجابة بالنفي على هذا السؤال لأن "... ما كان كذبةً عند الأب، يُصبح قناعةً عند الابن...". ويقول ببصيرةٍ نافذة: "أنا أدعوها كذباً، أن يرفض الإنسان رؤية ما يراه، أو أن يرفض رؤيته كما هو عليه، سواء الكذبة قد تم التلفظ بها قبل المشاهدة أو ليس قبل المشاهدة، فإن هذا لا يؤثر في النتيجة...". ولذا، يكتب في مسوداته: "الشيء الأكثر قرباً من القناعة هو الكذب". كما أن العلاقة تبادلية؛ فلكي تكون صادقاً، فإن هذا يعني بالضرورة أن تكون حراً لا منتمياً، لأنه "... ألا يرى الإنسانُ ما يراه، وألا يراهُ على حقيقتهِ، هو تقريباً أول مطلبٍ لكل الذين ينتمون إلى جهةٍ من أي نمطٍ كانت. الإنسان المنتمي لجهةٍ ما يصبح لا محالة كاذبا..." كما أشار في *المسيح الدجال*.

دالي "بذهول": هذا خطير.

[509] **رجل الكهف:** بالطبع إنه كذلك. إن كنت تريد الحرية فعليك التحرر من كل أشكال المعتقدات. لأن "إنسان العقيدة، المؤمن من أي نوع، هو بالضرورة إنسانٌ مُعتمِد. هكذا إنسان لا يمكنه وضع نفسه كهدف، ولا يمكنه إيجاد الأهداف في نفسه. المؤمن لا ينتمي لنفسه، هو يمكنه فقط أن يكون وسيلة لتحقيق غايةٍ ما، إنه يجب عليه أن يكون مُستَغلاً، إنه يحتاج لأحدٍ ما كي يَستَغِلَّه...". هكذا وصف فريدريك نيتشة الأمر في *المسيح الدجال*. ألا يوضح هذا لك أنه هو عينه حال الرعايا في الغرف؟ يقول أيضاً: "... الحرية من أي نوع من القناعات تنتمي إلى القوة وإلى وجهة نظرٍ مستقلة..." لأن "... كل نوعٍ من المعتقدات هو بحد ذاته دليلٌ على محو الذات، على القطيعة مع الذات...". وبالتالي، لا يمكن لمن لديه قناعات أن يحوز أي معارف لأن "... التعصب كان على الدوام أخطر الكوابح التي تعيق المعرفة.".

[510] **دالي:** لكن لنكن واقعيين، لا يُمكن للموضوعية المطلقة أن تحصل في الواقع؛ لا بد للتصورات المسبقة أن تؤثر لاإراديا.

رجل الكهف: هذا صحيح. لذا، عليك العمل بنصيحة أخرى لصديقنا توماس هكسلي.

[511] **دالي** "متعجبا": وماهي؟

رجل الكهف: "علّمني العلم درسا... إنه أنذرني أن أكون حذراً في كيفية تبني وجهة نظرٍ تقفز إلى تصوراتي المسبقة بأن أتطلّب أدلة أقوى لمعتقداتٍ كتلك مما أتطلبه لما كُنت معادياً له مسبقا.". هكذا أخبر صديقه تشارلز كينجسلي في رسالة أرسلها له في 29 سبتمبر 1860.

دالي "بإعجاب": هذه نصيحةٌ لا تقدر بثمن.

[512] **رجل الكهف:** وبالتالي، فكلما شعرتَ نفسك مجذوباً نحو تبني إجابةٍ ما تشعرُ أن دماغك يريد أن يقتنع بها فعليك أن تبحث على أدلةٍ أكثر عليها. لكن قد يخدعك دماغك الكسول هنا أيضاً بتحيزه؛ ولذا، كي أتوخى الدقة، يجب أن أقول: عليك محاولة نقدها. "... إني أريد التأكيد على التساوي عندي بين الموقف العقلاني والموقف النقّاد. لأنه يجب علينا كلما ظننا أننا وجدنا حلاً لمشكلةٍ ما، محاولة إطاحةِ هذا الحل عوضاً عن الدفاع عنه. لكن كثيراً منا لا يعملون، مع الأسف، وفق هذه القاعدة...". هكذا كتب كارل بوبر في *منطق البحث العلمي*، وقاعدته هذه ستحل لك تلك الإشكالية.

دالي "بتركيز": قاعدةٌ ذهبية. هكذا يمكنني أن أكون أكثر ثقةً بجودة قناعاتي.

[513] **رجل الكهف:** لكن، حتى وإن نجحت في تطبيق ذلك، عليك الانتباه إلى أن الثقة المفرطة دليلٌ على الجهل؛ "...عادةً ما يولد الجهل شعوراً بالثقةِ أكبر مما تفعله المعرفة...". هكذا كتب تشارلز داروين في مقدمة كتابه *نشأة الإنسان* مضيفاً مثالاً في غاية الأهمية:"... إن هؤلاء الذين لا يعلمون إلا القليل، وليس هؤلاء الذين يعلمون الكثير، هم الذين يؤكدون بشكلٍ قاطع أن هذه المشكلة أو تلك لن يتم حلها عن طريق العلم...". إن هذا هو حال الرعايا دائماً وأبدا. هؤلاء الكسالى الذين يضعون العصي في العجلات ليرتاحوا في سباتهم. فحذار أن تكون مثلهم. بل عليك أن تفعل العكس تماما.

[514] **دالي** "مستفسرا": وما هو العكس؟

رجل الكهف: أولاً، أن تكون مدفوعاً بالمعرفة دائماً وأبدا. ثانياً، ألا تكون متيقناً من أي جوابٍ قد توصلت إليه ولا من أي معرفةٍ تمتلكها. "... إذا كنت متيقناً، فأنت يقيناً مخطئ...". هكذا اختصر الأمر بيرتراند راسل في مقابلةٍ له على شاشة التلفزيون البريطاني عام 1959. عليك ألا تعتقد بامتلاكك لأي معرفةٍ يقينية، فلا أحد يعرف ماهي الحقائق اليقينية على أي حال. ستكون لديك معارف بنسبٍ متفاوتةٍ من التأكد، لكن لا يجوز لأي منها أن يكون يقينياً بنسبة مئةٍ بالمئة. "... إن أكثر عمل مخيف في حياة الإنسان هو أن يقول وأن يشعر (أنا أعتقد أن هذا وذاك حقيقي). كل المكافئاتِ الأعظم وكل العقوباتِ الأشد في الوجود تتعلق بهذا التصرّف...". هكذا كتب توماس هكسلي في رسالته لتشارلز كينجسلي.

[515] **لوسيل** "مستفهمة": إذن، لا يجوز، مهما بلغ الإنسان من المعرفة، أن يعتبر أي معرفةٍ لديه على أنها حقائق يقينية.

رجل الكهف: إن هذا هو ما يجعل الرعايا رعايا، فهم لديهم حقائق يقينية. كما إن هذا هو أكبر فخ قد يقع فيه أي باحث. بل إن العكس تماماً هو ما يجب أن يكون.

[516] **دالي** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: مهما بلغت معرفتك، عليك أن توقن بأنك لا تعرف. هذه هي بوابة الحكمة التي

ستفقدها بالكامل لحظة ايقانك بعكس ذلك.

لوسيل "بابتسامة": ليس لهذه الدرجة. أنت تبالغ.

[517] **رجل الكهف**: ما قولكِ في سقراط؟

لوسيل "بإعجاب": لقد حدثتنا عنه مسبقاً، لا شك أنه قد تجرّد من كل غرائزه وصعد البرج ووصل إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه رجلٌ في زمانه.

رجل الكهف: إذاً، هو نموذجٌ جيدٌ ليُحتذى به في صعود البرج.

لوسيل "موافقة": دون أدنى شك.

[518] **رجل الكهف**: وهل تريدين معرفة سر حكمة سقراط التي أوصلته إلى ما وصل إليه؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": بكل تأكيد.

[519] **رجل الكهف** "وهو يتمشى": اسمعي الحكاية إذن كما قصها في *الدفاع* أثناء محاكمته: "... سأحاول أن أوضح لكم طبيعة الأساس الذي اعتماداً عليه اختُرعت تلك السمعة وتلك الافتراءات. فاسمعوا إذن، وربما يظن بعضكم أنني أمزح، ولكن ثقوا أني سأقول الحقيقة كاملة. إن سمعتي هذه ليس لها من مصدر إلا وجود حكمةٍ معينةٍ عندي. ما طبيعةُ هذه الحكمة؟ ربما لا تكون أكثر من حكمةٍ إنسانية. ويمكن أن أكون بالفعل حكيماً بهذه الحكمة... فيما يخص حكمتي، إن كنت أحوزها، وأي نوع من الحكمة هي، فإني سآخذ إلى جانبي شهادة الإله الذي في دلفي...". لأن كاهنة دلفي كانت قد أعلنت "... أنه ليس هناك من هو أحكم مني...". لذلك، "... فحينما سمعتُ هذا تفكرت بيني وبين نفسي-، ماذا يريد الإله أن يقول؟ وماذا يريد أن يعني؟ فأنا نفسي أعي أنني لست حكيماً على أي نحو صغيراً كان أم كبيرا. فماذا يريد إذن أن يقول حينما يعلن أنني أحكم البشر؟ لأنه لا يمكن للإله أن يكذب، فهذا غير ممكن له. وظللت حائراً مدةً طويلةً أمام ما قصد الإله أن يقول...".

[520] **لوسيل** "بحماس": وماذا فعل بعدها؟

رجل الكهف: "... ذهبتُ إلى أحد هؤلاء الذين يُظنون حكماء. من أجل أن أفند هكذا، وبأحسن طريقة، إجابة النبوءة، قائلاً لها: (هذا الرجلُ أحكم مني، أما أنتِ فقلتِ إني الأحكم). وفحصته إذن فحصاً شاملاً... -كان أحد رجال السياسة- وقد جعلني فحصه... أحس بالتالي: فأثناء الحوار معه، بدا لي أنه يبدو في نظر الكثيرين من الآخرين، وفي نظره هو على الخصوص، حكيما؛ أما في الحقيقة، فإنه ليس بالحكيم... وفي نفسي، أثناء ابتعادي، قلّبت الأمر ورأيت أنني أحكم من هذا الرجل؛ فمن الممكن ألا يعرف أحد منا نحن الاثنين شيئاً ذا قيمة، ولكنه يعتقد، هو، أنه يعرف شيئاً بينما هو لا يعرفه. أما أنا، فكما أنني لا أعرف شيئاً، فإنني لا اعتقد كذلك أنني أعرف شيئا. فيبدو لي إذن أنني أحكم قليلاً من هذا الرجل، حيث إنني لا أعرف شيئاً ولا أعتقد أني أعرف. على إثر هذا، ذهبت إلى آخر ممن يُعتبرون أحكم من السابق؛ وظهر لي نفس الشيء... وقسماً بالكلب، أيها الأثينيون، وواجبٌ عليّ

ما المثقف؟

قول الحقيقة لكم، إن هذا هو ما حدث لي: هؤلاء الذين كانوا مشهورين أكبر شهرةٍ بالحكمة بدوا لي، إلا في النادر، بعد فحصي لهم.... أفقرهم إليها. على حين أن آخرين كانوا يُظنون أقل منهم، كانوا في الحقيقة رجالاً أجدر من وجهة نظر الحكمة.". أي، من وجهة نظر إمتلاك الحكمة، أو العقل، أو الحكم بتعقّلٍ وحكمة.

لوسيل "بانتباه": فهمتُ قصده. أكمل القصة أرجوك.

[521] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": "... بعد السياسيين ذهبتُ إلى الشعراء... وقد اصطحبت معي من مؤلفاتهم ما بدا لي أنهم بذلوا فيه غاية الجهد، وسألتهم بالتفصيل عما يقصدون راغباً في الوقت ذاته أن أتعلّم منهم. ولكني أخجل... من أن أقول الحقيقة لكم، ولكن الحقيقة يجب أن تقال. ويمكن أن نقول إن كل الحاضرين كادوا أن يكونوا قادرين على الكلام حول ما كتبوه هم أفضل منهم هم أنفسهم. وظهر لي... أنهم لا يكتبون ما يكتبون على أساسٍ من علم، بل بنوع معين من الموهبة الطبيعية وفي حالةٍ من الإلهام... فهؤلاء أيضاً يقولون أشياء كثيرة جميلة، ولكنهم لا يدرون شيئاً عما هم قائلون... انتهيت إلى أن الشعر يجعلهم يعتقدون أنهم أحكم البشر حتى فيما يخص الموضوعات الأخرى، وهو مالم يكونوه على الإطلاق. فذهبت عنهم إذن معتقداً، على إثر هذا، بتفوقي عليهم تماماً كتفوقي على السياسيين.".

لوسيل "مفكرة": وما أكثرهم عبر التاريخ، وفي أيامنا هذه.

[522] **رجل الكهف**: "وأخيراً ذهبتُ إلى المتخصصين في الأعمال اليدوية. وإذ كنت أنا على وعي بأنني لا أعلم شيئاً، أو ما يقرب، من هذا، فقد كنت واثقاً من أن هؤلاء عالمون بأشياء كثيرة وجميلة. وبخصوص هذا لم أُكذَّب، فقد كانوا يعرفون أشياء لا أعرفها، وكانوا من هذه الناحية أعلم مني. ومع هذا... فقد بدا لي أن لدى هؤلاء الصناع الطيبين نفس النقيصة التي لدى الشعراء؛ فكل واحدٍ منهم، لأنه يؤدي مهنته تأدية ممتازة، يعتقد أنه أحكم البشر حتى في أهم الأمور الأخرى. وهذا خطأ من جانبهم غطّى على معرفتهم تلك...".

لوسيل "بألم": وما أكثر هؤلاء أيضاً، إنهم في كل مكان.

[523] **رجل الكهف** "وهو ينفث الدخان": "هذه الإستقصاءات تولّدت عنها... الكثير من الافتراءات وتلك السمعة التي تقول إني حكيم. ذلك أن الحاضرين كانوا يعتقدون في كل مرة أنني عالمٌ أنا نفسي في الموضوعات التي أكشف عن جهل محدثي بها. ولكنه من المحتمل... أن يكون الحكيم الحقيقي هو الإله. وأنه أراد في النبوءة... أن يقول: (الأحكم من بينكم، أيها البشر، هو من أدرك، مثل سقراط، أنه بغير قيمة في الحقيقة بالنظر إلى الحكمة)...".

لوسيل "بذهول": كم كان متواضعا! الآن فهمت مقصدك.

[524] **رجل الكهف**: نعم لقد كان متواضعاً، فلا يجوز لمثقف أن يكون عكس هذا.

لوسيل "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لسببين مختلفين.

[525] **لوسيل** "مقاطعة باهتمام": ما هما؟

رجل الكهف: أولهما، القاعدة التي تقول: من تواضع للعلم رفعه. هل تستطيعين ملئ كوبٍ من الماء مالم يكن تحت مستوى الإناء الذي يحتوي الماء؟

لوسيل: كلا بالطبع.

[526] **رجل الكهف**: وهكذا وجب أن يكون طالبُ العلم؛ يتذلل أمام المعرفة كي ينهل منها. هكذا يُستزاد من المعرفة، تماماً كما يُستزاد من إناء الماء. هذا شرطٌ لازم. وكلّما تذللتِ للمعرفة وتواضعتِ أمامها كلّما زادتكِ أكثر. وفي اللحظة التي يُخامِركِ فيها قبسٌ من كِبر، تتوقف تلقائياً عن تزويدكِ؛ تماماً كما يتوقف الكأس عن الاستزادة بالماء إذا رُفع إلى الأعلى.

لوسيل "مفكرة": لم أفكر في هذا مطلقا.

[527] **رجل الكهف**: إذاً، فالخروج من الغرفة يتطلب التواضع بالضرورة، وهنا يأتي السبب الثاني. إن تواضعتِ بما فيه الكفاية لتخرجي من الغرفة ثم تصعدي البرج، فأنتِ عملياً قد بدأتِ بالانسلاخ من جسدكِ الغريزي وبدأتِ بناء كينونتكِ الثقافية. وما الكِبرُ والغرور إلا من الغرائز التي وجب أن تكوني قد تحررتِ منها. ألم أسطر لكِ القاعدة التي تقول: بالقدر الذي تنقلين فيه ماهيتكِ من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، بالقدر الذي تقل فيه ماهيتكِ الغرائزية وتزداد ماهيتكِ الثقافية، حتى تبلغي درجة الكمال عندما تفقدين أي اهتمام بقسم الغرائز؟

لوسيل: أذكر هذه القاعدة بالطبع.

[52] **رجل الكهف**: وعليه، لا يمكن أن يجتمع تجلي من تجليات الماهية الغرائزية ممزوجاً بماهية ثقافية، هذا مستحيل التحقيق. فالكِبر، دون أدنى شك، أحد تجليات الغرائز الهادفة لتحقيق التمايز في الغرفة؛ لذا، فهو غير موجود على البرج. وما أولئك المثقفون المتعجرفون، أو المتكبرون، إلا أشخاصٌ يستخدمون ثقافتهم كوسيلةٍ للتنافس الجنسي- داخل الغرفة، سواء كانوا مستقلين أو كانوا مثقفي ثالوث، هم قطعاً في الغرفة طالما هم متكبرون؛ لأن هذه الصفة، كغيرها من المذمات، لا توجد على البرج.

لوسيل "مفكرة": هذا مقنعٌ جدا.

[5] **رجل الكهف**: اسمعي هذه القاعدة: كل المذمات والرذائل والقبائح موجودةٌ في الغرف فقط. البرج نقيٌّ نقاء ثلج القطب الشمالي، أو الجنوبي. ففي اللحظة التي يُدنَّس فيها نقاء المعرفة بأحد المذمات، فاعلمي على الفور أن صاحبها موجودٌ في الغرفة، لا على البرج، وأنه يستخدم معرفته استخدام

الطاووس لذيله فحسب.

لوسيل "بذهول": هذه قاعدةٌ عظيمة.

[529.1] **رجل الكهف:** اسمعي إلى هذه القصة التي رُويت لجان جاك روسو عن ديفيد هيوم ومفادها "... أن ولاس -الذي وضع كتاباً يعارض فيه آراء هيوم بشأن سكان العالم القديم- كان متغيباً عندما طُبع كتابه، فتطوع هيوم بمراجعة البروفات والإشراف على إصدار الكتاب...". فعقّب جان جاك روسو على هذه الحادثة بقوله: "... وكان هذا المسلك مما يُصادف هوى من نفسي-، إذ إنني كنت -بنفس الروح- قد توليت بيع نُسخ من أغنيةٍ كانت قد نُظمت ضدي في مقابل ستة سو للنسخة. ومن ثمّ، فقد كنت مُحقاً أن أكون لنفسي كل فكرة طيبةٍ عن هيوم...". هكذا يعيش الناس على البرج؛ بقلوبٍ صافيةٍ ما أمكن لضعفهم البشري تحمله منها. كتب جان جاك روسو: "... إن السوء الذي أضطر إلى قوله لأعدائي إنما أوجهه إليهم بيننا. أما الخير -إذا وُجِدَ شيءٌ منه- فإني أقوله علانية وبقلب سليم.". هكذا يجب أن يكون ساكن البرج.

دالي: لكن لا بد أنهم يتشاحنون ويتشاجرون ويؤذي بعضهم بعضا؛ إنهم بشر في نهاية الأمر.

[529.2] **رجل الكهف:** لاشك في هذا. بيدَ أن الطريقة تختلف كل الاختلاف عن نظريتها في الغرف. وبما أنني قد استخدمت لكما جان جاك روسو كمثال فيما سبق، فمن المنطق أن أستخدمه كمثال فيما أسماه "مشاحنات أدبية طفيفة" لا سيما وأن هذه المشاحنة قد تمت مع أحد أبرز أعلام عصر الأنوار أيضا؛ فولتير. لذا، سأذكر لكما خاتمة خِطابٍ أرسله الأول إلى الثاني عام 1760 يقول له فيه: "إنني لا أحبك إطلاقاً، يا سيدي، لأنك وجّهت إليّ من الإساءات ما لا أملك سوى أن أشعر بأبلغ الملام بسببها، أنا تلميذك، وأشد المعجبين تحمساً لك. لقد أضعتَ جنيف جزاءً لها على ما لَقيتَهُ منها من إيواء. ولقد نفّرت مني أبناء وطني في مقابل الثناء الذي أضفيتُه عليك لديهم. إنك أنت الذي جعلت حياتي في وطني ومسقط رأسي أمراً لا أطيقه. إنك أنت الذي ستضطرني إلى أن أموت على أرضٍ أجنبية - محروماً من كل ما يُتاح للمُتحضرين من تسرية ومواساة- وألا ألقى من التكريم أكثر من أن ألقى في حمأة؛ بينما ترافقك في وطني كل آيات التكريم التي يحق لإنسانٍ أن يطمع فيها. إنني -بإيجاز- أكرهك...، ولكني أكرهك كرجلٍ لا يزال خليقاً بأن يحبك إذا كنت ترغب في هذا. إن العاطفة الوحيدة التي تبقى من كل الأحاسيس التي يزخر بها قلبي نحوك- لهي عاطفة الاعجاب الذي لا يمكن للمرء أن يأباه على عبقريتك البديعة، والحب لما تكتب. وإذا كنتُ لا أقوى على أن أُكرم فيك سوى مواهبك فليس هذا ذنبي، ولن يعوزني قط الاحترام نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذي يتطلّبه. وداعاً يا سيدي."

[529.3] **دالي** "بدهشة": الآن فهمتك. إن هذا فعلاً لا يوجد في الغرف!

لوسيل: من الواضح أن هذه المشاحنة ليست طفيفة! يبدو أن فولتير قد أساء بشدةٍ لجان جاك روسو، لكنه مع هذا يُميّز بين فولتير الشخص الذي أساء له وفولتير الكاتب. في الحقيقة، إن القاسم المشترك في هذه القصص التي ذكرتها كلها هو الفصل بين الأفكار والأشخاص. لقد شرحت لنا هذه

الضرورة مسبقا. فعلاً، إن أفكارك مُستمدةٌ من الواقع.

[530] **رجل الكهف:** إن كل ما أعلّمكما إياه في هذا الكهف مُستمدٌ من الواقع؛ وإن مَهَمّة إيجاد إسقاطاته فيه تقع على عاتقيكما. على أي حال، لندع جان جاك روسو ينتظر رداً من فولتير على هذه الرسالة، والذي لن يتلقاه على الاطلاق، أما نحن، فلنعد إلى صديقنا سقراط. ماذا لاحظتِ أيضاً في قصته؟ ما الذي أبعد الناس عن الحكمة غير عدم التزامهم التواضع؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": وهم المعرفة.

رجل الكهف: أحسنتِ، وهم المعرفة. هذا الخطأ القاتل؛ الخطأ المدمر الذي يوقف الإنسان عن طرح الأسئلة ويدفع به إلى التكبر.

[531] **داني:** ماذا تقصد على وجه التحديد بوهم المعرفة؟

رجل الكهف: أقصد بها أمرين: وهم إمتلاك المعرفة الغير مملوكة، ووهم يقينية المعرفة المملوكة. ألم تلحظ هذا عبر حديثنا كله منذ الصباح؟ إياك ووهم إمتلاك المعرفة. يقع فيها الرعايا كلهم، ويقع فيها كثيرون ممن صعدوا البرج.

داني: صحيح لقد لاحظت هذا.

[532] **رجل الكهف:** قال دانييل بورستين في مقابلة له مع جريدة *The Washington Post*":"... أعظم عائق للاكتشاف ليس الجهل، إنه وهم المعرفة". ونجده في كتابه *المكتشفون* يستخدم عوائق الاكتشاف وأوهام المعرفة تبادلياً بقوله: "عوائق الاكتشاف -أوهام المعرفة- هم... جزءٌ من قصتنا. فقط ضد خلفياتهم المنسية لما استلموه من فطرة سلمية، وخرافاتٍ سائدةٍ في عصورهم، أمكننا أن نبدأ الإحساس بالشجاعة والتهوّر والبطولة والضرباتِ الخيالية للمكتشفين العظماء. كان عليهم الصراع ضد الحقائق الحالية وعقائد المتعلمين التي لا تقبل الجدل...". وفي الواقع، إن كتابه الرائع هذا يثبت بأكمله أن وهم المعرفة كان هو العائق الأساسي للاكتشاف عبر التاريخ الإنساني كله.

[533] **داني:** إذن، يجب تنحية الرغبات جانباً عند البحث مهما كنا نعتقد بحقيقة أمرٍ ما.

رجل الكهف: لا فض فوك. عليك أن تذوب تماماً أثناء البحث. إما أنت، برغباتك وقناعاتك، وإما المعرفة. الاثنان لا يجتمعان. وإن كنت تطلب المعرفة، فعليك تنحية نفسك جانباً كما فعل سقراط. اتبع الأدلة فحسب، كما أوصيتك، ولتكن على أهبة الاستعداد دائماً وأبداً لتغيير ما تعتقده حال ثبوت دليل ما من شأنه أن يفعل هذا. أرسل توماس هكسلي لتشارلز كينجسلي قائلاً: "... أعطني دليلاً يثبت أهليته لي للاعتقاد بشيءٍ آخر وساعتقد به. ولم عليّ ألا أفعل؟...". ولا تخف من الخطأ "... لأن أعظم عدوٍ للمعرفة ليس الخطأ، بل الهمود...". هكذا أشار هنري باكل في *تاريخ الحضارة في إنكلترا*.

[534] **داني** "مفكرا": فهمتُ مرادك. عليّ أن أكون مستعداً دائماً لتغيير آرائي بصدرٍ رحب.

رجل الكهف: في الواقع، عليك أن تكون مستعداً لتغيير رأيك قبل أن يكون لديك هذا الرأي، لأن "الغبي هو ذلك الشخص الذي كان قلمه خارجاً قبل ممحاته". هذا ما قالته مارلين سافانت التي دخلت موسوعة غينيس كصاحبة أعلى معدل ذكاء في ثمانينات القرن العشرين. لذا، فإنه من الحكمة أخذ رأيها بعين الاعتبار.

[535] **دالي** "بإعجاب": هذه ملاحظةٌ قيّمة. لكن أليس هذا مربكاً؟ أعني، حالة عدم التأكد هذه.

رجل الكهف: إنها المناخ الطبيعي على البرج، والذي هو على نقيض المناخ السائدِ في الغرف. وعملياً، ستعتادُ حالةَ عدم التأكد هذه لدرجة أنها ستصبح طبيعية تماماً بالنسبة لك، بل وستشعر بنشوةٍ كلما غيّرت أفكاراً لديك. دعني أُشبّهها لك بتلك السعادة التي تعتري الرعايا عندما يستبدلون شيئاً ما قديماً يملكونه بشيءٍ جديد، وإن كانت بالطبع تفوقها بمراحل؛ فأنت على البرج لا تُهمك نفسُك. ألم أقل لك إما أنت وإما المعرفة؟ من أنت أمام جلال المعرفة؟ ما وزن كائنٍ بيولوجي تافهٍ يعيش كحدٍ أقصى نصفَ طرفةِ عينٍ في حضرة المعرفة؟ بل إنك ستسعدُ بتغيير أفكارك لأن هذا هو الدليل الوحيد على أنك تصعد البرج. ألا تتذكر كيف أنه كلما ارتقيت البرج كلما اتسع أفق نظرك؟

دالي: بلى بالطبع.

[536] **رجل الكهف:** واتساع أفق نظرك يعني بالضرورة أنك سترى أشياء جديدة. وهذا يعني بالضرورة أنك ستغير ما اعتدت أن تراه على أنه حقيقة، بشيءٍ آخر، بناءً على الرؤيةِ الجديدة. وهنا قاعدة أخرى: عندما تتوقف عن تغيير أفكارك وآراءك ونظراتك للأمور، فهذا دليلٌ على أنك قد توقفت عن صعود البرج. لذا، عليك أن تكون ممتناً لمن يساعدك في هذا لأنه يعطيك دفعةً مجانيةً إلى الأعلى.

لوسيل "بإعجاب": هذه قاعدةٌ هامةٌ ومؤشرٌ تسهلُ مراقبته.

[537] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": بما أنني على صداقةٍ حميمةٍ مع بيرتراند راسل فقد اطلعت على رسالةٍ كتبها في باريس مساء الثاني والعشرين من أكتوبر عام 1894 لخطيبته أليس يقول فيها: "حبيبتي أليس، لا أظنك ترضين أن تعتمدي عليّ في كل شيءٍ لأنك سوف تجدين أني سوف أضجَرُ إذا وافقتِني دائماً، ولسوف أحتاج من وقتٍ إلى آخر لجدلٍ ينعش عقلي. فإني أشعر بلذةٍ حقيقيةٍ ومؤكدةٍ إذا ما أشار أي إنسانٍ إلى مغالطةٍ في آرائي؛ لأنه لا تهمني آرائي بقدر ما يهمني ألا تكون فيها مغالطة...".

لوسيل "بدهشة": لم أسمع في حياتي شخصاً يقول كلاماً كهذا.

[538] **رجل الكهف:** لأنه يندر أن تستمعي لشخصٍ بحكمة بيرتراند راسل. هذا سرٌ من أسرار الحكمة. شخصٌ متواضعٌ نحّى ذاته تماماً بحثاً عن المعرفة الصحيحة. لقد كتب هذه الرسالة وهو في الثانية والعشرين من العمر. لقد إكتشف المفتاح باكراً، فاستخدمه طوال سنوات حياته التي قاربت المئة، فأمسى فيلسوفاً موسوعياً ومنطقياً عظيماً من الطراز الأول. وإن كنتما نبيهين فإنكما ستلاحظان أن هذا

السبب عينه هو ما يجعل الرعايا رعايا من الطراز الأول.

دالي "مفكرا": صدقت يا رجل الكهف. لقد وضعت إصبعك على الجرح!

[539] **رجل الكهف**: إذا بحثتَ قليلاً وشكلّتَ قناعات ما في ضوء أبحاثك ثم ثبّتَّ عليها للسنوات القادمة فهذا يعني بالضرورة أنك لم تعد تمارس البحث. أين الأسئلة التي تطرحها وتبحث عن إجاباتها؟ هل يُعقل أن كل الإجاباتِ الجديدة التي تتوصل إليها بموضوعية، وفق الطريقة التي تتناقش بها، تُثبت قناعاتك القديمة؟ هل أنت إلهٌ كي تكون كل قناعاتك على صوابٍ مما لا يدفعك إلى تغييرها مستقبلا؟ الآلهة تغير آراءها! ألم تقرأ الأساطير؟ يبدو أنك، والحالة هذه، أحكم من الآلهة جل جلالها شخصيا.

دالي "ضاحكا": أنت على حق.

[540] **رجل الكهف**: كل المثقفين العظماء، والباحثين الجادين، والأشخاص الذين غيروا بأفكارهم وأعمالهم التاريخ الإنساني، أو قدموا إسهامات فيه، قد غيّروا آراءهم وقناعاتهم. وليس من النادر مطلقاً أن تقرأ كتاباً ما فتجد أن مؤلّفه قد قام بتعديلٍ لوجهات نظره في الطبعات اللاحقة أو أصدر كُتباً جديدة توضح ما توصّل إليه لاحقا. كاتبٌ كهذا أرفع القبعة له احتراماً لأنه يقوم بالضبطِ بما يجب على الباحث فعله.

لوسيل: لقد لاحظتُ هذا مرات عديدة.

[541] **رجل الكهف**: وَضعا هذا نُصب أعينكما: "أهم شيء تعلمته من أبي هو أنك إن سألت أي سؤال وتابعته بعمقٍ كاف، عندها في النهاية، ستجدُ اكتشافاً رائعاً من النوع العام والجميل.". هكذا كان ريتشارد فاينمان مدفوعاً طوال حياته ليكتشف كل ما اكتشفه.

لوسيل "بإثارة": تحفيزٌ رائع.

[542] **رجل الكهف**: والآن سآتي على ذكر مفتاح ذهبي من مفاتيح البرج.

دالي "مقاطعاً بحماس": ما هو؟

رجل الكهف: "لا تسمح لنفسك أن تكون مخدوعا. المفكرون العظماء مشككون...". هكذا كتب فريدريك نيتشة في "المسيح الدجال"، الذي اعتبره حصاد مجمل فلسفته، مضيفاً: "... القوة والحرية اللتان تنفذان من الطاقة الفكرية، من غزارة الطاقة الفكرية، يبرهنان على نفسيهما كشكوك...". هذا لأن "... رجال القناعات سجناء. إنهم لا يرون إلى بُعدٍ كاف. إنهم لا يرون ما يوجد تحتهم...". ويضع القاعدة التالية: "... إن عقلاً يطمح للأشياء العظيمة، ويرغب في وسائلها، هو بالضرورة متشكك...".

[543] **دالي**: ماذا تقصد بالمتشكك؟

رجل الكهف: أريدك أن تشك في كل شيء. لأنك كلما كنت شكوكياً أكثر، كلما استطعت التوصل إلى معارف أكثر دقة. الرعايا لا يشكون؛ ولذا، فهم لا يبحثون. عليك أن تكون على العكس من هذا

تماما. ابحث عن مصادر المعلومات والأفكار. ففي عالم يضج بالفوضى الثقافية لا بد من أن تكون شكوكياً إلى أقصى الدرجات. وفي ضوء الاعتبارات السابقة، التي تحدثنا فيها، لا مناص لك من أن تشك في كل شيء وأن تعتمد على نفسك في البحث عن الحقائق. اسأل نفسك: لماذا يُخبرني فلان بهذا الأمر؟ هل يريد خداعي؟ هل يريد استغلالي؟ هل هذا الكتاب قد تمت ترجمتهُ بدقة؟ هل حرّفت دار النشر كلام الكاتب؟ هل هذه القناة التلفزيونية قد حجبت جانباً من هذا الخبر لمصلحةِ أحدهم؟ ما الدليلُ على صحةِ هذه الفكرة أو تلك المعلومة؟ هل فلان يفهم تماماً الأمر الذي يشرحه لي؟ هل هو مُلمّ بكل جوانبه وفروعه وعلائقه؟ وهكذا دواليك. فإن كنت تُصدّق كل ما تقرأ، فأرجوك لا تقرأ. وإن كنت تُصدّق كل ما تشاهده على التلفاز، فأتوسل إليك ألا تشاهد التلفاز. يُدمي فؤادي أن أرى الناس قد بلغوا درجةً من اللامبالاةِ يبنونَ فيها ثقافاتهم ومعلوماتهم وقناعاتهم من مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنيت فحسب. احذر يا صاحبي من وهم المعرفة. "لا تسمح لنفسك أن تكون مخدوعا..." لا من قِبل غيرك، ولا من قِبل حواسك، ولا من قِبل دماغك.

[543.1] **دالي**: سأبذل قصارى جهدي كي ألتزم بهذا.

رجل الكهف "وهو ينظف غليونه": أخبراني، ماهي أشهر مقولةٍ لرينيه ديكارت؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": أنا أفكر إذاً أنا موجود.

[544] **رجل الكهف**: هل تعرفين أين كتبها؟ وما سياقها؟

لوسيل "بخجل": كلا، لكني أحفظها عن ظهر قلب منذ أن كنت طفلة صغيرة.

[545] **رجل الكهف**: ومن لا يفعل! لقد تم اجتزاء هذه الجملة من سياقها وتسويقها عالمياً بواسطة ثواليث القمع لتدمير المنهج الديكارتي.

[546] **دالي** "بذهول": ماذا تقصد؟

رجل الكهف "بعصبية": ديكارت صاحبُ منهج الشك، رائد العقلانية، قد تم إشهار جملته هذه فقط، من بين كل ما كتب، ليتم برمجة أدمغة الرعايا ومن ثم حثّهم على التفكير بقولهم: فكر بعقلك واتبع مقولة ديكارت "أنا أفكر؛ إذاً، أنا موجود". ضاربين بكل فلسفة ديكارت عرض الحائط، مانعين انتشارها بين الرعايا. هكذا يفعلون لمواجهة أفكار من صعدوا البرج. هؤلاء السفلة.

(ينفثُ رجل الكهف باشمئزازٍ وغضبٍ)

[547] **دالي** "مربتاً على كتفِ رجل الكهف": على رسلك. لم أفهم شيئاً. هدأ من توترك وأخبرنا القصة.

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": أعتذر عن انفعالي. إني لا أستطيع التفكير بما يفعله الثواليث بحق الرعايا الضعفاء محتفظاً بهدوءٍ لامبالي. هل يسمح لك ضميرك أن تكون هادئاً وأنت تشاهد ظالماً يبطش بمظلومين مساكين؟

[548] **دالي:** كلا بالطبع. لكن أخبرنا في أي سياق وردت تلك الجملة الشهيرة؟

رجل الكهف: وردت في كتابه "حديثٌ في الطريقة". ودون الخوض في التفاصيل، سأخبركما بسياقها باختصارٍ وستفهما الأمر لوحدكما إن ركّزتما معي جيدا.

لوسيل "بانتباه": كلي آذان صاغية.

[549] **رجل الكهف:** "... لقد لاحظتُ، منذ مدةٍ طويلة، أنه فيما يتعلق بالممارسة، إنه من الضروري أحياناً أن نتبنّى... آراءً والتي نميزها لأن تكون غير مؤكدةٍ بشكل قوي... لكنني عندما رغبت في أن أعطي انتباهي فقط للبحث عن الحقيقة، فكرت أن نهجاً معاكساً بالضبط هو ما يجب القيام به، وأنه يجب عليّ أن أرفض، كأخطاءٍ مطلقةٍ، كل الآراء التي تتعلق بما يمكنني أن أفترض به أقل قدرٍ من الشك، وذلك كي أتأكد إذا ما بقي لدي بعد ذلك البتة في إيماني ما يكون بالكامل غير قابل للشك... وأخيراً، عندما أخذت بعين الاعتبار أن الأفكار ذاتها (العروض) التي نختبرها عندما نكون صاحين، يمكن أيضاً أن يتم اختبارها عندما نكون نائمين، عندما يكون في ذلك الوقت ولا واحد منها حقيقي، افترضت أن كل الأشياء (العروض) التي تم إدخالها إلى عقلي على الاطلاق في أوقات صحوي لا تملك من الحقيقة أكثر من أوهام أحلامي. لكن على الفور، بناءً على هذا، لاحظت أنه بينما تمنيت إلى هذا الحد أن أعتقد أن ذلك كله كان خاطئاً، كان من الضرورة بوضوح أنني أنا، الذي فكر بهذا، يجب أن يكون موجوداً نوعاً ما. وبمراقبتي لهذا، هذه الحقيقة، أنا أفكر؛ إذاً، أنا موجود. كنتُ متأكداً جداً، ومن دليلٍ كهذا لا يمكن أن يخامره الشك... أنا انتهيت إلى أنني، ربما دون تورّع، أقبلها كأول مبدأ للفلسفة التي كنت أبحث عنها.".

[550] **لوسيل** "بتركيز": إذن، أثناء شكّه تنبه إلى أنه يفكر فتأكد من وجوده.

رجل الكهف: بالضبط. وهذا ما دعا الناقد الأدبي الفرنسي أنطوني توماس إلى أن يعيد صياغة هذه الجملة التي انتشرت كالنار في الهشيم خارج سياقها، فسلخت معناها الديكارتي تماماً، بقوله في مقال له عام 1765: "بما أنني أشك، أنا أفكر، بما أنني أفكر، أنا موجود". وقد تم إعادة صياغتها في الأدبيات اللاحقة لتصبح: "أنا أشك؛ إذاً، أنا أفكر؛ إذاً، أنا موجود". هكذا يستقيم المعنى الديكارتي لطريقة ديكارت في التأكد من وجوده. ولا أعتقد أن ديكارت كان ليمانع هذا التعديل قط، بل ربما كان ليقوم به شخصياً، لو قُدِّرت له معرفة التحريف الذي أخرجت به تلك الجملة العابرة من سياقها.

دالي "مفكرا": إذن، ديكارت كان مُصراً على الشك كمصدرٍ للمعرفة، بل كدليلٍ على التأكد من الوجود الذاتي.

[551] **رجل الكهف:** إن الشك هو ما ميّز فلسفة ديكارت. نراه يكتب في *مبادئ الفلسفة* تحت عنوان *في مبادئ المعرفة البشرية* أول مبدأ هو: "من أجل أن تبحث عن الحقيقة، إنه من الضروري أن تشك مرةً واحدةً في خلال مسيرة حياتك، لأبعد مدى ممكن، في كل الأشياء.". ويشرح هذه

الضرورة بقوله: "لأننا كنا في وقتٍ ما أطفالاً، وإننا قد شكلنا أحكاماً مختلفة بما يتعلق بالأشياء التي تم تقديمها لحواسنا عندما لم نكن بعدُ قد استخدمنا عقولنا بالكامل. العديد من التحيزات تقف في طريق وصولنا إلى معرفة الحقيقة، وبسببهم يبدو مستحيلاً علينا تخليص أنفسنا إلا إذا أخذنا على عاتقنا، مرة في حياتنا، أن نشك في كل هذه الأشياء التي قد نكتشف بها ولو أدنى شكٍ من عدم اليقين.". وبعد هذا تماماً، نجد المبدأ الثاني، وهو: "يجب علينا أيضاً أن نعتبر خطأً كل ما كان مشكوكاً فيه.". ويُعقِب قائلاً: "بل أكثر من ذلك، إنه سيكون من المفيد بالمثل أن نعتبر الأشياء التي سنستطيع التشكيك فيها على أنها خاطئة، لأنه يمكننا بوضوح أكبر اكتشاف ما يمتلك أعلى قدرٍ من اليقين، وإنه الأسهلُ كي يُعرف.".

[552] **دالي:** هذا يشبه ما نصحتنا به سابقاً وما شرحته لنا. من الواضح بجلاء الآن ضرورة الشك في كل شيء قدر الإمكان.

رجل الكهف: وعبارة "في كل شيء" هذه تقتضي، بالضرورة، أن تبحث عن المعلومات من مصادرها، وألا تعتبر معلومةً ما مؤكدةً مالم تكن من مصدرها.

دالي: ماذا تقصد؟

[552.1] **رجل الكهف:** عندما تريد أن تُحصِل المعارف التي تحدثنا عنا بالأمس، عليك أن تنهل معارفك من المصادر. أي، كي تعرف عن أي مجالٍ عليك الاستماع إلى فطاحل هذا المجال وقراءة أمهات الكتب فيه، وإن كانت هذه الكتب مترجمة عليك التأكد من أن المترجم ينتمي إلى تلك المدرسة وليس ضدها، وهلم جرا. إن الناس، يا صديقي، يبالغون في الاهتمام بجودةِ أحذيتهم ولا يبدون أدنى قدرٍ من الاهتمام بجودة أفكارهم؛ هذا برأيي توصيفٌ دقيقٌ لذروةِ اللامبالاة.

لوسيل "بحزن": صدقت.

[553] **رجل الكهف:** عندما تريدين شراء شيءٍ ما، لنقل هاتفاً ذكياً أو جهازاً لوحياً، ولديك بديلان لتختاري منهما، ماذا تفعلين عادة؟

لوسيل: أبحث على مواقع الإنترنيت عن مواصفاتها وتقييمها، وأسأل أهل الخبرة وكل من أعرف أنه قد اقتنى أياً منها، ثم أذهب لمقري الشركتين وأشاهد بنفسي الجهازين، ثم أحكم.

[554] **رجل الكهف:** هل تسألين الشركةَ الأولى عن رأيهم في الجهاز الثاني، والشركة الثانية عن رأيهم بالجهاز الأول؟

لوسيل "ضاحكة": كلا طبعاً، هل تراني غبية كي أفعل هذا؟ من البديهي أن تمدح لي كل شركةٍ بجهازها وتطعن بالآخر.

[555] **رجل الكهف:** هذا ما يقوم به أي شخصٍ امتلك قدراً من الفطنة من شأنها منعنا من نعته بالغباء. لكن لماذا، بحق السماء، لا يفعل الناس نفس الأمر مع الأفكار كما يفعلون مع الأشياء؟ فترين الواحد

منهم يستقي معلوماته عن الأديان الأخرى من رجل الدين خاصته، وعن المدارس السياسية الأخرى من رجل السياسة خاصته، وهكذا في كل الأمور. أليس من البديهي أن المعلومة ستصله مشوهةً ومحرفة؟ لقد نجى من أن ننعته بالغباء في شراء هاتفه لكنه، بكل أسف، لم يكن محظوظاً فيما سوى ذلك.

داني "بألم": صدقت.

[556] **رجل الكهف:** ولا تكن ساذجاً وتقتنع بصحةِ معلوماتهِ لأنه ذكر لك "مصدرها" فهو يعرف أن الرعايا لا تبحث وراءه عن المصادر. من يتناقل رسالةً وصلته على هاتفه دون أدنى تفكيرٍ فيها لن يذهب ليراجع المصادر وراء حديثٍ قد سمعه، أو خطبةٍ قد حضرها، أو كتابٍ قد قرأه. لذا، سيلفقون المصادر وسيجتزئون جملاً من سياقها ويبنون عليها محاضرات كاملة. بل إنهم كثيراً ما يؤلفون كتباً تفند جملة ما مأخوذة خارج سياقها أو حتى فكرةً ملفقة ما. وعليه، فإن الحل العقلاني الوحيد هو أن تبحث عن كل معلومة من مصدرها حُكماً. هذا ويقتضي. الشكُ أنك وإن سمعت المعلومة من مصدرها، أو قرأتها من كتاب من بيتها، ألا تعتقد بصحة فهمك لها بنسبة مئةٍ بالمئة؛ فقد يكون أمرٌ ما قد كان من شأنه تشويه نقل الفكرة، سواء كان الأمر يتعلق بطريقة عمل دماغك، أو دماغ المصدر، أو بوسيلة الانتقال المادي للفكرة. في الحقيقة، عليك أن تنسى أي يقينية. عبارة "مئة بالمئة" يجب أن تُمحى من قاموسك إلى الأبد.

[557] **لوسيل:** لقد قلت لنا سابقاً إن علينا الانتباه إلى الوسائل التي يستخدمها الثواليث للتحكم بالمعلومات، كما علينا الانتباه إلى التشويه الذي قد تحدثه حواسنا وأدمغتنا بالمعلومات.

[558] **رجل الكهف:** بالتأكيد ياعزيزتي. والآن، كي لا نستطرد كثيراً، هل لا زلت تذكر يا داني أني قلت لك: إن عليك الانكفاء على نفسك لفترة من الزمن تكسر فيها القيود المفروضة على دماغك وتحاول فك شيفرات البرمجة وبدء التعلم والبحث؟

داني "وهو يصبُ المزيد من القهوة": نعم، أذكر.

[559] **رجل الكهف:** بعد مدةٍ من الزمن، ستكون قد بدأت بعض الحقائق بالظهور لك وبدأت تفهم الكثير من الأمور فهماً وافيا. بالتأكيد، هذا يعتمد، دون شكٍ، على جديتك في البحث. وبناء على كل ما سبقت الإشارة إليه، فيجب عليّ أن أؤكد عليك ألا تقول أي رأيٍ أو تحكم على أي أمرٍ مالم تكن قد أتخمته فحصاً وتحليلا. وعليه، ستكون الأمور لديك مقسمة بين أمورٍ لم تبحث فيها، وأمورٍ بحثت فيها جزئياً وشكلت عنها وجهات نظرٍ جزئية، وأمورٍ قد بحثت فيها بشكل عميق وشكلت عنها وجهات نظرٍ واضحة.

داني: بالتأكيد.

[560] **رجل الكهف:** لذا، عليّ أن أذكر أن التزامك بكل ما سبق يُحتّم عليك أن تقول لا أعرف، أو ليس

لدي أي فكرةٍ عن الموضوع، لأي أمرٍ لم تبحث فيه بنفسك. لا تردد كالببغاء ما سمعته، هذا ما يفعله الرعايا. وإن كنت قد بحثت، فعليك تحديد درجة يقينيتك في وجهةِ نظرك أو حكمك أو قناعتك. هل هي مبدئية، أم جزئية، أم تقريباً كاملة، أم واضحة بشكل تام. هذا وكما قلتُ لك، عليك أن تنسى- اليقين التام الذي لا يقبل الشك بعده. إياك وهذه الزلّة.

دالي "بإعجاب": أنت محق، هذا موضوعيّ تماما.

[561] **رجل الكهف**: "... نعم، أنت لديك قناعات، وأنت تقوم بمحاكمات، ولكنك تصل إليهم بالعمل، وبمعنى من الترابط مع الآخرين؛ المثقفين الآخرين، والحركة الشعبية، واستمرارية التاريخ، ومجموعة الخبرات التي اكتُسِبَت من حيوات الناس. أما بالنسبة للمجردات والعقائد الراسخة، المشكلة معهم أنهم رُعاةٌ يحتاجون إلى الاسترضاء والمداعبة طوال الوقت...". هكذا يُعلّمك ايدوارد سعيد كيف يُمكنك تشكيل القناعات.

دالي "مفكرا": هذه نصيحةٌ هامة.

[562] **رجل الكهف**: قال ريتشارد فاينمان ذات مرة: "لقد ولدتُ دون معرفة، ولقد حصلتُ على وقتٍ قليلٍ فقط لأغيّر ذلك هنا وهناك.". عليك الانتباه إلى عامل الوقت. صحيحٌ أني لا أريدك أن تُرهق نفسك في البحث بل أن تتخذه هواية، والهوايةُ هي ما يستمتع الناس بالقيام به، لكن عليك الانتباه إلى دقاتِ الساعة. تذكر كلمات تشارلز داروين: "... الشخص الذي يجرؤ على إضاعة ساعةٍ واحدةٍ من الوقت لم يكتشف قيمة الحياة...". افعل مثل جان جاك روسو الذي قال:"... وإذ رأيتُ أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي، فقد عزمت على أن أفيد بأكبر شطرٍ ممكن مما تبقى لي من العمر...". فكانت النتيجة، أنه "... ما عرفت يوماً -حين أخلو إلى نفسي معنى الملل، حتى عندما أكون متعطلاً تماماً، إذ إن خيالي كفيلٌ بأن يملأ كل فراغ، وهو وحده خليقٌ بأن يشغلني عما سواه. ولكن الذي أعجز عن احتماله دائماً هو الثرثرة الخاملة بين جدرانٍ أربعة، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض دون أن يحركوا شيئاً سوى ألسنتهم... الجلوس بذراعين معقودتين والحديث عن الجو، والذباب يحلّق في المكان، أو تبادل المجاملات -وهو أسوأ مما سبق- فهذا عبءٌ لا يطاق بالنسبة لي.". عليك أن تستمتع بالبحث وأن تجعله شغلك الشاغل. عقلك عليه أن يعمل طوال الوقت، لأن الوقت هو أثمن ما تملك.

[262.1] **دالي** "مقاطعا": صدقت.

رجل الكهف: جميعنا نكسبُ مالاً ونخسرُ مالاً ونكسبُ مالاً من جديد. كلنا يمرض ويتعافى. كل شيء يُمكن أن يُعوّض؛ عشيقتك، وزوجتك، وطفلك، وصديقك، وعملك، وسيارتك، ومالك، ومنزلك، ووطنك، كل شيء، إلا الوقت؛ فهو يُهدر دون أي إمكانيةٍ لتعويضه. لا أريدك أن تستيقظ في يوم من الأيام وأنت تقول: آهٍ كيف ضيعتُ سنواتي الماضية. تذكر أغنية *Time* لبينك فلويد.

دالي "مبتسما": أعرفها بالطبع.

[563] **رجل الكهف:** ومع ذلك، فإن اللحظة التي تستيقظ فيها هي اللحظةُ المناسبة للبدء. ليس عيباً أن تبدأ مهما كان عمرك. دعك من تلك الأمثال الشعبية التي وُجِدَت لتثبّطَ همم الرعايا. دعك من سخرية الرعايا ومحاولاتهم لثنيك عما عزمت عليه. هكذا هم، كالطلاب الكسالى الذين يحاولون إعاقة زملائهم الشطار عن الدراسة عوضاً عن أن يدرسوا هم أنفسهم. وكالموظفين المهملين الذين بدل أن يُجِدّوا في عملهم، يقومون بالإساءة إلى أولئك المخلصين فيه. لقد عانى منهم كل من سبقك إلى البرج. فهذا جان جاك روسو يصف هذه المعاناة بقوله: "... ونبذتُ إلى الأبد كل مشروعٍ للإثراء والرفعة معتزماً أن أقضي في الاستقلالِ والفقرِ الفترةَ القصيرةَ التي تبقت لي في الحياة. فاستخدمتُ كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أُقدِمَ بشجاعة على ما أراه خيراً دون أن أحفل البتة برأي الناس... وكانت العقبات التي اضطررت لمغالبتها، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها، فوق كل تصوّر. وقد وُفِقتُ بقدر المستطاع، بل وأكثر مما كنت أرجو. ولو أنني نجحتُ في أن أدفع عني ربقة الصداقة، بقدر توفيقي في التحرر من ربقة الرأي العام، لبلغتُ غاية مأربي. بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوقٍ فانٍ وأدعاها -على الأقل- للفضيلة. على أنني -إذ رحتُ أتخبّط تحت أقدام الأحكام الخرقاء التي تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يُسمَّون العظماء والذين يُسمَّون الحكماء- أُسلِمُ نفسي وأنقادُ كالطفلِ لأولئك الذين كانوا يُسمُّون أنفسهم أصدقاء، والذين كانوا يغارون من أن يروني أشق وحدي طريقاً جديداً، وأنا أبدو جد منهمكٍ في إسعاد نفسي،- فلم ينفكوا يفكرون -في الواقع- إلا في أن يجعلوني مثاراً للضحك، وشرعوا في العمل على تحقيري لكي يصلوا من وراء هذا إلى تشويه سمعتي.".

[563.1] **لوسيل** "بتعجب": لكن لماذا؟

رجل الكهف: يشرح السبب بقوله:"... كان تغيير شخصيتي الذي بدأ في هذه الفترة -وليست شهرتي الأدبية- هو الذي أثار غيرتهم مني...". ويضيف: "... لقد فُطِرتُ على الود، فكانت طباعي السلسة الوديعة تغذي هذا الود دون عناء. ولقد كنتُ محبوباً من كل أولئك الذين عرفوني طالما كنتُ أعيش مجهولاً لدى الرأي العام فلم يكن لديّ عدوّ واحد. على أن اسمي لم يكد يلمع حتى أصبحتُ بلا أصدقاء. وكانت هذه نكبة كبرى. ولكن الأكبر منها أنني كنت محاطاً بقوم كانوا يُسمّون أنفسهم أصدقاء، في حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التي يتيحها هذا الاسم إلا لكي يجروني إلى الهلاك...".

[563.2] **دالي:** حقاً، إن الكثير من الناس هم على هذه الشاكلة.

رجل الكهف: وبالتالي، عليك الحذر كل الحذر. وتذكر ما قلته لك: إن كنت تتساءلُ عن اللحظة التي يجب عليك البدء فيها فالجواب هو: الآن. دماغك سيحاول هو الآخر ثنيك عن هذه المهمة، هذا الكسول البليد! سيقول لك: سنبدأ بعد أن يتغير الوضع الفلاني، أو بعد أن تنجز العمل الفلاني، بعد أن تفعل كذا وكذا. هذا محضُ هراءٍ خالص، لا تستمع له. عليك مواجهته بكل جسارة ووضع حدٍ لتماديه هذا مهما بدا لك مُقنعا. إنه وهم. تذكر ما قلناه بالأمس كيف أنه بطبيعته يأبى التغيير.

داني "مبتسماً": نصيحةٌ طيبةٌ جداً، أشكرك عليها.

[564] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": لقد تذكرتُ شيئاً. كنت تقول إنك تريد منا أن نصل مرحلةً من الحريةِ تقول فيها ما قاله زوربا، لكن الحديث أخذ مجرى مختلفاً ولم تقل لنا ما قاله زوربا.

رجل الكهف "بعمقٍ نافثاً دخان غليونه": "تخلّصت من وطني، ومن الكهنة، ومن المال. لقد بدأت بغربلةِ الأشياء؛ أغربلُ مُخرجاً أشياء أكثر وأكثر. أنا أخففُ من أعبائي بهذه الطريقة. أنا -كيف سأصوغها لك؟- وجدتُ خلاصي. أنا أصبح إنساناً.". هذه هي الحرية التي يجب عليكما بلوغها. عليكما التخلص من كل أشكال العبودية على الاطلاق، فكل أشكال العبودية هي من صناعة الثواليث. لا توجد عبوديةٌ على البرج. ومع أن زوربا هو أبعدُ ما يكون عن الإنسان المثقف الذي نتحدث عنه، إلا أنه إكتشف صيغة الحياة كما يجب أن تكون.

[565] **داني** "بذهول": هذا قدرٌ من الحرية لا يمكنني تخيله. هل أنت مدركٌ لأبعادِ هذا الكلام؟

رجل الكهف: بالطبع أنا كذلك. وإذا كان زوربا قد وصلَ إلى هذه الحرية دون أن يقرأ كتاباً واحداً، فلدي شخصٌ آخرٌ قد وصل إليها بعد قراءة ما لا يحصى من الكتب.

[566] **لوسيل** "بحماس": ومن هو؟

رجل الكهف: إنه المصرفي في قصة "الرهان" لأنطوان تشيخوف. قصةٌ كانت مُلهمةً لي منذ أن اطلعت عليها في طفولتي.

[567] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": اقصصها علينا.

رجل الكهف: باختصار شديدٍ هي قصةُ رهانٍ بين مصرفي شاب ورجلٍ مليونير، تراهنا فيها على أن يبقى المصرفي رهين السجن في غرفةٍ لمدة خمسة عشر عاماً لا يرى فيها إنساناً، وذلك إثر نقاش جرى بينهما حول: هل السجن هو عقوبةٌ أشدُ من الإعدام أم العكس؟ وتعهد الثري أن يدفع للمصرفي مليونين إن استطاع تحمل مدة السجن كاملة، على أن يزوده في فترة سجنه بكل ما يطلب من كتب وطعام وحاجيات شخصية. وفي الفترة التي سبقت انتهاء مدة الرهان كان المليونير قد أمسى على شفير الإفلاس، فإن دفع المليونين للمصرفي فإنه سيصبح معوزاً تماماً، فقرر قتل المصرفي في الليلة التي تسبق انتهاء المدة. وعندما دخل عليه الغرفة ليلاً ليقتله لفتت نظره رسالةٌ كتبها المصرفي النائم يقول له فيها: "... لخمس عشرة سنة كنت أدرسُ باهتمام هذه الحياة على الأرض. صحيحٌ أني لم أرى أرضاً ولا أشخاصاً، لكن داخل كتبك قد شربت عبق النبيذ، وغنيت الأغاني، واصطدت الظباء والخنازير في الغابات، عشقتُ نساء..." ويتابع أموراً كثيرة إلى أن يقول: "كُتبكَ أعطتني الحكمة. كل تلك الأفكار الغير متحفظة التي ابتدعها الناس عبر العصور هي مضغوطةٌ الآن في نطاقٍ ضيقٍ في دماغي. أنا أعلم أني أكثر حكمةً منكم جميعا.". ويضيف: "أنا أحتقر كتبك، أنا أحتقر الحكمة، وكل بركاتِ هذا العالم. إنها كلها بلا قيمة، عابرة، وهمية، مضللة كالسراب...". ثم يقول له: "أنت فقدت صوابك وسرت في

الطريق الخاطئ. كنت تعتبر الكذب على أنه حقيقة، والبشاعة على أنها جمال...". ويختم قائلاً: "لأثبت لك بالفعل كم أحتقر كل ما تعيش به، أنا أتنازل عن المليونين الذين حلمتُ بهما ذات مرةٍ على أنهما الفردوس والذي الآن أنا أحتقره. ولأحرم نفسي من الحق بالمال سوف أخرج قبل خمس ساعاتٍ من الوقت المحدد؛ وبهذا، أكسر التعاقد الذي بيننا...".

[568] **لوسيل** "بذهول": هل يُعقل هذا؟ لا بد أنه فقد صوابه!

رجل الكهف: في الحقيقة نعم، لقد تحرر من كل متع العبيد بعد أن أمضى- خمس عشرة سنة في البرج. ولا شك أنه من الناحية السيكولوجية قد أصيب بمرضٍ نفسي- ما أو أكثر. بيدَ أني لست بصدد تحليل هذا فهو ليس موضوعنا الآن.

[569] **داني** "حالما": هذا محمّس جداً، كم أتمنى أن أشعر بتلك الحرية يوما.

رجل الكهف: إن هذا ليس مستحيلاً، ولو أنه صعبُ المنال. إن وجودك على البرج يقتضي- بالضرورة أن تصبح حراً ولامنتمياً، ولقد أسهبت في شرح هذا لكما مرات عديدة.

[570] **داني** "بتعجب": ماذا تصد بلامنتمي؟

رجل الكهف: هل نسيت مقولة فريدريك نيتشة في أن الانتماء لجماعةٍ ما يعني بالضرورة أن تكون كاذباً، وأن الكاذب هو بالضرورة غير حرٍ بعلاقةٍ متبادلة؟ أنت خارج الغرفة. أنت هناك، في الأعلى، ترى جميع الغرف، فكيف لك أن تكون منتمياً إلى أي منها؟ أنت أصبحت كائناً بلا انتماء، كائناً أممياً، كائناً عالمياً، وهذا شرطٌ لازمٌ أيضا. فالمنتمي لا يمكن أن يكون حراً ولا صادقاً لا مع نفسه ولا مع غيره. إني أريدك أن تكون هناك، في أعلى البرج، وأنت تقول بقلبٍ صادقٍ مِثلَ الذي قاله يوجين دِبس لجريدة "Appeal to Reason" في الحادي عشر من سبتمبر عام 1915.

[571] **لوسيل** "مقاطعة بشغف": ماذا قال؟

رجل الكهف: "... عندما أقولُ أنا ضدُ الحرب، أنا أعني حربَ الطبقةِ الحاكمة، لأن الطبقة الحاكمة هي الطبقة الوحيدة التي تصنع الحروب. إنه لا يهمني سواء كانت هذه الحرب هجومية أو دفاعية أو أي سبب كاذب آخر قد يُخترع لها. أنا ضدها. وسيُطلقُ عليّ النارُ بتهمة الخيانة قبل أن أشارك في حرب كهذه... أنا لا يوجد لدي بلدٌ أقاتل من أجله، بلدي هي الأرض، أنا مواطن أممي للعالم. أنا لن أنتهك مبادئي من أجلِ الرب، وبأقلِّ منه بكثيرٍ من أجلِ قيصرٍ- مجنون، أو إمبراطورٍ متوحش، أو ملكٍ منحط، أو عصابةٍ من الطفيليات ذات الكروش.". وأضاف: "أنا ضدُ كل الحروب ماعدا واحدة، أنا للحرب بقلبٍ وروح، وهذه هي الحربُ العالمية للثورةِ الاجتماعية...".

[572] **داني** "بتأمل": هذه كلماتٌ عظيمة.

رجل الكهف: لا يهم أن تقول هذا، المهم أن تشعره بقلبٍ صادق. عليك أن تكون مواطناً عالمياً لا منتمياً. فالانتماءات القومية، والوطنية، والطائفية، والعرقية، والدينية، والطبقية، وسواها مما يفرق الناس

هي من صنع ثواليث القمع. أليسوا هم من ابتدع الغرف في الأساس لتفريق الناس إحقاقاً لمطامعهم الشخصية؟

دالي: بلى بالطبع.

[573] **رجل الكهف:** أليس الناسُ كلهم إخوة وأخوات، أم إنني بحاجةٍ لإثبات هذا لكما؟

لوسيل: كلا، لا شكَّ في أننا جميعاً عائلةٌ واحدة. لقد أثبت العلم هذا بشكلٍ قاطع.

[574] **رجل الكهف:** إذن، عليكِ أن تنسي انتماءكِ لتلك الغرفة لتي وُلدتِ بها بالصدفةِ البحتة. عليكِ أن تصلي إلى مرحلةِ الشعور بما شعره *زوربا اليوناني*: "... إذا سمعتُ أن اليونانيين قد احتلوا القسطنطينية، إنها بالنسبة إلى بالضبطِ كما لو أن الأتراك قد احتلوا أثينا.". عندما تقولا مِثلَ هذا صادقين تكونا قد تحررتما فعلاً من الغرفة.

[575] **دالي** "مستفهماً": لكن أليس الأولى بالمثقف أن يهتم بتحرير رعايا غرفته قبل أن يهتم بالآخرين من الغرف الأخرى؟

رجل الكهف: بالتأكيد. إن مهمة المثقف بالدرجة الأولى مساعدة الرعايا في غرفته على تحرير أنفسهم لأنه هو الأقدر على هذا، بما أنه قد عايش الحياة في تلك الغرفة قبل أن يغادرها؛ وبالتالي، هو يفهم تماماً ما يعانيه سكانها، ويفهم طريقة تفكيرهم، وبإمكانه إيجاد لغةِ حوارٍ معهم لمساعدتهم على التحرر. لا شك عندي مطلقاً في هذا الأمر. لكن، كي تفهما ما أقصده، استمعا إلى ما كتبه إيدوارد سعيد في هذا السياق: "إضافة إلى هذه المهمةِ البالغةِ الأهميةِ بتمثيلِ المعاناةِ الجماعيةِ لشعبك الخاص... يجب أن يُضاف شيءٌ آخر، والذي فقط شخصٌ مثقفٌ، كما أعتقد، قادرٌ على الالتزام بالوفاء به... إن مهمة المثقف، كما أعتقد، هي بصراحةٍ أن يضفي طابعاً عالمياً على الأزمة، أن يضفي إطاراً إنسانياً أعظم لما عانى منه عِرقٌ أو أمةٌ ما، أن يربط تلك التجربة مع ما يعانيه الآخرون... هذا لا يعني على الإطلاق خسارةً في الخصوصية التاريخية، لكنها بالأحرى تحمي من احتمالية أن ذلك الدرس، الذي تم تعلّمه من الاضطهادِ في مكانٍ ما، سوف يصبح منسياً أو منتهكاً في مكانٍ أو زمانٍ آخرين...". ويضيف هذه النقطة الجوهرية، اسمعاها بتمعن: "... وفقط لأنك تمثل المعاناة التي عاشها شعبك، والتي ربما أنت بنفسك قد عِشتها أيضاً، أنت لست مُخففاً عنك مهمة كشفِ أن شعبك نفسه قد يكون يمارس الآن جرائم مماثلة بحق ضحاياه.".

[576] **لوسيل** "بدهشة": إنسانٌ كهذا يكون قد بلغ أعلى مراتب الإنسانية.

رجل الكهف: ولو أني أتحفظ على كلمة "إنسانية" لأني لا أراها مناسبةً لتُعبّر عما يجب أن تُعبِّر عنه، إلا أني أقبلها، كما أقبل غيرها، بتحفظٍ كي لا أطيلَ النقاش. ومع هذا، فهناك قِلةٌ قد وصلوا هذه الرتبة من "الإنسانية". فاستمعي مثلاً لما قاله الشاعر الفرنسي جوليان بلاين في مقابلةٍ له مع جريدة *المستقبل*، نُشرت في 23 سبتمبر 2001، عندما سأله زميلكما في المهنة: "لقد سبق أن صَرَّحت بأنه

بالنسبة لأبناء جيلك فإن ثورة أيار 68 هي فشلٌ مطلق، بأي معنى؟". أجاب جوليان بلاين: "بالمعنى المطلق. كوننا حلمنا كثيراً وظننا فعلاً بأننا سنغيّر الدولة، لا بل الأمة الفرنسية، وسنعترف بأشياء كثيرة، الأمر الذي لم يحصل. وأقصد هنا على سبيل المثال مسؤوليتنا في مسألةِ الاستعمار. كما أقولُ دائماً، من الممكن أن تكون الهجرات إلى أوروبا غير شرعية، إلا أنها مُحقة. لدينا مسؤولية لم نتحملها بعد. نتكلم اليوم قليلاً عن التعذيب في الجزائر، لكن الأمر أوسع من هذا. أوروبا بشكل عام، وفرنسا بشكل خاص، بنت ثروتها ورفاهيتها من خلال استغلالها ثروات الآخرين. هذا ما أعنيه بالفشل المطلق...".

[577] **داني** "مستغرقاً بتفكيره": هذا رائع حقاً، إنه يحق إنسانٌ قد خرج من الغرفة. الآن فهمتُ مقصدك تماماً، فعلاً إن قِلةً من الناس يستطيعون أن يكونوا هكذا.

رجل الكهف: هذا لأن الأحرار هم قِلةٌ من الناس. من وصلوا سطح البرج ويريدون الحرية للرعايا هم حفنةٌ قليلةٌ من البشر.

[578] **لوسيل:** لماذا تقول: "يريدون الحرية للرعايا" ولم تقل: "يريدون تحرير الرعايا"؟ كما إنك قلت قبل قليل: "يريدون مساعدة الرعايا على تحرير أنفسهم" ولم تقل "يريدون تحرير الرعايا". هل من سبب لهذا؟ أم إنك تعني "يريدون تحرير الرعايا" على أي حال؟

رجل الكهف "وهو ينظف غليونه": تسعدني دقة ملاحظتك. كلا، إني لم أعني "تحرير الرعايا" بل "مساعدة الرعايا على تحرير أنفسهم". وفي الواقع، إنه على العكس تماماً، فإني حتى لو قلت "تحرير الرعايا" فإن ما أعنيه في الحقيقة هو "مساعدة الرعايا على تحرير أنفسهم". ولن يكون قولي "تحرير الرعايا" إلا من باب الاختصار فحسب.

[578.1] **لوسيل** "بدهشة": لماذا؟

رجل الكهف: لأن هناك فرقاً كبيراً بين هذه وتلك. فصحيحٌ أن على المثقف مسؤولية أخلاقية تجاه الرعايا، وأن عليه مساعدتهم على الخروج من الغرفة وصعود البرج، لكن عليه أن يكون حذراً في ألا يقوم بقيادتهم في هذا.

[579] **لوسيل** "بتعجب": لم أفهم!

رجل الكهف: المثقف الحقيقي يريد للرعايا أن يتحرروا. إن كان يريد قيادتهم، فإن هذا من شأنه أن يجعله ثالوثاً جديداً عليهم. ولكي يضمن المثقف عدم وقوعه في هذه الزلة، عليه أن يُعلّم الرعايا كيف يحرروا أنفسهم لا أن يقوم هو بتحريرهم بنفسه.

لوسيل "بتركيز": ملاحظةٌ قيّمة.

[580] **رجل الكهف:** وهذا يضمن أمراً آخر، وهو ببساطةٍ، أن الرعايا إن قبلوا قيادته في تحريرهم فهذا يعني أنهم رعايا منقادون؛ وبالتالي، لا يمكن أن يصبحوا أحراراً، وإنما هم فقط ينقلون خضوعهم لجهةٍ ما

إلى جهةٍ أخرى، وهذا أبعدُ ما يكون عن الحرية. لا يمكن للحرِ أن يكون مُنقادا؛ إما هذا أو ذاك.

لوسيل "بانتباه": ملاحظةٌ صحيحة.

[581] **رجل الكهف:** وبالتالي، إن أراد المثقف حقاً الحرية للرعايا عليه ألا يحررهم بنفسه، بل فقط أن يساعدهم على تحرير أنفسهم بفتح عيونهم وتقديم النصائح والدعم لهم. قلت لكِ مسبقاً: لا أحد يستطيع تحريركِ إلا أنت. على الرعايا إن أرادوا أن يصبحوا أحراراً أن يقوموا بهذه المهمة بأنفسهم. الخروج من الغرفة هو عمل فردي، ويجب أن يكون بإرادةٍ وجهدٍ ذاتي فحسب. وهنا تكون مهمة المثقف محصورة فقط في توعية الرعايا لضرورة الخروج من الغرفة وتوضيح ما يعانونه داخلها. ألم يكن هذا كل ما تحدثت به في قصة البرج؟ هل قلت لكما إن على المثقف ربط الرعايا وجرّهم خارج الغرفة كالأغنام؟

لوسيل "ضاحكة": كلا لم تقل هذا.

[582] **رجل الكهف:** لأن على المثقف ألا يقود الرعايا، بل أن يساعدهم على تحرير أنفسهم، وأن يحاول مجابهة وتخفيف سطوة ثواليث القمع عليهم فحسب. وهذا بالضبط ما قاله يوجين دِبس: "أنا لستُ قائداً للعمال، أنا لا أريدكم أن تتبعوني ولا أن تتبعوا أي شخصٍ آخر. إذا كنتم تبحثون عن موسى ليقودكم خارج هذه الرأسمالية الموحشة فسوف تبقون في مكانكم ذاته. أنا لن أقودكم إلى تلك الأرض الموعودة لو كان بمقدوري. لأنني إن كان بإمكاني قيادتكم إلى داخلها فشخصٌ آخر سيقودكم خارجها. يجب عليكم أن تستخدموا رؤوسكم، كما وأيدكم أيضاً، لتأخذوا بأنفسكم خارج وضعكم الراهن، تماماً كما يستخدم الرأسماليون الآن رؤوسكم وأيديكم.". بهذه الطريقة فقط يكون التحرير.

لوسيل "بإعجاب": إن كلماته هذه تكتب بماءِ الذهب.

[583] **رجل الكهف:** لا يهم أن تكتب بماءِ الذهب أم بحبر رخيص، المهم أن يتعلمها كل مثقف وأن يمتثل بها كل من أراد المساهمة في تحقيق الحرية لشعبٍ من الشعوب. فهذه احدى أكبر الهفوات التي يقع فيها المثقفون كما أشار علي شريعتي في "مسؤولية المثقف*": "... ليس عملُ المثقف أن يقود المجتمع. إن أحد أخطاء مثقفي العالم الكبيرة هو أنهم يتصورون أن عليهم أن يأخذوا بزمام قيادة المجتمع والناس. إن المثقفين هم أقل الفئات حيلة لقيادة الناس... إن رسالةَ المثقفِ لا تتمثل في القيادة السياسية للمجتمع. رسالةُ المثقفِ هي توعية أوساطِ المجتمع فقط، وفقط، ثم لا شيء. إذا تمكن المثقف من توعية أوساطِ المجتمع، فسوف ينهض أبطالٌ من وسطِ المجتمع جديرين بقيادةٍ حتى المثقفين أنفسهم. وطالما كانت أوساطُ الجماهير عاجزةً عن إنجاب الأبطالِ فرسالةُ المثقفِ لا تزالُ باقية. أي، إن رسالة المثقفِ هي توعيةُ الطبقاتِ في مقابل طبقةِ المستعمِر. بناءً على هذا، فكلُ رسالةِ المثقفِ تنصبُ في مثل هذه التوعية... وما يزيد على هذا فهو توقعاتٌ إضافية وشعاراتٌ زائدة.".

[584] **دالي:** إذاً، أنت لا ترى أنه من المناسب، بأي حالٍ من الأحوال، أن يقوم المثقفون بحكم الرعية بغيةَ تحريرهم؟

رجل الكهف: هل تمزح معي؟ ألم تتعلم من التاريخ؟ هل لازلت تصدق هذا الهراء؟ إن النفس البشرية حقيرةٌ بأنانيتها الحيوانية. ألم تقرأ ما كتبه جورج أورويل في "1984": "... إن السلطة ليست وسيلةً بل غاية، فالمرءُ لا يقيمُ حكماً استبدادياً لحماية الثورة، وإنما يُشعِلُ الثورة لإقامةِ حكم استبدادي. إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد، والهدف من التعذيب هو التعذيب، وغاية السلطة هي السلطة. هل بدأتَ تفهمُ ما أقوله الآن؟".

داني "مفكرا": نعم لقد فهمتُ عليكما.

[585] **رجل الكهف** "وهو يشغلُ فيديو على حاسوبه": أتمنى هذا. والآن بعيداً عن السياسة وقذارتها، دعونا نستمع إلى ما قاله لورانس كراوس مخاطباً الجمهور في مناظرةٍ له في لندن عام 2013.

لوسيل "بحماسها الطفولي": لنستمع معا.

[586] **لورانس كراوس:** ... إن مسعاي هو فقط إثارةُ الأسئلةِ وحث الناس على التفكير حول أشياء مختلفة. ومن أجل هذا، فأنا آملُ أن بعض التصريحاتِ التي قُمت بها ستدفع الناس للتفكير. وفي الواقع، إن نقطتي كلها هي إتاحة الإمكانية للوصولِ إلى المعلومات. وأنا أعتقد أنه يتوجب أن يكون لديكم إمكانية الوصول إلى المعلومات حول كيفية عمل العالم في الحقيقة، وهذا هو السبب في أني أكتب كتباً عِلمية وأتحدث. لأنه، على الأقل، هذه بعض أجملِ الأفكار التي وصل إليها البشر على الإطلاق. لا يجب أن نكون خائفين منها، لا يجب أن نخشاها... في الحقيقة، إذا أساءت إلى معتقداتنا فهذا شيءٌ جيد، لأنه يعني أن معتقداتنا خاطئة. وهذا، كما أقولُ للطلاب طوالَ الوقت، هو أعظمُ هديةٍ يمكن أن نحصل عليها؛ تغيير آرائنا والتعلم هو ما يقوم بالتقدم الذي سمح لكل شيء بالحدوث، هو الذي سمح لكاميرات الفيديو هذه أن تقوم بتسجيل الأشياء. لذا، فأنا فقط آملُ أنه، وكما آملُ أني راغبٌ بتغيير معتقداتي أو تغيير رأيي في حال وجود دلائلَ وأن أحصلَ على معلومات، فأنا آملُ أن بعضاً من الأشياء التي قلتها ستحثكم على التفكير. وأنا بشكل قاطع لا أريد أن أحولكم لأي شيء...

[587] **داني** "بحماس": لقد قال ما قلته لي بأنه عليّ عدم الانزعاج إذا اضطررتُ لتغيير معتقداتي بناءً على الأدلة التي أحصل عليها. كما إنه يؤكد على ضرورة تغيير الآراء مع ظهور أدلة جديدة.

[588] **لوسيل:** بالإضافة إلى أنه يقوم بما طلبته أنت من المثقف وهو حث الناس على طرح الأسئلة، وتقديم الأدلة لهم بما يدفعهم للتفكير، دون أن يمسك بأيديهم ليجعلهم يتبنون فكراً ما أو وجهة نظرٍ ما.

[589] **رجل الكهف:** هذا لأنه يطبّق بالضبط ما يجب على المثقف القيام به. وكذلك قال من قبله جان جاك روسو: "...إن مهمتي هي أن أقول الحق، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه.". هذا ما يجب أن يفعله المثقف.

لوسيل: لقد اتضح الأمر تماماً الآن.

[589.1] **رجل الكهف:** جميلٌ جداً، لننتقل إلى نقطة أخرى إذن. إن مما يميز عقلية المثقف أيضاً هو ابتعاده

عن التعميمات. التعميمات هي من مزايا الدماغ التي تحدثنا عنها آنفاً، والتي يشتهر بها الرعايا. بيدَ أن المثقف وجبَ عليه أن يكون عقلانياً ومنطقياً وألا يسمح لدماغه بأن يؤثر على قراراته وأحكامه. إن التعميمات هي من أشنع الأخطاء التي يجب على المثقف أن يربأ بنفسه عنها. تذكرا كلام كارل بوبر: "... مهما بلغ عدد البجعاتِ البيضاء التي رأيناها فإنه لا يسمح لنا بالقول إن كل البجع أبيض.".

داني: بالتأكيد. إني أنزعج من التعميمات التي يستخدمها الناس كيفما اتفق، وأحاول جهد استطاعتي كبح نفسي عنها.

[590] **رجل الكهف:** سعيدٌ لسماع هذا. وإن كنتما نبيهين كفاية، فيجب عليكما أن تكونا قد لاحظتما أمرين في حوارنا هذا الصباح.

لوسيل "بتيقظ": ما هما؟

[591] **رجل الكهف:** أولهما، إن هذه المزايا التي تصبغ عقلية المثقف والباحث الحر هي قواسم مشتركة في طريقة تفكير معظم من خرجوا من الغرف بغض النظر عن الغرفة التي كانوا ينتمون إليها. فلقد ذكرتُ لكما اقتباسات من ثقافاتٍ مختلفة ومن عصورٍ مختلفة.

لوسيل: صحيحٌ تماما.

[592] **رجل الكهف:** وهذا يحيلني إلى الأمر الآخر، وهو أنه ليس جميع من اقتبست كلمات منهم متشابهون. هم بشر، والبشر مختلفون، والبشر خطاؤون ومحدودون ببيئاتهم وبتجاربهم الخاصة. لذا، وجبَ على الباحثِ الحر ألا يقدّس شخصيةً ما بعينها ويعتبرها امتلكت الصواب المطلق، أو أن يعتبر جميع أفكار وأفعال هذا الشخص صحيحةً فقط لأنه قد سبقه في الخروج من الغرفة وفي صعود البرج. أنا أعتقد أنه لا أحد يملك حقائق مطلقة وأنه لم ولن يوجد إنسانٌ على صوابٍ كامل، أيا كان، ومهما كان. على الحصيف أن يأخذ من أفكار غيره ما يراه صحيحاً، بناءً على الأدلة، وينبذ الباقي. فكل المثقفين والباحثين والعلماء والفلاسفة عبر التاريخ ما هم إلا بشر، والبشر لا يمكن لهم أن يكونوا مثاليين ولا كاملي الصواب والرشاد. هل عليّ أن أشرح لكما لماذا أم إنكما قد فهمتماه من حواراتنا السابقة؟

داني: كلا، لا داعٍ. فكلامك صحيحٌ تماماً ومفهوم.

[593] **رجل الكهف:** حذارِ من أن تقعا في هذه الزلة الشهيرة؛ وهي أن تحررا نفسيكما من رجالاتِ ثواليث القمع لتقعا في تقديس رجالاتِ البرج. ما هكذا يكون الإنسانُ الحر.

[594] **داني:** صدقت، وما أكثر من يقع بهذا الخطأ. وكأنهم يشتاقون إلى العبودية، فلم يستطيعوا أن يطيقوا الحرية من الثواليث ليبحثوا فوراً عن البديل. مَثَلهم كمثلِ العبدِ الذي فاز على خصمه في مبارزةٍ وكانت المكافأة حريته ومالٌ كثير، فسُئِلَ: ماذا ستفعل بكل هذا المال؟ فكان جوابه: سأشتري سيداً يعاملني برفق.

[595] **رجل الكهف:** بالضبط، تشبيهٌ مثالي. بل أكثر من ذلك، إن الباحث الشغوف بالمعرفة يعرف تماماً

أن بإمكانه التعلم من أي شخص ومن أي موقف يمر به، لا من أشخاصٍ محددين، ولا في أماكن بعينها، تراه يقظاً كل الوقت لاقتناص المعلومات والمعارف. وعندما يصبح هذا الأمر ديدنه، سيمسي يقوم به تلقائياً دون أن يشعر. وتذكرا أن "... موقع المثقفين هو العالم الخالي من القداسة... حيث لاوجود -على الأقل ظاهرياً- لأي نوع من التعالي." كما كتب جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين*. ولا تنسيا ما قلته سابقاً من أن على الباحث أن يأخذ الأفكار الصائبة، ممن سبقه ومن يعاصره، وينبذ الباقي ببساطة، دون شخصنة، وبغض النظر تماماً عن أي قيمةٍ لأصحابها. فالأفكار معزولةٌ في قيمتها وصحتها عن الأفراد الذين ينتجونها تماما. لا شأن لكما بالأفراد. علاقتكما هي مع الأفكار فحسب.

[596] **لوسيل:** أذكر أنك قلت هذا مسبقاً، إن على الباحث أن يتدرب على الملاحظة بموضوعيةٍ تامة.

رجل الكهف: جميلٌ جداً، والآن سنأتي على مثالٍ لتريا كيف استخدم المفاتيح السابقة في حياته كمثقفٍ كبير.

[597] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": من هو؟

رجل الكهف: هل تذكران دانييل بورستين؟

دالي: نعم. لقد أخبرتنا قبل قليل أنه قال في مقابلةٍ له مع جريدة *"The Washington Post"*: "... أعظم عائقٍ للاكتشاف ليس الجهل، إنه وهم المعرفة".

[598] **رجل الكهف:** أنت منتبهٌ وصاح هذا الصباح. لقد كان بورستين أمين مكتبة الكونغرس ومؤرخاً هاوياً. وقد قال في تلك المقابلة عن هوايته هذه: "أنا لا أكتبُ لأجمع المال، أو بسبب أني آمل بالحصول على الهيبة، أو لأحافظ على عملي... أنا أقوم بذلك لأني أحب ذلك ولا يمكنني منع نفسي-عنه...". وعندما سأله الصحفي عن تأثير كتابته لمدة ساعتين كل صباح على عمله، أجابه قائلاً: "أنا لن أعد بأني لن أكتب كتباً أخرى، أنا أعد أن أعطي كل انتباهي وطاقتي لمنصبي الوظيفي...". ويشرح سبب براعتهِ في تلك الهواية بقوله: "أحد مميزاتٍ أن تكون هاوياً... هي أنك لا تكون متدرباً في الأخاديدِ الناتجةِ عن الروتين... أنا أكتب عما يثير اهتمامي... أنا عديمُ الثقة بأي تفسير لأي شيءٍ، بما في ذلك معنى الحقيقة...". ثم يضيف هذه النقطة الجوهرية: "... من هو الهاوي؟ إنهُ العاشق لشيءٍ ما. أنا عاشقٌ للحقائق. الحقيقةُ هي المخلص، طالما أنت لا تمزجها داخل بعض أنماط القناعاتِ المسبقة...". وإلى متى سيبقى يمارسُ هذه الهواية؟ يجيب بقوله: "أنت تأمل أن تنمو وتتطور طالما أنت على قيدِ الحياة. لا يمكنك التربيت على الماضي. الكتابُ الأفضل هو دائماً الكتابُ التالي.".

دالي "مقاطعاً بذهول": يا إلهي، لقد طبق النصائح التي تقولها لنا بحذافيرها.

[599] **رجل الكهف** "متجاهلاً المقاطعة": كما إن زميلكما كارول كروكوف الذي أجرى معه المقابلة قد قال عنه: "على الرغم من شهرته كمؤرخ أمريكي، بورستين لم يأخذ أي دورةٍ تعليميةٍ في التاريخ الأمريكي." مضيفاً: "وما هو الأكثر تميزاً في بورستين -يقول أولئك الذين يعرفونه جيداً- هو هذا البحث النهم

الذي لا يشبع عن الإجابات، هذا الفضول المستهلك حول كل الأعمالِ للجنس البشري.". وقال عنه سيلفيو بيديني: "إن لديهِ نظرةً واسعةً تلتقطُ الأشياء التي معظم الناس لا يرونها حتى... المتحفُ كان كعلبةِ ألعابٍ جديدةٍ بالنسبةِ له. كان يُولّد الأفكار بسرعةٍ كبيرةٍ وبشكلٍ مبتكرٍ جداً لدرجة أنها كانت تجربةً مثيرةً أن تحاول مواكبة أفكاره.". أما جون فرانكلين فقد قال عنه: "دانيال فقط مدفوعٌ للمعرفة... إنه منقادٌ بواسطةِ هذا البحث عن الحقيقة. وعندما يكتشف شيئاً ما يتوجب عليه مشاركته. هذا هو الجانبُ المرحُ في الأمر؛ أن يكون مُرشداً".

[600] **لوسيل** "بذهول": لا أصدق هذا! لقد استخدم المفاتيح التي قلتها لنا. فقد كان لديه عمل، ولديه فضولٌ للمعرفةِ يمارسهُ كهوايةٍ، لا كمهنة. ولقد أصبحَ مشهوراً كمؤرّخٍ مع أنه لم يدرس التاريخ أكاديمياً، بل لأنه اتخذه كهوايةٍ، وعمل عليها بكل جدٍ ومثابرة، بحياديةٍ وموضوعية. كما إنه كان كلما اكتشف شيئاً نوّرَ الناس به، أرشدهم إليه، ولم يحتفظ به لنفسه. هذا وإنه مستمرٌ في البحثِ والكتابةِ حتى وفاته.

[601] **رجل الكهف**: ولم لا تصدقين ذلك؟ هل لازلتِ تعتقدين أني أتكلم من فراغ؟ إن كان الأمر هكذا فإليكِ إذاً هذا المثال أيضاً مما كتبه أحد أعمدةِ عصرِ الأنوار؛ جان جاك روسو. سأذكر لكما مقتطفات من مقدمةٍ واحدٍ من أهم أعماله؛ "إميل أو في التربية"، وهو كتابٌ قد غيّر وجه التربيةِ تماماً ولا يزال أثره ممتداً إلى يومنا هذا. أريد أن أسمع منكما ما ستجدان فيها.

لوسيل "بخجل": كلي آذان صاغية.

[602] **رجل الكهف**: "... إنه بناء ليس على أفكار الآخرين أنا أكتب، لكن على تلك خاصتي. أنا لا أرى ما يراه الأناس الآخرون. ويتم لومي على هذا منذ زمن بعيد. لكن هل يعود الأمر إليّ كي أزود نفسي بعينين أخريين أو بالرغبة في أفكارٍ أخرى؟ كلا. إن الأمر الذي يعود إليّ هو ألا أفرط في حماسي، ألا أعتقد أنني أنا لوحدي أحكمُ من الجميع. إن الأمر الذي يعود إليّ هو ألا أغيّر الآراء، لكن ألا أثق بما أملكه منها. هذا هو كل ما بوسعي فعله، وهذا هو ما أفعله. إن قمتُ أحياناً بتبني أسلوبٍ جازم فإن هذا ليس بنيّة صنع تأثير على القارئ، لكن بنيّة التحدث إليه بالطريقة التي أفكّر بها. لِمَ يجب عليّ أن أقدّم اقتراحاً وكأنه مشكوك فيه لما هو، بحسب رأيي، أنا لا أشك فيه على الإطلاق؟ أنا أقول بالضبط ما يجول في ذهني.". ويضيف: "في عرض آرائي بحرية، إن توقعي قليلٌ في أن يُؤخذ بها على نحوٍ موثوق؛ لهذا، أنا أرفقُ بها عِللي دائماً، وبهذه الطريقة يمكن أن يتم وزنهم وأن تتم محاكمتي. ولكن على الرغم من أني لا أرغب في أن أكون متعنتاً في أن أدافع عن آرائي، فإنني بالرغم من هذا مقتنعٌ أنه لزامٌ عليّ أن أقوم بعرضها إلى أبعد مدى. فإنه فيما يتعلق بما أملك فيه أفكاراً مخالفةً لغيري هي ليست مسائل عديمة الأهمية، بل إنها من ضمن تلك الأمور التي من الضروري معرفة صوابها أو خطئها والتي تصنع سعادة أو عدم سعادة الجنس البشري.".

[603] **دالي** "مفكراً بعمق": هذه قطعةٌ أدبية، إنها مدرسةٌ متكاملة. يبدو أن روسو يُعلّم المثقفين كيف يجب عليهم أن يكونوا، قبل أن يُعلّم الأهل كيف يجب عليهم أن يربوا أبنائهم.

[604] **رجل الكهف**: بالتأكيد هو لم يقصد ذلك، لكن هذا ما هو الحال عليه. وكأنه يقول من دون أن يشعر: قبل أن تفكروا بتربيةِ أبنائكم، عليكم أن تتعلموا مني كيف تكونوا أنتم في حيواتكم. وأنتِ يا لوسيل، ماذا وجدتِ فيها؟

[605] **لوسيل** "بتركيز": لقد لفتني فيها أولاً تواضعه المفرط وهو يقدّم كتاباً بتلك القيمة التي أشرت إليها. ثم لاحظتُ أنه شخصٌ يرى ما خفي عن الناس، ولهذا تميّز عنهم بفكره، ثم إنه يُقرّ أنه لا يهتم لتغيير آراء الناس قدر اهتمامه بتغيير آراءه هو، ويؤكد على أنه يقوم بهذا بالفعل. كما إنه، لتواضعه، يؤكد أن أفكاره تحتمل الصواب والخطأ، وأنه لا يعتبر نفسه حكيماً، ويطلب من الناس بأدبٍ تقييم أفكاره. وهو يشعر بضرورةِ مساعدةِ الرعايا دون أن يقوم بتوجيههم، ويؤكد بوضوح على هذا أيضا.

[606] **رجل الكهف**: ولتملّكه هذه الصفات، فإنه قد بلغ القمة الفكرية التي بلغها. وهي عينها الصفات التي يمتلك الرعايا عكسها؛ ولهذا، فهم باقون كرعايا.

دالي "يهز رأسه موافقا": أصبتِ كبد الحقيقة يا صاحبي.

رجل الكهف: بالمناسبة، هل ترغبان بأن تعرفا خطة التعلّم الذاتي التي انتهجها وبلغ بواسطتها المكانة التي هو عليها في التاريخ الإنساني؟

لوسيل "بتلهّف": وهل تتخيل أن نجيبك بالنفي؟ بالتأكيد أخبرنا عنها، فهي نموذجٌ يُحتذى دون أدنى ريب.

[606.1] **رجل الكهف**: لقد بدأت محاولاته في تحصيل المعرفة بشكل جدّي عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر، كما أشرتُ لكما سابقاً، بعد مرضٍ ألمّ به كان من شأنه تعجيلُ وفاته، التي لم تحصل لحسن حظ البشرية- إلا عندما بلغ الساسة والستين. فكتب في اعترافاته يقول: "... واليفتني في النهاية انجذبُ... إلى الدراسة دون أن أملكَ مقاومة. وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي، رحتُ أدرسُ في تحمّيس عارم وكأنني سأعيش دوما! ولقد قيل لي: إن هذا ضارٌ بي. ولكني أعتقد -من ناحيتي- أن هذا قد أفادني، لا ذهنياً فحسب، وإنما جسدياً كذلك. إذ إن هذا الشغل الذي شغفت به صار مُستعذَباً لديّ حتى إنني لم أعد أفكّر في عِللي، ومن ثمّ أصبحتُ أقلّ تأثراً بها...".

[606.2] **دالي** "مقاطعا": هذا مُحفزٌ جدا. ما هي الخطة التي اتبعها في ذلك؟

رجل الكهف: اسمع: "... أقبلتُ على "دائرة المعارف" أولاً وقسّمتها وفقاً لفروعها. ثم رأيتُ أن لا بد لي من أن أفعل العكس تماماً فأدرسَ هذه الفروع منفصلةً وأمضي في كلٍ منها على حِدة إلى النقطة التي يلتقي عندها بسواه فتتحدُ جميعا. وبهذا عدتُ إلى التقسيم المألوف، ولكني عِدتُ إليه وقد أصبحتُ رجلاً يعرف ما ينبغي أن يفعل...". وبما أنه كان مريضاً ولا يدري كم سيعيش فيضيف: "... وسواء كان مقدراً لي أن أعيش أو أن أموت، فقد رأيتُ أنني لم أوتَ وقتاً أضيّعه. وعدم الإلمام بشيء... مع الرغبة في التعلّم يتطلّب الانهماك في الإفادة من الوقت. ومع أني لم أدري عند أية نقطةٍ قد

يحلو للحظ أو للموتِ أن يوقف تحمّسي، إلا أنني كنت راغباً -مهما تكن الظروف- في أن أُلِمّ بفكرةٍ عن كل شيء لكي أتبيّن اتجاه كفاءاتي الطبيعية أكثر مني لكي أحكم بنفسي على قيمة الجدارة القائمة على التثقيف!".

لوسيل "مقاطعة بإعجاب": إن الجملة الأخيرة عميقة المعنى؛ هو يريد أن يعرف مواهبه كي يعرف كيف بإمكانه استغلالها.

[606.3] **رجل الكهف:** إذا صبرتِ حتى النهاية فستجدين أن هذا هو ما فعله. وهذا مفتاحٌ مهمٌ جدا.

لوسيل "بخجل": المعذرة.

رجل الكهف: على أي حال، إنه يتابع فيقول: "... وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق في تعرّف اتجاه عقلي وفي الاستمتاع... بسحرِ الحياة الذي أحسستُ بقيمته تماماً كسحر الزمالة العذبة غير المقيدة -إذا صحَّ أن نطلق هذا الاسم على معاشرةٍ قامت على اتحادٍ كاملٍ- أو سحرِ معرفةٍ رائعةٍ كنت أعتزم أن أكتسبها ولكنني كنت انتشي بها وكأنني حصّلتها فعلا. أو لعلّ نشوتها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخلٍ كبيرٍ في سعادتي.".

[606.4] **دالي** "بسرور": هذا محفزٌ جدا! أخبرنا بخطة البحث أرجوك!

رجل الكهف: ها هي ذي: "... انتهجتُ أسلوباً... إليه أعزو كل التقدّم الذي استطعت أن أحرزه بالرغم من نقص استعدادي. فمن المؤكد أنني لم أوت قط استعداداً كبيراً للدرس. ولقد آليتُ على نفسي -وأنا أقرأ لكل مؤلِّف- أن استوعب كل أفكاره وأتتبعها دون أن أخلطها بآرائي، أو بآراءِ أي مؤلِّفٍ آخر، ودون أن أجادلها. بل إنني كنت أقول لنفسي: (لنبدأ باختزان الآراء بدقة -صحيحةً كانت أم خاطئة- ريثما يتوفر لعقلي من الغذاء ما يُمكّنه من المقارنة بينها والمفاضلة). وإني لأعلمُ أن هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب، ولكنه أفلح في تمكيني من غايتي؛ وهي التعلّم. وبعد بضعة سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غرار سواي -دونما تأمّل، بل وبدون تمحيص- ألفيتُ نفسي- مالكاً لمدّخرٍ من العلم كافٍ لإرضائي ولتمكيني من أن أفكر دون معونة الغير. وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتبي -في ذلك الحين- كنت أتسلّى باسترجاع ما قرأتُ والمقارنةِ بين بعضه وبعض، فأزن كل شيءٍ بميزان، وأصدر -في بعض الأحيان- أحكاماً على أساتذتي. ومع أني بدأت أشحذ مقدرتي على النقد في سنٍ متأخرة، إلا أنني لم أجد أنها قد تبددت. وعندما نشرتُ آرائي الخاصة، لم أتهم أبداً بأنني عبدٌ لأساتذتي، ولا بأنني (أحلف بكلماتِ أستاذٍ ما)".

[606.5] **دالي** "مقاطعا": هذا رائعٌ فعلاً، إنه ما قصدته أنت عندما قلت لي أن عليّ الانكفاء على نفسي- بضعة سنوات، أليس كذلك؟

رجل الكهف: نعم، لكن بالطريقة التي تحدثنا بها مسبقاً، باستخدام المفاتيح التي أعطيتك إياها، لا بهذه الطريقة البدائية التي اتبعها جان جاك روسو. فإن كان هو قد اعترف أن لهذه الطريقةِ عيوبها،

فإن هذه العيوب هي اليوم في أقصى درجاتها نظراً لأن الكم المعروض من الأفكار والمعلومات، كما وسهولة الحصول عليها، هو في أعلى درجاته اليوم. فالمعرفة التي كانت متاحة لجان جاك روسو كانت لا تُذكر من ناحيةِ الكميةِ مقارنة بالكم المتاح لك أنت اليوم، وبسبب هذا، فإنه على نقيضه، المعرفة المتاحة اليوم لك هي ذات جودةٍ أردأ بكثير من تلك التي كانت متاحة لجان جاك روسو. وبالتالي، وجب عليك استعمال الفلاتر التي أعطيتك إياها، وإلا فإنك ستتيه تماماً، فكمية الهراء التي ستقابها في طريق بحثك أعظم من أن تحصى.

دالي "مفكرا": فعلاً هذا صحيح. في الواقع، يستحيل عليّ فِعلُ ما فعله هو بتلك الطريقة. اعذرني على عدم انتباهي لهذا. على أي حال، أكمل لنا الخطة فإني أجد في كلامه الحكمة.

606] **لوسيل** "مقاطعة": المعذرة، لكن لِمَ أكّد على أنه غير كفؤ للدراسة والتعلّم؟ إنه جان جاك روسو بحق السماء!

رجل الكهف: سأجيبكِ عن هذا بعد أن ننتهي من خطة البحث التي يتابعها بقوله: "وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة التي لم أجاوزها كثيراً قط. إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتي بفضل الرجوع مائة مرةٍ ومرة إلى حيث بدأت والشروع باستمرار في تتبع خطواتي السابقة... وجاء الجبر بعد ذلك... حتى إذا تقدّمتُ في دراستي أقبلتُ على علم الحساب... وجاءت اللغة اللاتينية بعد ذلك، وكانت هذه أشق دراساتي، فلم أحرز فيها أي تقدم كبير... ووجدتني أضل وسط أكداس القواعد، وما إن أستوعب قاعدةً ما حتى أكون قد نسيت التي سبقتها، فليست دراسة الكلمات بالتي تليق بإنسانٍ بلا ذاكرة. وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكي أغصب ذاكرتي على أن تتقوى فحسب. وكان لابد من أن أهجرها في النهاية، على أنني استوعبت التركيب بالدرجة التي تكفي لأن أستطيع أن أقرأ أسلوبَ كاتبٍ سليس بمساعدة قاموس. وقد اتبعت هذا النهج فوجدتني أتقدم... وبفضل الزمن والمران أصبحتُ أقرأ بطلاقةٍ كافيةٍ مؤلفات الكُتاب اللاتينيين... حتى ألفيتني -دون أن أدري كيف- مُدرجاً في عداد أهل الأدب...". بهذه الطريقة تحوّل جان جاك روسو من إنسانٍ بسيطٍ مجهولٍ إلى أحدِ رموز الحضارة الإنسانية. هذا ولم أذكر لكما أنه قد درس الجغرافيا والتاريخ والشعر والنثر وغيرها، بل إنه ابتاع منظاراً وخريطة فلكية وتدرب على استخدامهما في سياق تعلمه للفلك. أليس هذا هو عين ما قلته لكما؟

606] **لوسيل:** بالفعل. لكن كيف قام بهذا وهو ما ينفك يكرر أنه غير قادرٍ على الدراسة والاستذكار؟

دالي: وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف وجد الوقت اللازم لكل هذا، لا بد أنه لم يكن لديه ما يعمله!

رجل الكهف: اسمعا إذن: "ووجدت في تنفيذِ هذا المشروع فائدةً أخرى، لم أكن قد فكرت فيها، وهي توفير أطولِ وقتٍ ممكن لاستغلاله في ذلك. ولا بد أنني لم أخلق للدرس، لأن العكوف عليه طويلاً يُضجرني إلى درجةِ أنه من المستحيل عليّ أن أضطرّ نفسي- إلى الانشغال بموضوع واحدٍ لنصف ساعةٍ بأكمله لاسيما حين أكون منصرفاً إلى متابعة سير تفكير شخصٍ غيري. في حين أنني أقوى

أحياناً على أن أستغرق في تفكيري الخاص أمداً أطول، بل وبتوفيقٍ كبير. أما حين أتتبع تفكير مُؤلِّفٍ ما لبضع صفحاتٍ أُضطرُّ إلى مُطالعتها بإمعانٍ واستيعاب فإن عقلي يشرد ويتوه بين السحاب. فإذا أصررت فإنني أرهق نفسي عبثاً وأُصابُ بدوارٍ ولا أعود أرى شيئاً. أما إذا تعاقبت موضوعاتٌ متباينة -ولو كان تعاقبها متواصلاً دون إمهال- فإن الواحد منها يُسرّي عني عناء الذي سبقه، ومن ثمّ فإني أمضي فيها بيسرٍ دون أن أشعر بحاجةٍ إلى أية مهلةٍ للراحةِ أو التخفيف. ولقد عمدتُ إلى الإفادة من هذه الملاحظة في الخطة التي انتهجتها للدرس؛ فرحت أمزج الموضوعات بشكلٍ كان يجعلني أشغَلُ بها طيلة اليوم دون أن أسأم البتة. ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تُحدث تغييراً نافعاً، ولكنني -في غمرة التحمّس المُطّرد- لم ألبث أن وجدت الوسيلة لتوفير وقتٍ للدرس -إلى جانب أداء هذه المهام- ولأن أُشغَلَ بأمرين في آنٍ واحد دون أن يخطر لي أن هذا يُقِلُّ من إتقاني لكلٍّ منهما." و "إذ كنت قد وضعت نُصب عيني أن أهيئ لنفسي -بالقوة- ذاكرةً طيبة، فدأبتُ على محاولةٍ أن أحفظ كثيراً من المعرفة عن ظهر قلب. ومن أجل هذا، كنت أحمل معي دائماً كتاباً أدرسه وأستذكره وأردده على نفسي، وأنا منهمكٌ في العمل، متحملاً في هذا عناءً لا يصدقه العقل. ولست أدري كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى أن أغدو -في النهاية- غبياً..." و "... لقد فقدتُ وفَكَكتُ عدداً كبيراً من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان، سواء كان هذا في أعشاش الحمام، أو في الحديقة، أو في البستان، أو في مزرعة الكروم...".

[606.8] **دالي** "مفكرا": إن معظم الناس يشكون من الشرود أثناء القراءة ومن ضعف الذاكرة تماماً مثل جان جاك روسو. لكن لأنه أراد بناء عقليةٍ مثقفة، وسار نحوها بإصرار، استطاع أن يصل إليها. وهذا بالضبط ما لا يفعله الرعايا؛ الذين عندما يشردون يكتفون بقولهم، تماماً كجان جاك روسو: "أنا لست كفؤاً للتعلم والبحث"، وعندما ينسون ما يتعلمون، تماماً مثله أيضاً، فإنهم يتعذرون بضعف ذاكراتهم وينتهون على هذا وذاك من القول. إن ما فعله جان جاك روسو هو ببساطةٍ أنه لم يكتف بقول ذلك مثلهم!

رجل الكهف: لقد قلتُ لك بالأمس عندما سألتني عن كيفية حيازة المعارف: "يكفي في الأمور العظيمة أن تريد". لقد اعتقدت أني أستهزئ بك؛ مما كان من شأنه أن نتحدث منذ تلك اللحظة حتى الآن شارحاً لك كيفية تنفيذ هذه الجملة التي كانت كافيةً كجوابٍ على سؤالك.

دالي "بخجل": هذا صحيح! أنت مصيبٌ تماماً، الآن فهمت مقصدك. لقد فعلها جان جاك روسو، ولا شيء قد يمنعني عن فعلها إلا عدم إرادتي فِعلها. اتضح الأمر الآن. أشكرك جزيل الشكر.

[606.9] **لوسيل:** وما رأيك في هذه الطريقة؟ أعني التركيز على العمل والدراسة معاً، هل تنجح بالفعل؟

رجل الكهف: كما لاحظتِ من كلام جان جاك روسو، إنها لم تنجح معه، ولقد نبذها لاحقا. حتى إنه قد أشار في كتابه "إيميل" بوضوح أن الإنسان "... لا يمكنه أن يسعى نحو هدفين متناقضين في الوقتِ عينه...". وأنا أتفق معه تماماً في هذا. إني أُفضِّلُ أن يُركّز الإنسان على أمرٍ واحدٍ بعينه في أي

وقتٍ ما. إن محاولة التركيز في أمرين مختلفين في الوقت ذاته سيحجب عنكِ الكثير منهما فتنتهين لأن لا تُتقني أياً منهما. ألم تسمعي أنه "من يلاحق أرنبين لا يلتقط أياً منهما"؟

لوسيل "ضاحكة": هذا صحيح.

[6 **رجل الكهف** "وهو يشغلُ فيديو على حاسوبه": هل تعلمان من هو هذا الشخص؟

داني "ضاحكا": لا أعرف، ربما يكون والدك؛ فهو كأنه أنت بلحيته والكتب المحيطة به، لكنه كبيرٌ بالسن كثيراً مقارنة بك.

رجل الكهف: إن من اللطيف منك أن تشبهني بغاستون باشلار.

[60 **لوسيل** "باهتمام": ومن يكون غاستون باشلار؟

رجل الكهف: إنه أحد أهم فلاسفة فرنسا في القرن العشرين. له مساهمات هامة في فلسفة العلم وفي الابستمولوجي بل وحتى في الشعر. كان فيلسوفاً موسوعياً عميق التفكير ترك بصمة واضحة. وهذه مقابلةٌ أجراها معه صحفيٌ أواخرَ عامِ 1961؛ أي، قبل أقل من عام على وفاته، وحملت عنوان "صورةُ الفيلسوف". دعونا نسمع مقتطفاتٍ منها.

[60 **الصحفي**: هل أنت حريصٌ على أن تُنادى بماستر؟

غاستون باشلار: كلا أبداً، كلا أبداً، على الإطلاق. نادني غاستون باشلار أو باشلار فقط. لا سيد، بروفيسور، بلا مُزاح، انتهى الأمر. أنا رجلٌ بحريةٍ كاملة، كل الناس ينادونني باشلار.

[61 **الصحفي**: لا ماستر؟

غاستون باشلار: كلا، كلا، كلا.

[61 **الصحفي**: هل الفيلسوف متفوقٌ على البشر؟

غاستون باشلار: كلا، ليس الأمر كذلك، يا إلهي، كلا. لا يوجد إنسانٌ متفوق. أنا ليس لدي تلك التراتبية الهرمية الصوفية، فالناس هم ما يمكنهم أن يكونوا... أنا لا أفهم كيف يمكن لأحدٍ أن يقارن نفسه بالآخرين.

[61 **الصحفي**: نحنُ تحت تأثير الانطباع بأن الفيلسوف يعرف كيف يعيش أفضلَ من الآخرين.

غاستون باشلار: أفضل! لماذا؟

الصحفي: ذلك أنه محميٌ من العواطف.

غاستون باشلار: كلا، كلا، كلا، إنه ليس دائماً محمياً من العواطف، أو إنه ربما يكون غير محظوظٍ لعدم امتلاكه أياً منها.

الصحفي: هذه إجابةٌ غيرُ حقيقية، لكن يمكن للشخص ألا يجيبَ على السؤال.

[613] **غاستون باشلار**: كلا، الحياة والعمل في الأفكار ليسا متماسكين بشكل مطلق. عندما أقرأ كتاباً لفيلسوفٍ ما، أنا أكون مندمجاً به بالكامل، لكن هذا لا يمنعني من أن أعيش كأي إنسانٍ آخر؛ كمواطنٍ صالح، ورب أسرة، وكعاملٍ في وظيفته. أنت تريد أن تثبت عليّ تلك الصورة للفيلسوف الذي يعيش في الأحلام بعيداً عن مصاعب حياته.

الصحفي: أنا لا أريد هذا، لكنها الفكرة العامة عن الفيلسوف.

[614] **غاستون باشلار**: إذن، يجب أن يتم تصحيحها على الفور. كلا، كلا، كلا، أنا أعرف كيف أقوم بكلِ شيءٍ ولستُ بحاجةٍ لأي أحد، أنا أعرف كيف أطبخ، أنا مستقلّ بذاتي. عندما كنت أصغر بالسن كنت أذهب إلى الجزار وأختار بنفسي. كلا، كلا، كلا، أنا لم أكن يوماً مُحرجا من الحياة المادية. كنت أقوم بدراساتي في ستوديو صغير مع قاموسي أمامي وأفضلِ أنواع الجبن من المتجر. أنا أعرف بطرفة عين إذا كنتُ سأحصلُ على القطعةِ الجيدةِ من لحم الخنزير...

[615] **الصحفي**: في النهاية، إنها طريقةٌ للعيش سيد باشلار.

غاستون باشلار: نعم، هذا جميل؛ طريقةٌ للعيش. أنت مجبرٌ على أن يكون لديك طريقةٌ للعيش أو إنك ستكون غبياً تعسا. عليك أن تكون متوازناً في وقتنا الحالي.

[616] **رجل الكهف** "موقفاً الفيديو": هذا ولقد تحدَّث عن أمورٍ أخرى في المقابلة، كاهتمامهِ بزراعةِ حديقتهِ بالأشجار وتخزين النبيذ في القبو، لكننا لن نشاهد المقابلة كلها الآن. ما رأيكما بما شاهدتما؟

لوسيل "بعينين لامعتين": لا أصدق ما شاهدته للتو. كيف، بحق السماء، يمكن لإنسانٍ بلغ الثمانين أو نحوها، فيلسوفٌ بالقيمةِ التي ذكرتها، أن يتكلم بهذه البساطة مع الصحفي. كيف أمكن له مزج الجدية بالطرافة، والعمق بالسطحية، والتواضع مع الثقة بالنفس. هذا أغرب مزيج مرّ عليّ في حياتي.

[617] **داني**: كم هو متواضع. يكره الألقاب لأنه إنسانٌ حر، تماماً كما قلت لنا مسبقاً، ويؤكد على أن كل ثقافته وفكره وفلسفته لا تؤثر على كونه ملماً بتفاصيل الحياة المادية وأن يقوم بكل واجباته على أكمل وجه كأي إنسان من العامة. كيف أكد على أنه لم يخجل يوماً من أن يمارس المهام التي يقوم بها الناس البسطاء، واعتبر أن الإنسان لو لم يكن متوازناً بهذا الشكل فهو غبيٌ تعس. كيف قال إن كل الناس سواسية، وأنه لا توجدُ تراتبيةٌ هرميةٌ في نظره، مبرراً هذا بأن الناس هم ما يمكنهم أن يكونه. يا إلهي، إنه يؤكد كثيراً من الأفكار التي قلتها لنا مسبقا!

[618] **رجل الكهف**: كان علينا أن نشاهد هذا الفيديو عندما كنا نتحدث عن أنصاف المثقفين وأشباه المثقفين وأدعياء الثقافة المنفصلين عن الواقع عندما كنا على الشاطئ في الأمس، لكن الحاسوب لم يكن معنا. هل لاحظتما الفرق بين هذا وذاك؟

لوسيل "مفكرةً بعمق": على المثقفين المنفصلين عن واقعهم، المتعجرفين، أن يتعلموا درساً من غاستون باشلار. أحدهم يقرأ روايتين أو ديواناً شعرياً ويرفع رأسه لتناطح السحاب. فعلاً بدأتُ

أفهمك أكثر الآن.

[619] **رجل الكهف**: أعرف أني قد تحدثتُ بأفكار غريبة جداً، لكني واثق أن الوقت سيثبت لكما أنها صحيحة. على أي حال، لقد تحدثنا مطولاً هذا الصباح في أمور كثيرة متداخلة، ولقد كنتِ تكتبين ملاحظات يا لوسيل، هلا أطلعتِنا عليها؟

[619.1] **لوسيل**: حاولتُ أن أسجل الأفكار الرئيسية كي أعود إليها وأتذكرها دون أن أضطر لطلب التسجيل من داني. وهذه الملاحظات تقول: إن على المثقف أن يكون:

- هاوياً للبحث الثقافي.
- فضولياً للمعرفة.
- طارحاً للأسئلة دون توقف.
- موضوعياً دائما.
- صادقاً مع نفسه.
- عارفاً لكيفية صياغة كل مشكلة وتحديد فرضياتها وعلائقها.
- مُتبعاً للأدلةِ أينما أخذته.
- غيرَ ممتلكٍ لمعارف يقينية.
- عارفاً أنه لا يعرف.
- حذراً من وهم المعرفة.
- مُدركاً أن عليه العمل على تحرير نفسه بنفسه.
- مُتواضعا.
- مُغيراً لآرائه دوماً تبعاً للأدلةِ الجديدة.
- شكوكيا.
- غيرَ مُستمدٍ للمعلوماتِ إلا من مصادرها.
- مُتنبهاً إلى وسائلِ ثواليث القمع وأدواتهم.
- مُتنبهاً إلى تحيزاتِ دماغهِ وقصورهِ البيولوجي.
- لا يُبدي رأياً ولا يحكم على أمرٍ لم يبحث فيه.
- غيرَ متورع عن قولِ لا أعرف.
- مُحدداً لكل آراءهِ وأحكامهِ بمدى عمق بحثهِ فيما يتعلقُ بأيٍ منها.
- مُقدراً لقيمة الوقت.
- مُتحرراً من كافةِ أشكالِ العبودية.
- غيرَ منتمي.
- إنساناً عالميا.

- غيرَ مُعمَّم.
- غيرَ طامحٍ لقيادةِ الرعايا، بل لمساعدتهم في تحرير أنفسهم.
- لا يعتبر أي إنسان مثاليا.
- غيرَ مقدسٍ لأحد.
- يقظاً دائماً ليتعلم من أي أحدٍ ومن كُلِ موقفٍ يمر به.

[620] **رجل الكهف:** هذه إذن هي مفاتيح الخروج من الغرفة، وهي نفسها مفاتيح صعود البرج. وعليها أن تكون دائماً بحوزةِ المثقف لأنها تعملُ بشكلٍ تكاملي، لا تراتبي. ففي اللحظة التي يفقد الباحث أحدها يتعذرُ عليه متابعة صعودِ البرج، فهو سيحتاجها في كل طابق فيه. وبالتالي، فإنها أكثرُ أهميةً بكثير من الخريطة التي رسمتها لكما بالأمس.

داني "بتعجب": لماذا؟

[621] **رجل الكهف:** لأنه من الممكن أن تصل إلى وجهتك عبر طرقٍ أخرى غير المرسومة في الخريطة. قد تكتشفُ أنتَ طريقاً جديداً أو تجبرك الظروف على سلوكِ طريق آخر، لا مشكلة كبيرة، ستخرج من الغرفة وستصل البرج. أما من دون المفاتيح لن تستطيع المتابعة. أعني: من دونها لن تستطيع الخروج من الغرفة، وإن أضعتها بعد خروجك فلن تصل البرج، وإن وصلته فلن تدخله، وإن دخلته وأضعت أحدها في أي طابقٍ من طوابقه فسيتعذر عليك الصعود إلى الطابق الذي يليه. ولهذا السبب بالضبط يتعذر على كثيرين متابعة صعود البرج، كما ويضطر كثيرون منهم للعودة إلى الغرفة. هذا من جهة؛ ومن الجهة الأخرى، فإن الأهم هو أن تكون إنساناً حراً، لا مثقفا. فكما قلت لك: الثقافةُ سلاحٌ أخطرُ من الأسلحة المادية. فإن لم تكن حراً في البداية فستدمرك ثقافتك وقد تدمر غيرك أيضا؛ لذا، وجب أن تكون حراً كشرطٍ أساسي. عليك أن تكترث لضمان استمرارية تحقق هذا الشرط؛ ثم، بدرجةٍ ثانية، أن تهتم ببنائك الثقافي. فكم من مثقفٍ ثالوثٍ قد دمّر شعوباً، وكم من حرٍ أقل ثقافة قد ساهم في تحريرها. ومن جهةٍ ثالثة، أنا أريدك فاهماً لا حافظا؛ ودون هذه المفاتيح يستحيل عليك أن تكون كذلك. لذا، فاحرص على أن تلازمك هذه المفاتيح منذ هذه اللحظة وحتى وفاتك وأن تستعملها دائماً بالتزامن مع بعضها. ستحتاجُ بضع سنواتٍ للتدرب على استخدامها، لكنك ستنجح في النهاية، وستصبحُ تلقائيةً تستخدمها دون أن تشعر تماماً كما تستعمل مفتاح باب بيتك بتلقائية دون تفكير.

داني "بحماس": سأعمل على هذا بكل تأكيد.

[622] **رجل الكهف:** والآن، هل حللتُ لك الأمر الذي شغلك منذ الأمس؟

داني "بابتسامة": نعم. شكراً جزيلا.

رجل الكهف: إذن، دعونا نأكل شيئاً ما فإن ألم الرأس قد بدأ يداهمني.

****

الباب التاسع
في ماهيةِ المثقف

(أثناء تناول الطعام)

لوسيل "بأدب": إن تلك المتطلبات التي تتضمن تغييراً جذرياً لطريقة التفكير كثيرةٌ جدا. ألا ترى أنها عصيةٌ على معظم الناس؟ أليس من الحكمةِ أن تقترح على الناس ما يمكنهم فعله، وليس ما تراه أنت مثالياً ليُفعل؟

رجل الكهف: "(اقترح ما يمكن فِعله). إنهم لا يتوقفون مطلقاً عن تكرارها لي. إنها كما لو قيل لي (اقترح فِعل ما قد تم فِعله) أو على الأقل (اقترح بعض الأمور الجيدة التي يمكن لها أن تتحالف مع الشر الموجود). مشروعٌ كهذا، في بعض المسائل، هو أكثر خياليةً من مشروعي. لأنه في هذا التحالف الجيدُ سَيفسَد والشرُ لن يُشفى. أنا أفضّلُ أن أتبع الممارسات المعترَف بها في كل شيء على أن أتبع ممارسات جيدةً لنصفِ الطريق. سيكون هناك تناقضٌ أقلُ لدى الإنسان. فهو لا يمكنه أن يسعى نحو هدفين متناقضين في الوقتِ عينه. أيها الآباء والأمهات، ما يُمكن فعله هو ما تريدون أنتم فعله. هل يجب عليّ أن أكون مسؤولاً عن إرادتكم أنتم؟" هكذا أجابك جان جاك روسو في "إيميل". وبالمثل أقول: أنا أكره أنصاف الحلول فيما لا يقبل أنصاف الحلول. إن هذا خيانةٌ للفكر وللنفس. هناك أمورٌ في هذه الحياة لا تقبلُ المساومة، إما هي مقبولةٌ أو غيرُ مقبولة، إما صحيحةٌ أو خاطئة، من منظورٍ موضوعي لا شخصي أتكلم.

لوسيل "بتعجب": إذاً، أنت تعتقد أن التزام تلك النصائح كلها هو أمرٌ لازمٌ لا يقبل المساومة.

رجل الكهف: بالطبع، إذا كنا نتحدث عن مثقفٍ مثالي. أما وإن المثالية قد مُنعت عن البشر، فإن على الإنسان أن يحاول ملامستها ما استطاع كي يضمن عدم انزلاقه.

62] **لوسيل**: نحن نتكلم عن المثقف، والمثقفين، والخارجين، منذ بداية لقائنا، وندور في فلكهم في حواراتنا، ونحاول تحديد أنواعهم، وما يتميزون به من معارف ومن طرق تفكيرٍ تجعلهم مختلفين عن قاطني الغرف، سواء من الرعايا أو من أعضاءِ الثواليث وزبانيتهم، لكنك حتى الآن لم تُعرِّف لنا المثقف!

رجل الكهف: هذا لأنه لا يوجد تعريفٌ محددٌ للمثقف حتى الساعة. إن الأمر أكثر تعقيداً من تحديد الثقافة الذي تكلمنا عنه سابقا. فمع عدم وجود تعريف مُجمع عليه لها، إلا أننا تمكنا بسهولةٍ من وضعها في إطار عام. بيدَ أن الأمر أشد تعقيداً مع المثقفين أنفسهم. ففي الحقيقة، كلُ مثقف يطمح إلى أن يُفصّل تعريفاً للمثقف يناسب قياسه. الفلاسفة ينظرون للمثقف بأشكالٍ مختلفة بحسب توجهاتهم، يمينية أو يسارية. وعلماء اللغة يُعرّفون المثقفين انطلاقاً من الدلالات اللغوية للكلمة. والأكاديميون يريدون إلصاق التحصيل الأكاديمي العالي بالمثقف. وعلماءُ الاجتماع يحددون المثقفين بما يتناسب

وأهداف أبحاثهم. لذا، فلا عجب أن يكتب محمد عابد الجابري في "المثقفون في الحضارة العربية": "... عندما طرحتُ السؤال: ومن المثقف؟ شعرتُ بالفزع...". الأمر مفزعٌ حقاً، فهناك فوضى عارمة تحف هذه الكلمة. لكن يُمكننا، إن أردتِ، أن نحاول استعراض الأمر علّنا نتوصل إلى مفهوم ما لماهية ذلك المثقف الموسوعي الحر المثالي الذي نتحدث عنه.

[626] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": تبدو مَهَمَّةً ممتعة. دعنا نقوم بها.

رجل الكهف: دعينا نبدأ بالمعاني اللغوية للكلمة لتكتشفي سبب اللغطِ الذي تسببه. ففي اللغة العربية مثلاً: ثَقَّف يُثقِّف، تثقيفاً، فهو مُثقِّف، والمفعول مُثقَّف. ثَقِفَ ثَقَفاً: صار حاذقاً فَطِناً، فهو ثَقِف. ثقَّف الإنسان: أدّبه وهذبه وعلّمه. ثقَّف المعوجَّ: سوّاه وقوّمه. ثَقَفَ الحديثَ: حذَقه وفطِنه، فهمه بسرعة. ثقف الشّخصُ: صار حاذقاً فطِنا. وثَقِفَ العِلمَ والصناعةَ: حَذَقها .ثقف الشّيء: ظفِر به أو وجده وتمكّن منه. ثقف التلميذ: أدّبه وربّاه، علّمه ودرّبه وهذّبه. ثَقِفَ الرَّجُلُ: صَارَ حَاذِقاً مَاهِراً متعلما. ثَقِفَ الطَّالِبُ العِلْمَ: حَذَقَهُ وَحَصَّلَهُ. ثَقِفَ الحَدِيثَ: فَهِمَهُ بِسُرعَةٍ وَنَباهَة. ثَقِفَ عَدُوَّهُ في الحَرْبِ: أَدْرَكَهُ. ثقُف الشَّخصُ: صار حاذقاً فطناً، انكبَّ على المطالعة حتى ثقف. وهكذا دواليكَ في المعاجم العربية.

[627] **لوسيل**: وبالتالي، كلمة مثقف في اللغة العربية لا تعدو أن تكون سوى اسم مفعولٍ من ثقف. ماذا عن اللغات الأخرى؟

رجل الكهف: إن الكلمة المنتشرة في اللغات الأوروبية هي الكلمة الفرنسية Intellectual. وهي صفة من Intellect التي تعني: القدرة أو الملكة في العقل التي يمكن للإنسان بواسطتها أن يعرف أو يفهم بشكلٍ منفصلٍ عما يشعر به وما يرغب به. وهي الفهم؛ أي، ملكةُ التفكير واكتساب المعرفة. كما تعني القدرة على التفكير واكتساب المعرفة خاصةً في أمرٍ معقدٍ أو عالي. ويطلقها قاموس كامبردج بشكل رسمي على الشخص المتعلم جداً، الذي اهتماماته هي الدراسةُ وأنشطةٌ أخرى تتضمن التفكير الحذر.

[628] **لوسيل**: وماذا عن الصفة منها؟

رجل الكهف: Intellectual كصفة، تتعلق بقدرتكِ على التفكير وفهم الأمور خاصةً الأفكار المعقدة. وكاسم، يطلقها قاموس كامبردج، تماماً كسابقتها، على الشخص المتعلم جداً، الذي اهتماماته هي الدراسةُ وأنشطةٌ فكريةٌ أخرى تتضمن التفكير الحذر والجهود العقلية. أما كلمة Intelligentsia الروسية المولد **интеллигенция** فهي اسمٌ من الصفة Intelligent، والتي هي بدورها صفةٌ للاسم Intelligence الذي يعني القدرة على اكتساب وتطبيق المعارف، أو هو القدرة على التعلم، أو الفهم، أو القيام بالمحاكمات، أو امتلاك آراء مبنية بشكل عقلاني. وعليه، فإن الصفة منه Intelligent تعني القدرة على تعلم وفهم الأمور بسهولة، أو امتلاك فهم جيد أو قدرة عقلية عالية.

سريعُ الفهم كإنسانٍ أو حيوان. وهي امتلاك ملكة العقلانية والفهم، أو امتلاك الفهم والمعرفة.

[629] **لوسيل:** وماذا إذن عن الاسم Intelligentsia؟

رجل الكهف: يُعرِّفه قاموس كامبردج على أنه اسمٌ للأشخاص المتعلمين جداً في المجتمع، خاصة أولئك الذين يهتمون بالفنون والسياسات. بينما يُعرِّفه قاموس أوكسفورد على أنه اسمٌ للمثقفين أو للأشخاص المتعلمين كمجموعة، خاصة عندما يتعلق الأمر بممارسة تأثيراتٍ ثقافيةٍ وسياسية. إنهم من يُطلق عليهم باللغة العربية "النخبة المتعلمة" أو "النخبة المثقفة" في المجتمع.

داني: إذن، الكلمة غير مُحددةٍ بإطارٍ واضحٍ كي تُطلق على مجموعةٍ معينةٍ من الأشخاص على وجه الخصوص.

[630] **رجل الكهف:** صحيح. إن الكلمة فضفاضةٌ جداً في استخداماتها، إذا ما توخينا المعاني اللغوية لها في اللغات المختلفة، لأنها كلمة مستحدثة. ولهذا السبب، قلت لكما إن تعريف المثقف يختلف جداً بحسب وجهة نظر كل باحث. إلا أن هناك شبهُ إجماع، شعبيّ على الأقل، أو مستمدٌ من المعنى المباشر المجازي للكلمة، يقضي باعتبار المثقفين هم من يمارسون الأعمال الذهنية، في مقابل أولئك الذين يمارسون الأعمال اليدوية. كما وقد يراهم البعض محصورين بأولئك الذين يعملون في السلك الأكاديمي أو السياسي أو الفني على وجه التحديد. لكن مهلاً! ألم نُفرّق فيما مضى بين المهني والمثقف؟ ألا يوجد في التاريخ أشخاصٌ كانوا مثقفين بامتياز لكنهم كانوا يمارسون حرفة ما أو مهنة ما؟ خذا باروخ سبينوزا على سبيل المثال. فمع أن كلمة مثقف لم تكن بعدُ قد استُعملت في زمنه، إلا أنه من المجحف جداً ألا نعتبره كذلك، بينما -بناء على هذا العُرف- نعتبرُ مدرساً بسيطاً على أنه مثقفٌ أو من النخبة المثقفة، ونعتبرُ مقدمَ برامج تلفزيونية أو رساماً هاوياً على أنهما كذلك. هذه مفارقةٌ غير مقبولةٍ على الإطلاق.

لوسيل: صحيحٌ تماما.

[631] **رجل الكهف:** لذا، أنا أعتبرُ كلّ من يعمل في مجالٍ عمليٍ يتطلبُ استعمالَ القدراتِ الذهنيةِ أكثر من استعمالِ القدراتِ البدنيةِ على أنه مهني، وذلك مقابلَ الحرفي الذي يعتمدُ عملهُ على القدراتِ الجسديةِ أكثر من الذهنية. أليس هذا منصفا؟

داني: بالتأكيد إنه كذلك.

[632] **رجل الكهف:** وبالتالي، سنستثني المهنة من تعريف المثقف، لأنه كما قال جيرار ليكلرك في "سوسيولوجيا المثقفين": "... لا يمكننا... اعتبار كل من يمارس وظيفةً فكريةً مثقفاً بإطلاق...". وبالتالي، علينا الالتزام بمقترح بول بارون الذي كتب: "إني أقترح أنه، عندما يتعلق الأمر بموقفٍ إزاء القضايا التي تطرحها الصيرورة التاريخية بأكملها، يجب أن نبحث عن الخط الفاصل بين العمال الفكريين وبين المثقفين".

لوسيل "بتركيز": هذا مهمٌ جدا.

[633] **رجل الكهف**: إذن، لننظر إلى ما زودتنا به المعاجم أيضاً من صفاتٍ لهذا الكائن. إنه اكتسب معارف متنوعة ويقوم بالمحاكمات العقلية بشكلٍ منفصلٍ عما يشعر به وما يرغب به. كما إن لديه القدرة على التعلم، أو الفهم، أو القيام بالمحاكمات، أو امتلاك آراء مبنيةٍ بشكلٍ عقلاني. أي، إنه مبدئياً لم يعد ذلك الببغاء الذي يردد ما يردده الرعايا. لكن مرةً أخرى، تُصر المعاجم على أن امتلاك هذه القدرة العقلية هو نتيجةٌ للدراسة، والتي توحي أنها الدراسةُ الأكاديمية. وعليه، فإن هذا المثقف قد لا يعدو عن كونه قد تعلّم داخل الغرفة ما لم يتعلّمه الآخرون من الرعايا الذين لم يتابعوا التحصيل الأكاديمي الذي تابعه هو. ولقد تكلمنا عن أن التحصيل الأكاديمي لا يعني بالضرورة أن الإنسان قد أصبح واعياً، ولا حراً، وبالتالي، ولا مثقفا. أكّد على هذا لويس كوزر في "رجال الأفكار" بقوله: "ليس كل الرجالِ الأكاديميين هم مثقفون، كما ليس كل أعضاء المهن كذلك...".

لوسيل "وهي تقدمُ الشاي": صحيح، لقد تكلمنا حول هذا.

[634] **رجل الكهف**: والآن، دعونا ننظر إلى مصطلح الانتلجنسيا الذي يعني النخبة المثقفة أو المتعلمة في المجتمع. إذا استثنينا التحصيل الأكاديمي والمهنة، يتبقى لدينا قاسمٌ مشتركٌ لأعضاءِ هذه المجموعة، وهو أنهم يهتمون بالفنون والسياسات ويمارسون تأثيرات ثقافية وسياسية. هذا تحديدٌ جيدٌ لنفرّق بين هؤلاء وأولئك الذين يكتفون بالبحث الثقافي لأنفسهم؛ لمتعتهم الذاتية. لكن هل هناك من محددٍ يفرق بين أن يكون هؤلاء يعملون على مساعدة الرعايا في تحرير أنفسهم، أو أنهم ببساطةٍ مثقفو سلطةٍ يُدعّمون سطوة ثالوث القمع؟ بكل أسف كلا، لا تُميز المعاجم بين هؤلاء وأولئك. فكلُ من له تأثيرٌ ثقافيٌ أو سياسيٌ أو فكريٌ لهو من النخبةِ المثقفةِ في نظر المعاجم. وبهذا نرى أن المعاجم لا تسعفنا على الإطلاق في تحديد تعريف دقيقٍ للمثقف بالمعنى الذي نتكلّم عنه نحن. وهذا سببُ اللغط الكبير حول استخدام وتعريف هذه الكلمة المستحدثة، كغيرها من الكلمات التي أرى أن علينا إيجاد كلماتٍ جديدةٍ لها تخفيفاً لسوء التفاهم الذي يحيط بها، حيث يتم تحميلها معانٍ لا تتوافق مع معانيها اللغوية.

[635] **دالي**: لكن ألم يكن هناك مفكرون ومثقفون في كل المجتمعات عبر التاريخ بالمعنى الذي تقصده أنت؟ ألم تتحدث لنا مثلاً عن سقراط؟ كيف تقول إن هذه الكلمة هي كلمة مستحدثة؟

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": لأنه "على الرغم من أن هناك بعض الأفراد قد تخصصوا في الإنتاج الفكري حتى في غالبية المجتمعات البدائية..." كما كتب روبرت بريم في "المثقفون والسياسة"، ومع أن "... الوظيفة الفكرية قد امتازت بتاريخها السحيق وديمومتها..." كما كتب جيرار ليكلرك، "فإن للمثقفين كما نعرفهم الآن تاريخ ولادة، وإن كان لا ينطبق تماماً مع التاريخ الذي يسجله التاريخ الرسمي، فهو يعود إلى الحداثة الأوروبية القريبة العهد، بل إلى الزمن المعاصر بالذات.".

[636] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": حدثنا عن مولدهم؛ فربما نستطيع تعريفهم بشكلٍ أكثر موضوعية ودقة إذا نظرنا في قصة ولادتهم.

رجل الكهف: صدقتِ يا لوسيل. هذه فكرةٌ جيدة. لقد بدأت قصة الانتلجنسيا الروسية عندما

حاولت نخبةٌ فكريةٌ وإداريةٌ تعمل لصالح الدولة أن توائم بين إخلاصها للسلطة وبين اكتسابها لأفكارٍ تتعلق بالحريات. ولاحقاً، حوالي العام 1860، بدأت هذه الانتلجنسيا أن تكون أكثر انفتاحاً أمام الخارجين من أوساط الشعب. ويُرجّح جيرار ليكلرك أن الكلمة قد ظهرت حوالي عام 1865 لتعني حسب تعبيره: "الأذكياء الذين يعرفون مشاكل الشعب ويُحسنون عرضها، والذين يعتبرون أنفسهم ممثلي الشعب وناطقين باسمه، أو الذين يُمثلون أنفسهم بوصفهم ضمير الأمة..." الذين لديهم "... شعورٌ حادٌ بالاغتراب، وبالابتعاد تجاه الشعب، ورغبةٌ حادةٌ في تخليص الشعب وإعادة إحياء روسيا...". ويضيف: "... ثمّة جذرية في الأفكار دفعت إلى حدود اليوتوبيا... وحين استعارت لغات أوروبا الغربية هذا التعبير، فإنه كان قد احتفظ بالدلالات التي علقت به في هذا السياق الروسي: مسافةٌ ثقافيةٌ هامةٌ تجاه الجمهور أو العامة الجاهلة، ويقينٌ بالانتماء إلى نخبةٍ متميزة ولكنها تحمل في الوقت نفسه مسؤوليات هامة؛ العقلانية واليوتيبوية في الأفكارِ السياسية...". أو كما يُعرّف روبرت بريم الانتلجنسيا بقوله: "... هو اصطلاحٌ يشيرُ إلى هؤلاء المفكرين الذين يعنون أساساً بنقد السلطة القائمة ويلعبون أدواراً رئيسيةً في الحركات الثورية.".

[637] **دالي:** وما هي قصة أصلها الفرنسي؟

رجل الكهف: بعد بضعة عقود من ولادة الانتلجنسيا في روسيا، وتحديداً في العام 1894، أدين الضابط الفرنسي- ألفرد دريفوس بتهمة تسليم وثائق إلى السفارة الألمانية. وحُكِمَ عليه بنزع رتبته العسكرية بشكل علني والنفي الدائم إلى غويانا. لكنه كان بريئاً من هذه التهمة. واحتاج الأمر حتى شهر مارس من العام 1896 ليكتشف هذا قائدُ الاستخبارات الجديد بيكار ويعرف أن المتهم الفعلي هو الضابط إسترهازي، إلا أن الجيش قد حاول إخفاء هذا الكشف الجديد.

[638] **لوسيل** "بحماس": وماذا حصل بعدها؟

رجل الكهف: بعدها بعامين، في يناير من عام 1898، نشر- جورج كليمانصو في جريدته "L'Aurore" مقالاً لإيميل زولا بعنوان "إني أتهم" حيث كشف فيه عن المكيدة التي تعرض لها ألفرد دريفوس. وبعدها ظهر في الجريدة نفسها بيانٌ يقول: "إن الموقعين الذين يعترضون على انتهاك الأشكال القانونية وعلى الأسرار التي أحاطت قضية إسترهازي يُصرّون على طلب المراجعة.". كان البيان موقعاً بأسماء ما لبثت أن توسعت في الأيام التالية لتضم مئات الشخصيات من العالم الأدبي والثقافي والفني. كانوا كُتاباً ومُدرسين وطلاباً وفنانين. ثم كتب جورج كليمانصو مقالاً جاء فيه: "أليس هذا علامةً فارقة؛ أن يتحلّق هؤلاء المثقفون الآتون من كل زوايا الأفق حول فكرةٍ معينة؟" لكن بارّيس، زعيم المناوئين لدريفوس، نشر بعد أسبوع مقالةً بعنوان "اعتراض المثقفين!" كتب فيها: "... إن لائحة من يُعرف بالمثقفين هي لائحةٌ تضم العديد من الأغبياء ومن الغرباء أيضا...".

[639] **لوسيل** "بتركيز": وهل تمت إعادة المحاكمة؟

رجل الكهف: نعم، وخُفِّض الحكم إلى عشر- سنوات سجن، ثم في محكمة النقض تم إلغاء الحكم

وإطلاق سراح ألفرد دريفوس وإعادة الاعتبار إليه.

لوسيل "بسرور": هذا عظيم. لقد استطاع إذن هؤلاء الأشخاص، الذين نُعتوا بالمثقفين، من إحقاق الحق بتبرئة متهم بريء. وهكذا إذن ولد المثقفون.

[640] **رجل الكهف**: في الحقيقة "يُعتبر المثقفون الفرنسيون... كما يُعتبر... الانتلجنسيا الروس... رجالاً يقولون بالنفي، أو كما سيقول ماركوز... (رجالاً يمتازون بالرفض الكبير)... إن جدّة التعبير والتجمّع الغريب الذي قضى بتحلّق المثقفين أو الانتلجنسيا حول بعضهم بعضاً لا يُمكن أن يُخفيا مع ذلك الاستمرارية التي تتمثل بالوظيفة التي التزم بها هؤلاء الناس... والمتمثلة بالانحياز إلى الشأن العام والتشكيك في الحقيقة الرسمية المتمثلة في السلطات أو في المؤسسات. وفي الحالتين، تضع الطبقة الفكرية نفسها بتماسٍ مباشرٍ وصميم، صراعي إلى حدٍ ما، مع الدولة، أو مع الطبقة السياسية والطبقة المسيطرة في المجال الاقتصادي. كما تدخل ضمن علاقاتٍ تقوم إلى حدٍ بعيدٍ على المنافسة مع المؤسسات التقليدية...". هكذا كتب جيرار ليكلرك، مضيفاً: "... إن المثقف هو حصيلة تحول استثنائي ظهر في أوروبا بدءاً من عصر النهضة... ترتبط ولادة المثقفين بعلمنة المجتمع، بالسياسة، بالثقافة في القارة الأوروبية. يُربط المثقفون بالحداثة؛ أي، بالعلمانية، وبالتعددية الدينية، وبحرية الأفكار، وبظهور الطباعة في القرن الثامن عشر، وبالثورة الفرنسية، وبضغط ما يُعرف (بحقوق الإنسان)." . ورغم هذا "إذا كان المثقفون الأوائل الواعون لأنفسهم قد ظهروا مع نهاية القرن التاسع عشر... فإن المثقف الملتزم لم يكتسب حقه من التقدير والنبل إلا بحدود الأعوام 1930، وفي هذا التاريخ، أشارت صِفاته وأعماله ومعتقداته إلى ولادة المثقف المعاصر...".

لوسيل "مفكرة": من هذا، يتضح لنا أن المثقفين هم بالضرورة أشخاصٌ يقفون في وجه ثواليث القمع ويريدون مساعدة المظلومين وتسهيل الحرية للرعايا.

[641] **رجل الكهف**: بالضبط، هذا ما أردتكِ أن تكتشفيه من قصتي ولادتي هذين المصطلحين. فالمثقف هو بالضرورة ذلك الشخص الذي وصفتِه للتو. كتب جينس ليونغرين في *لا وطن للمثقفين* تعقيباً على قضية ألفرد دريفوس: "... المثقف المثالي الذي أعطاه زولا شكله سأسميه (النموذج الكلاسيكي). إنه يعني أن:

- المثقف يعملُ كفردٍ وكخالقٍ للآراء في الميادين المقدسة.
- المثقف يستغلُ السلطة في الثقافة أو في حقل العلم للتأثير على السياسة.
- المثقف مستقلٌ ويتصرّف كفئةٍ مستقلةٍ وواضحةٍ بجانب السياسيين والصحفيين ومجموعات المصالح المنظمة.
- المثقف يشيرُ إلى القيم الكونية في الحالات الواقعية.
- المثقف يتصرّفُ ويكسبُ نفسه الشرعية كضميرٍ وكسلطةٍ تحريضيةٍ على المعارضة للمصالح الراسخة."

هذه هي المحددات التي يجب أن تُميز شخص المثقف.

"مركزا": هذا يلخص ما شرحته لنا مسبقا.

داني "مركزا": هذا يلخص ما شرحته لنا مسبقا.

[642] **رجل الكهف**: يؤكد على هذا أيضا ايدوارد سعيد في "تمثيلات المثقف" بقوله: "... لا يوجد أدنى شك لدي في أن المثقف ينتمي لنفس الجانب مع الضعفاء والذين لا يمثلهم أحد...". ويكتب علي شريعتي في "مسؤولية المثقف": "... وكلمة المثقف... تعني صراحةً ذلك الذي يتميز بوضوح الرؤية وسعة الأفق... وتعني ذلك الذي لا يتصف بالتقيد والتوقف، ولا يفكر بجمودٍ عقائدي، بل يفكر بوضوح وسعة أفق، ويميز عصره والأرض التي يقف عليها، وموقع البلد الذي ينتمي إليه، والمشاكل التي تُطرح في مجتمعه، ويستطيع تحليلها، وتقديم الأدلة عليها، وإفهامها للآخرين...وعلى العكس من ذلك، فإن الذي تُطرح أمامه مشاكل تمس مجتمعه وتمس حياته لكنه لا يستوعبها ولا يدري أنها تمس حياته... مثل هذا الشخص ليس مثقفاً بالمرة. ومن هنا، فليس المثقف وحده هو الذي يزاول عملاً فكرياً، فمن الممكن أن يكون شخصٌ ما يفكر بانطلاقٍ وسعةِ أفقٍ بينما يزاول في المجتمع عملاً بدنياً أو يدوياً ومع هذا فإنه يُحسن الفهم، وعلى العكس تماماً ممن يزاول عملاً عقلياً أساسه فكري... لكنه ليس مثقفا. ألا نرى أناساً نعرفهم ونلتقي بهم كل يوم تعلّموا تعليماً عالياً ونالوا أرقى الشهادات، بل ويشغلون مناصبَ علميةً، ويقومون بأعمالٍ عقليةٍ، لكنهم مع كل هذا لا يفهمون حوا من لوا؟ فهؤلاء لا يُعدون مثقفين لأنهم لا يتميزون بوضوح الرؤية والقرار العقلاني...".

داني: هذا تمييزٌ مفيدٌ جداً، فكما ذكرتَ مسبقاً، لا علاقة للمهنةِ بتقييمنا لكون الإنسان مثقفاً أم لا.

[643] **رجل الكهف**: كلا بالطبع. يقول جيرار ليكلرك: "... المثقفون ليسوا بمحترفين، ولا هم جملةٌ من المهن الفكرية، مع أن بالإمكان تجميعهم ضمن وظائف محددة. إنهم نوعٌ من مجموعةٍ خلاقة، أو تجمع، إنهم فئةٌ تمتلك إلى حدٍ ما وعياً بذاتها، كما تمتلك (وعياً طبقياً) معيناً- إنهم المنتجون والموزعون والمستهلكون الأولون للابتكارات الفكرية والجمالية. هؤلاء الأفراد... هم من يؤلّف أثراً أو عملا؛ أي، شكلاً مميزاً من العمل والإنتاج؛ أي، إنهم من يُظهر للعالم جملةً من العلاماتِ والرموزِ الحاملة لصفاتٍ أو لميزاتٍ نوعية...". وكتب إيدوارد سعيد: "... الحقيقةُ المحوريةُ بالنسبة لي... هي أن المثقف هو فردٌ موهوبٌ بما يُمكّنه من تمثيل، وتجسيد، وحمل رسالةٍ ما، أو وجهة نظرٍ ما، أو موقفٍ ما، أو فلسفةٍ ما، أو رأي ما للعامةِ وموجهٍ للعامة..." ويكون هذا عن طريق "... إثارة أسئلةٍ محرجةٍ على الملأ ليواجه السلطات والعقائد (بدل أن يقوم بإنتاجها). أن يكون شخصاً لا يمكن أن يتم شراؤه بسهولة من قبل الحكومات أو الشركات، والذي سبب وجوده هو ليمثلَ كلّ هؤلاء الناس والقضايا التي يتم بشكل دوري نسيانها أو دفعها تحت البساط. المثقف يفعل هذا بناءً على أساسٍ من المبادئ العالمية؛ وهي أن كل البشر أهلٌ لأن يتوقعوا معايير لائقةً من السلوك فيما يتعلق بالحرية والعدالة من القوى الدولية أو الأمم، وأن الانتهاكات المتعمدة وغير المقصودة لهذه المعايير يجب أن يتم فحصها ومحاربتها بشجاعة.".

لوسيل: هذا يؤكد أن المثقف الحق يقفُ في وجهِ الثواليثِ بالضرورة.

[644] **رجل الكهف**: بكل تأكيد، ولو أنه شرطٌ لازمٌ غيرُ كافي. كتب روبرت بريم: "... المثقف مؤهلٌ -

بطبيعته- لكي يتبنى الموقف النقدي خلافاً لما هو سائدٌ في المجتمع. ويتطلب الإنتاج الفكري ذي الصبغة التأثيرية استعداداً معيناً كي يقف -كمعارضٍ- أمام الحِكم المتوارثةِ والمتفق عليها، كما أن تطبيق هذا الفهم على الظواهر الاجتماعية والسياسية يتضمن رفضاً للإيديولوجيات السائدة.". و كتب علي شريعتي: "وأعظمُ مسؤولياتِ المفكر في مجتمعه هي أن يجد السبب الأساسي والحقيقي لانحطاط المجتمع، ويكتشف السبب الأساسي للركود والتأخر والمأساة بالنسبة لمواطنيه وجنسه وبيئته، ثم يقوم بعد هذا بتنبيه مجتمعه الغافل، الغائب عن الوعي، إلى السبب الأساسي لمصيره وقدره التاريخي المشؤوم، ويبدي لمجتمعه الحل والهدف وأسلوب السير الصحيح الذي يلزمه من أجل أن يتحرك ويتخلص من هذا الوضع... ويقوم المفكر بنقل المسؤولية التي يُحسها هو من طائفة المفكرين المحدودة إلى السواد الأعظم لمجتمعه، ويجعل التناقضات الاجتماعية الموجودة في قلب مجتمعه داخل وعي الناس وأحاسيسهم." هذا لأن "... المجتمع لا يتحرك بفعل العامل الديالكتيكي والجبر التاريخي لوحده. إذا لم يتوفر عامل الوعي فليس بإمكان التضاد والاستثمار الطبقي والتضاد الطبقي أن يكون عامل حركة المجتمع نحو المرحلة الثانية. بناءً على هذا، يجب أن يصل المجتمع والناس إلى الوعي. يجب أن يشعر... بالاحتقار ليكون الاحتقار سبباً ليقظته. عليّ أن أتعرف على العدو وأفهمه وأشعر به حتى يكون مُعلّمي وسبباً لوعيي ويقظتي... والمثقف عمله هو أن يرفع هذا التضاد وعدم التنسيق واللاملائمات الموجودة في المجتمع، الموجودة في الواقع، أن يرفع هذا من الواقع ويورده في شعور المجتمع ووعيه. هذه رسالة الفنان، هذه رسالة المثقف، هي أن ينقل التضاد الموجود في المجتمع من الواقعية إلى الذهنية...".

دالي "مفكرا": إذن، إن مهمة المثقف الرئيسية هي أن يكون موقظاً للرعايا النائمين.

[645] **رجل الكهف**: صحيح، يطلق البعض اصطلاحاً على هذا المثقف تسمية المثقف القوي؛ أو إن هذا التوصيف هو المعنى القوي للمثقف. اسمعا مثلاً ما كتبه محمد عابد الجابري في هذا السياق: "وهكذا، فالمثقف بهذا المعنى القوي يتحدد وضعه لا بنوع علاقته بالفكر والثقافة، ولا لكونه يكسب عيشه بالعمل بفكره وليس بيده، بل يتحدد وضعه بالدور الذي يقوم به في المجتمع كَمُشرّعٍ ومعترِضٍ ومبشرٍ بمشروع، أو على الأقل، كصاحب رأي وقضية.". ويضيف: "... إن الرغبة في الكشف عن الحقيقة ليست إذن سوى أحد الشرطين ليكون الإنسان مثقفا. أما الشرط الآخر فهو أن يكون شجاعا؛ أن يكون مستعداً للذهاب بالبحث العقلاني إلى أبعد مدى... إن المثقف إذن هو في جوهره ناقدٌ اجتماعي. إنه الشخص الذي همّه أن يحدد ويحلل ويعمل، من خلال ذلك، على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل؛ نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية. إنه بهذا يصبح ضمير المجتمع والناطق باسم قوى التقدم التي لا تخلو منها أية مرحلة من مراحله التاريخية. ولا مناص من أن يُنعت بأنه شخصٌ يثير العراقيل والفتن من طرف الطبقةِ المسيرة التي تعمل على الحفاظ على الوضع القائم، ومن جانب (العمال الفكريين) خُدّام هذه الطبقة، الذين يتهمونه بأنه خيالي طوباوي، ويصفونه في أحسن الأحوال بأنه ميتافيزيقي، وفي أسوئها بأنه متمرد. وبعبارةٍ أخرى إن (المثقفين)، وفقاً لهذه التحديدات، هم أولئك الذين يعرفون ويتكلمون، يتكلمون ليقولوا ما يعرفون، وبالخصوص ليقوموا

بالقيادة والتوجيه في عصر صار فيه الحكم فنّاً في القول قبل أن يكون شيئاً آخر.".

دالي: لقد لاحظتُ أنه لم يستخدم كلمة "المثقفين" للإشارة إلى مثقفي السلطة، بل هو يرى أن المثقفين هم، بالضرورة، من يقف ضد السلطة بالقول والفعل لا بالشعور فحسب.

[646] **رجل الكهف:** بالتأكيد، هكذا فقط يكون المثقفون الأحرار. كتب إيدوارد سعيد: "... المثقف، بالمعنى الذي أقصده لهذه الكلمة، هو ليس شخصاً مُهدِّئاً، ولا شخصاً يجمع الآراء ويوفّقها، لكنه شخصٌ وجوده بالكامل مرهونٌ على إحساسٍ حَرِج، إحساس أن تكون غير راغب لتقبّل الصيغ السهلة والعبارات المبتذلة الجاهزة، أو أن تتقبل بسهولة التأكيدات التي يقولها ويفعلها ذوو السلطة والمتمسكون بالأعراف والتقاليد. وليس فقط بعدم رغبةٍ سلبية، لكن برغبةٍ فعّالة لقول ذلك على الملأ.". وأضاف: "... إن المثقف هو أبعد ما يكون عن جعل جمهوره يشعر بالارتياح؛ إن كل الغاية هي أن يكون مُحرِجاً، ومُعارِضاً، بل وحتى مُزعِجاً...". وهذا ما كان عليه جان جاك روسو، على سبيل المثال، الذي كتب في اعترافاته: "لقد كانت ميزتي التي فُطِرتُ عليها هي أن أقول للناس حقائق مفيدة -ولكنها جافة وقاسية- في كثير من التحمّس والشجاعة. وكان خليقاً بي أن أظل على ذلك. إنني لم أُخلق قط لكي أُطري -ولن أقول أتملّق- الغير. ولقد كان سوء توجيه الاطراء الذي حاولت أن أزجيه أكثر ايذاء لي من أقسى لوم قُدِّرَ لي أن أُصدره...".

لوسيل: يتضح، من هذا، أن المثقف هو، بالضرورة، ذلك المعارض الشجاع.

[647] **رجل الكهف:** دون أدنى شك. يؤكد على هذا علي شريعتي بقوله: "إن مسؤولية المثقف في زمانه هي القيام بالنبوة في مجتمعه حين لا يكون نبي، ونقل الرسالة إلى الجماهير، ومواصلة النداء، نداء الوعي والخلاص والإنقاذ، في آذان الجماهير الصماء التي أصيبت بالوقر، وبيان الاتجاه والسبب، وقيادة الحركة في المجتمع المتوقف، وإضرام نيران جديدةٍ في مجتمعه الراكد. وهذا عملٌ لا يقوم به العلماء؛ لأن هناك مسؤولية على عاتق العلماء محددة تماماً وهي منح الحياة أكبر قدر ممكن من الإمكانيات، ومعرفة الوضع الراهن، وكشف قوى الطبيعة والإنسان واستغلالها. إن العلماء والفنيين والفنانين يمنحون المجتمع البشري، أو مجتمعهم، قوة علمية بوجودهم، لكن المثقفين يُعلّمون المجتمع كيفية السير ويمنحونه الهدف، كما يقدمون رسالة التحويل واستجابة التحول إلى نسق بعينه ويضيئون الطريق للحركة.". ويضيف: "إن العالِم مُوجِّهٌ ومانحٌ لرفاهيةِ الإنسان ومتعته وضامنٌ لها، وهو الموكل بمنح الإنسان القوة والراحة والسعادة، وهو في النهاية يكشف الواقعيات، لكن المفكر هو الذي يهدي إلى الحقائق. إن العالِم يقول: هذا الأمر هكذا. أما المثقف فيقول: لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا بل كذلك. إن العالِم يضع مصباحاً على الطريق أو أمام ضالٍ، والمثقف يُرشد إلى الطريق، ويدعو إلى السفر، ويدل على بداية الطريق، وهو نفسه رائد القبيلة وحادي القافلة. ومن هنا يسقط العالِمُ أحيانا أداةً في يد الجهل والجور، لكن المفكر هو بذاته وبالضرورة الماحي للظلام والظلم، فالعلم قوة لكن الفكر نور.". هل لاحظتَ الفرق بين هذين الاثنين؟

[648] **لوسيل:** بالتأكيد. لكن مهلاً، ألم تقل لنا مسبقاً أنه قد قال: "... ليس عملُ المثقفِ أن يقود المجتمع. إن أحد أخطاء مثقفي العالم الكبيرة هو أنهم يتصورون أن عليهم أن يأخذوا بزمام قيادة المجتمع والناس..."؟ كيف يقول هنا إن المثقف هو المرشد وهو رائد القبيلة؟

رجل الكهف: تسعدني يقظتكِ وفطنتك. إنه قد فسّر الأمر على النحو التالي: "الرائد هو الذي يُكلَّف من قِبل القبيلة ليتقدمها، ويكتشف في الصحراء المنزل التالي أو عين الماء أو البئر أو المرعى، ويكتشف الطريق ويعلم أحواله جيداً ومدى أمنه وظروف السفر فيه ونقاط الخطر والقبائل الموجودة على جانبيه وكمائن الأعداء وقطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة...، ثم يعود إلى قبيلته ويخبرها ويهديها في الرحيل إلى حياةٍ أفضل.". هل فهمتِ الفرق بين القيادةِ والإرشاد؟

لوسيل "بسعادة": نعم اتضحت الصورة تماما.

[649] **رجل الكهف:** لقد كتب وجيه كوثراني في جريدة *المستقبل*، في 4 مايو 2001، مقالاً يوصف فيه أنواع المثقفين كماهم منتشرون في المجتمعات. وقد حدد مواقفهم على النحو التالي: "موقف المثقف البراغماتي الذي يتعامل مع الظواهر الطائفية كمعطياتٍ لعملٍ سياسي وموقف سياسي عملي راهن... موقف المثقف المتعالي، أو العقائدي، أو الفيلسوف، الذي يحلم بتغيير الواقع.. انطلاقاً من منظومات فلسفية مجردة ومتخيلة. موقف الخبير في التكنولوجيا، أو في حقل اختصاص علمي محدد، حيث يعمل بمعزلٍ عن أي وعي سياسي أو ثقافي للسياق وللمحيط...". ويصف "مأزق الفكر اليوم؛ أي، في عصر العولمة، أنه مجزأ بين المثقف المسيّس والمفكر المؤدلج والخبير المُترَوعِ مِنهُ سِلاحُ الثقافة؛ أي، سلاح الوعي...". ويرى أن "الارتقاء بالفكر والبحث في الإنسانيات يتم عبر بناء الجسور بين هذه الأنماط، وبالنسبة لأجيالنا الجديدة، يجب السعي لربط حقول المعرفة التكنولوجية والعلمية بآفاق الإنسانيات والفلسفات.". ويضيف: "... أخشى أن يعيد تاريخنا (المستقبلي) أنماط المثقفين الثلاثة بمعزل عن بعضهم: الباحث الذي يبحث عن الترقي عبر السياسة، والفيلسوف الايديولوجي، والخبير الذي يتوهم الحياد. السؤال هو: كيف يتشكل المفكر والباحث الاستراتيجي الذي يجمع بين الثقافات الثلاث؛ البحث في الإنسانيات والفلسفة والخبرة التكنولوجية؟ هذا على ما أظن ما نحتاج إليه في عصر العولمة.".

لوسيل "بحماسها الطفولي": الجواب هو باتباع خارطة الطريق والمفاتيح التي أعطيتنا إياها مسبقا.

[650] **رجل الكهف:** هل فهمتما عليّ الآن لِمَ أردتُ كل ذلك من المثقف؟

لوسيل: كي لا يقع في حفرة أحد هذه المواقف الثلاث، والتي أي منها سيجعل المثقف، بالضرورة، أقلّ إفادةً وأثرا.

[651] **رجل الكهف:** لكن النوع الأول منهم، ذلك المثقف الانتهازي، مثقفُ السلطات، هو أخطرها دون أدنى شك. فهو شخصٌ يساهم في قمع الرعايا لمصلحته الخاصة. هذا الكائن البغيض القذر، أو هؤلاء

كما عبّر عنهم عاطف أحمد فؤاد في تقديمه لكتاب "المثقفون والسياسة" بقوله: "وأزمة المثقف... المرتزقة في علاقته بالسلطة ذات وجهين: الأول هو الوجه الإيجابي، حيث تصلُ علاقة المثقفِ بالسلطة إلى قمة توترها، حيث يتخذ المثقف -وهنا أعني به المثقف الإيجابي ذا النزعة الثورية- موقفاً معارضاً من نظام الحكم. أما الوجه الثاني -وهو يمثل أيضاً أحد زوايا الأزمة- فأعني به الوجه السلبي، حيث يصبح فيه المثقف محض تابع للسلطة، يأتمر بأمرها، ويوجه فِكره -إن صح أنه فِكر- لخدمتها. وهم يمثلون ظاهرة المثقفين المرتزقة التي يندر أن يخلو منها مجتمعٌ من المجتمعات... الذين يأكلون على كل الموائدِ، ويصبحون بمثابة أبواقٍ لكل الحكام، وأصواتاً لمن يشتري، يبررون سلوك السلطة -أي سلطة- ويجدون الحجج لكل تصرفاتها، ويضفون على كلٍ من هذا وذاك نوعاً من الشرعية الزائفة.".

داني "بتركيز": لاحظ كيف قال: "... ويوجّه فكره -إن صح أنه فِكر-..."!

[652] **رجل الكهف**: إنني قد أكدّت لكما مسبقاً على أن الحرية هي السمة الأولى المطلوب توافرها في المثقف. وهو يؤكد على هذا أيضاً بقوله: "ولستُ بظانٍ أن الحرية كمبدأ، والدعوة لها كهدف، يمكن أن يتعاظم أمامها مبدأ، أو يقوى على منافستها هدف. ولستُ بظانٍ أيضاً أن هناك من هو أقدر، بل من هو أجدر، على تحمل مسئولية دعوى الحرية والدفاع عنها والترويج الناضج لها من المثقفين...". فكيف لمثقف السلطة أن يكون حرا؟ إنه يُضيف: "... مسئولية العقلانية والتنوير تحقيقاً للهدف الأكبر، وهو نشر دعوى الحرية، لا يمكن إلا أن تكون مسئولية المثقف الثوري المستنير...".

لوسيل: فعلاً، الحرية هي اللبنة التي أسست جماعة المثقفين.

[653] **رجل الكهف**: يؤكد عاطف أحمد فؤاد على هذه الحقيقة بقوله: "إذن، الحرية هي القضية المحورية، المصيرية، بل هي المسئولية التاريخية التي قُدّر للمثقفين أن يتحملوها. ولكن الأمر عندي يستوجب الدعوة إلى أمرين لا تستقيم الحرية دونهما، بل إن دعوى الحرية لن يكون لها وجودٌ دون وجودهما، وأعني بهذين الأمرين: العقلانية كاتجاهٍ وسلوكٍ في الحياة، والثورية فكراً وفعلاً في الحياة أيضاً بتباين أبعادها واختلاف مظاهرها. ومن المؤكد أن هذين الأمرين من العسير أن يعمل أحدهما بمعزل عن الآخر، فلا إمكانية لتخلّق العقلانية في غيبةِ نزعةٍ فكريةٍ وسلوكيةٍ ثوريةٍ تدعمها، ولا إمكانية أيضاً لتصور احتمالية تشييد بناءٍ فكري وسلوكي ثوري دون وعاءٍ عقلاني تنمو بين جدرانه الثورية وتستمد منه مقومات بقائها.". ويضيف: "إذن هناك ركيزتان لا تتحقق الحرية دون الاعتماد عليهما، وهما العقلانية والثورية، والدعوة إليهما تتطلبان نوعيةً متميزةً من الصفوةِ المثقفة. ولعل المثقف الثوري ذا التوجه العقلي التاريخي، الذي يعمل على استيعاب الماضي، ولا يرى ضرورةً للتمسكِ به، بل يرى حتميةً للإفادةِ منه، هو المثقفُ القادرُ على الترويج لمثلِ هذه الدعاوى والدفاع المستنيرِ عنها.".

لوسيل: الآن بدأتُ أفهم ضرورة الالتزام بالكثير من التعليماتِ والخطواتِ التي شرحتها لنا مسبقا.

[654] **رجل الكهف**: سعيدٌ لسماع هذا. دعونا نرى بعض التعريفات للمثقف علّنا نستشفُ منها ما يفيدنا في بحثنا.

ما المثقف؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": بالطبع.

[655] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": عرّف جوليان بندا المثقفين في كتابه "خيانة المثقفين" بقوله: "هؤلاء الذين نشاطهم ليس في الأساس السعي وراء أهدافٍ محددة. كل هؤلاء الذين يبحثون عن متعتهم في ممارسة فنٍ ما، أو علم ما، أو تأملاتٍ ميتافيزيقية. باختصار، في امتلاكهم لمزايا غير مادية. وبالتالي، بطريقةٍ محددةٍ يقولون: مملكتي ليست في هذا العالم.". ما رأيكما في هذا التعريف؟

لوسيل: إنه يرى المثقفين فقط أولئك الذين يبحثون عن المتعة في المعرفة، وليس أولئك الذين يعملون من أجل حرية الرعايا.

[656] **رجل الكهف**: صحيح، إنه يرى أن المثقفين هم أولئك الذين قرروا الانفصال عن الواقع تماماً، أولئك الذين يقولون: لا علاقة لي مع هذه الحياة التافهة. هم أولئك المثقفون الذين صعدوا البرج وانقطعت أخبارهم. لم يعودوا ليساعدوا الرعايا، بل لا يكترثون حتى لمجرد الاتصالِ بهم، لأنهم احتقروا الحياة برمتها.

دالي "بحماس": إنهم مثل ذلك المصرفي في قصةِ الرهان الذي أخبرتنا عنه.

[657] **رجل الكهف**: أحسنت. تلك الشخصية هي نموذجٌ للمثقفِ كما يراه جوليان بندا، لكنه بالطبع ليس هو المثقف الذي نبحث نحن عنه. هذا المثقف متطرفٌ جداً ولا يفيدنا في شيء. إنه قد آثر مصلحته الذاتية على مصلحة باقي البشر واعتبر نفسه متفوقاً على كائناتٍ لا تستحق مجرد العطف والحنان ومد يد المساعدة. لذا، سندعه يحلّق في السماء فلا شأن لنا به.

لوسيل "مبتسمة": أصبت.

[658] **رجل الكهف**: كتب ايدوارد شيلز: "في كل مجتمع... هناك بعض الأشخاص ذوي حساسيةٍ خاصةٍ للمحرمات، وبقدرةٍ استثنائيةٍ على تأملِ الكونِ الذي يعيشون فيه والقوانين التي تحكم مجتمعاتهم. هناك في كلِ مكانٍ مجموعةٌ قليلةٌ من الناس الذين، بقدرٍ أكبر مما يفعلهُ أقرانهم العاديون، يستفسرون ويتلهفون ليكونوا على تواصلٍ مستمرٍ مع رموزٍ هي أكثر عمومية من المواقف المباشرة للحياة اليومية... في هذه القلة، هناك حاجةٌ لتجسيدِ البحثِ في حوارٍ شفهي ومكتوب... هذه الحاجة الداخلية للنفاذ إلى ما وراء ستار الخبرة العملية المباشرة هي ما يحدد وجود المثقفين في كل مجتمع.". ماذا نستفيد من هذا التعريف؟

[659] **دالي**: أن المثقفين هم من لم يعودوا يقبلون الأمور على ماهي عليه، بل يسألون ويحاولون تبصر ما خفي عن الرعايا ويهتمون بالأمور العامة، كمعايير القيم والحقيقة، بشكلٍ أكبر من اهتمامهم بتفاصيل الحياة الروتينية البسيطة التي يهتم بها الرعايا. كما أن عليهم أن يكتبوا وينشروا هذه الأفكار التي استطاعوا اكتشافها ببصائرهم النفّاذة.

رجل الكهف: أصبت. إلا أنه لا يحدد علاقتهم بالثواليث والرعايا. ولذا، علينا النظر في غيره.

لوسيل "مفكرة": صحيح.

66] **رجل الكهف:** في ويكيبيديا نجد أنه قد تم دمج ثلاثة تعريفاتٍ للمثقف، ليصبح تعريفُ المثقف حسب ويكيبيديا: "مثقف: هو شخصٌ يشغلُ نفسه بالتفكير الحرج، والبحث، والتفكير في المجتمع، ويقدم حلولاً لمشاكله المعيارية، بعضهم يحصل على سلطةٍ كمثقفين شعبيين. آتٍ من عالم الثقافة سواء كخالقٍ أو وسيط. المثقف يشارك في السياسات إما ليدافع عن مسألةٍ محددةٍ أو ليندد بالظلم عادةً بواسطة رفض، أو اقتراح، أو توسيع، إيديولوجيةٍ ما، وبواسطة الدفاع عن منظومةٍ من القيم.". ما قولكما؟

6] **دالي:** إنه تعريفٌ غامض لا يوضح مهمة المثقف الحقيقية ولا علاقته بالسلطات بشكل واضح، بل هو يعتبر أن المثقف قد يكون هذا الذي يدافع عن السلطات والايديولوجيات القائمة؛ أي، مثقف سلطة. وهذا ما لا نريده في المثقف الحر. كما إنه يعتبر الوسطاء الثقافيين مثقفين، بينما هم قد يكونوا مجرد مهنيين.

6] **رجل الكهف:** إذاً، دعنا ننتقل لغيره. كتب علي حرب: "المثقف عِندي هو العامل في حقل من حقول الثقافة أو في فرع من فروع المعرفة كالشاعر والرسام، أو العالم والفيلسوف، أو اللاهوتي والفقيه. ولكنه يهتم في الوقت نفسه بالشأن العام، وينخرط في مناقشةِ مشكلاتِ الساعةِ وقضايا المجتمع والأمة، بقدر ما يهتم بالدفاع عن الحقيقةِ والعدالةِ، أو عن الحريةِ والديموقراطية... إذن، هو الذي يجمع بين مهمته المعرفية والعلمية، أو الأدبية والفنية، وبين مهمته النضالية السياسية والمجتمعية، أو الخلقية والإنسانية.". ما رأيكما؟

6] **لوسيل:** لقد أضاف علي حرب أن على المثقف مسؤولية الدفاع عن العدالةِ، وأن عليه النضال السياسي والمجتمعي، لكنه يعتبر المثقفين هم من يمتهن مهنةً ثقافية، والكارثةُ هي أنه يعتبر رجال الدين من المثقفين، بينما هم أحدُ أركانِ ثواليث القمع.

6] **رجل الكهف:** ملاحظتكِ جيدة. فقد حدد علي شريعتي سمات طبقة المثقفين بقوله: "... ومن سماتها اللادينية ومعارضة اعتناق الآراء القديمة، ثم معاداة التقليدية والسلفية والكلاسيكية أو ما يُعبَّرُ عنه بمصطلح الرجعية. ومن سماتها أيضاً، معاداة الأرستقراطية وسيادة العائلة المالكة والتمييز الطبقي والجنوح عموماً نحو الجماهير. وإلى جوار هذا، فإن هؤلاء... استنوا سنة الاستنادِ إلى العلم... المقصود بالعلم هنا هو العلوم الدقيقة المبنية على منطق علمي... ومن هنا... تعتقد أن كل ما يقوله العلم... هو الصحيح والحقيقي، وكلُّ معرفةٍ تتأتى عن غير طريق العلم ليست من العلوم البحتة الدقيقة وغير جديرةٍ بالثقة...". فكيف يمكن لرجالاتِ الدين أن ينتموا إلى هذه الطبقة؟

] **دالي "بتعجب":** لكن لماذا استنوا سنة الاستناد إلى العلم؟

رجل الكهف: هذا ببساطةٍ لأن المنهج العلمي للمعرفة هو المنهج الوحيد الذي لا يخضع لسلطات

ثواليث القمع، كما أنه تقريباً مطلقُ الموضوعية، بالإضافة إلى أنه يعملُ بطريقةٍ ذاتيةٍ لاكتشاف الأخطاء وتصويبها. لا يوجدُ منهجٌ معرفي آخر قد حقق هذه الميزات؛ وبالتالي، فهو الأمثل من وجهة نظر المثقف الحر ليستقي منه معارفه.

داني "بإعجاب": شكراً للتوضيح.

[666] **رجل الكهف:** كتب سمور ليبست مقالاً عام 1959 جاء فيه: "علينا هنا أن نعتبر المثقفين على أنهم كل أولئك الذين يبدعون وينشرون ويطبقون الثقافة -العالم الرمزي للإنسان- بما يتضمن الفن والعلم والدين. في داخل هذه المجموعة مستويان رئيسيان يُمكن أن يُميزا: النواةُ الصلبة، الذين هم الخالقون للثقافة... وثانياً، أولئك الذين ينشرون ما أبدعه غيرهم...". ما رأيكما؟

[667] **لوسيل:** هو يعتبر المثقفين على مستويين: الأول، هم المبدعون. والثاني، هم الناشرون لما أبدعه أعضاءُ المستوى الأول، والذي يضم كارثياً من يبدعون الأديان التي قد تم ابتداعها للسيطرة على الرعايا لا لتحريرهم.

[668] **رجل الكهف:** صحيح. لذا، نجدُ جيرار ليكلرك يرد على مثل هكذا تقسيم بقوله: "... المثقفون هم هؤلاء الذين ينتجون آثاراً، الذين يبدعون، الذين يجددون في المجال الثقافي، أو الجمالي، أو الإيديولوجي، إلخ... أما إعادة إنتاج واستهلاك (أو ملائمة) الأثر فهي عملُ المستهلكين البسطاء... أو المختصين بالنشر والإعلام...".

لوسيل "مفكرة": فهو يرى إذاً أن المثقفين هم المبدعون فقط، وليس من ينشرون ما أبدعه المثقفون.

[669] **رجل الكهف:** وهذا صحيح، لأن الناشرين قد يكونون ببساطةٍ مجرد مهنيين لا أكثر. ومع هذا، فإنه "تبعاً لعلماء الاجتماع الأمريكيين، يُعتبر مثقفاً من يقوم بالتلاعب بالرموز. إنه من يقوم، ولأسبابٍ مختلفةٍ، بإنتاج وتوزيع واستهلاك العلامات والأعمال الثقافية والانتاجاتِ الجمالية والعلمية؛ أي، الآثار (الفكرية) باختصار...". هكذا كتب جيرار ليكلرك. لكن هذا التعريف يتضمن -كتعريف سمور ليبست- كل من يستهلك الأعمال الثقافية، وهذا يحيلني إلى تعريف أنطونيو غرامشي للمثقف الذي كتب في *دفاتر السجن*: "كلُّ الناسِ مثقفون..."، لكنه عقّب على هذا بقوله: "... لكن ليس كلُّ الناسِ في المجتمع لديهم وظيفة المثقف.". وعلّق على فكرته قائلاً: "... لأنه من الممكن أن يحصل أن كل إنسانٍ في وقتٍ ما قد يقلي بيضتين، أو يخيط فتقاً في معطف، لا نقولُ بالضرورة أن كل إنسان هو طباخٌ أو خياط.".

لوسيل "بتعجب": لم أفهم هذا التناقض.

[670] **رجل الكهف:** شرح الأمر ببساطةٍ مُحررا *دفاتر السجن* بقولهما: "إن محور المجادلة لمقالة غرامشي عن التشكيل للمثقفين بسيطة. إن المفهوم (المثقفين) كفئةٍ إجتماعيةٍ متميزةٍ ومستقلةٍ هو خرافة. كل

الناس، من حيث المبدأ، مثقفون بمعنى امتلاكهم واستخدامهم لثقافةٍ ما، لكن ليس الجميع هم مثقفون بمعنى الوظيفة الاجتماعية. المثقفون بمعنى الوظيفة الاجتماعية ينقسمون إلى مجموعتين: بالمرتبة الأولى، هناك المثقفون التقليديون؛ المحترفون أدبياً وعلمياً وما إلى ذلك... ثانياً، هناك المثقفون العضويون؛ العنصر المفكر المنظم لطبقةٍ إجتماعيةٍ أساسيةٍ معينة. المثقفون العضويون متمايزون بشكلٍ أقل بواسطةِ مهنهم، والتي قد تكون أي عملٍ مميزٍ في طبقتهم الاجتماعية، منه بواسطة أنشطتهم في توجيه الأفكار والتطلعات لطبقتهم الاجتماعية التي ينتمون إليها عضويا...".

[671] **لوسيل** "بتركيز": إذاً، بالنسبة له، كل الناس مثقفون، لكنهم ينتمون إلى ثلاث فئات؛ أولها، المثقفون المستهلكون للثقافة. وثانيها، المثقفون التقليديون وهم المحترفون المهنيون. وثالثها، المثقفون العضويون وهم المثقفون الهواة الذين يحملون رسالةً ثقافيةً لأبناء طبقتهم.

[672] **رجل الكهف**: بالضبط. فهو يقول: "... لا يوجد نشاطٌ إنساني والذي كلُّ شكلٍ من أشكال المشاركة الثقافية يمكن أن يُستثنى منه...". وبالتالي، "... هذا يعني أنه بالرغم من أن المرء بإمكانه الحديث عن المثقفين، لكن لا يمكنه الحديث عن غير المثقفين؛ لأن غير المثقفين لا يوجدون...".

[673] **دالي**: هذه ملاحظةٌ حاذقةٌ جداً من قِبل أنطونيو غرامشي. لكن وكأني فهمت من هذا أن لكل طبقةٍ مثقفوها. وبالتالي، فالمثقفون لا يشكلون طبقةً إجتماعيةً واحدةً في هذه الحالة!

[674] **رجل الكهف**: بالتأكيد. فبالرغم من كل التصنيفات التي وَضَعها أنطونيو غرامشي للمثقفين، بما فيهم المثقف الحضري والآخر الريفي، ومع أنه استعرض الأمر كما هو عليه في كل الثقافات العالمية في عصره، إلا أنه يؤكد على أن: "المثقفون لا يشكلون طبقةً مستقلة، بل إن كل مجموعةٍ إجتماعيةٍ لها جماعةٌ من المثقفين خاصةٌ بها أو هي تعمل على خلقها.". وفي الحقيقة، إن الفريد ويبر قد صك مصطلح "النخبة المثقفة الغير مرتبطة اجتماعيا". أو كما وصف كارل مانهيم الأمر في "أيديولوجيا ويتوبيا": إن المثقفين يشكلون "... طبقةً لاطبقيةً نسبياً، والتي هي لا تقع على نحوٍ صارم في التراتبية الاجتماعية...".

[675] **لوسيل** "بتعجب": لكن كيف لهم ألا يشكلوا طبقةً متميزةً بالرغم مما يجمعهم؟

رجل الكهف: ليس هذا على نحوٍ دقيق. إنهم فئةٌ من الناس يجمعهم ما يجمعهم، بيدَ أنهم يبقون مرتبطين بطبقاتهم الاجتماعية. يشرح كارل مانهيم الأمر بقوله: "... على الرغم من أنهم مفرطون في التباين من أجل أن يتم اعتبارهم كطبقةٍ واحدة، هناك، على أي حال، رابطٌ اجتماعيٌ موحدٌ واحدٌ بين كل طبقات المثقفين، وهو التعليم، والذي يربطهم كلهم سوياً بشكلٍ مُحكم. المشاركةُ في تراثٍ تعليمي مشتركٍ يميلُ تدريجياً إلى كبح اختلافات المولد والمكانة والمهنة والثروة ليوحد الأفراد المتعلمين بناءً على الأساس التعليمي الذي تلقوه.". لكنه يضيف: "برأيي الشخصي. لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأً من إساءة تفسير وجهةِ النظر هذه، والإبقاء على أن صلات الطبقة والمكانة للفرد تختفي تماماً بالاستناد إلى هذا. إنها، على أي حال، سمةٌ غريبةٌ لهذا الأساس الجديد من الرابطة؛ إنها تحافظ على التعددية

لعناصر المركب بكل اختلافاتهم عن طريق خلق متوسطٍ متجانس داخلها...".

[676] **دالي** "مفكرا": هذا لأن الإنسان لا يستطيع أن ينسلخ من تجاربه السابقة في الحياة وبما كيسبه من خبراتٍ ومعارف. كما أنه من الممكن ببساطةٍ أن يكون عاملاً ضمن فئةٍ معينةٍ من الأعمال، أو أنه لايزال مُصنفاً ضمن فئةٍ اقتصاديةٍ ما في التراتبية الهرمية للمجتمع. أليس كذلك؟

[677] **رجل الكهف**: صحيحٌ تماماً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التعليم قد لا يكون التعليم الأكاديمي، ولو أن كارل مانهيم قد قصده كذلك. فالمثقفون الذين صعدوا البرج هم آتون من طبقاتٍ اجتماعيةٍ مختلفة؛ ومع هذا، توحدهم حُرّياتهم ومعارفهم ورحلاتهم الثقافية تلك، ويتشاطرون العمل على مساعدة الرعايا في تحرير أنفسهم. هذا ما يمحي الاختلافات بينهم، والتي هي في الواقع لاتزال موجودةً كتصنيفٍ اجتماعي. بل أكثر من هذا، "... لا يوجد نمطٌ ثابتٌ وعالميٌّ للمثقف، بل يوجد مثقفون..."كما كتب علي شريعتي.

[678] **لوسيل** "بدهشة": لماذا لا يوجد نمطٌ عالمي ثابتٌ للمثقف؟

رجل الكهف: لأن كل مثقفٍ هو ابن بيئته وعليه أن يكون على النمط الذي يُساعد في تحقيق هدف حرية الرعايا في غرفته بالدرجة الأولى، ألم نتفق على هذا مسبقاً؟ لقد كتب لويس كوزر في *رجال الأفكار*: "المثقفون يُظهرون، من خلال أنشطتهم، قلقاً واضحاً لنواةِ القيم في المجتمع. إنهم الرجالُ الذين يسعون إلى تقديم معايير أخلاقية وأن يحافظوا على الرموز العامةِ ذاتِ المعنى، الذين ينتخبون ويقودون ويشكلون التنظيمات المعبرة في مجتمع ما...". ويضيف: "... المثقفون هم أشخاصٌ لا يبدون مرتاحين مطلقاً للأشياء على النحو التي هي عليه...".

[679] **دالي**: إذاً، لا يختلف التصنيف الطبقي للمثقفين في كل شريحةٍ اجتماعيةٍ فحسب، بل هم يختلفون من مجتمع إلى آخر، لأن الهدف من وجودهم بالدرجة الأولى هو تحقيق الحرية للرعايا خاصتهم، لأنهم أكثر الناس فهماً وإدراكاً لحالةِ هذه الغرفةِ التي ترعرعوا فيها كما شرحت لنا من قبل.

[680] **رجل الكهف**: بالضبط. وقبل أن أنسى، عليّ أن أشير إلى أمرٍ آخر بالغ الأهمية، وهو ما كتبه توماس سويل في *المثقفون والمجتمع*: "الفكرُ هو ليس الحكمة... القوةُ الدماغيةُ المحضة، الفكر، القدرة على فهم ومعالجةِ المفاهيم والأفكارِ المعقدة يمكن أن توضع في خدمةِ المفاهيم والأفكار التي تؤدي إلى استنتاجاتٍ خاطئةٍ وتصرفاتٍ غير حكيمة في ضوء جميع العوامل المعنية بما في ذلك العوامل التي استُبعدت من بعض النظريات المبتكرة التي شيدها الفكر.". ويضيف: "إن التأمل، حتى العبقرية، لا يضمن أن عواملاً مترابطةً منطقياً قد تم استبعادها أو إساءةُ فهمها.". هذا لأن "القدرة على فهم واستيعاب الأفكار المعقدةِ هي كافيةٌ لتعريف الفكر، لكنها ليست كافيةً لتشملَ الذكاء، الذي ينطوي على الجمع بين الفكر والمحاكمة... الذكاء ناقص المحاكمة يساوي الفكر. الحكمةُ هي أندر الخواصِ وجوداً من بينهم جميعا. القدرة على الجمع بين الفكر والمعرفة والخبرة والمحاكمة بطريقةٍ تتيح فهماً متماسكا... الحكمة تتطلب انضباطاً ذاتياً وفهماً لواقع العالم، بما في ذلك التقييدات لتجارب الإنسان الخاصة وللعقل نفسه.

في ماهيةِ المثقف

المعاكس للفكرِ العالي هو البلادة أو البطء. لكن المعاكس للحكمةِ هو الحماقة. وهي أعلى خطورةً بكثير.".

[681] **لوسيل** "بتركيز": هذه فعلاً ملاحظةٌ هامة، كما إنها تمثل الكثير من الشروط التي تحدثنا فيها مسبقاً. لكن كيف يمكن للمثقفين تحقيق هذا التأثير في غرفهم؟

رجل الكهف: يجيبكِ عاطف أحمد فؤاد بقوله: "أما كيف يترجم المثقف الإيجابي -أو الثوري- إيمانه الفكري بالحرية -تحقيقاً للعقلانية والتنوير- إلى سلوكٍ واقعي فيبدأ -فيما أتصور- بما يمكن تسميته بعملية توحيد المثقفين بعضهم مع البعض الآخر، وتنظيم جهودهم، وتكثيف أنشطتهم في تنظيم أو اتحاد، وهو ما يمكن أن يجسد قوتهم. ثم يلي هذا... عمليةُ توحيدٍ أخرى مع... جماعتي العمال والفلاحين...". فهذا "... يحقق هدفين: الأول، كسر حِدةِ العزلةِ التي يحياها المثقف... واحساسهُ بالاغتراب عن الجماعات الأخرى... أو إحساس تلك الجماعات بالاغتراب عن ذلك المثقف، وهي حالةٌ كانت -وأعتقد أنها مازالت- تولّد شعوراً بالتفوق لدى جماعة المثقفين، وتخلق إحساساً بالدونية لدى جماعتي الفلاحين والعمال. أما الهدف الثاني...، فيتعلق بعمليةِ خلق الوعي الخاص بهاتين الجماعتين، لأن غياب وعيهما كثيراً ما كان يُستغل تدعيماً لأوضاع إجتماعيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ لفئاتٍ بعينها. ولا شك أن خلق هذا الوعي وبلورته من العسير أن يتحقق بمعزلٍ عن إسهام المثقفين...". هل فهمتما الآن لِمَ شددت على أن على المثقف أن يستطيع التكلّم مع الرعايا بلغتهم عن طريق ممارسته وإلمامه بمعارفهم ومهنهم وحِرفهم؟

دالي "بتركيز": نعم، بدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر. من الواضح أنه من غير المقبول من المثقف الانعزالُ على البرج لأي سبب كان.

[682] **رجل الكهف**: بل أبعد من هذا! يقول جيرار ليكلرك: "لا وجود لمثقفٍ معزول. أن تكون مثقفاً يعني الانتماء بوعي وبطريقةٍ من الطرق إلى حياةِ الأقران الجماعية؛ يعني قراءة الجرائد، والوقوف على وقائع النقاشات، وإسماع الصوت في أوساط المثقفين الصغير... إن المثقف، بالمعنى القوي للكلمة، هو الذي يتواجد اجتماعياً وثقافياً وسياسياً في هذا المكان، فإن لم يكن من ساكنيه، فهو ممن يرتاده وظيفياً على الأقل.". ويضيف: "تشكّل أهمية التواصل بين الزملاء والشهرة والإشهار ودور القول العام -كشكلٍ من أشكالِ التزام المثقف- وإدارةِ المبادرة وزناً جماعياً حتى لو كانت فرديةً في بادئ الأمر. كل هذهِ ظواهرٌ تفيد أن المثقف هو شخصيةٌ انفراديةٌ بعمق، كما أنه وفي الوقت نفسه شخصيةٌ منفسةٌ في المجموعة من أقرانه.". بل إن "... المثقف هو من يستندُ في ممارسته لوظيفته الفكرية إلى قاعدةٍ اجتماعية، ومن يشارك في نشاطاتِ شبكاتِ المثقفين السائدة...".

لوسيل "مقاطعة": كما أشرتُ قبل قليل، لا بد للمثقف أن يعمل وأن ينشط بشكلٍ علني.

[683] **رجل الكهف**: بالتأكيد. كتب ايدوارد سعيد: "... أنا... أريد أن أؤكد على أن المثقف هو فردٌ بمهمةٍ عامةٍ محددةٍ في المجتمع لا يُمكن أن تخفف ببساطةٍ إلى أن يكون مجرد مهني مجهول الهوية...". ولقد حمّل

هذه المسؤولية علي شريعتي بكاملها على عاتق المثقف بقوله: "... لو ذهبتُ إلى السوق ورأيت أنهم لم يعرفوني فأنا المحكوم، لا السوقي. هو لم يحمل رسالة، أنا أحملُ رسالة، أنا المسؤول، هو لم يكن مسؤولا.". وأضاف: "فلو عرفوا في سوق طهران الشيخ الفلاني والنائح الفلاني ولم يعرفوا السيد المثقف، فمن المسؤول؟ المسؤول هو هذا الذي لا ينزل من أعلى (أوتيل بالاس)، هو المحكوم. ذهبت إلى هناك لتعمل ماذا؟".

دالي "مقاطعا": إن المثقف هو بالضرورةِ حاملٌ لرسالة.

[684] **رجل الكهف:** دون أدنى شك. أن تكون مثقفاً يعني أن تكون مسؤولا؛ ومسؤولاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. إن المثقف في هذه الحالة لهو أبعد ما يكون عن المثقف الذي يقرأ الأدب التخيلي لحسب هرباً من الواقع. ها أنا أقولها: إن كونك مثقفاً هي مسؤولية، وقلّ من يستطيع حملها بأمانة.

[685] **لوسيل** "مستفسرة": هل لك أن تعطنا أمثلة على المثقفين؟

رجل الكهف "وهو ينظف غليونه": ومن أنا حتى أعطي الآخرين شهادات تقديرٍ لا أجرؤ أنا على إعطائها حتى لنفسي؟ لكن يمكننا أن نوصّف أنواع المثقفين باختصار من واقع ما عرضناه حتى الآن.

لوسيل "بحماسها الطفولي": دعنا نقم بهذا.

[686] **رجل الكهف:** بدايةً، لقد انتهينا من مشكلةِ ربطِ المثقفِ بالتعليم الأكاديمي. فهناك أشخاص ذوو تدرجاتٍ مختلفة من مستويات التحصيل الأكاديمي بدءاً من حَمَلَةِ الاجازات المدرسية وصولاً إلى ذوي التعليم العالي.

لوسيل: صحيح.

[687] **رجل الكهف:** كما إننا انتهينا من ربطِ المثقف بمهنته. فهناك مهنيون؛ وهم من يقومون بأعمالٍ تتطلب مهارات ذهنيةً أكثر منها جسدية. والحرفيون؛ وهم من يقومون بأعمالٍ تتطلب مهارات بدنيةً أكثر منها ذهنية.

لوسيل: صحيح.

[688] **رجل الكهف:** فلننظر إذن للمثقفين من حيث كونهم مثقفين. فلدينا المثقفون المستهلكون؛ وهم الرعية بعمومهم؛ بما أن أنطونيو غرامشي قد أقنعنا بأنه لا يوجد أشخاصٌ يمكن أن نسميهم بغير مثقفين.

لوسيل "مبتسمة": جميل.

[689] **رجل الكهف:** ولدينا أنصافُ المثقفين؛ وهؤلاء الذين يقرأون ليهربوا من واقعهم. وعلى الأغلب، تتركز قراءاتهم على الأدب التخيلي، لكنهم، فيما يتعلق بالواقع، هم لا يرون أبعد من أنوفهم.

لوسيل: وما أكثرهم.

رجل الكهف: ولدينا أشباهُ المثقفين؛ وهم أولئك الذين يستخدمون القراءة السريعة غالباً، والثقافة الاستهلاكية، ليَنظِّروا على الناس بما يعرفون من معارف، فيحسبهم الجاهل عارفين، بينما هم مجرد ممثلين لديهم كاريزما مقنعة.

لوسيل: وما أكثر هؤلاء أيضا.

رجل الكهف: ولدينا المثقف التقليدي؛ وهو ذلك الذي يقرأ الكتب ولديه أفكارٌ متنوعةٌ عن أمورٍ ثقافيةٍ مختلفة، لكنه يقوم بهذا للمتعةِ فحسب؛ دون أن يناقش الأفكار التي يطّلع عليها أو حتى أن يتفكر بها.

دالي "يهز رأسه موافقا": جيد.

رجل الكهف: ولدينا المثقف النقدي؛ وهو ذلك الذي قرأ في مجالاتٍ مختلفةٍ وقام بتطوير قسمي المعالجة والذاكرة في دماغه وأصبح قادراً على فهم أمورٍ ثقافيةٍ كثيرةٍ مما خفي على من سبقه، لكنه غير مهتم بالنشر أو بتوعية الآخرين، لا ولا بمواجهة السلطات.

لوسيل: جيد جدا.

رجل الكهف: ولدينا المثقف المبدع؛ وهو الذي لم يكتفِ كالمثقف النقدي بالفهم، لكنه بدأ يُبدع أفكاراً جديدة، أو يصوغ مفاهيم جديدة، بناءً على ما تعلمه في رحلته الثقافية.

لوسيل "مفكرة": مِثلُ هذا المثقف هو ما يضيف شيئاً لمجتمعه وللحضارة الإنسانية.

رجل الكهف: صحيح. ولدينا المثقف المرتزق؛ وهو ذلك الذي يتعيّش من ممارسته لنشاطه الثقافي مدعوماً من قبل أحد عناصر ثالوث القمع على الأقل. هو دائماً يهدف إلى الحصول على المال من نشاطه الثقافي؛ وبالتالي، فهو عبدٌ لمن يدفع له.

دالي "مقطباً حاجبيه": وهذا هو أكثر ما نريد الابتعاد عنه.

رجل الكهف: بالتأكيد. لذا، فإن لدينا على النقيض منه المثقف الثوري؛ وهو ذلك المثقف المبدع الذي يهدف إلى إحداث تغيير في المجتمع من شأنه المساعدة على تحرير الرعايا من سطوة الثواليث.

دالي "مبتسما": وهذا هو المثقف الذي نطمح له.

رجل الكهف: بكل تأكيد. فبعد أن تكون قد انكفأت على نفسك عدة سنواتٍ تتعلم فيها، بشكل حر تماماً عن طريق طرح الأسئلة والبحث عن إجاباتها بالطريقة التي تحدثنا فيها مسبقاً، فإن عليك واجباً أخلاقياً في أن تظهر للعلن، بطريقةٍ أو بأخرى، لتعمل على تنوير طريق العامة وأن تكون سيفاً يدافع عنهم في وجه ثواليث القمع. وعندما تصل هذه المرحلة، عليك أن تكون مستعداً للموت في سبيل نشر رسالتك، لا أن تبيعها بكل صفاقة.

لوسيل "مفكرة": هل لك أن تضع لنا تعريفاً للمثقف المثالي؟

ما المثقف؟

رجل الكهف: يمكنني القول: هو شخصٌ قد حرر نفسه من سلطات ثواليث القمع، على الصعيدين المادي والفكري، واتخذ من طرحه للأسئلة، في مختلفِ المجالاتِ الثقافية، وبمختلفِ المستوياتِ العميقةِ والشمولية، وبحثه عن إجاباتٍ لها هوايةً يمارسها بشكلٍ دائم، مدى حياته، ولا يقبل بأي مداهناتٍ أو إجاباتٍ جزئيةٍ أو ضبابية، كما لا يقبل أن يتم شراؤه أو توجيهه، بل هو يتبع الأدلة، أينما أخذته، بتواضع تام وحياديةٍ عن غرائزه وأهوائه. يجب أن يكون شغله الشاغل إنارة الطريق للرعايا، وأن تكون رسالته هذه هي أثمن ما يملك. وبالتالي، فهو مستعدٌ للوقوف بوجه ثواليث القمع بكل صلابةٍ ولو اضطر أن يتحمل التعذيب والقتل من أجل رسالته.

[698] **لوسيل:** إنه تعريفٌ دقيقٌ لمثقفٍ مثالي، لكنه طويل. هل لك أن تختصره؟

رجل الكهف: بما أني مقتنعٌ تمام الاقتناع أن كينونة المثقف تكمن في رسالته، فيمكنني أن أعرّف المثقف ببساطةٍ على أنه: شخصٌ فهم لعبة الثواليث وقصة الثقافة الإنسانية، حرر نفسه وبدأ بتوعية الرعايا.

[699] **داني:** إذاً، هذا تعريف المثقف وذاك تعريف المثقف المثالي. بيدَ أنه في كلتا الحالتين مُلزمٌ بتوعية الرعايا.

[699.1] **رجل الكهف:** بالضبط، لا يمكن أن يُعتبر مثقفاً مالم يكن هكذا. وبالتالي، أن تكون مغنياً فهذه مهنتك، لكن أن تنشر أفكاراً تنويرية وثورية في أغانيك فيمكن اعتبارك مثقفا. أن تكون ممثلاً فهذه مهنتك، لكن أن تقوم بنقد السلطات وتوعية الرعايا من خلال إضحاكهم مثلاً، وألا تكتفي بالنكات الساخرة أو التمثيل غير الهادف، فيمكن اعتبارك مثقفا. إذا كنت كاتباً فهذه مهنتك، لكن إذا كنت كاتباً تتجاوز الخطوط الحمراء بما ينوّر أدمغة القراء فيمكن اعتبارك مثقفا. إن كنت عالماً فهذه مهنتك، لكن إن كنت تنشر العلم بين الرعايا لتوعيتهم وتحاول توحيدهم وتوضح لهم كيف أن الثواليث يقومون بتفرقتهم فيمكن اعتبارك مثقفا. إذا كنت رائد فضاء فهذه مهنتك، لكنك لو كنت تظهر على الناس وتحاول أن توصل لهم رسالةً مفادها أنك ترى الأرض من الفضاء كلها كقريةٍ واحدة، لا وجود للحدود السياسية والاختلافات الاثنية إلا في أذهان من وضعوها، وأن البشر كلهم إخوةٌ يقطنون مكاناً واحداً مهما بدا لهم متسعاً، فيمكن اعتبارك مثقفا. وإن كانت مهنتك لا تُمكنك من نشر التنوير، فعليك أن تكتب وتنشر، أن تقيم الندوات والمحاضرات، أن تصوّر فيديوهات، أو أن تمارس أي نشاط تنويري بالتنسيق مع المثقفين في مجتمعك. لكني أؤكد على أن هذا لا يجوز له أن يتم إلا بعد أن يكون المثقف قد بلغ مرتبةً عاليةً -نوعاً ما- على البرج ولديه ما يقوله مما تعلّمه ووعاه وفهمه، بل وربما طوّره وابتدعه، لا أن يكون ذلك المثقف الذي قرأ كتابين ثم بدأ ينشر الأفكار هنا وهناك كالببغاء ليجعل من نفسه أضحوكة.

[700] **لوسيل:** صدقت، وما أكثرهم؛ مروجو ومستهلكو الثقافة الاستهلاكية.

رجل الكهف: الثقافة الاستهلاكية الدارجة هي امتدادٌ لمثقفِ القهوة في السابق، الذي كان يقرأ

الجريدة في الصباح ليَنظِّرَ في الاجتماعات المسائية مع الأصحاب. هؤلاء المثقفون لا يُحدثون إلا الضجيج.

دالي "مبتسما": لم لا نجلس في الخارج ونتابع حديثنا هناك؟

رجل الكهف: هيا بنا.

****

البابُ العاشر
في عزلةِ المثقف

(ثلاثتهم جالسون في الخارج، يستمتعون بدفء الشمس، ويستمعون إلى أغنية Black And Blue للويس آرمسترونغ)

[702] **لوسيل:** يا لها من وحدةٍ قاتلةٍ هذه التي يصفها لويس آرمسترونغ. كيف لإنسانٍ أن يستطيع تحمل العيش هكذا!

رجل الكهف: هذه الأغنية كتبها كلٌّ من آندي رازاف وهاري بروكس عام 1929 لتصف معاناة الأمريكيين من أصولٍ إفريقية في تلك الحقبة. غناها كثيرون منهم لويس آرمسترونغ الذي طوّرها لاحقاً كما أعطاها زخماً خاصاً بصوته المميز. لكن هذه الأغنية، في نظري، توصّف معاناة أشخاصٍ آخرين أيضاً لو تم تعديلُ كلمةٍ واحدةٍ فيها فقط.

[703] **لوسيل** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: لو تم استبدال كلمة "بشرتي" بكلمة "ثقافتي" في قوله: "إن خطيئتي الوحيدة هي في بشرتي" لأصبحت الأغنية بكاملها توصّف عزلة المثقف.

داني "بذهول": ماذا تقول!

[704] **رجل الكهف:** هل نسيتما قصة البرج؟ هل نسيتما كيف يُعامِل كلٌّ من العامة والثواليث المثقفين؟ هل نسيتما أن المثقف عليه أن يقف في وجه المجتمع كله وفي وجه السلطة ليقوم بإيقاظ الناس؟ هل تعتقدان أن هذا طريقٌ مفروشٌ بالزهور؟

داني: بالطبع كلا، لكني لم أتخيل أن تكون العزلة بهذه الحِدة.

[705] **رجل الكهف:** إن هذه العزلة هي دليلٌ على أنك تسير في الإتجاه الصحيح؛ وهي شرطٌ لازمٌ غير كافي. إنها الجانبُ المظلم من حياة المثقف. لو لم تصل للشعور بهذه العزلة، فهذا يعني أنك لم تبرح مكانك بين الرعايا بعد. يعبّر إيدوارد سعيد عما أسميه أنا بعزلة المثقف بتعبير المنفى في كتابه *تمثيلات المثقف*. وهو يقصد بهذا المنفى نوعين: المنفى الفعلي الذي يُجبَر فيه المثقف على العيش خارج مجتمعه. والمنفى المجازي، وهو بالضبط ما أقصده أنا بعزلة المثقف، والذي يصفه بقوله: "المنفى هو واحدٌ من أسوأ الأقدار... الحالة من عدم كونك متأقلماً بشكلٍ كاملٍ على الإطلاق، دائماً تشعر أنك لا تنتمي لأحاديث العامة البسيطة والعالم المألوف الذي يقيم فيه السكان الأصليون. لذا، يمكن القول، تميل إلى تجنب، بل وحتى النفور من، زخارف مكان إقامتك والسعادةِ الوطنية. المنفى بالنسبة للمثقف في معناه المجازي هو الأرق والحركة ودوام عدم الاستقرار والتسبب في عدم استقرار الآخرين. لا يمكنك العودة إلى وضع سابق، وربما أكثر استقراراً، وهو شعورك أنك في بيتك. ويا حسرتاه، لن تبلغ

بشكل تام مطلقاً شعور كونك في بيتك الجديد أو حالك الجديد.".

[705] **لوسيل:** صحيحٌ هذا التوصيف، المثقف لن يستطيع أن يقضي حياته بتلك الرتابة القاتلة الساذجة كما يفعل الرعايا؛ ما يشغل تفكيره أعمق وأبعد بكثير مما يشغل تفكيرهم.

رجل الكهف: "... وما كنتُ لأطيق يوماً ذلك الغباء وذلك التخبط الأحمق الذي تحفل به الأحاديث العادية، ولكن الأحاديث النافعة الدسمة تبعث دائماً في نفسي سروراً عارماً وما اعتدت أن أرفضها قط!...". هكذا كتب جان جاك روسو في اعترافاته.

دالي: أعتقد أني أشاطره نسبياً في هذا.

[706] **رجل الكهف:** إن أفضلَ توصيف لهذه العزلة هو ما قاله تيودور أدورنو، الذي جرّب المنفى بمعنييه المجازي والفعلي، حيث كتب في منفاه كتابه *في الحدود الدنيا للأخلاق* يقول فيه: "... لن وجهة نظرنا حول الحياة قد تحولت إلى إيديولوجيةٍ تُخفي حقيقة أنه لم يعد هناك حياةٌ بعد ذلك... الإقامة، بالمعنى الصحيح، أصبحت مستحيلة الآن. أماكن الإقامة التقليدية التي ترعرعنا فيها قد أصبحت لا تُطاق؛ كُلُ سِمةٍ من سِماتِ الراحة فيها يُدفع ثمنها بخيانةٍ للمعرفة لما فيه مصلحةُ الأسرة. إن المساكن الفعالة الحديثة اليوم مصممةٌ على ألواح صخريةٍ فارغةٍ، ومصممةٌ من قبل أخصائيين من أجل غير المثقفين... إن حالة عدم النوم جاهزةٌ للتفعيل في أي وقت. لا يتردد في أن يكون جاهزاً لأي شيء. متيقظٌ وغير واعٍ في الوقت عينه...". لذا، يخلص إلى أن "... المنازل من الماضي... في الحقيقة، أفضلُ طريقةٍ للسلوك في ضوء كل هذا لا تزال -كما يبدو لي- عدم الالتزام... إنه جزءٌ من الفضيلة ألا تشعر أنك في المنزل وأنت في المنزل... حياةٌ خاطئةٌ لا يمكن أن تُعاش بطريقةٍ صحيحة.".

[706.1] **دالي** "مكررا": كُلُ سِمة من سمات الراحة فيها يُدفع ثمنها بخيانةٍ للمعرفة. إنه جزءٌ من الفضيلة ألا تشعر أنك في المنزل وأنت في المنزل. حياةٌ خاطئةٌ لا يمكن أن تُعاش بطريقةٍ صحيحة. هذا عميق المعنى بالفعل.

[707] **رجل الكهف:** بالتأكيد هو كذلك. لا يجب أن يشتري الإنسان راحة باله بخيانة ضميره، ما هكذا يكون المثقف الحر، هكذا يكون المثقف المرتزق. كتب جان جاك روسو، الذي عاش أيضاً المنفى بمعنييه المجازي والفعلي، "... أما أنا، فقد كُتِبَ عليّ أن أعاني التعاسات -من كل نوع- كي أصبح يوماً مثالاً للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة، بحيث يجرؤ -وهو غير مسلح بغير براءته وحدها- على أن يقول الحقيقة للناس جهاراً، دون مؤازرةِ الأنصار، ودون أن يؤلف حزباً لحمايته.". إنه، في الواقع، قد اكتشف أن للمنفى فائدة عظيمة؛ حيث ألّف فيه بعض كتبه ومنها كتابه العظيم *في العقد الاجتماعي أو في مبادئ القانون السياسي* الذي وصفه بقوله: "كان المؤلَف الذي أطلتُ التفكير فيه، والذي أقبلتُ عليه بأعظم قدرٍ من الشغف، والذي وددت أن أعمل فيه طوال عمري، والذي أعتقد أنه ختم شهرتي...". وإن اعتقاده هذا على صواب؛ فهذا العمل لا يزال حتى اليوم أهم أعماله بجانب عمله العظيم الآخر، الذي نُشر في نفس العام مع هذا العمل، أقصد كتابه *إميل أو في

التربية*.

[707.1] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": هلّا قصصت علينا قصة تأليفه لهذا العمل العظيم كي نعرف كيف استفاد من المنفى؟

رجل الكهف: هل تريدين القصة كاملة؟

لوسيل "بعينين لامعتين": هذا كرمٌ لا يمكنني رفضه.

[707.2] **رجل الكهف:** استمعي إذن، "كانت قد انقضت ثلاث عشرة -أو أربع عشرة- سنة مُذ خطرت لي فكرته عندما كنت مقيماً في البندقية، حيث أتيحت لي الفرصة كي أشهد عيوب نظام الحكم فيها... ومنذ ذلك الحين، اتسعت آرائي، بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق، فقُدِّر لي أن أرى أن كل شيء كان يتصلُ اتصالاً جوهرياً بالاعتبارات السياسية، وأنه ما من شعب يملك -مهما يكن تقدمه- أن يصبح في حالٍ غير التي تُعدُّه لها طبيعةُ نظام الحكم فيه. ومن ثمّ، فإن المسألة الكبرى -مسألة خير نظام ممكنٍ للحكم- انكمشت في نظري إلى ما يأتي: ما كُنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذي يكون أفضل صفاتاً وأكثر تنوراً وأوسع حكمة. وبالإيجاز، الشعب الذي يكون أحسن شعب بأوسع معاني كلمة أحسن؟ ولاح لي أن هذا السؤال كان وثيق الارتباطِ بسؤالٍ آخر... ماهي الحكومة التي تحرص -بطبيعتها- دائماً على أن تكون وثيقة القرب من القانون؟ ومن هنا، خطر لي سؤالٌ آخر: ما هو القانون؟ وتبِعَتهُ سلسلةٌ من الأسئلة لها عين القيمة. ورأيت أن هذا يُفضي- إلى حقائق عظيمة ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشري...".

لوسيل "مقاطعة": لاحظ كيف أنه كان شديد الملاحظة والتحليل، ثم تابع طرح الأسئلة كما علّمتنا سابقا.

[707.3] **رجل الكهف** "يتابعُ متجاهلاً المقاطعة": "ومع أني كنت قد عكفت خمس سنواتٍ -أو ست- على وضع هذا المؤلَّف، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطاً يُذكر، فإن الكُتبَ التي من هذا القبيل تتطلب تأملاً وفراغاً وطمأنينة. فضلاً عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء -كما يقال- دون أن أفاتح أحداً... بما اعتزمت؛ فقد كنت أخشى ألا يبدو مُلائماً كل الملائمةِ لروح العصر، وللبلد الذي كنت أكتبه فيه، وأن جزع أصدقائيّ قد يعرقل جهودي في تنفيذه. ولم أكن بعدُ واثقاً بأنه سيتم في وقتٍ مناسبٍ وبحيث يتسنى ظهوره في حياتي. وكنت راغباً في أن أتمكن، دون أي تقييد، من أن أهب موضوعي كل ما يتطلّبه... لقد وددتُ أن أستخدم -أكمل استخدام، دون ريب- حق التفكير؛ هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي. ولكني في حرصي دائماً على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في ظلاله، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقاً، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير، في حرصي هذا لم أكن راغباً -في الوقت ذاته- في أن أفرّط بدافع من الخوف في إماتة هذا الحق؛ حقي في التفكير!...".

دالي "مقاطعاً بتركيز": حقي في التفكير الذي أوتيته بحكم وجودي!

[707,] رجل الكهف: رويدك يا داني، ها قد وصلنا إلى الفائدة التي اكتشفها للمنفى، حيث قال: "... بل إنني لأذهب إلى الاعتراف بأنني وجدتُ وضعي في فرنسا -كأجنبيّ يعيش فيها- مؤاتياً لكي أقول الحق في جراة...؛ فقد شعرت... بأن المرء إذا أراد أن يُؤلِّف كُتباً في الصالح الحقيقي لوطنه فليس له أن يؤلفها في هذا الوطن، اللهم إلا أن يكون موهوباً في التآمر والدس والخداع.".

[707,] لوسيل: إذن، الحرية هي ما يوجد في المنفى.

رجل الكهف: هذا صحيح، الحرية. وهي تستحق هذا الثمن برأيي.

داني: أردت أن أسألك، إن المثقف الحر هو فقط من سيشعر بالعزلة، أو بالمنفى بمعناه المجازي، أليس كذلك ؟

[70] رجل الكهف: في الواقع، مهما كان تصنيف المثقف فهو بالضرورة سيشعر بنوع من الاغتراب أو افتقاد الهوية كما عبّر عاطف أحمد فؤاد، في تقديمه لكتاب "المثقفون والسياسة"، بقوله: إن المثقفين "... قد جمعهم شعورٌ واحدٌ هو الإحساس بالاضطهاد وبأزمة افتقادِ الهوية، وإن كان المثقف المرتزق - وهو أكثرهم افتقاداً لهويته- أقل هؤلاء إحساساً بفقدان الهوية.".

[70] داني "مستغربا": مهلاً، لم المثقف المرتزق هو أكثرهم افتقاداً لهويته لكنه بنفس الوقت أقلهم شعوراً بهذا ؟

رجل الكهف: المثقف الحر لا يشعر بالانتماء إلى الغرفة على الإطلاق، لا يستطيع الانتماء إلى الرعايا ولا إلى الثالوث، لكنه صاحبُ ثقافةٍ وقضية. قضيته التي يملكها وثقافته تلك هما ما يصبح هويته. وسواء كان الأمر كما عَنوَن جينس ليونغرين كتابه "لا وطن للمثقفين" أو كان "... لا يوجدُ نمطٌ ثابتٌ وعالميّ للمثقف، بل يوجد مثقفون..." كما كتب علي شريعتي، فإن رسالة المثقف الحر وقضيته تبقيان هويته. دفاعه عن المبادئ التي تحمي حقوق الناس وحيواتهم، دفاعه عن المظلومين والمستضعفين، توحيد صفوف الرعايا من الغرف المختلفة، ونبذ التفرقة والعنصرية والطائفية هي هويته الثابتة، بل هي الهوية الثابتة التي تجمع كل المثقفين الأحرار في العالم ضمن مجموعةٍ واحدة. فصحيحٌ أنه أشد من يشعر بافتقاد الهوية والوحدة والنفي، إلا أنه يحملُ رسالةً وينتمي إلى مجموعةٍ موحدةِ الأهداف.

[7] داني: وماذا عن المثقف المرتزق إذن ؟

رجل الكهف: إنه سيشعر بافتقاد الهوية، كغيره من المثقفين، لأنه قد انفصل عن الرعايا الذين ترعرع بينهم، بيد أنه لن يشعر بذلك الفقد الكبير -كالمثقف الحر- لأنه يلتجأ إلى السلطة. فهو والسلطة في صف واحد؛ لذا، لن يشعر بالاغتراب الشديد. لكنه أكثر المثقفين افتقاداً لهويته لأنه ليس صاحبَ رسالة، رسالته هي جيبه، فهو كمن وصفهم عاطف أحمد فؤاد "... الذين يأكلون على كل الموائد، ويصبحون بمثابةِ أبواقٍ لكل الحكام، وأصواتاً لمن يشتري، يبررون سلوك السلطة -أي سلطة- ويجدون الحجج لكل تصرفاتها، ويضفون على كلٍّ من هذا وذاك نوعاً من الشرعيةِ الزائفة.". لذا، فهو،

في الواقع، لا ينتمي لأي فئة، ولا لأي مجموعة، فهو اليوم مع هذا وغدا مع ذاك. غيرُ قادرٍ على تكوين صداقاتٍ حقيقية بعيدةٍ عن المصلحة لأنه تاجر؛ فاليوم هو صديقٌ لمن يُضطر لمجاملتهم من أجل رزقه، وغداً هو عدو لهم لأن أعدائهم قد دفعوا له أكثر أو لأنهم قد فقدوا السلطة وتسلّمها غيرهم. لا يستطيع حتى تكوين علاقاتٍ صداقةٍ مع أحد لأن حبيبه هو الأهم في حياته، لا العلاقات الإنسانية. لا يقيم أي اعتباراتٍ لأي شيء سوى المال. شخصٌ كهذا هو أكثر الناس وحدةً وافتقاداً للهوية.

داني "مفكرا": توصيفك صحيح، وما أكثر أمثالَ هذا الإنسان، لكني لم أكن أتخيل أنه مفتقدٌ للهوية ووحيد.

[711] **رجل الكهف**: هذا لأنك تُخدع بالمظاهر التي تشاهدها على التلفاز. دعك من الشاشات وانظر وراء الكواليس، ليس وراء كواليس التصوير، عليك أن تنظر وراء كواليس تلك الابتسامة الجذابة وربطة العنق الأنيقة. هل هناك سلامٌ داخلي يا تُرى؟

لوسيل "مفكرة": صدقت.

[712] **رجل الكهف**: وإن عزلة المثقف هي أكثر ما يُصعّب عليه مهمته وتبليغ رسالته، بل إن عليه أن يكون متقبلاً، بصدرٍ رحب، لتلك الحقيقة التي تقول إن عمله غالباً لن يتم تقديره إلا بعد موته كما أشار جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين*: "... إن المثقف المعزول فكرياً واجتماعياً وتاريخياً هو من يرى عمله وقد عاش بعده لكن بوصفه خراباً باقياً، أو كما لوكان بناءً معزولاً...". هذا لأن معظم المثقفين في التاريخ، باستثناء قلةٍ محظوظةٍ منهم، "... صارت أعمالهم تُحفاً تُقدرها الآن الإنسانيةُ جمعاء. أما في ثقافاتهم الأصلية، فقد افتقدوا طلاباً يأخذون بها ويطيلون أعمارها إلى حدٍ أصبحوا معه أحياناً (طي النسيان) ولقرونٍ طويلة.".

[713] **داني** "مفكرا": إذن، على المثقف أن يعمل للأجيال اللاحقة فقط وليس لأبناء جيله.

رجل الكهف: قطعاً كلا. أنت ملزمٌ بالرعايا الذين يحيون اليوم لعدة أسباب. فأنت، أولاً، لن تضمن أن يبقى أي شيءٍ من آثارك بعد وفاتك أو حتى أن يتم نشره. وبالتالي، فقد تُمضي كل حياتك تمارسُ نشاطاً لا طائل منه. حريقٌ صغيرٌ أو طوفانٌ لمياه المجاري قد يُذهِبُ كل جهود حياتك أدراج الرياح. لقد خسر فريدريك نيتشة كتاب *إرادة القوة* في الماء؛ والكتابُ المتداولُ الذي يحمل هذا العنوان هو كتابٌ ملفق بالكامل من شذراتٍ متفرقةٍ لفريدريك نيتشة. باروخ سبينوزا كانت مفروشاته تُباع بعد وفاته، لتغطية تكاليفَ الدفن، عندما تبرّع مجهولٌ لنشر أعماله ومنها عمله الذي غيّر وجه التاريخ *علم الأخلاق*. ولولا ذلك المجهول، لربما كان مصير المخطوطات في موقدِ أحدهم يُسخِّنُ بواسطتها الماء ليستحم.

داني "ضاحكا": كان ليكون استحماماً بالحكمة ممزوجة بالماء.

[714] **رجل الكهف**: من وجهة نظرٍ مادية، بالتأكيد. لكن كل تلك الحكمة كانت لتجد طريقها إلى البالوعة

لا إلى عقله.

لوسيل "ضاحكة": صدقت.

رجل الكهف: وهذه حالةٌ ليست بالنادرةِ في التاريخ، بل هناك حالاتٌ غريبةٌ جدا. وهنا يمكنكما التفكير: كم مثقفاً ومفكراً وباحثاً قد رحل عن الحياة ولم يُنشر- أي من آثاره التي كان من الممكن أن تغير مسيرة الحضارة البشرية لو أنها نُشرت؟ إنها مغامرةٌ كبيرة.

دالي "بابتسامة": صحيح.

رجل الكهف: ثانياً، لمن ستترك الرعايا الحاليين؟ هل يُعقل أن تكون بلا ضميرٍ لدرجةٍ أن تسمح لنفسك أن تمتنع عن الكلام وأنت ترى الناس يُعانون؟ ألا تعرف أنك ربما بنشاطك هذا ستحمي البعض من أن يتطوع في الجيش مثلاً ليدافع عن الثالوث، وعن حدود غرفته الوهمية، أو ليغزو غرفةً أخرى. أو إنك ستحمي أحدهم من أن يصبح متطرفاً إرهابيا؟ وفي كلا هذين المثالين أنت تساهم في حماية حيواتِ أُناس. عملك هذا سيحمي أطفالاً من أن يتيتموا، وسيحمي أمهات من أن يصبحن ثكالى، وسيحمي عائلات من أن تتفكك. إنها مهمةٌ حقيقةٌ لا تحتمل التأجيل وخاصةً في عصرٍ كالعصر- الذي نعيش فيه اليوم. كل سنةٍ تتأخر فيها قد يموت أشخاصٌ كان من الممكن أن يُحافظ على حيواتهم بسببك. نشاطك سيغير حيوات الناس وسيقول بعضهم: آهٍ لو كنت أعلم هذا مسبقا! لك أن تتخيل ما كان يمكن أن يتغير في حيواتهم وحيوات غيرهم لو لم تتأخر عنهم.

دالي "سارحاً بفكره": صحيح، إنها مسؤوليةٌ عظيمة.

رجل الكهف: كتب جيرار ليكلرك: "... إن نيتشة... قد استسلم، دون كللٍ، للعزلة وللألم الجسدي... فهو لم يعش إلا من أجل كتابة أعمالٍ لم يصل إلى أيدي القراء في حياته إلا العدد القليل منها. من هنا، نجدُ مفارقةً تقللُ من الاندفاع في الحديث عن نيتشة بوصفه مثقفاً (أو ملتزماً بكل الأحوال) حتى ولو صار لاحقاً كاتباً كبيراً، ومؤلفاً كبيراً، وأحد أعلام الحداثة...". لأن الهدف من كونك مثقفاً، كما اكتشفنا من تعريف المثقف، هو مساعدةُ الرعايا قبل أن تفكر في مراسلةِ أبناء المستقبل كما كان يفعل فريدريك نيتشة الذي كتب "لكن مالي والألمان؟ إنني أكتب وأحيا من أجل قلةٍ من الناس...". ويخبرنا لمن يكتب كتاباته في *إنسان مفرطٌ في إنسانيته* بقوله: "هكذا، عندما كنت أنا في حاجةٍ اخترعت لنفسي (الأرواح الحرة)... الأرواح الحرة من هذا النوع لا توجد. لكن... كان لدي الحاجةُ لهم في ذلك الوقت؛ إذ كان عليّ الحفاظ على معنوياتي العالية بينما أنا محاطٌ بالبلايا (المرض، والعزلة، والأماكن الغير مألوفة، والملل، وانعدام النشاط) كالرفقاء الشجعان الذين يستطيع الإنسان الضحك والحديث معهم عندما يشعر أنه بمزاج للضحكِ وللحديث، والذين يمكن للمرء إرسالهم إلى الشيطان عندما يصبحون مُملين، كتعويضٍ عن الأصدقاء الذين أفتقر لهم. تلك الأرواح الحرة من هذا النوع قد توجدُ يوما...". كما إنه كتب في مقدمة كتابه *المسيح الدجال*: "هذا الكتاب يعود للأكثر ندرةً من الناس، ربما ولا أحدٌ منهم قد ولد بعد... أولاً، يومُ بعدِ الغدِ يجب أن يأتي لي. بعض

الناس يولدون بعد موتهم." والتي يشرحها المترجمون عادةً بقولهم، كما كتب علي مصباح مثلاً في ترجمته التي حملت عنوان "نقيض المسيح": "... بعدُ غدٍ فقط هو زمني؛ فمن الناس من لا يولد إلا بعد المات." وترجمها جورج ديب في ترجمته التي حملت عنوان "عدو المسيح": "... الغد وحده هو الذي يخصني فقط، وبعض المولودين فيما بعد.".

[718] **لوسيل**: إذن، فريدريك نيتشة كان يكتب لنخبةٍ محدودة من أبناء المستقبل فحسب، ولا علاقة له ببني وطنه ولا ببني زمانه، لكن ماذا بالنسبة للآخرين غير هؤلاء النخبة؟ أيعقل أن يتركهم؟

رجل الكهف: لقد سأل فريدريك نيتشة هذا السؤال وأجاب عليه، في نفس المقدمة المذكورة، بقوله: "... ماذا بشأن البقية؟ -البقية هي مجرد إنسانية- الشخصُ يجب أن يجعل من نفسه متعالياً على الإنسانية بالقوة، وبسمو النفس، وبالاحتقار.".

لوسيل "بصدمة": ما هكذا يكون المثقف. الاحتقارُ للرعايا بدل مساعدتهم!

[719] **رجل الكهف**: سعيدٌ أنكِ بدأتِ تفهمين الفكرة. أن يكون الإنسان فيلسوفاً هو أمر، وأن يكون مثقفاً هو أمرٌ آخرٌ تماما. ألم نتعلم هذا من قصة ألفرد دريفوس؟

داني "مفكرا": الفكرةُ تتضح شيئاً فشيئا.

[720] **رجل الكهف**: عودةٌ إلى موضوعنا. وصلنا إلى السبب الثالث في عدم إمكانية الكتابة فقط من أجل أجيال المستقبل. هذا لأنك أنت، يا داني، ابن بيئتك، ابن زمانك. من يعرفُ ما الذي سيحصل في المستقبل؟ ففي عالم تتسارع فيه التطورات التكنولوجية والسياسية والاكتشافات العلمية من الممكن جداً أن تصبح كتاباتك، التي تريد حفظها للأجيال القادمة، بلا معنى تماماً، أو ذات فائدةٍ محدودةٍ جداً، بعد بضعة عقودٍ من كتابتها، وأنت لاتزالُ على قيد الحياة، بينما إنها كانت لتكون ذات فائدةٍ قصوى لو نُشرت وقت كتابتها؛ فما بالك بتأجيل نشرها لأبناء المستقبل؟ إن الكتب الهامة التي حفظها التاريخ لم تصبح كلاسيكية لأنها قديمةٌ فحسب، بل لأنها كانت ذات فائدةٍ قصوى وقت نشرها؛ لذا، فقد خلدها التاريخ. أنت لا تكتب عملاً لأنك تريده أن يصبح كلاسيكياً، بل لأنه كان عملاً مؤثراً في زمانه فقد يُصبح كلاسيكيا. أنت لا تعمل لتصبح شخصيةً تاريخيةً لها قيمة، بل لأنك عملت عملاً مؤثرا فقد تُصبح علماً تاريخيا. "إن الكتبَ التي تنتقل من عصرٍ إلى آخر هي ثمرات الأموات. لقد كان لها في زمنٍ آخر طعمٌ آخر، حيٌ ولاذع...". هكذا كتب جان بول سارتر في مقالٍ له بعنوان "الكتابة من أجل العصر".

لوسيل "مركزة": صدقت، هذا حقيقي.

[721] **رجل الكهف**: لهذا، كتب جيرار ليكلرك: "إن المثقف يعتبر أن الالتزام هنا والآن بالحدث تفوق أهمية مستقبل أثره بعد وفاته. إنه إنسانٌ يقدّمُ الفعل والتأثير الاستراتيجي على الحدث وعلى معاصريه أكثر مما يقدم المسيرة المحتملة، والمجهولة منه بالضرورة، لعمله وسط جماهير المستقبل. يدور مصيرُ

المثقف... ويقاس بالتأثير الذي يمكن له أن يتركه في زمنه الذي يعتبره (المطلق الحي، الوجه الجدلي الآخر للتاريخ). يهدف المثقف، حتى من خلال كتاباته بالذات، إلى التأثير في العالم، الذي هو عالمه، بوصفه فاعلاً حياً، وليس من خلال التأثير الافتراضي الذي يمكن له أن يأمله بعد وفاته بفعل ما يمكن لعمله أن يترك من أثر وما يجعل منه (كلاسيكياً) محتملاً أو (خالدا)".

[722] **دالي** "مقاطعا": لم أفهم شيئا. أنت أقنعتني من قبل، كما أقنعتني الآن، أن على المثقف أن يعمل من أجل الرعايا في غرفته بالدرجة الأولى، والرعايا في العالم بالدرجة الثانية، في فترة حياته. هذه مسؤوليته ورسالته وواجبه الأخلاقي. لكنك، في نفس الوقت، قلت إنه من الممكن ألا يرى أثراً لهذا النشاط إلا بعد وفاته. ورغم هذا، في الوقت عينه، لا يجب عليه أن يعمل من أجل الأجيال اللاحقة قدر اهتمامه بالأجيال الحالية. لم أفهم هذه المفارقة!

[723] **رجل الكهف**: سؤالك هذا يحيلني إلى النقطة الرابعة، وهي أن "... أولئك الذين يتصورون أنه يمكن في الحضارةِ والثقافةِ قطع طريق مائة سنةٍ في ليلةٍ واحدة، إما أنهم لا يفهمون، وإما أنهم يريدون ألا يفهم الآخرون." كما كتب علي شريعتي. الأمرُ ليس تغييرَ حذاء، إنه تغييرُ منظوماتٍ فكرية. لا يمكنك تغيير الثقافة في طرفة عين إلا بالقوة، كما حصل في أماكن متفرقة عبر التاريخ، وهذه لا تُسمى تحريراً للرعايا، بل إعادة استعبادهم، كما أثبت التاريخ، وكما أتمنى أني استطعتُ اقناعك مسبقا. أنت تواجه ثواليث القمع بكل ما يملكونه من قوة وأموال ووسائل إعلام ومرتزقة. وعليك أن تُفهم الرعايا أنهم مبرمجون، ثم عليك أن تنتظر حتى يكسروا الأقفال عن أدمغتهم، ويُبطلوا البرمجة القديمة، ويتثقفوا، وفي هذا الوقت، ثواليثُ القمع تعمل وتبث سمومها بكل طاقاتها ومواردها. لذا، فإن عملية التنوير هي عمليةٌ تراكميةٌ بطيئة. فأنت، عملياً، تعملُ من أجلِ الأجيالِ القادمة عن طريق عملك في تنوير الأجيالِ الحالية الذين هم من سينجبُ الأجيالَ القادمة. ودعني أفترض جدلاً أن عملك سيبقى استثنائياً وذا فائدةٍ قصوى لكنك لم تنشره، وبقي قرناً من الزمن منسياً، وبعدها تم نشره فبدأ الناس يتنورون بسببه؛ عندها، ستحتاج عدة أجيالٍ، مروراً بالخطواتِ السابقة، حتى يبدأ الأثرُ بالظهور. هل لك أن تتخيل كمية البؤس الذي تسببت فيه بتأخيرك لنشر عملك، لأنك، كما تقول، لن ترى نتيجته في حياتك على أي حال؟

دالي "مبتسما": نعم، لقد فهمتك تماماً الآن. علينا العمل على الحاضر حتى يحصل الأثر في المستقبل.

[724] **رجل الكهف**: بالضبط. "الموضوع هو أن علينا أن نضحي أكثر ونتوقع أقل، بعكس ما هو موجودٌ اليوم حيث يتوقع المثقف الكثير في حين لا يضحي إلا بالقليل. أنا أفضلُ أن يعمل جيلان أو ثلاثة أجيال ويصلوا بعد هذا إلى النتيجة. وأما إذا وصلنا خلال عشر سنواتٍ إلى نتيجة، فإننا سنعود مرة ثانية مئة سنةٍ إلى الوراء.". هكذا كتب علي شريعتي، وأراه مُصيباً تماماً، لأن التغيير الثقافي لا يمكن أن يكون إلا تراكمياً كي يُبنى على أساسٍ صلب. ولهذا السبب، فإن معظم المثقفين يفشلون في

التنوير؛ لأن أحدهم يعتقد أنه في اللحظة التي يكتب فيها مقالاً، أو ينشر منشوراً، أو يلقي محاضرة، أو يؤلف كتاباً، فإن العالم سيتغير فوراً بسبب جهده هذا. وهذا غير واقعي. إن الدور المحوري للمثقفين فريدٌ من نوعه، وهو أصعبُ المهام التي يمكن أن تُناط بإنسان، لكن ما من طريقٍ آخر لمساعدةِ البشرية في عدم خسارة الكثير كمجتمع بشري، إلا بأن تكون هناك خسارةٌ كبيرةٌ في صفوف هؤلاء المُخلِصين.

[725] **داني** "مفكرا": ما هذه الحياة البائسة التي سيعيشها المثقف، مُحارَباً من قبل الجميع، وحيداً، يكافح كل حياته، وفوق هذا لن يرى ثمرة ذلك بعينه!

رجل الكهف: صحيحٌ أن المثقف الحر سيكون محروماً من أي امتيازاتٍ في المجتمع، أو من قِبل السلطاتِ، لكنك تنسى أنه قد اشترى بهذا حريته. ألم نقل هذا قبل قليل؟ لا يوجدُ شيءٌ في هذهِ الحياةِ دون ثمن. والحريةُ هي أغلى ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان؛ لذا، فإن الثمن الذي سيدفعهُ من أجلها هو أغلى ثمنٍ يمكن أن يُدفعَ للحصولِ على شيءٍ ما. على أي حال، إن لعزلةِ المثقف فوائد لا توجد في أي حالةٍ أخرى. يقول ايدوارد سعيد في هذا: "... النفي معناه أنك ستظل دائماً مُهمشاً، وأن ذلك الذي تقوم به كمثقف يجب أن يتم ابتداعه من قبلك لأنه لا يمكنك إتباع طريقٍ منصوصٍ عليه. إذا كان بإمكانك أن تعيش مع هذا القدر ليس كنقيصةٍ وكشيءٍ يندبُ عليه، لكن كنوع من الحرية وطريقةٍ للاكتشاف، حيث إنك تقوم بالأشياء بناء على طريقتكَ الخاصة، كاهتماماتٍ متنوعةٍ استولت على انتباهك، حيثُ إن الهدفَ المحدد الذي تضعهُ لنفسكَ هو ما تمليه نفسكَ عليك، هذه متعةٌ فريدة.". ويضيف: "... المنفيُ يرى كِلا الأمرين؛ ما تركه خلفه وما يراهُ في الحقيقة الآن. هناك منظورٌ مزدوجٌ بحيث لا يرى الأشياء مطلقاً بصورةٍ معزولة...". وهذا يجعلك "... تجنح لترى الأشياء ليس بالصورةِ التي هي عليها ببساطة، بل بالطريقةِ التي أصبحت عليها هكذا...". وهذه مقدرةٌ عظيمةٌ لا يحوزها الرعايا. كما إن هناك، "بالتأكيد، المتعةُ في أن تكون مدهوشاً، في عدم التسليم بأي شيءٍ مُطلقاً، في أن تتعلم أن تقومَ بما تقومُ به في ظروفٍ من عدم الاستقرار المترعزع التي من شأنها أن تربكَ أو تروّعَ معظم الناس.". وهذه مقدرةٌ عظيمةٌ أخرى ستقوم بتنميتها، وهي ذاتُ فائدةٍ قصوى في الحياة.

[726] **لوسيل:** هل سيصبح مصاباً باضطراب الشخصية المازوشية كي يكون سعيداً بهكذا حياة؟

رجل الكهف: كلا بالطبع. لكن هل نسيتِ أنه لم يعد إنساناً غرائزياً؟ هل نسيتِ أن كينونته قد تحولت من جسده إلى فكره؟ لقد خرج من أنانيته المحدودة ليتحد مع الكون. جسده هذا الذي يُعاني ما هو إلا مرحلةٌ مؤقتةٌ من وجوده. إن وجوده الحقيقي قد أصبح في رسالته. إن سعادته الحقيقية هي في المعرفة، في رؤية الآفاق، في مساعدة الرعايا، في ابتسامةٍ قد استطاع رسمها على وجهِ أحدهم، في أن يسمع من أحدهم جملة "لقد غيّرت حياتي نحو الأفضل"، في أن يعرف أن الأجيال القادمة ستعيش بحالٍ أفضلَ من الأجيالِ الحاليةِ بسبب نشاطه. هذه هي همومه وهذا هو ما يسعده. قُلت لكما إن

الأمر يحتاج إلى البلوغ. لا أعرف كيف يمكنني شرح هذه الحالة من الألم الممزوج بالسعادة. أنا عاجزٌ عن وصف هذا الشعور الغريب الذي عبّر عنه إيدوارد سعيد بقوله: "... المثقف كمنفي يميلُ إلى أن يكون سعيداً في فكرة عدم السعادة، كعدم الرضا المتاخم لسوءِ الهضم، نوعٌ من القابلية الكريهة لعدم الموافقة يمكن أن تصبح ليس فقط نمط تفكيره، لكن أيضاً مأوى جديداً له، ولو بصورةٍ مؤقتة.".

[726.1] **لوسيل** "بتعجب": هذا غريب.

رجل الكهف: لكنه حقيقي. بل إن عجزي عن وصف هذه السعادة لكما هو بحدِ ذاتهِ تأكيدٌ على أنها سعادةٌ حقيقية. لأن "السعادة الحقة لا توصف، وإنما هي تُحس. وكلّما عزّ وصفها كان الشعورُ بها أفضلَ وأجملَ، إذ إنها ليست نتيجة مجموعةٍ من الوقائع، وإنما هي حالةٌ دائمة..." كما كتب جان جاك روسو.

لوسيل "مبتسمة": حسناً أنا أصدقك.

[727] **رجل الكهف**: لا خيار آخر أمامكِ في الواقع.

لوسيل "ضاحكة": أنت محق.

رجل الكهف: ثم إن هناك أمراً آخر لم أشر إليه بعد.

[728] **داني** "بشغف": وما هو؟

رجل الكهف: إن مثقف القرن الواحد والعشرين هو أقلُ عزلةً بكثيرٍ من المثقفين السابقين عليه. والفضل يعود إلى الانترنيت؛ حيث إن الأصدقاء لم يعودوا محصورين في إطار الحي الذي تقطنه، بل يمكنك الآن تشكيلُ صداقات مع أشخاصٍ حول العالم وأن تتواصل معهم بالصوتِ والصورة وأنت مستلقٍ على سريرك أو ربما وأنت تقود سيارتك.

داني "مقاطعا": صدقت في هذا.

[729] **رجل الكهف**: ثم ألم نقل إن المسؤولية تقع على عاتق المثقفِ في أن يقوم بالإعلان عن نفسهِ ومحاولةِ التواصلِ مع الآخرين؟ وفي عالم يوجد فيه الانترنيت، فإن هذه المهمة هي أسهلُ بما لا يقاس من دون وجوده؛ إذ يمكن للمثقفين أن يشكلوا تجمعات في العالم الافتراضي وأن يوصلوا رسائلهم إلى الرعايا بصورةٍ لحظية، وكلٌ موجودٌ في بيته، وهذا مالم يكن ليحلم به المثقفون السابقون.

لوسيل "موافقة": صحيحٌ تماما.

[730] **رجل الكهف**: لذا، فمع أني أؤكدُ على أن الشخصَ سيُعاني مما أسميه عزلة المثقف، إلا أنها أخفُ وطأةً عما كانت عليه في السابق بسبب التكنولوجيا الحديثة. نعم، سيبقى منطوياً على نفسه وقليلَ الأصدقاء، وربما معظمُ أصدقاءه بعيدون جغرافياً عنه، وسيكون منبوذاً من قِبل السلطات ومن قِبل غالبية الرعايا، لكن بإمكان المثقفين اليوم أن يقوموا بتجميع أنفسهم وتشكيل عالم خاصٍ بهم يكسر- قليلاً هذه العزلة.

داني: كلامك مقنع. إذاً، لا داعي للقلق كثيراً من العزلة.

[731] **رجل الكهف**: الأمر يختلف من شخص لآخر. هي حتميةٌ إن أصبحتَ مثقفاً حراً، لكن مذاقها، الذي لا يمكنني التعبير عنه أو وصفه، لهو مميزٌ بطريقةٍ أو بأخرى. ومع أنه لا يمكنني التأكيدُ على كيفيةِ استساغتهِ من قبل الجميع، لكن ما يمكنني أن أؤكدهُ لكما هو أن كلَّ من جرّب عزلة المثقف قد قال ما قاله مصطفى خليفة في "القوقعة": "... لا الرغبةُ ولا الإرادةُ موجودتان للتغيير. بل على العكس؛ أحِسُّ رعباً قاصماً للظهر عندما يومض في ذهني خاطرٌ أن أعود للعيش كبقيةِ الناس. يا إلهي كم العيش مثلهم متعبٌ وسخيف.".

داني "مبتسماً": هذا محفزٌ جداً، ولو أني لا أستطيع الإقرار أني أفهمه. لكني أصدقك، فلا خيار آخر أمامي.

[731.1] **رجل الكهف**: "... إنني احتفظتُ ببساطة ميولي الأصلية حتى بعد أن طبق اسمي آفاق أوروبا وغدوت مشهورا. ولقد أدى مقتي القتال لكل ما يُسمّى حزباً وعصبةً وشيعةً إلى بقائي حراً مستقلاً دونما قيود سوى ميول فؤادي. وكنت وحيداً، غريباً، منطوياً، بلا نصيرٍ ولا أسرة، فلم أعتمد إلا على مبادئي وواجباتي. وسلكتُ في جَلَدٍ طُرق الاستقامة، فما تملّقتُ ولا تزلّفتُ إنساناً على حساب العدالةِ والحقيقة...". هكذا وصف جان جاك روسو عزلته مُضيفاً: "الذي أدريه هو أنه إذا كانت آرائي التي جاهرتُ بها جديرةً بأن تجلب عليّ المعاملة التي قاسيتها لما توانيت عن التعجل بأن أصبح فريسة لها...".

لوسيل: إنني مُحفزةٌ جداً الآن للعمل بغية الوصول إلى ذلك الشعور، أشعرُ بحاجةٍ ماسةٍ لتذوقه.

[732] **رجل الكهف**: يُسعدني سماعُ هذا. دعونا نستمع إذاً مرةً أخرى لأغنية لويس آرمسترونغ ونتخيله يصف فيها عزلة المثقف.

(ويعلو صوت البيانو معلناً بداية أغنية Black And Blue)

****

الباب الحادي عشر
في كيف تصبح مثقفاً

(ثلاثتهم جالسون داخل الكهف ليلاً، الإنارة خافتة، يشربون النبيذ، ويستمعون إلى ألبوم Rajaz لفرقة Camel)

لوسيل "برقة": كم هو محزنٌ أن تكون هذه آخر ليلةٍ لنا سويا.

رجل الكهف: سأفتقد وجودكما وحواراتنا الممتعة.

دالي "مبتسما": لقد استفدتُ منك كثيراً يا رجلَ الكهف. وأريدُ منك نصيحةً أخيرة.

رجل الكهف: بخصوص ماذا؟

دالي "بخجل": أريدك أن تعطيني بعض النصائح العملية التي يمكنني الاستفادة منها إذا طبقتها في حياتي كي أصبح مثقفا.

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": تذكر المقولة المأثورة التي تم نسبها للعديد من الأشخاص مع أنها مجهولة المصدر.

دالي "متعجبا": وماهي هذه المقولة؟

رجل الكهف: "إذا كنت أذكى شخص في الغرفة، فأنت في الغرفة الخاطئة".

دالي "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: ألم نتفق على أن الناس تتأثر ببيئاتها؟

دالي: بالتأكيد.

رجل الكهف: لذا، إن كنت تريد أن تصبح مثقفاً، عليك الإقلال من الوقت الذي تمضيه مع الأشخاص غير المثقفين الذين لا يطمحوا لأن يصبحوا مثقفين. أولئك الأصدقاء الذين يمضون وقتهم بلعب الورق أو ألعاب الفيديو على سبيل المثال. هذا النمط من الرعايا لن يفيدك في تقدمك الثقافي بل سيحاول ثنيك عن مغادرة الغرفة.

لوسيل "مستفسرة": هل يجب أن يقطع صلاته بهؤلاء الأشخاص؟

رجل الكهف: هل قلتُ أنا هذا؟ لقد قلتُ أن يقللَ من الوقتِ الذي يمضيه في جلساتٍ كهذه. فإن كان كمعظم الشباب يمضي كلَّ مساءٍ مع أصدقاءه في نشاطاتٍ تافهة، فليخففها لمرتين في الاسبوع، ثم لمرة، وهكذا. إنه من غير اللائق أن يقطع صلاتك مع أصدقائه لأنه يريد أن يصبح مثقفا. المثقف هو نموذجٌ للأخلاقِ السامية، وذلك تصرف غير أخلاقي. أريده فقط ألا يهدر وقته معهم بل

أن يستثمره في أن يصبح مثقفاً، على أن يبقى محافظاً على صلاته بهم لأنه سيعود إليهم ماداً يد المساعدة بعد أن يصبح مثقفا.

داني "مفكرا": فهمت فكرتك.

[739] **رجل الكهف**: وعليك الحذر من دماغك.

داني "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: دماغك سيحبذُ تواجدك بين الأشخاص الأقل ثقافةً منك كي تشعر بتفوقك عليهم. هذا شعورٌ يعشقهُ الدماغ ويزهو به. وهو شعورٌ كارثي في مهمتك التي تريدُ إنجازها؛ لأنك إن كنت أكثر الموجودين ثقافةً فلِمَ عليك البحث والتعلم؟ أنت مسبقاً أفضلُ من أقرانك! هذا ما سيقولهُ لك دماغك الذي سبق وأن قلنا إنه كسولٌ يأبى التغيير. لذا، عليك أن تفعل العكس تماما.

[740] **داني** "بتعجب": وما هو العكس؟

رجل الكهف: حاول أن تخالط المثقفين في محيطك، والأشخاص الأعلم منك، والأشخاص الذين يمكنك الاستفادة من تجاربهم؛ الذين يملكون من المعلوماتِ والخبراتِ في أي مجالٍ ما لا تملكه أنت. سيكونون مساعدين جداً لك في رحلتكَ الثقافية؛ ستتعلمُ منهم طرق تفكيرهم، ونظراتهم للأمور، وعقلياتهم النقدية، وطرق كلامهم. ستجدُ نماذجَ حيةً أمامك لمن سبقك إلى البرج، فتتعلم من أخطائهم، وتطور مسيراتهم.

[741] **داني**: لكني أشعر أن هؤلاء الأشخاص لا يرحبون بالاختلاطِ مع الناس الأدنى منهم ثقافة.

رجل الكهف: إن المثقفين يحبون إنارة الطرق أمام الرعايا، إنهم يفرحون جداً بمساعدةِ أحدهم، لكنهم يكونون أقلَ انفتاحاً لإقامةِ علاقاتٍ شخصيةٍ مع الرعايا لأن أوقاتهم ثمينة، كما لأنهم يُعانون من غطرسةِ الرعايا عليهم. لذا، فعليك أن تريهم أنك متواضعٌ جداً، وراغبٌ في أن تتعلم منهم ومن خبراتهم بكلِ احترام، وأنك تقدرُ قيمةَ أوقاتهم. وأنا أؤكد لك أنك إن كنت كما ينبغي لك أن تكون؛ فسيسعدون جداً بتقريبك إلى دوائرهم الشخصية.

[742] **داني** "مفكرا": فهمتُ مقصدك. عليّ أن أتقرب منهم كتلميذٍ عاشقٍ شغوفٍ بالمعرفة، لا كمجادلٍ وناقدٍ ومقيّم، وأن أظهر لهم احترامي وتقديري لعلومهم وأوقاتهم.

رجل الكهف: بالضبط يا عزيزي. هكذا سيشعرون أنك أهلٌ للأوقات التي سيمنحونها لك. ستكون أوقاتاً ذات منافع، لا أوقاتاً يمضونها ليقابلوا بالأذى.

لوسيل "مؤيدة": هذا حقهم الطبيعي.

[742.1] **رجل الكهف**: إن الأشخاص المحيطين بالفرد لديهم أكبرُ تأثيرٍ على مسيرته الثقافية. لقد تحدثنا كثيراً في هذا. ألا تذكرا ما قاله جان جاك روسو في هذا السياق؟ الذي كتب أيضاً في اعترافاته: "... وليس

دعى لتضييق الأفق، ولا أكثر مدعاةً للتفاهة، واللغو، والاحقاد، والمنغصات، والأكاذيب، من أن كث جماعةٌ -إلى الأبد- بين جدران غرفةٍ واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عملٍ سوى الثرثرة استمرار. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيءٌ يُقال. أما إذا لم كن لديه عملٌ فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها. بل ني لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا فأقول: إنه لابد -لجعل أي صحبةٍ ملائمةٍ حقاً- من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أي كان فحسب، وإنما بعملٍ يتطلّبُ قدراً من الاهتمام...". وأنا أتفق معه في هذا. نا، فإني أقترح عليكما أن تخالطا أشخاصاً يعملون في مجالاتٍ متنوعة؛ لديهم مِهنٌ وحِرفٌ مختلفة. هذا سيساعدكما كثيراً في أن تتعلما عن المجالات المختلفة والمهن والحِرف المتنوعة. تذكرا دائماً أن الأشخاص يحبون أن يتكلموا عن أعمالهم كثيرا؛ لذا، فبإمكانكما أن تسألاهم وتتعلما من حصيلةِ خبراتهم ودراساتهم.

دالي "مبتسما": هذه فكرةٌ جيدة.

رجل الكهف: حاول أن تخالط أشخاصاً من ثقافاتٍ وأديانٍ وتوجهاتٍ مختلفة؛ لأنهم سيساعدوك على فهم تلك البيئات التي لم تترعرع أنت فيها، كما ستتمكن من النظر إلى العالم من منظور كلٍّ منهم. سيكسبونك نظارات إضافية تُمكنك من فهم العالم بطرق مختلفة؛ وبهذا، ستتقرب إلى الأفكار المخالفة لأفكارك أيضا.

دالي: أليس تحقيق هذا صعبا؟

رجل الكهف: في السابق كان شبه مستحيل؛ لاحقاً، أصبح ممكن التحقيق لكنه صعب؛ حيث كان الناس في القرن العشرين مثلاً يقومون بالمراسلة عبر البريد التقليدي الورقي ويشكلون صداقات بهذه الطريقة. لكنه اليوم سهلٌ جداً، فهناك تطبيقات ومواقع على الانترنيت مجهزةٌ بالضبط لهذا الغرض حيث يستخدمها الأشخاصُ الشغوفون بالتعرف على الآخرين. لذا، فالأمرُ سهلٌ جداً اليوم.

لوسيل: كلامك صحيح. أعرف العديد من هذه المواقع.

رجل الكهف: ضعا هذه القاعدة في ذهنيكما: يمكنكما أن تتعلما شيئاً من أي شخصٍ تقابلانه. فبغض النظر عن أي شيء آخر، كلُ شخصٍ في هذا العالم قد عاش تجربةً مختلفة، وهو غالباً بارعٌ أو مهتمٌ بأمرٍ ما، وسيحبُ أن يتحدث عن تجاربه وعما هو بارعٌ أو مهتمٌ فيه. اغتنما الفرصَ دائماً، واعرفا ما الذي عليكما تعلمه من هذا وذاك.

دالي "مفكرا": صدقت. هذا صحيحٌ تماما.

رجل الكهف: أريدك أن تكون كالرادار؛ كل ذهنك وحواسك متفتحةٌ للانتباهِ إلى التفاصيل وطرح الأسئلة عنها. أسخف الأمور في العالم، وأتفهُ المواقف التي يمكن أن تشاهدها أو أن تتعرض لها، يمكنها فتح سلسلةٍ غير منتهيةٍ من الأسئلة، والتي ستعلّمك الكثير. هذا الفرق بين من ينتبه إلى الأمور ويتعلم منها، وبين من يمر مرور الكرام على أكبر وأعقدِ المواقف. الأول يرى أن في كل صغيرةٍ

وكبيرةٍ ما يثيرُ التفكير، والثاني أصم وأعمى مع أنه يسمع ويرى.

دالي "موافقا": أوافقك الرأي. هذه مهارةٌ عليَّ تعلمها.

[748] **رجل الكهف:** لا تدع فرصةً للسفر تفوتك. كلما عاينت ثقافات أكثر، كلما حررت دماغك من نظرته الأحادية المنغلقة. سواء كانت أسفاراً داخليةً أم خارجية، لا يهم، حاول أن تسافر قدر المستطاع. وفي كل مدينةٍ تسافرُ إليها، اذهب إلى أحيائها الشعبية لترى كيف يعيشُ الناسُ هناك، راقب نمط حياتهم وعاداتهم وملابسهم وشوارعهم وأبنيتهم وأنماط الموسيقى التي يسمعونها. زر المتاحف والمعالم الأثرية وحدائق الحيوان. تذوق أكلاتهم المحلية. زر معابدهم ومدافنهم. سواء كانت رحلتك سياحيةً أم بقصد العمل، لابد أن تجد بعض الوقتِ كي تقومَ بسياحةٍ ثقافيةٍ هناك.

[749] **دالي** "متعجبا": لكن كيف لي أن أعرف كل هذا عن مكانٍ غريبٍ عني؟

رجل الكهف: الانترنيت موجود. يمكنك قبل سفرك إجراءَ بحثٍ بسيطٍ وستتعرف على كل ما سبق؛ أهم المعالم الاثرية وأفقر الأحياء في المنطقة والمعابد وكل شيء. سجل ملاحظاتك على دفترٍ صغيرٍ أو على هاتفك قبل سفرك، واقرأ قدر المستطاع عن تلك البلد، خاصةً إن كانت ثقافتها غريبةً عنك، كي تعرف ما عليك ملاحظته وزيارته فيها.

[750] **لوسيل** "بتعجب": لكني لم أفهم لِم عليه زيارةُ الأحياء الشعبية.

رجل الكهف: لأني أريده أن يتعرف على الثقافة المحلية، أن يقابل الرعايا في تلك الغرفة ويرى كيف يحيون. المناطق السياحية مزيفة ولا تعكس واقع المجتمع ولا الثقافة الشعبية. لذا، عليه زيارة المناطق الشعبية، والأكل في المطاعم الشعبية التي يأكل فيها السكان المحليون، والجلوس في مقاهيهم الشعبية؛ بهذه الطريقة، يحتك بشكلٍ مباشرٍ بهذه الثقافة الغريبة.

دالي "بدهشة": لم أفكر بهذا من قبل في أي من أسفاري.

[751] **رجل الكهف:** عليك فعل هذا من الآن. كما إن عليك جعل المراكز الثقافية في مدينتك قِبلاتك الدائمة. قم بزيارة المراكز الثقافية المتنوعة وخذ منهم جداول المحاضرات والأنشطة الثقافية التي سيقومون بها في المستقبل، استمع إلى الراديو أو اقرأ الجريدة التي يذكرون فيها أين ومتى يتم القيام بأنشطة ثقافية، ومحاضرات، ومعارض، وندوات، وورشات عمل، ونحوها. حاول أن تبرمج مواعيدك بناءً عليها. فستجد نفسك كل يوم أو يومين تقضي أمسيتك في نشاطٍ ثقافي ما، مما من شأنه أن يوسع من آفاقك وأن يعرفك على أشخاصٍ مهتمين بالثقافة من مختلف الأطياف.

دالي "بحماس": هذه فكرةٌ رائعةٌ ومسلية.

[752] **رجل الكهف:** وبما أني أشرت إلى الأشخاص، علي أن أنصحك بمحاولة التعرف على أشخاصٍ لديهم نفس طموحك؛ يريدون أن يصبحوا مثقفين. هؤلاء سيساعدوك جداً في رحلتك الثقافية، وسيشجع بعضكم بعضاً، وستتبادلون الخبرات والمعارف. كما يمكنكم التنسيقُ للقاءاتٍ دوريةٍ تتناقشون فيها ما

تعلمتموه، أو ما قرأتموه، وأشياء من هذا القبيل.

دالي "بنظرة حزينة": لكن من الصعب إيجادُ أشخاصٍ يشاطرونني نفسَ الاهتمامات الثقافية.

[753] **رجل الكهف:** أنا لم أقل إن عليهم أن يشاطروك نفس الاهتمامات الثقافية. بل على العكس تماماً، من الأفضل ألا يكونوا هكذا.

[754] **دالي** "بدهشة": لماذا؟

رجل الكهف: لأنكم في هذه الحالة ستشكلون مجموعةً متكاملةً متنوعةَ الاهتماماتِ كفرقةٍ موسيقية؛ كلٌ لهُ اهتمامهُ ومجالُ بحثه الذي هو شغوفٌ به، وسيُحدِّث الاخرين بما يعرف في مجال شغفه؛ وهكذا، تتبادلون الخبرات ويساعدُ كلٌ منكم الآخر على فهم مجالٍ تصعبُ عليهِ فهمه. فهذا مهتمٌ بالأدب، وذاك بالفن التشكيلي، وذاك بالفيزياء، وذاك بالسياسة، وذاك بالفلسفة، وذاك بالتاريخ، وذاك بالموسيقى، وهلم جرا. فبهذه الطريقة، ستستفيدون من بعضكم البعض.

دالي "بسعادة": هذا صحيح. أوافقك الرأي.

[755] **رجل الكهف:** عليك أيضاً أن تجعل بيئتك مُشجعةً على الثقافة. اشغل نفسك بالثقافة. فمثلاً، يمكنك استبدالُ اللوحاتِ وصورِ الفنانين والمغنين الموجودةِ في منزلك، بخريطةِ العالم السياسية أو الطبيعية، أو بالجدول الدوري للعناصر، أو بلوحاتٍ تشريحيةٍ متنوعةٍ لجسم الإنسان. يمكنك أن تشتري نموذجَ هيكلٍ عظمي بلاستيكي وتضعهُ في بيتك، كما يمكنك أن تضع لوحات للمعادلاتِ الفيزيائيةِ الأساسيةِ الجميلة، وبعض الحكم والمقولات الملهمة، وأشياء من هذا القبيل.

[756] **دالي** "بتعجب": ماذا سأستفيد من هذا؟

رجل الكهف: ستجبرُ دماغكَ على ملاحظةِ هذه الأمور والتدقيق فيها. فإن وضعت خريطة العالم السياسية على الحائط، تشاهدها كل يوم، فمع الوقت، ستكتشف أنك قد حفظتها دون أن تشعر؛ دون أن تمارس جهداً فعلياً في حفظها. وهكذا بالنسبة لباقي الأمور.

لوسيل "ضاحكة": فكرةٌ رائعةٌ ولو أنها غريبة؛ حيثُ إنها ستجعل المنزل يبدو أشبه بصف مدرسي.

[757] **رجل الكهف:** عندما تعتبرين الحياة مدرسةً، فمن الطبيعي أن يكون المنزل هو الصفُ المدرسي.

لوسيل "بخجل": صدقت.

[758] **رجل الكهف:** بدل أن تهدرا وقتيكما في مشاهدةِ المسلسلاتِ التلفزيونيةِ والأفلام الخيالية، استثمرا نفسَ الوقتِ في مشاهدةِ الأفلام الوثائقية المتنوعة والمحاضرات والندوات العلمية والثقافية المختلفة. شاهدا أفلاماً وثائقيةً عن حيوات العظماء من الباحثين والعلماء والفلاسفة. شاهدا مناظرات بين فرقاء مختلفين. بهذه الطريقة، بعد أن تُمضيا ساعتين تشاهدانِ شيئاً من هذا، ستخرجان بمعلوماتٍ جديدةٍ

لم تكونان تعرفانها، وستُطرحُ أسئلةٌ لم تكن لتخطر على باليكما قبل ساعتين فقط من ذلك الوقت، كما ستجدان إجابات على أسئلةٍ لديكما، وستتعلمان أموراً جديدة. أليس هذا أمراً رائعا؟

لوسيل: صحيح، الأفلام الوثائقية المتنوعة تعلّم الكثير.

[759] **رجل الكهف:** إذا أدمنتِ الأفلامَ الوثائقية ستتعلمين في مجالاتٍ مختلفة؛ من الهندسة إلى التاريخ، ومن السياسة إلى الطب. ستسافرين حولَ العالم، وتشاهدين ثقافات مختلفة. كما إنكِ ستحضرين محاضرات لعلماء متخصصين، وندوات قام بها مثقفون وفلاسفة. لكن عليكِ أن تكوني واعيةً إلى مصادرك؛ بمعنى، أن عليكِ أن تعرفي مؤهلات ومرجعيات من يلقي المحاضرة، ومصداقية القناة التي تعرضُ الفلمَ الوثائقي.

داني "وهو يصبُ المزيد من النبيذ": صدقت، فهناك الكثير من الهراء.

[760] **رجل الكهف:** عليك ألا تنسى أن تكون شكوكياً في كل شيء. فحتى أولئك المثقفون والأصدقاء وسواهم لا يجب عليك أخذ كلامهم على محملِ الثقة، أعتقدُ أننا انتهينا من هذا الأمرِ مُسبقاً. إلا أنك ستستفيدُ منهم في تفتيح عينيك على أمورٍ لم تكن تعرفها كي تذهب وتبحث فيها بنفسك. ونفس الأمر بالنسبة للأفلام الوثائقية؛ يمكنك الاستفادةُ منها لتبسيطِ أمورٍ معينةٍ ستكونُ شديدةَ الصعوبةِ لو قرأتها في كتابٍ وأنت لا تعلم عنها شيئاً، أو تستفيدُ منها في أن تكونَ مُلهمةً لك ببعضِ الأفكار، لكن لا يمكنك اعتبارها مَصدركَ الأساسي للمعلوماتِ وللفهم، بل مصدراً مساعداً فقط.

داني: صحيح، لن أنسى أن أكون شكوكياً بعد اليوم.

[761] **رجل الكهف:** يمكنك أن تستمع إلى المحاضراتِ والندواتِ والمناظراتِ والكتبِ الصوتيةِ وأنت تمارسُ أنشطتك الروتينية خارج المنزل أو داخله؛ وأنت تلعب الرياضة، أو تمشي، أو تنظف المنزل، أو تطبخ. هذه فائدةٌ مجانيةٌ تكسبها في أوقاتٍ مهدورةٍ في أنشطتك اليومية.

داني "بسعادة": فكرةٌ عظيمة، فعلاً إنها استفادةٌ مجانية.

[761.1] **رجل الكهف:** لكن لا تقع في خطأ جان جاك روسو الذي أشرنا إليه مُسبقا. إذا كنت تقومُ بعملٍ يتطلبُ تركيزاً أو اهتماماً خاصاً فعليك القيامُ بهِ بكل جوارحك؛ لأنك لو حاولتَ تشتيتَ نفسكَ بين أمرين، يتطلب كلاهما تركيزاً، فلن تُتقن أياً منهما. ما رميتُ إليه هنا هو الأعمال الروتينية التي لا تتطلب انتباهاً خاصا.

داني: صحيح أتذكر أننا تحدثنا عن هذا آنفا.

[762] **رجل الكهف:** وبدل أن تضيع وقتك على مواقع التواصل الاجتماعي، بقراءة ما يكتبه الناس من خواطر، استثمر وقتك بقراءةِ المقالاتِ العلميةِ والثقافيةِ المتنوعة. نفسُ الوقتِ الذي كنت ستهدرهُ وأنت تقرأ عن فلان العاشق، وذاك المكتئب، وما طبخت فلانة، وما اشترى زيدٌ، وما أكل عبيد، ستستثمرهُ بالاطلاع على أحدث المقالاتِ التي ستثريكَ ثقافيا.

في كيف تصبحُ مثقفا

لوسيل: هذا مفيدٌ حقا. فعلاً، الأوقات التي يهدرها الناسُ اليومَ على مواقع التواصل الاجتماعي كبيرةٌ جدا.

رجل الكهف: يبقى الوصيةُ الذهبيةُ التي عليّ قولها، والعمودُ الفقريُ لتكوينِ المثقف، والشرطُ اللازمُ والكافي لبناءِ عقليةٍ مثقفة.

دالي "بحماس": وما هو هذا الأمرُ العظيم؟

رجل الكهف: إنه القراءة. لا يمكن أن تصبح مثقفاً مالم تكن قارئاً نهماً للكتب.

لوسيل "بتعجب": وما قصدك بأنه شرطٌ لازمٌ وكافي؟

رجل الكهف: قصدي بالشرط اللازم؛ أنه لا يمكن أن يكون هناكَ مُثقفٌ لا يقرأ. والكافي؛ بمعنى، أنه لو لم تُتح للإنسانِ ممارسةُ هذهِ الاقتراحاتِ التي نتكلم عنها الآن، فالقراءةُ قد تغني عنها.

دالي "بدهشة": كيف هذا؟

رجل الكهف "وهو يشعلُ غليونه": إن قراءة أي كتاب -باستثناء الأدب التخيلي- هي حوارٌ بينك وبين مؤلفه. فأنت عملياً بممارستك القراءة تقومُ بعقدِ صداقاتٍ وجلساتٍ ودية مع الكُتّاب. وإن كنت ماهراً في اختيار الكُتب فإنك ستقومُ بهذه الحواراتِ مع أهم الفلاسفةِ والعلماءِ والباحثين وليس فقط المثقفين الذين يمكنك الجلوسُ معهم كما اقترحتُ عليكَ مُسبقا. بالقراءةِ يمكنك السفرُ حولَ العالم وعبرَ التاريخِ وأنت جالسٌ في مكانك. لذا، فالقراءةُ المنظمةُ، بمنهجيةٍ صحيحةٍ، قد تُغنيكَ عن كل هذه الاقتراحاتِ التي كنتُ أتكلمُ عنها الآن في جعلك مثقفا. لكن، بنفسِ الوقت، لو مارستَ كلَّ ما ذكرتهُ لكَ بحذافيره ولم تقم بممارسةِ القراءةِ فأنتَ لن تصبح مثقفاً حقيقيا.

دالي "بحماس": هذه نقطةٌ مهمةٌ جدا. أرجوكَ، أعطني نصائحَ من أجلِ القراءة.

رجل الكهف: ليس الآن يا صاح. نحنُ نتكلمُ منذُ الصباح الباكر دون توقف، وإن أردتُ الحديثَ عن القراءةِ فيستحيل عليّ إيفاء الموضوع حقهُ إلا بأيام من الكلام؛ فالموضوعُ واسعٌ جداً ولا أستطيعُ إيجازهُ بكلماتٍ قليلة. وأمامكما رحلةٌ طويلةٌ غداً، فعليكما النومُ الآن.

دالي "بحزن": لكن هذه آخر ليلةٍ لنا معك، ليسَ هناكَ وقتٌ آخر لنتحدث فيه عن القراءة.

رجل الكهف: الحديثُ معي لا ينتهي يا صديقي. لو بقيتَ تتكلمُ معي حتى وفاتك، فلن ننتهي من مناقشةِ الأفكارِ المتنوعة التي قد يغرينا الحديثُ عنها.

دالي "بحزن": أعرفُ هذا. ولذا أنا حزينٌ جداً لمغادرتك غدا.

رجل الكهف: يمكنكما لقائي مجدداً إن أردتما.

دالي "بدهشةٍ بالغة": هل أنت جادٌ فيما تقول؟

رجل الكهف: ولم لا؟ فالحوارُ معكما ممتعٌ جدا.

[769] **لوسيل** "بابتسامتها الرقيقة": وكيف لنا أن نراكَ مجددا؟

رجل الكهف: يمكنكما مراسلتي عبر بريدي الإلكتروني thecavemantalks@gmail.com والتنسيق للقائنا القادم.

لوسيل "بسعادةٍ كبيرة": هذا لطفٌ كبيرٌ منك.

[770] **رجل الكهف:** لكن بشرط.

داني "بابتسامة": وما هو؟

رجل الكهف: ألا تخبرا أحداً بمكان كهفي، وألّا تأتيا مع أحدٍ آخر دون إعلامي.

[771] **لوسيل** "رافعة كأسها": لك كل الحق في هذا. أعطيك كلمتي.

داني "رافعاً كأسه": وأنا أعطيك كلمتي في هذا أيضا.

رجل الكهف: أثق بكما.

[772] **داني** "مُغيظاً مع ابتسامةٍ خفيفة": لا خيار آخر أمامك.

رجل الكهف: صدقت. لقد نلتَ مني.

داني "ضاحكا": لا تقلق، أنا عند وعدي.

[773] **رجل الكهف:** هذا أملي بكما. على أي حال، قبل أن ننام، هل لك أن تُعيدَ عليّ الاقتراحاتِ التي ذكرتها لك للتو؟

داني "مبتسما": بكل تأكيد، لقد حفظتها. إنك اقترحت عليّ بأن:

- أقللَ من الوقتِ الذي أمضيهِ مع الأشخاصِ الأدنى مني ثقافةً الذين لا يطمحوا لأن يصبحوا مثقفين.
- أخالطَ المثقفين والأشخاصَ الأكثر علماً مني.
- أخالطَ أشخاصاً من ثقافاتٍ وأديانٍ وتوجهاتٍ مختلفة.
- أخالطَ أشخاصاً يعملونَ في مجالاتٍ متنوعة.
- أكون شديدَ الملاحظةِ دائما.
- أجعلَ بيئتي ثقافية.
- أسافرَ كثيرا.
- أجعلَ المراكزَ الثقافيةَ قِبلاتي الدائمة.
- أشكلَ مجموعةً من الأصدقاء الراغبين في أن يصبحوا مثقفين.
- أشاهدَ أفلاماً وثائقيةً بدل المسلسلاتِ التلفزيونية.

- أستمعُ إلى كتبٍ صوتيةٍ ومحاضراتٍ أثناء تأديتي لنشاطاتي اليوميةِ الروتينية.
- أقرأ المقالات بدلَ الأوقات الضائعة في تصفح مواقع التواصلِ الاجتماعي.
- أقرأ الكتب بشكلٍ دائم.

[774] **رجل الكهف:** جيدٌ جداً، أتمنى لك رحلةً ثقافيةً موفقة.

دالي "مبتسما": كل الشكر لك.

رجل الكهف: لا شكر على واجب. والآن، سأدعكما كي تناما؛ فعليكما تخزينُ بعض الطاقة لرحلتكما غدا.

لوسيل "بحزن": هذا صحيحٌ بكل أسف.

رجل الكهف: طابت ليلتكما.

****

البابُ الثاني عشر
المراجع

(صباح اليوم التالي، استحم كلٌّ من لوسيل وداني ثم جلس ثلاثتهم يشربون القهوة)

[775] **داني** "مبتسما": كنت أفكر الليلة الماضية بأمرٍ لا أعلم إن كنت توافق عليه.

رجل الكهف: وما هو هذا الأمر؟

داني: أنت تعلم أني قد سجلت كل محاوراتنا.

رجل الكهف: أجل.

داني: كنت أفكرُ في أني قد استفدت جداً من حواراتنا هذه، وأنا واثقٌ أن بإمكان الكثيرين الاستفادة منها أيضا.

[776] **رجل الكهف**: وما الذي تفكر في فعله؟

داني: كنت أفكر في أن أسألك إن كنت تسمح لي بأن أحررِ كل محاوراتنا على شكلِ كتاب؛ وهكذا، يمكن للآخرين الاستفادةُ كما استفدنا أنا ولوسيل.

[777] **رجل الكهف**: فكرةٌ جيدة، لكن بشرط.

داني "بانتباه": وما هو؟

رجل الكهف: أن تكتب كل شيءٍ بحذافيره كما قيل.

داني: سأكون دقيقاً جداً ولن أحرف أي كلمة.

[778] **رجل الكهف**: جميلٌ جداً، أطلعني على مخطوطة الكتاب، بواسطة البريد الالكتروني، عندما تنتهي من تحريره قبل أن تدفع به إلى النشر.

داني "بسرور": سأفعل بالتأكيد.

[779] **رجل الكهف** "وهو ينظف غليونه": إني أشعر أن هناك شيئاً نسيتَ أن تسألني عنه.

داني "بتعجب": وما هو؟

رجل الكهف: لم تسألني عن مصادر معلوماتي والمراجع التي ذكرتُ منها الاقتباسات.

داني "مبتسما": صحيح، إني لم أفعل هذا، ولِمَ عليّ فعله! أنا أثق بدقة معلوماتك.

[780] **رجل الكهف**: كيف لك أن تثق بدقةِ معلوماتي وأنت لا تعرفني إلا منذُ بضعةِ أيام؟ ما أدراك أني لستُ مجرد ثرثارٍ، ذا كاريزما مقنعة، حيث إني أقنعتك بثرثرتي الفارغة؟ وما أدراك أني أعي ما أتفوهُ

به على أي حال، وأني لستُ واقعاً تحت تأثير تحيزاتِ دماغي ومحدودية قدراتي الفكرية؟ ألم أؤكد لك بما فيه الكفاية على أن تكون شكوكيا؟

داني "بخجل": هذا صحيح، لكني لَم أتوقع أن عليّ تطبيق هذا عليك.

[7] **رجل الكهف**: ومن أنا حتى لا تُطبق هذا عليّ؟ ألم أقل لك إن عالم الأفكار هو عالمٌ خالي من القداسة؟ ألم أقل لك ألا تعتبر أحداً مُطلق الصواب؟ كُلنا بشر؛ وكلنا خطاؤون ومحدودون. إن هذا أهم درس عليك تعلمهُ في هذا الكهف يا صاح. أهم درس في كل ما تحدثنا به.

داني "مبتسماً بخجل": هذا صحيح. أعتذر عن سوء تقديري. إذن، هل لك أن تزودني بمراجع لحاوراتنا بحيث يمكنني الاستزادةُ عن كل الأفكار التي تحدثنا عنها، كما والتأكُدُ من صِحتها؟

[7] **رجل الكهف**: يستحيلُ عليّ تزويدك بمراجع لكل فكرة قد تحدثتُ بها؛ فلقد شرحتُ لك مسبقاً كيف يعملُ الدماغ. وبالتالي، فإن الأفكار التي حدثتك عنها هي تجميعٌ مما قرأتهُ وسمعتهُ وخبرتهُ في حياتي. ودماغي ليس حاسوباً بحيثُ يُمكنني من تذكرِ من أين حصلت على كل فكرة أو كيف قمت بتوليدها.

لوسيل "وهي تمشط شعرها": أصدقك في هذا.

داني "ضاحكا": هل تمزح معي! لقد عاتبتني للتو على عدم مطالبتي لك بهذا.

[7] **رجل الكهف**: كلا، إني لا أمزح معك. أنا أتكلمُ الحقيقة. ومع هذا، يمكنني تزويدك بالمراجع التي اقتبستُ منها الاقتباسات التي ذكرتها لكما، وبعض المراجع التي استمددت منها بعض المعلومات، والتي ستساعدك على فهم أهم الأفكار التي تحاورنا حولها. أعتقدُ أن بإمكاني تزويدك بقائمةٍ كافيةٍ لتغطيةِ مُجملِ المحاوراتِ كلها، أو على الأقل الأفكار الرئيسية فيها.

داني: يرضيني هذا وأكتفي به.

[7] **رجل الكهف** "وهو يشعلُ غليونه": سجل عندك إذن:

- آدلر، مورتيمر & فان دورن، تشارلز: كيف تقرأ كتابا. الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 1995.
- أفلاطون: القوانين لأفلاطون. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986.
- أفلاطون: المحاورات الكاملة، المجلد الأول: الجمهورية. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994.
- أورويل، جورج: 1984. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
- آينشتاين، ألبرت: أفكار وآراء. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.
- بريم، روبرت: المثقفون والسياسة. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1985.
- *بلاس، جوليان*: جريدة المستقبل، العدد 769، 23 سبتمبر 2001، بيروت.
- بوبر، كارل: منطق البحث العلمي، الطبعة العاشرة. المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى،

2006.
- بوخارين، نيكولاي & بريوبراجنسكي، أوجين: ألف باء الشيوعية.
- بوس، ديفيد: علم النفس التطوري: العلم الجديد للعقل. هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009.
- بينك، توماس: الإرادة الحرة. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
- تايسون، نيل دي غراس & سميث، دونالد جولد: البدايات: 14 مليار عام من تطور الكون. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014.
- الجابري، محمد عابد: المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 2000.
- **حرب، علي**: جريدة المستقبل. العدد 654، 31 مايو 2001، بيروت.
- خليفة، مصطفى: القوقعة: يوميات متلصص.
- دارون، تشارلز: التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 977، الطبعة الأولى، 2005.
- دارون، تشارلز: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، المجلد الأول. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 929، الطبعة الأولى، 2005.
- **ديكارت، رينيه**: فريدريك نيتشة: إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته: كتابُ العقول الحرة، الجزء الأول. افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002. (تم أخذ اقتباس لديكارت من هذا الكتاب فقط، والذي ورد في الفقرة 413).
- راسل، بيرتراند: الدين والعلم. دار الهلال، مصر، 1996.
- راسل، بيرتراند: النظرة العلمية. دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، 2008.
- راسل، بيرتراند: سيرتي الذاتية، المجلد الأول. دار المعارف بمصر، القاهرة.
- راسل، بيرتراند: عبادة الإنسان الحر. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 893، الطبعة الأولى، 2005.
- راسل، بيرتراند: في مدح الكسل ومقالات أخرى. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 2/65، الطبعة الثانية، 2009.
- راسل، بيرتراند: ما وراء المعنى والحقيقة. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 947، الطبعة الأولى، 2005.
- روسو، جان جاك: اعترافات جان جاك روسو. دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق / بيروت.
- سبينوزا، باروخ: رسالةٌ في إصلاح العقل. دار الجنوب للنشر، تونس، 1990.
- سبينوزا، باروخ: علم الأخلاق. دار الجنوب للنشر، تونس / المنظمة العربية للترجمة، بيروت،

المراجع

الطبعة الأولى، 2009.
- سقراط: أفلاطون: محاكمة سقراط (محاورات أوطيفرون، الدفاع، أقريطون). دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 2001.
- السواح، فراس: قراءةٌ في ملحمة جلجامش. سومر للدراسات والنشر والتوزيع، قبرص، الطبعة الأولى، 1987.
- سولبرجر، آرثر: ممدوح عدوان: حيونة الإنسان. دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- سيغان، كارل: الكون. عالم المعرفة، العدد 178، الكويت، 1993.
- سيغان، كارل: بلايين وبلايين: أفكار حول الحياة والموت على حافة الألفية. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 563، الطبعة الأولى، 2003.
- شريعتي، علي: مسؤولية المثقف. دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، الطبعة الثانية، 2007.
- شوبين، نيل: السمكة داخلة: رحلةٌ في تاريخ الجسم البشري. هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2012.
- العقل الإلكتروني: حِيَلُ العقل الباطن، الجزيرة الوثائقية. (اقتباسات وأفكار وردت في الباب الثالث).
- العقل الإلكتروني: قوة العقل الباطن، الجزيرة الوثائقية. (اقتباسات وأفكار وردت في الباب الثالث).
- فرويد، سيغموند & شتيكل، وليم: الكبت: تحليلٌ نفسي. الموزع: المكتبة الشعبية، القاهرة.
- كراوس، لورانس: كونٌ من لا شيء. منشورات الرمل، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
- الكواكبي، عبد الرحمن: طبائعُ الاستبدادِ ومصارعُ الاستعباد. دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، 2006.
- كوثراني، وجيه: جريدة المستقبل. العدد 629، 4 مايو 2001، بيروت.
- ماركس، كارل: رأس المال: نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الأول. دار التقدم، موسكو، 1985.
- نيتشة، فريدريك: أفول الأصنام. افريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996.
- نيتشة، فريدريك: عدو المسيح. دار الحوار، الطبعة الثانية.
- نيتشة، فريدريك: نقيض المسيح: مقالُ اللعنةِ على المسيحية. منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2011.
- هيجل، جورج: أصول فلسفة الحق، المجلد الأول. مكتبة مدبولي، القاهرة، 1966 / دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، 2007.
- ولسون، كولن: التاريخ الإجرامي للجنس البشري: سيكولوجية العنف. جماعة حور الثقافية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001.
- Almaany.com: مثقف.
- Adorno, Theodor: Minima Moralia: Reflections on a Damaged Life.

Verso, New York, 2005.

- American Journal of Physics, 59, 1990.

- Bachelard, Gaston: Portrait of a Philosopher: Gaston Bachelard Interview. December 1961, YouTube, 2012.

- Ben-Ze'ev, Aaron: The Subtlety of Emotions. Massachusetts Institute of Technology, 2000.

- Bierce, Ambrose: The Devil's Dictionary. Oxford University Press, New York, 1999.

- Bierstedt, Robert: The Social Order. Tata McGraw-Hill Inc, India, Third Edition, 1970.

- ***Boorstin, Daniel J:*** The 6 O'clock Scholar, by Carol Krucoff. The Washington Post, 29 January 1984.

- Boorstin, Daniel J: The Discoverers: A History of Man's Search to Know his World. Vintage Books, 1985.

- Buckle, Henry Thomas: History of Civilization in England, Volume 2. D. Appleton and Company, New York, 1860.

- Carlin, George: Question Everything. YouTube, 2008.

- Chekhov, Anton: The Bet.

- Coser, Lewis: Men of Ideas: A Sociologist's View. The Free Press, New York, 1965.

- ***Darwin, Charles:*** David Quammen: Den motvillige Mr. Darwin: Ett personligt porträtt av Charles Darwin och hur han utvecklade sin evolutionsteori. Adoxa Förlag, Lidingö, 2009.

- ***Darwin, Charles:*** The Life and Letters of Charles Darwin, Including an Autobiographical Chapter, Edited by Francis Darwin, Volume 1. John Murray, London, 1887.

- Dawkins, Richard: The God Delusion. Bantam Press, a division of Transworld Publishers, Great Britain, 2006.

- Dawkins, Richard: The Selfish Gene. Oxford University Press, Great Britain, 1989.

- ***Debs, Eugene:*** (Debs: His Life, Writings and Speeches) With a

Department of Appreciations. The Appeal to Reason, Kansas, 1908.

- ***Debs, Eugene***: Voice of the U.S. socialist movement. By Howard Zinn. socialistworker.org, 21 May 2004.

- Descartes, René: Discourse on the Method. Feedbooks.

- Descartes, René: Selections from the Principles of Philosophy of René Descartes. Project Gutenberg Literary Archive Foundation, Oxford, 2003.

- Dictionary.cambridg.org: Intellectual.

- Dictionary.com: Intellectual.

- En.oxforddictionaries.com: Intellectual.

- Ferguson, Adam: An Essay on the History of Civil Society. (Printed for T. Caddel, in the Strand; and A. Kincaid, W. Creech, and J. Bell, Edinburgh.) London, Forth Edition / (Printed for T. Caddel, in the Strand; and W. Creech, and J. Bell, Edinburgh.) London, Fifth Edition.

- ***Feynman, Richard***: No Ordinary Genius: The Illustrated Richard Feynman. Edited by Christopher Sykes. W.W. Norton & Company, New York, First Edition, 1994.

- ***Feynman, Richard***: The Fantastic Mr. Feynman. BBC.

- ***Freehill, Maurice***: Chalita Mansour: Os Mais Belos Pensamentos de Todos os Tempos, Assoc. Cultural Internac, Gibran, Rio de Janeiro, Forth Edition.

- Gramsci, Antonio: Selections from the Prison Notebooks. Edited by Quentin Hoare & Geoffrey Nowell Smith. International Publishers, New York, 11th printing, 1992 / ElecBook, London, 1999.

- Grand, Steve: Creation: Life and How to Make it. Harvard University Press, Cambridge, 2001.

- Harris, Sam: Free Will. Free Press, New York, 2012.

- ***Huxley, Thomas H:*** Nature, 66. 30 October 1902.

- Huxley, Thomas H: On the Study of Zoology. Project Gutenberg Literary Archive Foundation, Oxford, 2001.

- ***Huxley, Thomas H:*** The Huxley File. Clark University.

- ***Kazantzakis, Nikos***: Life-Span Development in Kazantzakis's Zorba the

Greek. By Kenneth R. Elsman & John V. Knapp, Northern Illinois University, The International Fiction Review, 11, No. 1, 1984.
- Kazantzakis, Nikos: Zorba the Greek. RefineCatch Ltd, Kent, 2000.
- Keracher, John: How the Gods were Made: A Study in Historical Materialism. SPGB, 2004.
- Konner, Joan: The Atheist Bible: An Illustrious Collection of Irreverent Thoughts. Tonie Doe Media, New York, 2007.
- Krauss, Lawrence: The Big Debates: Islam or Atheism, Which Makes More Sense, Lawrence Krauss & Hamza Tzortzis. YouTube, 2015 / Lawrence Krauss vs Hamza Tzortzis - Islam vs Atheism Debate. YouTube, 2013.
- Lipset, Seymour Martin: American Intellectuals: Their Politics and Status, Daedalus, Vol. 88, No. 3, Current Work and Controversies. American Academy of Arts & Sciences, 1959.
- Ljunggren, Jens: Inget land för intellektuella: 68-rörelsen och svenska vänsterintellektuella. Nordic Academic Press, Lund, 2009.
- Mannheim, Karl: Ideology and Utopia: an Introduction to the Sociology of Knowledge. Harcourt, Brace & Co., Inc, New York, 1954.
- Mencken, Henry Louis: A Second Mencken Chrestomathy: (A New Selection from the Writings of America's Legendary Editor, Critic, and Wit). Johns Hopkins University Press, 2006.
- Miller, Alan S. & Kanazawa, Satoshi: Ten Politically Incorrect Truths about Human Nature. Psychology Today, 1 July 2007.
- ***Nietzsche, Friedrich***: A Nietzschean Bestiary: Becoming Animal Beyond Docile and Brutal. Edited by Christa Davis Acampora & Ralph R. Acampora. Rowman & Littlefield Publishers Inc, USA, 2004.
- Nietzsche, Friedrich: Human, All Too Human: A Book for Free Spirits. Cambridge University Press, Cambridge, Ninth printing, 2005.
- Nietzsche, Friedrich: The Antichrist. Knopf, New York, 1920.
- Nietzsche, Friedrich: Writings of Nietzsche, volume 1. Devoted Publishing, Ontario, 2016.

- Polchinski, Joseph: String Theory, volume 1: An Introduction to the Bosonic String. Cambridge University Press, United Kingdom, 2005.
- Rousseau, Jean-Jacques: Emile or On Education. Basic Books, USA, 1979.
- Russel, Bertrand: Bertrand Russel Speaks his Mind. The World Publishing Company, Ohio, 1960.
- Russel, Bertrand: The Conquest of Happiness. George Allen & Unwin Ltd, London, Fifth Impression, 1932.
- Said, Edward W: Representations of The Intellectual. The 1993 Reith Lectures, First Vintage Books Edition, A Division of Random House Inc, New York, 1996.
- Sartre, Jean-Paul: What is Literature? Philosophical Library Inc, New York, 1949.
- ***Savant, Marilyn vos***: The Truth in Words: Inspiring Quotes for the Reflective Mind. Compiled by Paras, iUniverse, USA, 2002.
- Sowell, Thomas: Intellectuals and Society. Revised and Enlarged Edition, Basic Books, New York, 2012.
- Spinoza, Benedictus De: The Principles of Descartes' Philosophy. The Open Court Publishing Company, Chicago, 1961.
- Sumner, William Graham: Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores, and Morals. Ginn and Company, USA, 1906.
- Thackeray, Miss (Anne Isabella Thackeray Ritchie): Mrs. Dymond. Smith, Elder & Co. London, 1885.
- The New Sporting Magazine, Volume 2. Baldwin and Cradock. London, 1832.
- ***Thomas, Antoine Léonard***: Cogito Ergo Sum: World Heritage Encyclopedia. Project Gutenberg Self-Publishing Press.
- Twain, Mark: What is Man? And Other Stories. Createspace, USA, 2013.
- Tylor, Edward B: Primitive Culture: Researches into The Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art, and Custom. Volume 1. John Murray, London, Sixth Edition, 1920.

- Urquhart, David: Familiar Words: As Affecting the Character of Englishmen and the Fate of England. Trübner & co, London, 1855.
- Wikipedia.org: Intellectual.

[785] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": هذا رائع! إنه مزيجٌ من مراجع متنوعة في مختلِف المجالات.

رجل الكهف: أعتقد أنكما إن اطلعتما على هذه المراجع فستفهمان جُلَّ الأفكار التي تناقشنا فيها.

داني "مبتسما": أشكرك جزيل الشكر.

****

البابُ الثالث عشر
ملخصُ المحاورةِ وخاتمة

(حزم كلٌّ من داني ولوسيل أمتعتهما، وتناولا طعام الإفطار، وهما جاهزان للسفر الآن. ثلاثتهم واقفون عند مدخل الكهف)

[786] **لوسيل** "بابتسامتها الرقيقة": لا أعرف كيف لي أن أشكرك يا رجل الكهف؛ لقد دخلتُ الغابةَ لأستكشفَ الحياةَ البريةَ، وها أنا أهمُ الآن بالخروج منها وقد اكتشفتُ ذاتي.

[787] **داني:** أشعرُ أني للتو قد دخلتِ هذا الكهف للمرة الأولى، لم أشعر بالوقت مطلقاً في رفقتك. أشعر وكأني كنتُ أعمى وقد بدأتُ أبصرُ الآن. لا أعلم كيف يمكنني شُكركَ على كل ما قدمته لنا.

[788] **رجل الكهف:** لا داعي لأن تشكراني يا صاحبيّ؛ هل نسيتما أن هذا واجبي الأخلاقي؟ والآن، قد حمل كلاكما المسؤولية أيضا. عليكما تنويرُ الرعايا كما قمتُ بتنويركما. إن فعلتما هذا فستكونان قد شكرتماني حق الشكر.

لوسيل "مبتسمة": سنفعلُ بالتأكيد. سينشرُ داني كل محاوراتنا كي يطلعَ عليها الناس.

[789] **رجل الكهف:** إن هذا لا يكفي. عليكما مُخالطةُ الناسِ والحديث معهم. من سيشتري كتاباً لحوارٍ ثقافي مع رجلِ الكهف! إن الرعايا لا يقرأون؛ ألم نتكلم عن هذا مسبقا؟

داني: صدقت.

[790] **رجل الكهف:** والآن، قبل أن أسمح لكما بالمغادرة عليّ التأكد من أنكما قد وعيتما ما تحدثنا حوله. هل لكما أن تخبراني مالذي تعلمتماه هنا؟

[791] **لوسيل:** إن الغالبيةَ الساحقةَ من البشر يعيشون كرعايا بُسطاء تحكمهم السلطاتُ الدينيةُ والسياسيةُ والاقتصاديةُ التي أطلقت عليها مصطلح ثواليث القمع.

[792] **داني:** وإن المثقفين أنواع؛ فمنهم قاصرُ النظر، ومنهم الزاهد، ومنهم المرتزق، ومنهم المبدع، ومنهم الثوري.

[793] **لوسيل:** وإن الاختلافات بين الناس، سواء كانوا مثقفين أم رعايا، ناجمة عن طريقةِ عملِ الدماغ البشري الذي لا يمكنهُ إدراكُ الأمورِ والتعاطي معها إلا بحسبِ خبراتهِ السابقةِ ومعارفهِ المكتسبة. وبالتالي، فعندما يقولُ شخصٌ رأياً ما، أو يُصدرُ حُكماً ما، فإن هذا الحكم وذاك الرأي ليسا موضوعيين بقدر ما هما محكومان بالظروفِ الخاصةِ التي شكلت عقلية هذا الإنسان.

[794] **داني:** هذا وإن الدماغَ يتكونُ من قسم للغرائز وقسم للذاكرة وقسم للمعالجة. وإن قسمَ الغرائز هو المسيطرُ بشكلٍ تامٍ مالم يُعنى الإنسان بتدريب وتنمية القسمين الآخرين بصورةٍ مدروسة.

[795] **لوسيل:** وإن تسعين بالمئة من الأنشطة التي يقومُ بها الدماغُ يقومُ بها في قسمهِ اللاواعي؛ وهذا ما يجعلُ من حريةِ الإرادةِ، بمفهوميها الفلسفي والشعبي، غيرَ موجودة. لذا، فإن على الإنسانِ أن يعملَ جاهداً على تحريرِ دماغهِ وتطويرِ ما يحتويه من معلوماتٍ وتطويرِ طريقةِ تفكيرهِ كي يستطيعَ أن يكون إنساناً حراً ومن ثم مثقفا.

[796] **داني:** وإن أدمغتنا وحواسنا محدودة بالبيئات التي نشأ فيها أسلافنا؛ وهذا ما يجعلنا قاصرين تماماً عن فهم وإدراكِ الأمورِ الكبيرةِ، كوجودِ الكون، أو الأمورِ الصغيرةِ، كالفيزياء الكمومية. لذا، وجبَ علينا اللجوء إلى البحثِ العلمي الموضوعي لا التقييم بناءً على منطقنا المحدود.

[797] **لوسيل:** وإن ثواليثَ القمع قد طوروا منظومات متكاملة للقمع الفكري يخضع لها كل إنسانٍ منذُ لحظةِ ولادتهِ وحتى وفاته، بما في ذلكَ النظامُ التعليمي المبني على طريقةِ المنافسة. هذا وإن الذي يحفزُ غالبيةَ الناس على مواصلةِ تعليمهم ليس حُبهم للمعرفة، وإنما من أجلِ تحصيلِ حياةٍ أحسنَ وألقاب ومناصب وظيفية أفضل.

[798] **داني:** وعلى عكسِ هؤلاء، فإن المثقفين لا يهتمون للألقاب ولا للمناصب. عليهم أن يكونوا أحراراً وأن يتخذوا من بحثهم الثقافي هواية.

[799] **لوسيل:** وعلى الإنسان ألا يقع فريسة الاستعراقيةِ التي يُشجع عليها ثواليثُ القمع كما وأدمغةُ الناس بشكلٍ طبيعي. فعلى الإنسانِ الحر أن يكون موضوعياً في تقييمهِ للآخرين ولثقافاتهم الغريبة.

[800] **داني:** وإن الثقافة هي كلُ ما يتوارثهُ الأفرادُ لا جينيا؛ هي كلُ ما يكتسبهُ الفرد منذُ لحظةِ ولادته. ويمكننا تقسيمها حالياً، بنظرةٍ ابستمولوجيةٍ، إلى معارف شعورية وعلوم إنسانية وعلوم طبيعية.

[801] **لوسيل:** وإذا أراد الإنسانُ الإلمامَ، قدرَ المستطاع، بالثقافةِ الإنسانيةِ فعليهِ أن يكون:

- مُلماً إلى أبعدِ الحدودِ في مجالٍ واحدٍ على الأقلِ من مجالاتِ المعارفِ الإنسانيةِ وفي كلِ ما يتعلقُ بهذا المجال.
- مُلماً بلغتهِ الأم، ولغةِ البلد الذي يقيمُ فيه، بالإضافةِ إلى اللغةِ العالمية.
- مُلماً بثقافتهِ الأم، وثقافةِ البلدِ الذي يقيمُ فيه، بالإضافةِ إلى ثقافةِ الحضارةِ السائدةِ عالميا.
- مُلماً بالعلوم الحديثةِ وتطوراتها، على الصعيدين النظري والتطبيقي، وفاهماً لمنهج البحثِ العلمي.
- مُلماً بالأعلام وأفكارهم وحقبهم الزمنية.
- مُلماً بخريطةِ العالم الطبيعيةِ والسياسيةِ وتوزع اللغاتِ والايديولوجياتِ عالميا.
- مُطلعاً على المدارسِ الفلسفية الكبرى، والحضاراتِ الإنسانيةِ الكبرى، والإيديولوجياتِ الكبرى، والعلوم الأساسية.
- مُلماً بخريطةِ المعارفِ الإنسانيةِ وفروعها وترابطاتها.
- مُتعمقاً في فرع أو أكثر من المعارفِ الإنسانية.

المراجع

- ثم بإمكانه زيادة التوسع في الوصايا السابقةِ على مستويي التعمقِ والشمول.

[802] **دائي:** لكن الأهم من ذلك هو أن يكون:

- هاوياً للبحث الثقافي.
- فضولياً للمعرفة.
- طارحاً للأسئلة دون توقف.
- موضوعياً دائماً.
- صادقاً مع نفسه.
- عارفاً لكيفية صياغة كل مشكلة وتحديد فرضياتها وعلائقها.
- مُتبعاً للأدلةِ أينما أخذته.
- غيرَ ممتلكٍ لمعارف يقينية.
- عارفاً أنه لا يعرف.
- حذراً من وهم المعرفة.
- مُدركاً أن عليه العمل على تحرير نفسه بنفسه.
- مُتواضعا.
- مُغيراً لآرائه دوماً تبعاً للأدلةِ الجديدة.
- شكوكيا.
- غيرَ مُستمِدٍ للمعلوماتِ إلا من مصادرها.
- مُتنبهاً إلى وسائلِ ثواليث القمع وأدواتهم.
- مُتنبهاً إلى تحيزاتِ دماغهِ وقصورهِ البيولوجي.
- لا يُبدي رأياً ولا يحكم على أمرٍ لم يبحث فيه.
- غيرَ متورع عن قولِ لا أعرف.
- مُحدِداً لكل آراءهِ وأحكامهِ بمدى عمق بحثهِ فيما يتعلقُ بأي منها.
- مُقدراً لقيمة الوقت.
- مُتحرراً من كافةِ أشكالِ العبودية.
- غيرَ منتمي.
- إنساناً عالميا.
- غيرَ مُعقِم.
- غيرَ طامح لقيادةِ الرعايا، بل لمساعدتهم في تحرير أنفسهم.
- لا يعتبر أي إنسان مثاليا.
- غيرَ مقدس لأحد.
- يقظاً دائماً ليتعلم من أي أحدٍ ومن كُلِ موقف يمر به.

[803] **لوسيل:** صحيح، فهذه شروطٌ مهمةٌ كي يكون الإنسانُ حرا. حيثُ إنهُ قبلَ أن يصبحَ مثقفاً عليه أن يكون حرا؛ وإلا، فإن ثقافتهُ قد تجعلهُ مثقفاً مرتزقاً تابعاً لثالوثِ القمع.

[804] **داني:** وعلى المثقف أن يقوم بمساعدة الرعايا على تحرير أنفسهم. إن التزامه بهذه المسؤولية هي ما يجعله مثقفاً، لا نوعُ مهنته ولا شهادتهُ الدراسيةُ يجعلانهِ كذلك مالم يحمل على عاتقهِ مهمةَ تذليل الحرية للرعايا. ولذا، فإن عليهِ العملَ على تحقيق الحرية الأجيالِ الحالية، ولو أن جهودهُ غالباً لن تثمر إلا بعد وفاته.

[805] **لوسيل:** وعليه أن يكون مستعداً ومتقبلاً لأن يقضي بقيةَ حياتهِ في عُزلةٍ نسبية.

[806] **داني:** كما إنك نصحتني الليلةَ الماضية بأن:

- أقللَ من الوقتِ الذي أمضيهِ مع الأشخاصِ الأدنى مني ثقافةً الذين لا يطمحوا لأن يصبحوا مثقفين.
- أخالطَ المثقفين والأشخاصَ الأكثر علماً مني.
- أخالطَ أشخاصاً من ثقافاتٍ وأديانٍ وتوجهاتٍ مختلفة.
- أخالطَ أشخاصاً يعملونَ في مجالاتٍ متنوعة.
- أكون شديدَ الملاحظةِ دائما.
- أجعلَ بيئتي ثقافية.
- أسافر كثيرا.
- أجعلَ المراكزَ الثقافيةَ قِبلاتي الدائمة.
- أشكلَ مجموعةً من الأصدقاء الراغبين في أن يصبحوا مثقفين.
- أشاهدَ أفلاماً وثائقيةً بدل المسلسلاتِ التلفزيونية.
- أستمعَ إلى كتبٍ صوتيةٍ ومحاضراتٍ أثناء تأديتي لنشاطاتي اليوميةِ الروتينية.
- أقرأ المقالات بدلَ الأوقات الضائعة في تصفح مواقع التواصلِ الاجتماعي.
- أقرأ الكتبَ بشكلٍ دائم.

[807] **رجل الكهف:** إني لفخورٌ بكما، فأنتما شابان نبيهان. وإني سعيدٌ بأنكما قد تعلمتما مني أموراً كثيرة أراها مفيدة. إلا أن هناك أمراً واحداً سأحزن بشدة إن تعلمتماه مني.

لوسيل "بدهشة": وما هو هذا الأمر؟

[807.1] **رجل الكهف:** التدخين! إنكما شخصان غير مدخنين. وإني لا أحب أن أرى أياً منكما ممسكاً بغليونِ تبغ يدخنه لأنكما رأيتماني أفعل هذا. حذار أن تقتربا من التدخين فهو أمرٌ لا فائدة منه على الإطلاق، بل إنه لا يحتوي إلا على الأضرار. وإني أريد الخير لكما لا أن أكون سبباً في أذيتكما.

داني "ضاحكا": لا تقلق يا عزيزي، لن نقترب من التدخين.

[807.2] **رجل الكهف:** الآن، يمكنني أن أقولَ لكما: رافقتكما السلامة.

لوسيل: سنفتقدكَ كثيراً يا رجلَ الكهف، لكننا نعدكَ أن نبقى على تواصلٍ بواسطةِ البريدِ الإلكتروني ربّما نستطيعُ مقابلتكَ مُجددا.

[808] **رجل الكهف:** يسرني هذا، وأنا سأفتقدكما أيضا. والآن، ارحلا بسرعة؛ فإني أكرهُ لحظات الوداع التي أشعرُ أنها تدومُ أبديةً من الزمن دون طائل.

داني "ضاحكا": وأنا مثلك. إلى اللقاء يا صديقي.

[809] **يتعانق ثلاثتهم عناقاً قوياً دام نحو خمسة عشر ثانية اغرورقت فيها عينا لوسيل الكبيرتان بالدموع، ثم يبدأ الاثنان بالمسير. وبينما هما يبتعدان إذ بهما يسمعان أغنية Each Small Candle يتردد صداها في أرجاء الغابة.**

داني "ضاحكا": إنه يودعنا بأغنيةٍ كما استقبلنا بأغنية!

لوسيل "مفكرة": كلا يا داني، إنه يؤكد علينا أن نحمل الرسالة.

[810] **يلتفت الاثنان ويشيران مبتسمين لرجلِ الكهف، الواقف أمام كهفهِ يدخن غليونه، بأن رسالتهُ قد وصلت. فلوح لهما بيده ثم دخل كهفه بذاتِ الوجهِ الخالي من التعابير الذي استقبلهما به.**

يتابع الاثنان مسيرهما مبتعدين بينما يصدح صوت روجر ووترز وفرقته:

Each small candle lights a corner of the dark
When the wheel of pain stops turning
And the branding iron stops burning
When the children can be children
When the desperados weaken
When the tide rolls into greet them
And the natural law of science
Greets the humble and the mighty
And the billion candles burning
Lights the dark side of every human mind

****

تمت المحاورة

03 August 2017 - 01:40 am
Kungshamn, Sverige

نقدٌ ذاتي للمحاورة

[811] كنتُ قد ألزمتُ نفسي أن يكون حجمُ الكتاب أصغر ما يمكن لسببين: أولهما، أن أمة اقرأ لا تقرأ؛ لذا، فإني أردتُ أن يكونَ الكتابُ صغيراً لأن الناسَ تنفرُ من الكتب الكبيرة. وثانيهما، هو أن الجمهورَ المستهدف هو جيلُ الشباب، والذي أعرفُ مُعاناته المالية، فأردتُ أن يكونَ ثمنُ الكتاب أرخصَ ما يمكن عليه.

[812] كان ذلك هو الحدد الرئيسي الذي وضعتهُ لنفسي قبلَ الشروع في هذا العمل. إلا أن مزيجَ محاولةِ الالتزام بالإيفاءِ به بالإضافةِ إلى محاولةِ دمج التبسيطِ مع الاختصار مع طرح أفكارٍ ومعلوماتٍ غنيةٍ قد شكّلَ تحدياً مزعجاً بشكلٍ كبيرٍ أثناءَ بناءِ هذا العمل.

[813] أعتقدُ أن القارئ الحذق قد لاحظ أني في أماكن كثيرة جداً كنتُ ألقي بفكرةٍ ما، أو معلومةٍ ما، دون أن أسهب بشرحها، أو دون أن أتكلم عنها على الإطلاق، بل أرميها بين غيرها من الأفكار أو تكون دفينةً بين السطور فحسب. ومردُ هذا، هو رغبتي في مكافئةِ القارئ الشغوفِ بلفتِ نظرهِ إلى أفكارٍ ومعلوماتٍ إضافيةٍ لا تمسُ محورَ المحاورةِ مع التزامي الاختصار. لذا، فقد اكتفيتُ بشرح الأفكارِ التي هي محوريةٌ في هيكلِ الكتاب، بينما اقتصرتُ على الإشارةِ إلى ما دونها تاركاً مهمةَ البحثِ عنها للقارئ.

[814] لكن بالمقابل، ربما لاحظ القارئ أني قد قمتُ بتكرارِ بعضِ الأفكار، وهذا يتنافى مع التزام الاختصار، إلا أني عندما كنت أعمد إلى هذا فهو لأني كنت أريد تذكيرَ القارئ بفكرةٍ قد تطرقنا إليها سابقاً لكنها على علاقةٍ وطيدةٍ بالفقرةِ الحالية. فأنا أعرفُ أن كثيراً من القُراءِ لن يتبعوا نصائحي التي ذكرتها في "تنويهات قبل القراءة"؛ وبالتالي، وجدتُ نفسي- في بعضِ المواضع، مدفوعاً بضرورةِ تذكيرهم بأفكارٍ قد مرت مسبقا.

[815] وإني أعترف أني لستُ من فطاحلِ اللغةِ العربية. لذا، فمن المتوقع أن يجد بعضُ الحاذقين في اللغة أخطاءً نحويةً أو إملائيةً هنا وهناك، وأكونُ شاكراً لمن يراسلني بغيةَ تصويبها في الإصدار القادم. لكن بالمقابل، فإني قد عمدتُ إلى استخدام بعضِ المرادفاتِ تبادلياً (مثل: جدار وحائط، علم الأحياء وبيولوجي، نظرية المعرفة وأبستمولوجي، سنة وعام، مقال ومقالة، على أي حال وعلى أية حال) أو كتابةِ الكلمةِ نفسها بأكثر من طريقةٍ، طالما كان هذا جائزاً لغوياً، (مثل: إذاً وإذن، مسؤولية ومسئولية) آملاً أن يلتفت نظرُ القارئ لهذا فيبحث عنه ويتعلم شيئاً جديداً إضافيا.

[816] إن محاولتي التزامَ الاختصار والبساطة وسلاسة القراءة، مع اعتقادي بضرورةِ استخدام مراجع تؤكد وتشرح الأفكار التي أتطرق لها -كي لا يعتقدَ القارئ أني أهذي دون علم، كما ولأرشدهُ إلى مصادر يمكنهُ الاستعانةُ بها كي يزيدَ من فهمهِ للأفكار المطروحة- كان تحدياً آخر. فكيف لي أن أوفّق بين كل هذهِ الأمور؟ فوجدتُ حلاً وهو استبدالُ كلامي بكلام غيري ممن أريدُ أن أستشهدَ بهم. أي،

بدلَ أن أعرضَ الفكرةَ ثم أشيرَ إلى اقتباسٍ ما يؤيدها، كما يفعلُ الكُتّابُ عادةً، فإني عمدتُ، في معظم المواضع، إلى أن أقتبسَ بشكلٍ مباشرٍ ما أريدُ قوله. بل وصلَ بيَ الأمرُ أحياناً إلى إقحام بعضِ الشخصياتِ في النقاشِ معنا لكثرةِ وطولِ ما استشهدتُ بهِ من أقوالهم، بدلَ أن أقولَ نفسَ الأفكارِ على لساني.

[817] وإن وجدَ القارئُ المُطّلعُ أني لم أستشهد بما قد يجدهُ ضرورياً في موضعٍ ما، فإن مردّ هذا لأمرين اثنين: أولهما، هو أني، بالتأكيد، لم أقرأ كل الكتب المنشورة؛ فمن الممكن ألا أكون قد اطلعتُ على ما يراهُ هو مناسباً في هذا الموضع أو ذاك. وحتى وإن كنتُ قد قرأتُ الكتابَ مُسبقاً فليس من الضروري أن تكون الاقتباساتُ التي أخذتها عنه لا تزالُ في متناولِ يدي. وهذا يحيلني إلى الأمرِ الثاني، وهو أني أدوّن ملاحظاتي واقتباساتي بالطريقةِ الكلاسيكية -كما يُتوقعُ من رجلٍ كهلٍ أن يفعل- فللقارئ أن يتخيلَ كميةَ الدفاترِ والشذراتِ التي أبحثُ فيها عن الاقتباسات. وبسببِ هذا، فإني قد فشلتُ تماماً في بعضِ الحالاتِ في إيجادِ مصادر واقتباسات أعرفُ يقيناً أنها موجودةٌ لدي في مكانٍ ما داخلَ تلك الكومة. فعلى سبيل المثال، عندما تحدثتُ في الفقرة 422 عن الخريطة، عليّ أن أنوهَ هنا إلى أن هذه الفكرة ليست أصيلةً لي؛ لقد قرأتها في كتابٍ ما في وقتٍ ما. إن فكرةَ الخريطةِ عالقةٌ في ذهني منذُ ذلك الوقت، بيدَ أني لا أذكر سياقها ولا أي شيءٍ آخرَ يخصها، ولقد باءت كل محاولاتِ بحثي عن مصدرها بالفشلِ المحبط.

[818] إن الأمانة الفكرية تحتم عليّ أن أنسبَ الأفكارَ إلى أصحابها. ولقد حاولتُ الالتزامَ بهذا جُهدَ استطاعتي محاولاً اعتمادَ الأقدميةِ كمعيارٍ في حالةِ الأفكارِ المكررة. فلو توصّلَ شخصٌ لفكرةٍ ما بجهده الشخصي لكنه فوجئ لاحقاً أن غيرهُ قد كتبَ هذه الفكرةَ عينها قبلَ سنواتٍ عديدة، فإن العدلَ يقضي أن تُنسبَ الفكرةُ لقائلها الأول؛ لأنه ما من طريقةٍ لدينا لنتأكدَ أن هذا الميم لم ينتقل بطريقةٍ مبطنةٍ ليستقر في دماغ الثاني قبل أن يقومَ بإعادةِ توليده، كما إن الأسبقيةَ هي للأول على أي حال. ولنا في قصةِ دارون ووالاس خيرُ مثال (ولسخريةِ المصادفة، يصادفُ اليوم وأنا أكتبُ هذهِ السطور ذكرى نشرِ الورقةِ المشتركةِ لدارون ووالاس عام 1856).

كما إن لي شخصياً تجاربَ مريرةً في هذا؛ فالكثيرُ من الأفكارِ التي أوردتها في هذا الكتابِ مقتبسةٌ فقط من كلام غيري كنتُ أعتقدُ يوماً أني قد توصلتُ إليها بنفسي.. لأصدَمَ لاحقاً، عندما قرأتُ كتبهم، أنهم قد تكلموا بنفس "أفكاري".

[819] هذا وإني قد بذلتُ جهداً كبيراً في إعادةِ التأكدِ من المصادرِ مرةً أخرى؛ فلم أكتفِ بما جمعتهُ ودونتهُ من اقتباساتٍ سابقاً، بل قمتُ بالعودةِ إلى المصادرِ كي أتأكدَ منها قبل تسجيل الإقتباسات في هذا الكتاب. كما وإني قد ميزتُ بين المصادر المباشرةِ والمصادرِ التي هي عبرَ طرفٍ ثالثٍ باستعمالي للخطِ *الثخين المائل* للثانيةِ في قائمةِ المراجع.

ولذا، فبما أني كنتُ حريصاً كل الحرص على دقةِ المصادر، وبما أني أحجمتُ عن إيرادِ أي اقتباسٍ

لستُ متأكداً منهُ تماماً، فإنني أتحملُ مسؤوليةَ مصداقيةِ الاقتباساتِ عندما تكونُ ذاتَ مصدرٍ مباشر؛ أما الأخرى، فإني أحيلُ مسؤوليةَ مصداقيتها للطرفِ الثالثِ الذي اقتُبِسَت منه.

[820] ماذا نكتبُ في الهوامشِ عادة؟ إما تعليقات على النصِ الأصلي، أو إضافات له، أو مصادرَ للاقتباساتِ الواردةِ في النص. إن وجودَ الهوامشِ هو شيءٌ إيجابيٌّ، بل وهامٌّ، بالنسبةِ لي كباحث - هوامش المصادر على وجهِ الخصوص- ولو أن المبالغة في استخدام الهوامشِ يكونُ مربكاً ومزعجاً حتى لأكثر القراء خبرة (ففي بعضِ الأحيان، وخاصةً في الكتب الفلسفية المترجمة، قد يصبح متن الكتاب أشبه ما يكونُ بترويسةٍ لصفحاتٍ مليئةٍ بالحواشي. وهذا تصرّفٌ مثيرٌ للسخريةِ جدا؛ حيثُ إني أعتقدُ أن الأولى بالمترجم، والحالةُ هذه، أن يؤلفَ كتاباً يشرح فيه الكتابَ الذي هو بصددِ ترجمته؛ وعندها، فليبطل شروحاته وملاحظاته ما شاء). لكن بالنسبة للشريحةِ التي أستهدفها في هذا الكتاب فإن الحواشي مربكةٌ جداً أو عديمةُ الأهمية. آخذاً بعين الاعتبارِ هذه النقطة، التي أكدها الاستبيانان اللذان قمتُ بها إضافةً إلى آراءِ العديدين ممن سألتهم بشكلٍ شخصي-، كما وآخذاً بعين الاعتبارِ حجمَ الكتاب، والذي كان ليتضخم أكثر لو تم تضمينه هوامشا؛ ولذا، سيكونُ مرعباً للقارئ البسيط وأكثر تكلفةً عليه؛ وبالتالي، مُنَفِراً له. وعليه، فإني قد ارتئيتُ أن أضمّن كل ما أريدُ كتابته في الحواشي في متن النصِ الأصلي مع محاولةِ الحفاظِ على سلاسةِ القراءةِ ما استطعت. وبهذا، فقد حُرِم القارئ الباحث فقط من معرفة أرقام الصفحاتِ التي اقتبستُ منها، كما ومصادر بعض المعلوماتِ التي آثرتُ إدراجها في متن النص بغية دمجها وصياغتها باختصارٍ أكبر أو لأنها آتيةٌ من مصادرَ متعددة.

[820.1] على أي حال، فإن القارئ قد كسبَ بإلغاءِ الهوامشِ حصوله على أقلِ قدرٍ ممكن من التشويشِ والإرباكِ أثناءَ القراءة؛ وبالتالي، يكونُ قد حقق فهماً أعلى. وبما أني قد أكدتُ على أن هذا الكتابَ يهدفُ إلى الفهمِ وليسَ كي يكون مصدراً للمعلومات، فإني أرى أن هذا هو الطريقُ الأنسبُ كمحصلةٍ للعواملِ السابقةِ الذكر؛ فبدلَ أن يقفز القارئ إلى المصادر بعد قراءته لكل فقرة، فإنه سوف يعودُ إليها بعد انتهاءه من قراءة المحاورة. وما تضميني للمراجع كبابٍ من أبوابِ المحاورة، لا كملحقٍ كما جرت عادةُ الكُتّاب، إلا لأؤكد على القارئ أن هذه المراجع هي جزءٌ لا يتجزأ من المحاورةِ نفسها، وعليه العودةُ إليها لا الاكتفاء بما اقتبستهُ أنا منها. لكن هذا لا يعني أني أتفق بالضرورة مع كل ما جاء في هذه المراجع، بل يبقى كلُ كاتبٍ مسؤولاً عن أفكاره.

[820.2] هل أنا مرتاحٌ لهذا النهج في عدم تضمين أي هوامش؟ في الحقيقة إن الباحثَ الذي في داخلي كان -وما زالَ- يعاتبني طوالَ الوقتِ كي أضمّن هوامشاً أشيرُ فيها إلى مصدر كل فكرةٍ وكل اقتباس، كما وأن أضع قراءات مقترحةً في المواضع التي أجدُ فيها هذا مناسبا. لكن نفسَ هذا الباحثِ كان يلح عليّ أن أسهبَ في شرح الأفكار أكثر وأن يكون حجمُ الكتاب كبيراً، لدرجةِ أنهُ لن يكون سعيداً إلا إن احتوى على عدة مجلداتٍ ربما، وهذا ضربٌ من الجنون. لذا، كان عليّ وضعُ حدٍ لرغباته وكبحُ شططهِ ما استطعت، لأن هذا الكتابَ لا يهدفُ الباحثين أمثاله، وهذا ما يصعبُ عليه إدراكه.

[820.3] يمكن العودة إلى الاستبيانين المشار إليهما آنفاً عبر الرابطين التاليين. ومن نافلِ القولِ الإشارة إلى أن هذان الرابطان سيبقيان فاعلين ما بقي هذا الحسابُ فاعلاً على موقع Facebook. لكن في الوقتِ الذي يتعطلُ فيه هذا الموقع أو هذا الحسابُ لسببٍ أو لآخر، فإن هذان الرابطان سيصبحانِ بلا قيمة.

https://www.facebook.com/rajulkahf/posts/1344969565623116

https://www.facebook.com/rajulkahf/posts/1344974758955930

[820.4] إن موضوعَ الهوامشِ والمصادر لهو من المواضيع الشائكةِ جداً، والتي يستحيلُ إيجادُ إجماعٍ على رأيٍ واحدٍ فيها، وما الاستبيانان السابقان إلا مثالان يؤكدان هذا. فليغفر لي القارئ الباحثُ أني لم أعطه حقهُ بل آثرتُ ما يفضلهُ القراءُ المستجدون، فأعتقدُ أنني وهو/هي نهدفُ إلى مساعدةِ هؤلاء على أي حال.

[821] وابتغاءَ الاختصار وتجنباً للركاكةِ فإني قد آثرتُ ألا أكرر اسمَ المصدر إذا كررتُ الاقتباسَ منهُ في نفسِ الباب أكثر من مرة. فعلى سبيل المثال، إني لم أقتبس لأنطونيو غرامشي- إلا من "دفاتر السجن"، ولروبرت بريم إلا من "المثقفون والسياسة"، ولعلي شريعتي إلا من "مسؤولية المثقف"، ولإيدوارد سعيد إلا من "تمثيلات المثقف"؛ وهكذا، فإني وجدتُ أنه من اللغوِ إعادةُ كتابةِ اسم المصدر مرات عديدة. وعندما اقتبستُ من أكثر من كتابٍ لنفسِ الكاتب، كما حصلَ مع فريدريك نيتشه، أو بيرتراند راسل، أو ريتشارد دوكنز على سبيل المثال، فإني كنتُ أذكر اسم المصدر عند كلِ اقتباسٍ وأتجنبُ تكراره إن أعدتُ الاقتباسَ أكثر من مرةٍ من نفسِ الكتاب بشكلٍ متتابعٍ في فقراتٍ متلاحقةٍ أو قريبةٍ من بعضها.

[821.1] أما تلكَ الاقتباساتُ التي لا تتضمنُ أسماءَ مصادرها، فمردُ هذا هو أني قد اقتبستها من طرفٍ ثالثٍ لم يضمن اسمَ المصدر. مثالُ هذا ما اقتبستهُ عن آرثر سولزبيرجر، والذي أخذتهُ من كتاب ممدوح عدوان "حيونة الإنسان"، إلا أن الأخيرَ لم يضمن مصدر هذا الاقتباس، على الأقلِ في النسخةِ التي أملكها والمشار إليها في المراجع.

[822] وكما لاحظ القارئ، فإني قد استخدمتُ مصادرَ أجنبية أكثر من العربية غالبيتها الساحقةُ باللغة الإنكليزية. بعض هذه الكتب غير مترجم للعربية -على حد علمي- وبعضها الآخر مترجم. لكن اضطرني بعض المترجمين إلى عدم اعتمادِ ترجماتهم لأني لم أجدها دقيقة بما يكفي لاعتمادها. ولذا، فقد وجدتُ نفسي مجبراً على أن أترجم بنفسي. والترجمةُ خيانةٌ كما أتذكر أن جورج طرابيشي- قد كتبَ يوماً. ومع أني لم أرد أن أحمّل نفسي مسؤوليةَ هذه الخيانة، إلا أن الأمانةَ قد حتمت عليّ هذا. لذا، فقد أخذت مني الترجمةُ نصيباً وافراً من الوقتِ محاولاً الخروجَ بترجماتٍ آثرتُ في معظمها الدقة على السلاسة -على عكس المترجمين المتمهنين- مالم أضطر لفعلِ عكسِ هذا إذا وجدتُ أن ترجمة الاقتباس الدقيقةَ ستكون ركيكةً لدرجةٍ مربكة. وعليه، فبالنسبةِ لمعظم هذه الاقتباسات، يمكن للقارئ الملم بالإنكليزيةِ

أن يتخيلَ الاقتباس بهذه اللغةِ بسهولة. ومن وجدَ ملاحظات في هذا السياقِ فأتمنى أن يصوّبني.

[823] في بعض الحالاتِ لم أتفق مع المترجمين حتى على ترجمةِ عناوين الكتب. فعلى سبيلِ المثال، إن كتاب إيدوارد سعيد *Representations of The Intellectual* -الذي نُشرت طبعتهُ الأولى عام 1994، والذي هو عبارةٌ عن سلسلةِ محاضراتٍ كان الكاتبُ قد ألقاها في العام الفائت، حيث حملَ الكتابُ عنوان أولها- لدي ثلاث ترجماتٍ عنه باللغةِ العربيةِ هي:

- ترجمة دار النهار 1996. والتي قام فيها المترجم باعتماد *صور المثقف* كترجمةٍ لـ Representations of The Intellectual. لكن ترجمته هذه غيرُ دقيقةٍ لأنها مربكة. فكلمةُ "صور" العربية لديها مرادفاتٌ كثيرةٌ في اللغةِ الإنكليزية. وأعتقدُ أن ما قصده إيدوارد سعيد من Representations سيكون آخر ما يخطرُ على بالِ القارئ الذي سيقرأ كلمة "صور".

- ترجمة التكوين للطباعة 2003. وفيها لم يجد المترجمُ أمامهُ لترجمةِ Representations of The Intellectual إلا ما وجدهُ زميلهُ السابق، وهو *صور المثقف*، مما دعا إلى نشرِ الكتاب تحتَ عنوانٍ آخر. حيث قرّرَ نشرهُ تحت عنوانِ البابِ الأخير *الآلهة التي تفشلُ دوماً* والذي من الواضحِ أنهُ عنوانٌ تسويقيٌ، على أي حالٍ، ولا يمتُّ لموضوعِ الكتابِ بصلة. هذا ولا يخبرنا المترجمُ لِمَ أعادَ ترجمةَ كتابٍ مترجمٍ ومنشورٍ سلفاً، ولِمَ نشرهُ تحتَ عنوانٍ يُخالف عنوانهُ الأصلي، حيثُ إنهُ قد أراحَ نفسهُ من عناءِ كتابةِ أي مقدمةٍ لهذهِ الترجمة.

- ترجمة رؤية للنشرِ والتوزيع 2006. وفيها لا يخبرنا المترجمُ أيضاً لِمَ أعادَ ترجمةَ كتابٍ مترجمٍ ومنشورٍ مرتينِ آنفاً، كما أنه لَم يتمكن من ترجمة Representations of The Intellectual إلا بـ *صور تمثيل المثقف* مبرراً عدم استعماله لكلمة "تمثيلات" -دون إقحام كلمةِ "صور" كي يجمعَ كلمةَ "تمثيل"- بقوله: "... وإذا حاولنا جمعَ المصدرِ (تمثيل)، فهو من المصادرِ التي لازالت اللغةُ العربيةُ تأنفُ جمعها.". وإني أراهُ يقولُ هذا بصفةٍ شخصيةٍ لا موضوعية، لأنهُ لم يوضح رأيهُ مثلاً بكتابِ "تمثيلات الآخر" لنادر كاظم -الحامل لإجازة الدكتوراه في اللغة العربية- والمنشورِ قبلَ ذلك الوقتِ بعامين. وإني إذ بحثتُ في الأمر، فمع أني لم أجد كلمة "تمثيلات" واسعةَ الانتشار، إلا أني بالمقابل لم أجد في أي مرجع ما يقول إن هناك حرجاً لغوياً في استعمالها. وبالتالي، يبدو لي أنه ليست اللغةُ العربيةُ هي التي تأنفُ جمعَ "تمثيل"، بل هو الذي يأنفُ هذا. لكنهُ، في الوقتِ نفسهِ، لم يأنف أن يبتدعَ عنواناً جديداً بالكليةِ للكتابِ هو *المثقف والسلطة*.

وبالإضافةِ إلى كل هذا، فإن أياً من هذه الترجماتِ لا ترقى برأيي لأن تكون صحيحةً ولا دقيقة. وهذا ما يؤسفُ حقا.

[824] كتاب بيرتراند راسل *The Conquest of Happiness* عندي ثلاثُ ترجماتٍ له باللغةِ العربيةِ، كحالِ سابقهِ، وهي:

- ترجمة مكتبة الحياة 1980. والتي كتب مُترجمها هامشاً في بدايةِ مقدمته الموقعةِ في مارس 1964 يقول فيه: "شاءت الظروفُ أن يتأخرَ اصدارُ هذا الكتاب ستةَ عشرَ عاماً، فقد كلفتني دارُ مكتبةِ الحياةِ بترجمته إلى اللغةِ العربيةِ في أوائلِ عام 1964...". من هذا، يتضح لنا أنه قد ترجمَ الكتابَ في أقل من ثلاثةِ أشهرٍ ثم انتظرَ بعدها ستةَ عشرَ عاماً حتى أبصرَ الكتابُ النور. ستةَ عشرَ عاماً لم يستطع خلالها أن يخرجَ بعنوانٍ أفضلَ من "الفوز بالسعادة". وهذا المعنى بعيدٌ جداً عن المعنى الذي قصده بيرتراند راسل؛ حيثُ إن الأخير لم يستعمل كلمة Conquest كي يفهم منها القارئ "الفوز" ببساطة. فلو أراد هذا المعنى، لما كان مضطراً أبداً ليتكلف استعمال Conquest على وجهِ التحديد. هذا ولم يتطرق المترجمُ في مقدمتهِ لتبيانِ سببِ اختياره لكلمة "الفوز" كترجمةٍ ل The Conquest كما وكأنها المرادفُ الطبيعي لها.

- ترجمة دار الأمير 1995 بعنوان "غزو السعادة". وإني لا أرى المترجم مصيباً في هذا العنوان مطلقا. فلو أراد بيرتراند راسل أن يُفهم من عنوان الكتاب ما يفهمه القارئ من كلمة "غزو" لاستخدم Invasion بدل Conquest. إن ما قصدهُ بيرتراند راسل بعيدٌ كلّ البعدِ عن مفهوم "الغزوة". ليسَ هذا فحسب، بل تمت إضافةُ عنوانٍ فرعي لأغراضٍ تسويقيةٍ وهو "كيف تصبح سعيداً في الحياة الزوجية*العمل*المجتمع". وعلى الرغم من وجودِ مقدمةٍ للناشرِ وأخرى للمترجم، إلا أن أياً منهما لم يتطرق لعنوانِ الكتاب. كما لم يذكرا لِمَ تمت إعادةُ ترجمةِ كتابٍ مُترجم ومنشورٍ سلفاً، بل على العكس، كتبَ الناشرُ بوضوح أن هذه هي الطبعةُ العربيةُ الأولى لهذا الكتاب، وهذا غيرُ صحيح.

- ترجمة المركز القومي للترجمة 2009. فمع أن هذه هي الطبعةُ الثانيةُ لهذا الكتابِ بواسطةِ دارِ النشرِ هذه، إلا أن أحداً لم ينتبه إلى أن عنوان الكتابِ باللغةِ العربيةِ لا علاقة له بعنوانه الأصلي لا من قريبٍ ولا من بعيد. حيثُ قد تم اختيارُ "انتصار السعادة" كعنوانٍ له.

ولن تستغربَ عزيزي القارئ إن قلتُ لكَ أن أياً من هذهِ الترجماتِ لا يرقى إلى المستوى المطلوبِ برأيي.

إن كلمة Conquest تعني بحسب قاموس كامبردج -بما أن بيرتراند راسل كان قد درس في كامبردج- ما يلي:

"The act of conquering a country, area, or situation."

و كلمة Conquering تعني:

"To take control or possession of foreign land, or a group of people, by force." / "To deal with, or successfully fight against, a problem or an unreasonable fear."

[824.1] أعتقدُ أن من يقرأ هذا الكتاب الرائع بتمعن سيفهمُ لماذا استخدمَ بيرتراند راسل هذه الكلمة بالتحديدِ من بين كل البدائلِ المتاحة. وبغيةَ الاختصارِ أقولُ، إني ارتأيتُ أن أترجمَ هذا العنوانَ إلى

"الاستيلاءُ على السعادة" أو يمكنُ القول "الاستحواذُ على السعادة" فإني أعتقدُ أن بيرتراند راسل قد قصدَ هذا المعنى بالتحديد، كما إنهُ من غيرِ المنطقي، على أي حال، أن نقولَ "احتلالُ السعادة" والذي هو المرادفُ الحرفي للعنوان.

[825] وبالمثل، فلدي مثلاً "نقيض المسيح" و "عدو المسيح" -المشارُ إليهما في الفقرة 717- كترجمتين مختلفتين لكتاب فريدريك نيتشة "The Antichrist". وبما أني استخدمتُ النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب -كحالِ سابقيه-، ومنعاً لأي التباسٍ لدى القارئ، فإني قد آثرتُ ترجمةَ عنوانِ الكتابِ إلى "المسيح الدجال"، والذي أراهُ العنوانَ الأصوبَ على أي حال.

[825.1] أما بالنسبة لكتابه "Human, All Too Human" فإني على الرغم من استعمالي لنسخته الإنجليزية أيضاً، إلا أني آثرتُ استخدامَ ترجمةٍ للعنوانِ مطابقة لترجمةٍ منشورةٍ بالعربيةِ وهي "إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته" لأنني لم أتوصل إلى ترجمةٍ أكونُ مقتنعاً بها في غضونِ الوقتِ المتاح. فارتأيتُ، لهذا السبب، استخدامَ العنوانِ المستخدم سلفاً تجنباً لتحملِ تبعاتِ تأنيبِ الضميرِ على تقديمِ شيءٍ لستُ مقتنعاً به.

[826] مثالٌ آخرٌ هو كتابُ "The Selfish Gene" لريتشارد دوكنز، والذي له ترجمةٌ عربيةٌ ذاتُ أخطاء كارثية، وكما يمكنك أن تتوقع، بما في ذلك العنوان. حيث تمت ترجمتهُ إلى "الجينة الأنانية" بينما الصحيح هو "الجين الأناني". وإني إذ استخدمتُ النسخةَ الإنجليزية منه فإني لم أتردد في استخدام العنوانِ الذي أراهُ صحيحا.

[826.1] لن أتكلم عن أمثلةٍ أكثر، لكن هذه الملاحظات ضروريةٌ كي لا يقعَ القارئ في حيرة من أمره حيث إنه قد يجدُ ضمنَ المحاورةِ أسماءً لكتبٍ سيجدها بأسماءٍ أخرى في المكتبات، أو إنه سيجدُ اقتباسات لا تتطابق مع الترجماتِ التي بين يديه.

[827] أما وإن الكمالَ قد مُنعَ عن البشر، فإني أعرفُ أن هذا الكتابَ غيرُ كاملٍ بصورةٍ مثاليةٍ رغم كل جهودي في جعله قريباً من أن يكون هكذا. إلا أن جُلَّ ما آملهُ هو أن يُحقق المطلوبَ منهُ بأن يكونَ بمثابةِ شمعةٍ تنيرُ الظلمات التي تعيشُ بها المجتمعاتُ الناطقةُ بالعربيةُ في هذهِ الحقبةِ من الزمن.

[828] وإني بابتداعي نمط تنسيقٍ غير مألوفٍ في هذا الكتاب، فإن هذا مرده إلى أني مقتنعٌ أنَّ هذا هو الطريقُ الأصوبُ في تنسيقِ الكتاب. فإني قد أعلمتُ القارئ بأسبابِ تأليفي لهذا الكتاب، المباشرة وغير المباشرة، بل وجعلتهُ يتخيلُ المشاهدَ بدقةٍ كافية، ولم أؤثر على ذهنِ القارئ بأي شيءٍ بعدَ هذا إلا بنصحي لهُ بأن يقرأ الكتابَ بطريقةٍ معينةٍ تتناسبُ وطريقة تأليفي لهُ كي يحصلَ على أعظم كسبٍ ممكنٍ منه. وبعدها، أعطيتهُ فكرةً عما هو مقبلٌ عليه، ثم وصَفتُ لهُ المشكلة، وحددتُ أسبابها وطرق علاجها. ومن ثمَّ، أدرجتُ المراجعَ في متنِ الكتاب كي أؤكدَ على القارئ أنها جزءٌ منه، كما أشرتُ آنفاً، كما وختمته بملخصٍ ليذكر القارئ بالأفكارِ العامةِ لما قرأه.

[828.1] وبما أني أتمنى أن أكون قد وفقتُ في جعلِ القارئ يعيشُ المحاورة وكأنه موجودٌ فعلياً مع الأشخاصِ الثلاثة، فإني تابعتُ بأن أوضحتُ للقارئ مالذي كان يجري وراءَ كواليسِ المحاورة. وبهذا، فإن القارئ الذي يقرأ هذهِ السطورَ لم يقحم نفسهُ في المحاورةِ فحسب، بل أقحمَ نفسهُ مع مؤلفِ المحاورة في حوارٍ مباشرٍ وراءَ الكواليس. وبما أن الحوارَ هو حديثٌ متبادل، وبما أني آملُ أن يكونَ القارئ قد امتثلَ لمطلبي بأن يبقى صامتاً طوالَ هذه المحاورة؛ فالآن، قد أنهى ثلاثتنا الكلام وحان دورُ القارئ.

[829] فعليك عزيزي القارئ أن تلتزمَ أدبَ الحوار وأن تمسك قلمك وتكتبَ نقداً -وليس نقضاً- للمحاورة. ليسَ من الضروري أن ترسلهُ لي -ولو أن بإمكانك فعلُ هذا- لكن من الضروري أن تقومَ به على أي حالٍ ولو أبقيتهُ لنفسك. وإن لم تفعل هذا، فمثلُك كمثلِ الذي انتظرَ مُحاورِه كي يُنهي كلامه ثم أدارَ ظهرهُ ومشى بعيدا. وأعتقدُ أن الجميعَ يتفقُ على أن هذا تصرفٌ غيرُ لائق. (سأتطرقُ لتفسيرِ هذا الأمرِ بالتفصيلِ في محاورةِ القراءةِ القادمة).

[829.1] أما بالنسبةِ للقارئ الذي يُريد العودة لقراءةِ المحاورة بتأنٍّ، والرجوعَ إلى المصادر، والتمعن بكلِ فكرةٍ، فيمكنهُ كتابةُ نقدٍ أولي الآن ثم نقدٍ ثانٍ بعد إتمامِ القراءةِ الثانية كي يقارن ويكتشف مدى الكسب الذي حققهُ من القراءةِ الثانية.

[830] وإني آملُ إذ ابتدعتُ هذا النهجَ من التنسيقِ أن يكونَ سنةً حسنةً يستنها الكتابُ اللاحقون إن وجدَ القراءُ والنقادُ أنها حققت شيئاً لم تحققهُ الطريقةُ الكلاسيكية.

رجل الكهف

22 August 2017 - 05:40 am
Kungshamn, Sverige

نقد القارئ للكتاب: